د . نديم البيطار

من التجزئة الى الوحدة

القوانين الاساسية لتجارب التاريخ الوحدوية

الاهداء

الى الوحدويين القليلين الذين التزموا بدولة الوحدة التزاماً كلياً ، وكقاعدة لوجودهم ذاته ، وأدركوا أن هذه الدولة تحتاج ، كي يستقيم السير إليها ، إلى وعي وحدوي علمي جديد .

المحتويات

القسم الأول

دور الإقليم- القاعدة في تجارب التاريخ الوحدوية

الفصل الأول: دور النظام الملكي كقاعدة لنشوء الدولة القومية.........
الفصل الثاني: دور الدولة كقاعدة في بناء القومية والأمة.............
الفصل الثالث: دور الإقليم- القاعدة في عملية التوحيد السياسي......
الفصل الرابع: غياب الإقليم- القاعدة في تجارب التاريخ الوحدوية الفاشلة..
الفصل الخامس: تفسير المضمون الوحدوي في دور الإقليم- القاعدة في تجارب التاريخ الوحدوية...................

القسم الثاني

دور المخاطر الخارجية في تجارب التاريخ الوحدوية

الفصل الأول : المخاطر الخارجية وعملية التوحيد السياسي.............
الفصل الثاني : تفسير المضمون الوحدوي في المخاطر الخارجية..........

القسم الثالث

دور شخصنة السلطة في تجارب التاريخ الوحدوية

تمهيد
الفصل الأول : التجربة الشيوعية..................
الفصل الثاني : التجربة الليبرالية الاميركية.............- ......
الفصل الثالث : التجربة الديمقراطية اليعقوبية....
الفصل الرابع: التجربة الديمقراطية الأشتراكية.
الفصل الخامس : التجربة الديمقراطية الدينية
الفصل السادس : تفسير المضمون الوحدوي في شخصنة السلطة

القسم الرابع

الاسباب الوحدوية الإعدادية

خاتمة : التخلف العربي والعمل الوحدوي

مقدمة

هذا الكتاب يقدم دراسة لتجارب التاريخ الوحدوية، تقارن بينها بغية كشف القوانين العامة التي تسودها ، وتعيد ذاتها فيها . القصد من ذلك، هو الوصول إلى نظرية وحدوية علمية جامعة لهذه التجارب تحدد الطريق الى دولة الوحدة بتحديد العملية (Process) الموضوعية التي كان يتم فيها الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة .

في مناسبات عديدة سابقة ، كنت أشير باستمرار إلى أن الفكر العربي الثوري يتميز من ناحية عامة بطبيعة تبشيرية ، لأنه ينطلق عادة من مجردات ومفاهيم اخلاقية وميتافيزيقية ، ويدور حول رغبات ذاتية يحاول فرضها على الواقع الاجتماعي التاريخي ، دون رجوع إلى أو إدراك للموضوعية المستقلة التي تميز ظواهر وتحولات هذا الواقع ، أو القوانين والاتجاهات الانتظامية (Pattern , regularities) التي تسود هذه الموضوعية . هذه السمة تؤكد ذاتها بشكل خاص في الفكر الوحدوي .

الخلل الأساسي في هذا الفكر كان حتى الآن تحديده المستمر للطريق إلى الوحدة دون أن يرجع أبداً إلى الظاهرة الوحدوية ، أي إلى التجارب التاريخية التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة أو كيانات سياسية مستقلة من الانفصال إلى الاتحاد . إنه فكر لا يبرهن ، في الواقع وبأي شكل ، على أنه يعي ضرورة هذا الرجوع ، أو حتى أن هناك ظاهرة وحدوية موضوعية يجب عليه دراستها قبل أن يتكلم عليها ويطلق الأحكام حولها . المجتمع العربي ليس أول مجتمع مجزأ يحاول توحيد أجزائه في دولة واحدة ، والكيانات السياسية المستقلة التي يتبعثر فيها ليست أول كيانات مستقلة في التاريخ تريد تجاوز انفصالها في وحدة جديدة . هذه المجتمعات والكيانات التي كانت تحاول الاتحاد فتنجح أو تفشل ، تشكل ظاهرة تاريخية دائمة، وبشكل يمكن فيه تحديد التاريخ ، من هذه الزاوية، بأنه حركة كانت تحاول فيه المجتمعات المجزأة والكيانات السياسية المنفصلة تحقيق وحدات سياسية جديدة أكبر . لهذا كان على هذا الفكر الوحدوي، وخصوصا عندما يزعم العلمية ، أن يرجع إلى هذه التجارب الوحدوية فيدرس ما نجح وما فشل منها، ويقارن فيما بينها كي يكشف عن القوانين أو الاتجاهات الموضوعية التي كانت تسودها .

هذا الاساس العلمي البديهي غاب تماماً عن هذا الفكر ، منذ مائة عام ونيف . وهذا الفكر يقدم المفاهيم والأحكام المختلفة في تحديد الطريق إلى الوحدة ، ولكن دون أن يرجع أبداً إلى الظاهرة الوحدوية . ومنذ ثلاثين أو أربعين عاماً وهو يردد ويمضغ بشكل يومي رتيب كلمات علم ، علمية ، منهج علمي ، الخ ... ولكن دون أي وعي أبداً لأكثر البديهيات العلمية وضوحاً ، وهو أنه عندما نتكلم عن ظاهرة ما ، يجب ان نتعرف عليها وندرسها . الفكر الوحدوي العربي كان ، في الواقع ، يعبر عن ذاته – فيما يتعلق بكيفية معالجته للطريق إلى الوحدة – وكأنه لم يسمع أبداً بهذه الكلمات . لهذا يمكن القول بكل موضوعية ، بأنه

ليس هناك في العالم الحديث كله من فكر أكثر عقماً وتخلفاً من هذا الفكر ، أو أكثر منه عجزاً عن مجاراة أو استيعاب العقل الحضاري الحديث .

تتحدد الأجوبة التي تقدمها أية نظرية ، أساساً ، بكيفية الأسئلة التي تطرحها . الإجابات التي كان يقدمها الفكر الوحدوي لم تطرح أو تنتج حتى الآن عن طرح السؤال العلمي الأساسي الصحيح ، الذي يمكن أن يقود إلى إجابة صحيحة ، وهو : كيف كانت تنتقل عبر التاريخ وحدات سياسية مستقلة أو مجتمعات مجزأة إلى الاتحاد السياسي ؟ ... وإذا كانت الظواهر الاجتماعية تتميز بموضوعية مستقلة تعبر عن ذاتها في اتجاهات عامة واحدة ، فما هي اذن الاتجاهات المتكررة التي كانت تعيد ذاتها في وتكشف عنها هذه التجارب الوحدوية ؟ ..

هذه الدراسة تشكل محاولة متواضعة في تقديم نمط فكري جديد ، ينقض من الأساس ، النمط الفكري الذي ساد الفكر الوحدوي حتى الآن . إنها تجد قيمتها الأولى في طرح السؤال الصحيح فيما يتعلق بالطريق إلى الوحدة . لهذا على القارىء أن يكون من ناحية عامة منفتحاً لمواجهة القضية الوحدوية في ضوء جديد يجردها من المفاهيم التي اعتاد على كونها مقترنة بها حتى الآن . تصحيح العمل الوحدوي يفرض ، إسقاط النمط الفكري السابق. " الفكر الصحيح هو "، كما يردد الشيوعيون الصينيون ، " مفتاح العمل الصحيح ". إنها دراسة لا تنطلق من مواقف ميتافيزيقية وتبشيرية، بل تعود إلى الظاهرة الوحدوية ذاتها عبر التاريخ- تجارب الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة- ونترك هذه الظاهرة تتكلم عبر القوانين الموضوعية العامة التى تعبر عنها وتسودها.

القول بالمنهج العلمى يفترض الوعي بأن الظواهر الاجتماعية، وليس فقط الظواهر الطبيعية، تخضع لموضوعية مستقلة خاصة بها ، أن هذه الموضوعية تكشف عن ذاتها فى قوانين أو علاقات انتظامية تسودها ، وأن حرية الإنسان ترتبط إلى حد كبير بإدراك هذه الموضوعية. في إغفاله التام للظاهرة الوحدوية، كان الفكر الوحدوي يعمل وكأن هذا الوعى أو المنهج غيرموجود أبداً .

العلم يعني استخراج النظام الذي ينطوي عليه مجرى التحول الإجتماعى التاريخى- التركيب العام الذي يقف وراء و يسود عوالم الظواهر الاجتماعية. إنه يحاول أن ينتزع من العالم الموضوعي الانتظامية المتكررة التى ينطوي عليها- من يطابق بين تجميع الوقائع والأحداث وبين العلم يخطىء كثيرا، لأنه يرى في جزء، وإن كان مهما، العملية العلمية كلها. فالوقائع والأحداث لا تقول لنا في ذاتها ، ما هى الأحداث والوقائع المهمة، ما هى العلاقة بينها، ما هو النظام الذي ينظمها ، يضفى عليها، من زاوية معينة ، المعنى ويجعلها مفهومة منا . لهذا يفرض المنهج العلمي الصحيح الانتقال من تجميع الوقائع والأحداث إلى القوانين او الانتظامية العامة التي تكشف عنها . المعرفة العلمية تعني مفهوماً عاماً لعلاقة عامة تربط بين الظواهر الاجتماعية ، أو بين عناصر وجوانب ظاهرة معينة . ما هو صحيح عن تجربة

وحدوية واحدة يمثل معرفة تاريخية ، ولكنه ليس ، في الواقع ، معرفة علمية ، لأن قصد هذه المعرفة هو تعيين الميزات الواحدة أو الاتجاهات العامة المتكررة التي تشارك فيها جميع تجارب التاريخ الوحدوية . إنها معرفة تغفل فرادة الأحداث والظواهر الاجتماعية ، وتحاول بدلاً من ذلك ترتيبها في نظام عام ، أو بالأحرى ، أن تكشف عن هذا النظام الذي ينظمها .

هذه هي الغاية من هذه الدراسة . إنها الكشف عن النظام العام الذي ينظم الظاهرة الوحدوية. القصد لم يكن تجميع الوقائع والحقائق حول تجربة أو تجارب وحدوية معينة ، بل الوصول عن طريق ذلك إلى النظام العام الذي تشارك فيه، والذي ينظمها في قوانين واحدة تسودها . " العلوم الإنسانية تقوم، كالعلوم الطبيعية، بدراسة مقارنة لمعطياتها كي تكشف عن تركيب الوقائع والأحداث العام " ٠ المنهج العلمي يعني ، قبل كل شيء، إدراك هذا النظام ، هذه القوانين التي تسود الواقع الموضوعي ، ومن ثم اتخاذ خطوات تستطيع توجيهه نحو مقاصد معينة ، لهذا " يمكن لنا " كما يكتب كونانت " اعتبار العلم كمحاولة.... في تخفيض درجة التجريبية (empiricism)، أو في توسيع امتداد النظرية... جميع إنتاج العلماء المهم حاليا يقع، كما أعتقد، في نطاق محاولات تخفيض درجة التجريبية... ولكن إدخال عنصر نظري فقط يستطيع تخفيض درجة التجريبية " . من هذه الزاوية يجب إذن على كل نظرية وحدوية علمية أن تحقق تخفيض هذه الدرجة التجريبية، أي أن تضع في إطار تركيب عام ذي معنى الظواهر، الأحداث والتحولات التى تتشكل منها عملية التوحيد السياسي كظاهرة عامة. هذا بالضبط هو القصد من هذه الدراسة .

كل معرفة علمية تحاول ، في الواقع ، تحديد المستقبل عن طريق دراسة ما يكشف عنه الماضي من نظام . هذا ما دفع أوغست كونت، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، إلى القول بأنه لا يجب أن نقول، الماضى، الحاضر والمستقبل، بل الماضي ، المستقبل والحاضر. لهذا كانت المقارنة التاريخية أساس هذه المعرفة. لأنها هي وحدها تستطيع ان تكشف عن هذا النظام الذي يعنى علاقات انتظامية أو قوانين واحدة. كثيرون من مؤسسي وأعلام هذا العلم ، كدركهايم وما لينوسكي مثلا، رأوا أن المنهج التاريخي المقارن هو هذا العلم ، هو السوسيولوجيا نفسها، وليس فقط جزءاً منها ، وذلك لأنها تصبح، دون هذا المنهج، وصفاً محضاً ، وتعجز عن إعطاء الواقع معنى بتحديد " العام " الذي يسوده ويفسره.

هناك وقائع صغرى ووقائع كبرى، حقائق كوقائع منفصلة، وحقائق حول مرحلة أو مراحل تاريخية ككل ، حقائق حول أحداث فردية وأخرى حول حركة الأحداث . الفكر العلمي لا يقف عند الأولى ، بل يدرك أن دراستها هى مجرد خطوة نحو الثانية. أن ملاحظة وتجميع الوقائع المختلفة هو أمر سهل نسبيا، ولكن الكشف عن القوانين العامة التي تسودها هو المسألة الصعبة التى تتطلب تمرساً علمياً طويلا، وقدرة على الخلق لهذا كان الابداع الفكري عملية محدودة نسبيا، لأنه كان يتطلب مواهب خاصة، جهداً فكرياً متواصلاً ومرهقاً ، نفساً طويلا والتزاماً كبيراً بالموضوع .

بما أن ما أنتجه الفكر الوحدوي العربي حتى الآن في تحديد الطريق إلى دولة الوحدة لا يتفرع من أو يعتمد على دراسة جامعة للظاهرة الوحدوية عبر التاريخ، فإن " أخلاقية " الوحدة حلت محل " سوسيولوجيا " الوحدة، أي أن المواقف التبشيرية حول " ما يجب " أن تكون عليه الطريق نحوها حلّت محل القوانين الموضوعية التى كانت تتبعها عملية التوحيد السياسي في انتقال مجتمعات مجزأة إلى الاتحاد السياسي . في غياب هذه المعرفة العلمية كان العمل الوحدوي نوعاً من " العفوية " التي تحولت إلى فخ يهدر الطاقات العربية عبثا ودون فائدة، نتيجة لتحركاتها اللاعقلانية. السلوك الوحدوي العقلانى هو فقط السلوك الذي يستخدم وسائل ترتبط ارتباطا موضوعيا صحيحا بالقصد الذي يسعى إليه، والذي يستطيع التمييز بين الطريق التي يمكنها أن تقود إلى هذا القصد وبين التي تكون عاجزة عن هذا، فيتبنى الأولى وإن كانت تعنى التضحية بمصالح ونجاحات مباشرة، ويرفض الثانية. ولكن وبما أن الواقع الموضوعى يتميز بموضوعية مستقلة عن إرادة الفرد، فإن العقلانية تعنى فكراً يعبر عن هذه الموضوعية والاتجاهات الواحدة التي تسودها. ومن اجل أن يكون هذا السلوك أو العمل عقلانيا، وجب عليه الاعتماد على نظرية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية، تكشف له عن تلك الوسائل وهذه الطريق.

هذه الدراسة تصل، نتيجة مراجعة عامة لتجارب التاريخ الوحدوية، إلى نظرية من هذا النوع، وتعين بوضوح القوانين التي تتشكل منها. إنها تقسم هذه القوانين إلى قسمين، قسم أساسي وقسم ثانوي أوإعدادي . في القسم الأول، نجد القوانين الرئيسية التي تسود عملية الانتقال من التجزئة إلى الوحدة، من الانفصال إلى الاتحاد. إنها لولب ومنطلق هذه العملية، ومن دونها لا يمكن عادة تحقيق هذا الانتقال، تجاوز التجزئة وإقامة الاتحاد. لهذا كانت أساسية. إنها، أولا، وجود إقليم- قاعدة يرتبط به ويتمحور حوله العمل الوحدوي في الأقطار أو الكيانات المستقلة المدعوة إلى الاتحاد. وثانيا، وجود قيادة مشخصنة تستقطب مشاعر الشعب وتكسب حماسته وولاءه عبر الحدود الاقليمية. وثالثا، وجود مخاطر خارجية تولد الضغوط والتحديات التي تدفع إلى الاتحاد.

أما القسم الثاني، وهو يتشكل من عدد أكبر بكثير من الاتجاهات الواحدة المتكررة، كتوفر لغة واحدة، تماثل إيديولوجي، وتماثل اجتماعى سياسي الخ... بين الأقطار أو الكيانات المستقلة المدعوة إلى الاتحاد، لا يستطيع فى ذاته، حتى بتوفر جميع عناصره، ان يحقق الاتحاد. فهو يمارس دوره ويجد فاعليته في العمل مع وفي خدمة القوانين الرئيسية. إنه إعدادي لأنه يساند هذه الأخيرة ، يمهد الطريق ويختصرها أمامها. إنه ضروري جداً ولكن ضرورته تنحصر في هذا الدور.

تتركز الدراسة، بالتالي، على القوانين الرئيسية وتدور حولها، لأنها تمثل الأساس الذي من دونه لاوجود لاحتمال تحقيق اتحاد سياسي في مجتمع مجزأ أو كيانات مستقلة، ولأن وجودها ضروري كي يتمكن القسم الثاني من ممارسة دوره الوحدوي . لهذا فهى تكتفي بإشارة سريعة إلى هذا القسم، وتستخدم

ما يتوفر لديها من مجال في عرض وتحليل القوانين الرئيسية. إنها تقدم كل قانون من هذه الأخيرة برجوع عام، مفصل نسبيا، إلى تجارب التاريخ الوحدوية، تدلل فيها على وجوده، ومن ثم تقترح تفسيراً له في ديالكتيك الوضع الوحدوي الذي يعبر عنه.

هنا تجدر الاشارة بأن هذا الكتاب يكمل كتاب " النظرية الاقتصادية حول الطريق إلى الوحدة العربية "، وهو امتداد له. قراءة الأخيرضرورية في التقديم لقراءة الدراسة الجديدة. وتحقيق الفائدة المرجوة منها. قدمت، في ذلك الكتاب، بالرجوع إلى تجارب التاريخ الوحدوية، نقداً عاما للمفهوم الاقتصادي حول الطريق إلى الوحدة، دلل بوضوح أن الطريق الاقتصادي لا يقود في ذاته، مجتمعاً مجزءاً أوكيانات سياسية مستقلة إلى الاتحاد السياسي . الدراسة الحالية تدل، كما يرى القارىء، على أولوية العامل السياسي . إن هذا العامل يتقدم على العامل الاقتصادي وغيره من العوامل الأخرى ، لأن القوانين الرئيسية التى تتحكم بالعملية الوحدوية هي قوانين سياسية.

ولكن هذا لا يعني أبداً ان الدراسة تقترح أولوية العنصر السياسي على العنصر الاقتصادي من أية ناحية عامة أو مطلقة . انها تقدم الأول على الثاني نسبياً فقط ، وفي معالجة وتفسير قضية معينة ، وهي التحول من التجزئة إلى الاتحاد السياسي . في دراسة عناصر ، أوضاع ، وقوى التحول الاجتماعي التاريخي ، لا يصح ولا يمكن ، في الواقع ، تفسير هذا التحول بالرجوع ، إلى عنصر أو سبب واحد . فهناك تنوع وترابط بين هذه الأوضاع والعناصر والقوى . هذا هو المنطلق العام الذي تنطلق منه هذه الدراسة .

المقصود من هذا ليس اقتراح هذا التعدد المتنوع المترابط كنظام عام (System) أو مذهب ، وتحويله كما كتب أحد المفكرين ، إلى " فوضى الأسباب المتعددة " . ما نعنيه هنا هو توكيد الواقعة التالية وهي انه لا يوجد بأي شكل مطلق أو من ناحية عامة هياراركاً (Hierarchie) أو سلسلة مدرجة من المراتب لهذه الأسباب ، تصح بشكل عام ، أو من سبب يمكن تطبيقه بشكل مطلق . ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد في وضع أو تحول معين ندرسه من هياراركاً سببية أو سبب يحقق درجة من الهيمنة على الأسباب والقوى الأخرى . على العكس من ذلك ، فالبحث السوسيولوجي ينطوي على ويفترض وجود هذه الهيمنة النسبية . لهذا فإن المشكلة التي تواجهها دراسة كهذه الدراسة ليست الانطلاق من سببية عامة (Causality) ومطلقة ، بل تعيين هذا السبب ذي الهيمنة النسبية في الموضوع الذي تعالجه . السوسيولوجيا الحديثة ترفض أية سببية من النوع المطلق او العام ، وهي عندما تؤكد على عنصر خاص ، تعترف في الوقت نفسه أن التحول الاجتماعي هو دائماً نتيجة تعدد في العناصر التي نعمل معاً وتتأثر بعضها بالبعض الآخر . في هذا الترابط أو التفاعل لا تمارس العناصر كلها الوزن نفسه ، لأن بعضها أو أحدها يستطيع أن يمارس دوراً أكثر أهمية . ولكن البحث عن هذا الدور المهيمن نسبياً يقترن بوعي لتأثير متبادل بينها .

دراسة عناصر وأوضاع التحول الاجتماعي كانت ، تحاول في الماضي القريب الكشف عن العنصر الرئيسي الذي يفسر هذا التحول ويكون مسؤولاً عنه ، والقصد كان اعطاء تفسير سببي لتاريخية المجتمعات الانسانية . هذه المسألة قادت الى تعدد كبير في الأجوبة التي كانت تقدم تقدم تطور التكنولوجيا ، تركيب الانتاج الاقتصادي ، الجنس ، الوسط المادي الجغرافي ، العنصر السياسي ، المعرفة ، المعتقدات الدينية ، الخ ... كل عنصر من هذه العناصر وجد من يدعو اليه ويقدمه . هذه القضية انتهت بالتمحور، في النصف الأول من القرن التاسع عشر حول ناحية أساسية وهي تركيز الأولوية في الاشياء او الافكار، الاوضاع المادية أو الاوضاع الايديولوجية، التركيب الاجتماعى- الاقتصادي أو التركيب الثقافي . وقد برز هذا الجدل بشكل واضح في التناقض بين مفهوم فكري على طريقة كونت أوهيجل ومفهوم مادي على طريقة ماركس . السوسيولوجيا ترى حاليا، على الأقل في ضوء المعرفة الحالية التي تتوفر لنا، أنه من غير الممكن الارتباط بنموذج سببي عام يعبر عن هيمنة عنصرما من ناحية مطلقة. فهذه الهيمنة هى مسألة تجريبية تتطلب تحديداً خاصاً في كل قضية تاريخية نعالجها.

تعتمد هذه الدراسة إذن هذا المنظور السوسيولوجي العلمي الحديث الذي ينطلق من هيمنة سببية نسبية، وهي تقدم العنصر السياسى في هذا الاطار فقط (❖) .

(❖) هنا أود التنبيه الى أن العدد الكبير مى الدراسات التي رجعت إليها كان يدور حول موضوعات أخرى، ولهذا فإن الاستشهادات التى أخذتها منها تزداد قوة علمية لأنها كانت ملاحظات واستنتاجات ووقائع لا تتصل بصلب الموضوع ، الذي كانت تدور عليه هذه الدراسات، ما عدا بضعة منها هذا يعني انه لا يمكن أن تكون متأثرة بتحيزممكن من جانب الباحث، وبالتالي يضفى قوة علمية إضافية إلى الدراسة الحالية والنتائج العامة التي خلصت إليها.

القسم الاول

دور الإقليم - القاعدة
ـفي تجارب التاريخ الوحدوية

الفصل الاول

دور النظام الملكي كقاعدة لنشوء الدولة القومية .

تشيرمراجعة أشكال التوحيد السياسي المختلفة عبر التاريخ، الى أن هذه الأشكال كانت باستمرار تعتمد على وترتبط بوجود قاعدة تقود وتتمحور حولها عملية التوحيد. الفصول التالية التي تقدم أهم هذه الأشكال تكشف بوضوح عن هذا القانون الذي يعيد ذاته فيها.

□□□

يمكن القول ان الطور التاريخي الاجتماعي السياسي الأول كان الطور القبيلى . ـفي هذا الطور كانت الوحدات السياسية الجديدة تتم عن طريق قيادة وسيطرة قبيلة على القبائل الأخرى.

ـفي الأمثلة التاريخية التي تقترن بهذا الطور وبالانتقال إلى طور الدول الإقليمية أو السياسية الذي جاء بعده نجد أن هناك قبيلة ، عائلة مالكة ، وإقليم أو شعب معين يقوم بدور التوحيد السياسي بين أقاليم- شعوب، وقبائل مختلفة.

الوجه السياسي الأول ـفي التاريخ هو، ـفي الواقع، وجه القائد العسكري . فتاريخ كل شعب، يتوفر عنه سجل تاريخي، يكشف أن أول دور كبير اتخذته الصراعات ـفي التاريخ كان الصراع بين رئيس الأسرة أو العشيرة، من ناحية، وبين الرئيس العسكري ، من ناحية أخرى . انتقال السلطة على الأبناء من يد الأب إلى يد غريبة حدث لأول مرة ـفي أوقات الحرب ، عندما برزت فجأة مجموعة أخرى من القيم والحاجات مع نوع آخر من القيادة يختلف كليا عن السابق.

نشأت الدولة السياسية أولا في المناطق (غالبا في موانيء وحول أنهار، وفي أي مكان استطاعت فيه الجغرافيا أن تخلق وضعاً طبيعيا للاحتكاك بين الشعوب) التي كانت روابط النسب (Kinship) والدين تنهار فيها نتيجة ضغوط تنتج عن الحرب .

فالأمم الحديثة هي محصلة دمج حدث بين مجموعات عديدة من القبائل والأجناس. ولكن في الامثلة الأوروبية الكلاسيكية لهذا التطور، احتاجت العملية إلى قرون عديدة من التوحيد الذي وجد أداته في أنظمة أوتوقراطية مركزة. الحياة المشتركة في ظل دولة واحدة صهرت تلك القبائل والأجناس في بوتقة سياسية اجتماعية وثقافية واحدة. " في بداية كل مجتمع قديم كان يوجد إبراز كبير للسلطة التى يمارسها بعض الأفراد الأوتوقراطيين ذوي الفاعلية. هؤلاء لم يحكموا عن طريق الارهاب والتزوير كما يقال . تفسيركهذا هو تفسير باطل. إنهم حكموا عن طريق نفوذهم . فدون عصر من السلطة.. لا يمكن أن يوجد أبداً عصرمن الاخاء النسبي " .

فالقوة القسرية المتمثلة في شخص أو جماعة، كانت الأداة التى خلقت وطورت في المدى البعيد شعوراً مشتركا بين جماعات متجاورة. وكان هذا الشعور، بعد أن يستقر ويترسخ، يزدهر وينمو دون إرغام، كولاء لشخص الحاكم أو الراية القومية .

جميع المجتمعات السياسية الأولى تنحدر في الأصل من قبائل بدائية. فالقبلية (Tribalism) تميز عصور الإنسان الأولى، وكانت دون شك تسود القسم الأعظم من وجوده التاريخي . " أهم عملية توحيد سياسي في التاريخ كانت " ، كما يكتب دويتش ، " توسيع ممتلكات قبيلة على حساب قبائل أخرى وضمها " . وكانت الحرب، اشد الادوات أهمية في وضع نهاية للتنظيم القبلي . وبالتالي إحداث تغييرمن أهم ما حدث في التاريخ، فالجماعات أو القبائل الكبيرة كانت تمتص القبائل الصغيرة في منطقة جغرافية معينة، وتقيم كيانات سياسية يهيمن عليها قائد واحد . في هذه الكيانات كانت الولاءات القبلية السابقة تتحول إلى ولاءات جديدة تتركز على القائد أو المملكة ، ولغة القبيلة المنتصرة تفرض نفسها على اللغات الأخرى وتسودها، أوفي أحيان أخرى ، تنمو لغة جديدة من تفاعل لغة المنتصر مع لغة أو لغات المغلوب. هكذا كانت تتسع رقعة الوحدة السياسية ، عن طريق الامبراطورية أو الدولة الملكية التي كانت الشكل السياسي السائد عبر مراحل تاريخية كبيرة.

إن كارلتون هايز، المؤرخ المعروف لتطور ونشوء الدولة القومية، شرح بأن التحول القومي الأول الذي تجاوز وطمس الطور القبلي ، ضبطه ودمجه في طور جديد، كان يرجع إلى العناصر التالية أو بعضها:

١- إخضاع بعض القبائل من قبل قائد عسكري يرغمها على الدخول في اتحاد عسكري سياسي يوحد بينها. هذا التوحيد كان يؤدي إلى ظهور مملكة أو امبراطورية عسكرية كانت تتمكن من الاستمرار في بعض الأحيان عندما كان يتوفر لها عدد أو سلسلة من الحكام الأكفاء.

٢- نمو وانتشار دين قبيلة أو قومية معينة إلى قبائل وقوميات أخرى . شيوع هذا الدين كان يعني مشاركة واسعة في عقائد، عبادات، طقوس، تقاليد، عادات، قوانين، انظمة، وثقافة واحدة. وكانت إقامة الامبراطوريات العسكرية تقترن عادة ، وتجد دعامة لها ، فيما كانت تحدثه من دمج للآلهة والطقوس القبلية وفي هيكل تنسب فيه الألوهية والعبادة العليا إلى شخص الامبراطور.

٣- العامل الثالث الذي أدى إلى تجاوز الطور القبلي كان ظهور الكتابة أو اللغات المكتوبة كان هذا التطور من أهم الأحداث التاريخية على الإطلاق. فاستخدام شكل من أشكال الكتابة كان يعني ظهور التاريخ نفسه ، وفصله عما قبل التاريخ . فظهور الامبراطوريات العسكرية والأديان التى كانت تتجاوز الحدود القبلية كان يعني أن لغة واحدة ، هي عادة لغة القبيلة أو الشعب المنتصر، كانت تصبح لغة الامبراطورية، فتكرس وحدة فكرية بين المثقفين والمتعلمين، وترسخ تقاليد واحدة عبر الحدود القبلية .

٤- العامل الرابع هو عامل اقتصادي . الطور القبلي كان يعني أن القبيلة هي وحدة اقتصادية مكتفية في ذاتها. وكانت القبائل تحصل، في هذا الطور، على ما تحتاج اليه عن طريق المقايضة مع جيرانها، أو عن طريق غزوهم والقتال ضدهم . ولكن مع تقدم الفنون الزراعية والصناعية ، تدجين الحيوانات والنبات ، الري، وانتشار استخدام النحاس والمراكب، تجاوز التطور الاقتصادي الحدود القبلية، وجعل نشوء الامبراطوريات، انتشار الأديان، اللغات المكتوبة، والثقافات العامة، أموراً أكثر سهولة، تخلق وتطور انتماءات وولاءات جديدة تتناقض مع الولاءات والانتماءات القبلية .

ثلاثة على الأقل بين هذه الاسباب التي يشير إليها هايز، تكشف بوضوح عن الدور الضروري الاساسي الذي كانت تقوم به قبيلة- قاعدة تتمحور حولها عملية التوحيد السياسي . ولكن بما أن التطور الاقتصادي الذي يشكل العامل الرابع كان يحدث عادة في إطار المملكة أو الامبراطورية التي تنشئها القبيلة- القاعدة، يمكن القول أن العوامل الأربعة في تجاوز الطور القبلي كانت تتفرع في الواقع من دور هذه القاعدة.

بين الأسباب التي تقف وراء تشكيل الأمم ، وتكوين القوميات، نجد إذن سبباً ينفرد بينها بميزة خاصة، وهو دور الدولة التي تعود بظهورها إلى دور القاعدة الذي تمارسه قبيلة أو أسرة مالكة. فالأمة هي أولاً وأساساً من عمل كيان سياسي واحد، يمزج بين جماعات، قبائل، وأجناس عديدة، ويصهرها في وحدة تاريخية

وفي تركيب ثقافي واحد . الأمة ليست السبب، بل نتيجة دولة واحدة كانت تحققها مع الوقت عبر أجيال أو قرون عديدة.

تدل تجارب التاريخ وتحولاته السياسية أن الأنظمة السياسية الواحدة تبرز ليس لأن هناك انموذجا انسانيا عاما يتقدمها، فتعبر عن وجوده الواحد، أو لأن هناك وحدة ثقافية سابقة كانت هذه الأنظمة السياسية انعكاساً خارجياً لها، بل أن تلك الأنظمة الواحدة هي التي كانت تخلق الوحدة الثقافية والتجانس النفسي الضروري في تكوين الأمة. فالإنسان الفرنسي مثلا لم يوجد قبل الدولة الفرنسية لأن هذه الأخيرة هي التي خلقت هذا الانسان وعبرت عن وجوده. كذلك أيضاً الانسان الانكليزي ، والأميركي ! والايطالي الخ... فإنه لم يوجد قبل الدولة الانكليزية، الأميركية، أو الايطالية.. لأن هذه الدولة هي التي جاءت به.

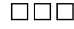
مراجعة تجارب التاريخ الوحدوية تدل بوضوح أن الأمة ليست سبب الدولة بل نتيجتها. فالدولة هي التي خلقت الأمة، وليست الأمة هى التي خلقت الدولة.

عندما نعود بقدركافٍ إلى الوراء، نرى أنه كان هناك دائماً على وجه التقريب تركيباً سياسياً موحداً أو دولة واحدة تطابق الأمة أو القومية الحديثة إقليميا. فالأمة تركيب تتركه هذه الدولة وراءها. القول بأن هذه الدولة نفسها قد تكون نتيجة وحدة عرقية أو أثنية سابقة ومتقدمة عليها، قد يكون صحيحا لو أن هناك أمة واحدة بين الأمم الحديثة ترجع إلى جنس واحد. وقد تكون، في الأصل، الوحدة التي تقف وراء الدولة وحدة عرقية، ولكن إمتداد هذه الوحدة إلى جماعات وأجناس تتشكل منها وحدة كل أمة حديثة، كان ولا شك من عمل كيان سياسي واحد. كيانات من هذا النوع كانت، عند زوالها من التاريخ، تترك، كما نرى مثلا في بلغاريا وبولندا وهنغاريا والوطن العربي، أمما أو قوميات مستقرة .

عند دراسة نشوء الدولة " يجب علينا الاعتراف بأهمية العناصر الايديولوجية وتقدمها على العناصر العقلانية أو الاقتصادية المحضة. لا يكفي أن تهزم جماعة ما جماعة أخرى ، كما أنه لا يكفي أن تشارك جماعتان في لغة واحدة. هذه الأوضاع يمكن أن تكون مساعدة ، ولكنها غير وافية بالغرض. ما يجب توفره هو قيام سلطة مركزية قوية إلى درجة تستطيع بها أن تبطل مفعول الانفصالية " البدائية " .

ولكن هذا لا يعني انه حيث تقوم دولة واحدة، فإن النتيجة تكون أمة واحدة. هناك دول عديدة امتدت إلى شعوب مختلفة، ولكنها في النهاية لم تخلق أو تترك وراءها أمما وقوميات واحدة بعد زوالها. الأمثلة الحديثة عديدة ولا تحتاج إلى تعداد. ولكن على الرغم من أن الدولة الواحدة لا تؤدي دائما إلى خلق وحدة ثقافية لغوية تاريخية، أي قومية واحدة ، فإنها ضرورية لنشوء هذه الوحدة وترسيخها. إن فشلها هذا يعود، كما يبدو، إلى امتدادها إلى قوميات مستقرة راسخة وممتدة الجذور. عندما تستقر قومية وتتبلور

بهذا الشكل، فإن طابعها القومى يستمر وإن خضعت لكيان سياسي واحد يجمع بينها وبين قوميات وشعوب أخرى . فالامبراطورية العثمانية ، والامبراطورية الهابسبورغية، مثلا، عجزتا، لهذا السبب، عن إزالة أو تعديل الهويات القومية التي كانت تميز الشعوب التى خضعت لهما.



تعود أصول الدول الأوروبية الحديثة إلى الممالك " البربرية " التى ظهرت عند انهيار الامبراطورية الرومانية وما رافقها من هجرة الشعوب. هذه الممالك لم تكن منظمة، كما انها لم تكن دولا، ومن الصعب، في الواقع، إعطاء تحديد دقيق لها. فعلى الرغم من أن الحاكم كان يأخذ لقبا عنصريا (Rex Francorum , Rex Anglorum) ، فإن معظم هذه الممالك لم تكن وحدات عنصرية. السمة العامة التى تبرز في تشكيلها هي سيطرة جماعة من المقاتلين تشتق من شعوب جرمانية عديدة، وتحكم مجموعة لاتينية، سلتية، أو سلافية. فاذا اخذنا على سبيل المثال، أهم نموذج عن هذه الجماعات المقاتلة، " الفرانك "، لوجدنا أنهم يشكلون اتحاداً من الشعوب، غزا واندمج تدريجيا مع جماعات جرمانية أخرى كالبورغانديين، والالمانيين، وحكم شعوبا غالية، وإيطالية، وسلتية لاجئة من بريطانيا، وعددا من السلافيين.

تكشف هذه الملاحظة العامة، أن ممالك كهذه لا يمكن أن تكون وحدة ثقافية أو عنصرية ؛ فقد كانت تضم أجناسا عديدة، ولغات وتقاليد مختلفة، وقوانين خاصة بكل جماعة من الجماعات التي تدخل في تكوينها. ثم إن الجغرافيا نفسها لا تساعد في تحديدها، لأن المملكة كانت لا تشكل وحدة جغرافية واضحة الحدود.

لهذا كانت هذه الممالك تجد تحديدها ووحدتها عن طريق ملكها، أو بالأحرى عائلتها المالكة. فالمملكة كانت تتشكل من شعب أو شعوب تعترف بعائلة معينة كالعائلة المالكة فيها. حدود هذه الجماعة قد تتغير وتتبدل من حيث الحجم والأرض التى تسيطر عليها، ولكن طالما أن هناك مجموعة كافية من الناس ترتبط بشخص معين كملك لها، فإن هذه المجموعة كانت تعني مملكة.

كانت هذه الممالك في البداية دون شكل أو تنظيم واضحين وسريعة الزوال. ولكن بعضها عاش واستمر، وعن طريق قدرتها على البقاء والاستمرار، حققت الخطوة الأولى في بناء الأمة الحديثة، لأنها أعطت ذاتها تدريجيا هوية خاصة مستقرة. استمرار المملكة لأجيال عديدة ولّد مع الوقت شعوراً بأنها جزء من الواقع السياسي ، وبأنه يجب عليها بالتالي أن تستمر. لهذا كان مفهوم هذه الممالك بعيداً عن مفهوم الدولة ولا ينطبق عليه إلا بدرجة يسيرة. من المشكوك فيه، في الواقع، وجود أي مفهوم للدولة في القرون الاولى من العصور الوسطى . بعض الملوك حاولوا إقامة نوع من الأجهزة الحكومية والسلطه العامة، ولكن

جهودهم باءت بالفشل لأنه لم يكن عند أفراد الطبقة الحاكمة أية فكرة عن سلطة حكومية غيرشخصية . فالولاء كان لأشخاص، لعائلات، وليس لدولة.

نشأت الدولة القومية الحديثة إلى حد كبير في مقاومة أفكار وأشكال الحكم التيوتوني (Teuton). فبالنسبة للتيوتونيين القدماء، كانت القبيلة بمثابة الأمة إذ لم يكونوا يملكون أي منظور يتجاوزها. ولكن الهجرات الكبيرة التى قاموا بها، الاتصالات بالرومان، وإقامة السيادة الجرمانية في أرض الامبراطورية، اقترنت بنمو السلطة الملكية وتشكيل شعوب كبيرة عن طريق دمج قبائل عديدة حول سلطة الملك . هؤلاء الملوك بدأوا آنذاك بإنشاء دول بمساعدة الموظفين الرومان والكنيسة. ولكن الإقطاعية لم تلبث أن أكدت ذاتها. ولما لم تجد قوى تكبحها وتتمثل في ملكية قوية ، فإن النتيجة كانت انفسام المجتمع إلى أجزاء عديدة. ولكن على الرغم من ذلك، فإن الإقطاعية أسهمت من حيث لا تدري في تطور الدولة القومية الحديثة، وذلك لأن البرلمان نشأ عن أنظمة المجتمع الاقطاعى .

المنعطف الثانى في نشوء الدولة الحديثة في أوروبا حدث في أواخرالقرون الوسطى ، عندما برز مفهومها المدني . ففي تلك المرحلة انتقلت أشكال الولاء الأساسية من الكنيسة إلى الدولة التى ابتدأت تأخذ شكلها الحديث فمن أواخر القرن الحادي عشر حتى أواسط القرن الثالث عشركانت الكنيسة هي التي تضع غايات ومقاييس المجتمع الأوروبي، وعندما كانت تلقى أية مقاومة صريحة، كانت قادرة– لأنها تتمتع بولاء أكثرية الشعب– أن ترغم الحكام على إطاعتها بدعوة رعاياهم إلى التمرد عليهم. غيرأن هذا التكتيك أصبح ظاهر العجز في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، عندما أبتدأت تقاليد الطاعة للحكومات المدنية بالاستقرار، وبرز نوع من الولاء الجديد لقوانين البلد الذي ينتمي إليه الفرد، ولشخص حاكمها. هذا الشعور لم يكن شعوراً وطنياً بعد، ولكنه كان شعوراً بضرورة استثناء أية سلطة خارجية من التدخل في شؤون المجتمع السياسي الخاص. واصبح الناس أكثر استعداداً لممارسة أشكال التضحية المختلفة في خدمة الدولة، وليس في خدمة الكنيسة.

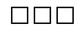
وعلى الرغم من أن هذا الولاء كان لا يزال ضعيفاً ، ولكن لم يكن هناك أي ولاء آخر اشد قوة منه. وقد جاء الصراع بين البابا يونيفاس الثامن ضد ملوك فرنسا وانكلترا، في اواخر القرن الثالث عشر. (١٢٩٤– ١٣١٣) يثبت جدارة وقوة هذا الولاء الجديد. اذ لم يستطع البابا الاعتماد في صراعه، على اي دعم داخلي تقريبا في البلدين.

ومنذ ذلك الحين أصبح الولاء للدولة، وخاصة الولاء للحاكم الذي يجسد الدولة، الولاء الوحيد الذي كان يمكن اعتماده وتعميقه، أو تحويله إلى شعور قومي.

وقد تم انهيار السلطة الدينية في القرن السادس عشر، وحلت محلها سلطة مدنية تتمثل في الدولة. " الواقعة الخاصة التي تميز القرن السادس عشركانت الطريقة التي تمارس فيها السلطة... التي كانت باستمرار تتسجد في الأمير الذي كان يوجهها. أدب ذلك العصر، كان، ما عدا القليل اليسير، يعترف، بدرجة كبيرة او صغيرة، بهذا التجسيد... وبالحاجة الى الرجل القوي الذي يستطيع في مرحلة من الفوضى أن يفرض إرادته على رعاياه. أمير القرن السادس عشركان يمارس سلطات واسعة لأنه بقدر ما كانت تنموسلطته ، بقدر ما كانت الأوضاع تصبح أكثر ملاءمة للانعاش الاقتصادي الذي كانت تعثره الصراعات الداخلية ".

اما الطور الثالث الذي تحولت فيه الدولة إلى الأمة، هو الطور الذي نشأ فيه الشعور القومي، الذي يرتبط بأمة، بقومية معينة. فقد نتج عن ظهور هذه الدولة، الولاء لها، وتركزهذا الولاء على شخص الملك الذي يرمز إليها.

من هذا يتضح أن نشوء الدولة الحديثة في أوروبا يتميز في كل مكان بتوفرشرطين أساسيين، وجود قاعدة تتمثل في عائلة ومجموعة من المقاتلين تلتف حولها، ووجود رمز في شخص الملك يستقطب ولاء الجماعات المختلفة التي تمتد إليها سيطرة العائلة المالكة .



العائلات المالكة التي كانت في البداية عائلات إقطاعية قوية فقط لعبت دوراً أساسياً في بناء الأمم الحديثة، وذلك كنتيجة غيرمقصودة لمطامحها الخاصة قي توسيع أراضيها وممتلكاتها. فمن فرنسا و انكلترا، إلى روسيا وإيطاليا والمانيا وجميع بلدان أوروبا تقريبا. كانت هذه العائلات تمد سيطرتها على أراض واسعة، وتؤكد سلطتها على شعوب عديدة. وعلى الرغم من أنها لم تكن تتميزكثيراً عن غيرها من العائلات الإقطاعية، فإنها استطاعت أن تنشىء، عن طريق مشاريعها التوسعية الناجحة، الدول والحكومات الملكية التي تحولت تدريجيا فأصبحت فيما بعد دولاً وحكومات قومية .

تبرز هذه العملية التوسعية التوحيدية واضحة كل الوضوح في ظهور هذه الدول القومية. ففي فرنسا، مثلا، من عهد فيليب أوغسطس (١١٨٠- ١٢٢٣) إلى عهد لويس الرابع عشر (١٦٤٣- ١٧١٥)، العهد الذي تم فيه ترسيخ " وتأليه " السيادة الملكية، كان الملوك الفرنسيون يضمون الأقاليم والأجزاء التي أصبحت فيما بعد فرنسا الحديثة. هذه العملية التوسعية كانت تنتقل من ضم إلى آخر، وكان كل ضم جديد يزيد من سلطتها، يقويها ويضعف سلطة وقوة الأمراء الاخرين.

وقد دلل أرنست رينان، مثلا، بوضوح على أهمية هذا الدور في تاريخ فرنسا، أعرق القوميات الأوروبية الحديثة، وكيف أن الأسرة المالكة المعروفة بأسرة الكابسيان التي جعلت فرنسا، طيلة ثمانمائة عام، ما هى عليه، كانت أساس وحدتها، وصانعة هذه الوحدة التي تربط بين الفرنسيين كفرنسيين. ثم يضيف " بأن هناك لكل قومية أسرة مالكة تقابلها وتتجسد فيها عبقرية ومصالح الأمة، وأن ليس هناك أبداً من مطابقة (أي بين الأسرة المالكة والأمة) تكاملت بالشكل الذي نجده بين أسرة الكابسيان وفرنسا) ! .

التجربة الفرنسية كانت، في الواقع، مدهشة في نجاحها، وإلى درجة جعلت بعض المؤرخين الفرنسيين يرون " يد الله " أو " يد التاريخ " فيها، ويعتبرونها من عمل قوى روحية إلهية. ان خطأ هؤلاء المؤرخين القوميين، كان في الافتراض بأن التطور التاريخي الذي قاد إلى نشوء الأمة الفرنسية، أو أية أمة أخرى، كان حتمية تاريخية، وبأن الأمم التي نتجت عن هذا التطوركانت الأمم الوحيدة الممكنة. إن عنصر " الصدفة، التاريخية لعب، في الواقع، دوراً واضحا. فمن المعقول جداً أنه لولا بعض الأحداث العرضية لكان من الممكن لمقاطعات كـ " بورغوندي "، " بروفانس "، " والز "، " اسكتلندا "، " بافاريا "، " بروسيا "، وغيرها، ان تتطور إلى أمم منفصلة وتبقى كذلك.

قد لا يكون دور الأنظمة الملكية في خلق الأسس الاقليمية لأمم أوروبا الأخرى حاسما كما كان في التجربة الفرنسية، ولكن في كل مكان تقريبا. من غربي أوروبا إلى وسطها، ومن شرقيها إلى جنوبيها، نرى أن هذه الانظمة كانت تشكل الممالك التي تصبح فيما بعد أمما. فعلى الرغم من صعوبة اعتبارها في البداية أكثر أهمية من العائلات الاقطاعية الأخرى . فإنها استطاعت عبر قرون من التوسع الذكي والماكر، أن تقيم الدول والحكومات التي تحولت وأصبحت دولاً قومية .

لا يزال هناك خلاف بين المؤرخين فيما إذا كان التاريخ عرف القومية بمعناها الكامل قبل القرن السابع عشر، ولكن ممالا شك فيه أنه بدءا من القرن الثاني عشرعلى الأقل، كانت الأنظمة الملكية القومية في فرنسا وفي انكلترا تنشىء ما أصبح يسمى فيما بعد بالدولة القومية، الدولة التى تتميز بأجهزة إدارية وقانونية مركزية، بحدود ثابتة، وبشعوب ذات ثقافات خاصة. هذه الانظمة التي كانت تنال ولاء رعاياها كانت غالبا تعمل بشكل يوحي أنها وحدها كانت قصد الولاء والوحدة، أوأنها وحدها كانت الدولة، فتقدم مصالحها على مصالح رعاياها، وتستخدم الجهاز الحكومى في تقويتها وترسيخ سلطة وعظمة العائلة المالكة التي تقترن بها.

في عملية توسيع ممتلكاتها خلقت هذه الانظمة الملكية الأجهزة الشخصية ، التنفيذية والتشريعية والقضائية والادارية التي تمثل الملك في أرجاء المملكة، و تصل بين إرادة الملك والشعب، وتشكل أداة الاستمرار للسلطة. لويس الرابع عشر قال مرة لحفيده ، دوف بورغوندي، إن الأمة تقيم تماماً في شخص الملك. وكان، في هذا القول، ينطلق من أرضية صلبة " مشروعة " ، لأن المرحلة الملكية التاريخية تكشف

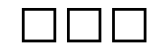
بوضوح أن مصلحة الشب كانت " تقترن " بمصلحة الملك ولا تختلف عنها، لأن الملك كان مرادفا للدولة. " التاج الفرنسي كان الرمز الذي نشأت حوله الأمة الفرنسية، والحلقة التي وحدت عناصر المملكة- الحقوق المحلية والاقطاعية، الطبقات والتقاليد القانونية " . هذا لا ينطبق على الأمة الفرنسية فقط ، بل على الأمم الأوروبية من ناحية عامة.

قد يكون جوهانه، المؤرخ الفرنسي للدولة القومية، مبالغاً، ولكنه لم يكن بعيداً عن الحقيقة التاريخية فيما يتعلق بمعظم أوروبا عندما كتب " إن سبب التمثال ليس الرخام بل الفنان. وفي مسألة القومية فالأساسي كان العائلة المالكة " . ولكن المأخذ الواضح على قول كهذا هو أنه يوحي بأن عمل العائلة المالكة كان، كعمل الفنان، قصديا في عملية بناء الدولة القومية، وهذا خطأ. فالعائلات المالكة والملوك لم يكونوا قوميين أبداً بأي معنى حديث فهم لم يحاولوا خلق قوميات وأمم حديثة وجديدة، بل توسيع سلطتهم وممتلكاتهم . ولكنهم ، من ناحية أخرى ، استخدموا الشعور القومي عند ولادته بغية ترسيخ سيادتهم وكسب ولاء شعوبهم في حروبهم ضد أمراء وملوك آخرين. ولكن، وعلى الرغم من كون الملوك غير قوميين، اقاموا الأسس التي قامت عليها القوميات والأمم الحديثة. واذا كان هناك من عبارة تصح في وصف وتحديد سياسة الملوك آنذاك ، فهى كلمة etatism ، أي استخدام سلطة الدولة في تقوية وترسيخ الدولة التى كانت، في تلك المرحلة، سلطة الدولة الملكية.

إن خلق الدول القومية " كان إلى حد كبيرمن إنجاز سلسلة من الملوك ذوي الطموح والكفاءة في إنكلترا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال، واسكندينافيا. فعائلة التيودور، في انكلترا، والفالوا، والبوربون في فرنسا، والهابسبورغ في إسبانيا، والفازاس في السويد، والأفيزيس في البرتغال، كانوا ذوي حيوية وإرادة قوية. فقد شغلوا أنفسهم في نهاية القرون الوسطى وبداية الازمنة الحديثة بتوسيع سلطتهم الشخصية، وإقامة سيطرة أوتوقراطية " .

من الجدير بالملاحظة هنا، هو أن الأنظمة الملكية التي اتخذت خطوات حاسمة في تحقيق وحدة قومية كانت تبغي، في الوقت نفسه، الوصول الى امبراطوريات واسعة، ولكن في فرنسا، وانكلترا، حيث نجد الوحدات القومية الحديثة الأولى، مارست هذه الأنظمة سياسة التوسع على نطاق واسع فقط بعد أن حققت وحدة بلادها واستتب الأمر لها فيها بينما أهملت، في إلمانيا مثلا، هذه الوحدة أوفشلت في تحقيقها قبل محاولة توسيع ممتلكاتها في الخارج. وقد ادت هذه السياسة إلى نتائج وخيمة بالنسبة لالمانيا وأخرت وحدتها لعدة قرون.

عندما كانت الأنظمة الملكية ضعيفة، كانت الوحدة القومية تتأخر. " لقد تعثرتطور المانيا إلى أمة، إلى قومية واحدة، كثيراً بسبب الضعف الذي كان يميز السلطة الملكية فيها" .



تكشف هذه التجارب الوحدوية أن الارتباط برئيس الدولة ، أي الملك ، كان يشكل في كثير من الأحيان الرابطة الوحيدة والأساسية التي يحدث التوحيد في إطارها. وحدة التاج هي التي جمعت بين انكلترا وولز، مثلا، كما انها هي التي جمعت بينهما وبين اسكتلندا على الرغم من لجوء الطرفين إلى النزاع المسلح الذي استمر حتى عشية الاتحاد عام ١٧٠٧ . " الملكية لعبت دوراً قيادياً في إثارة الوعي القومى والشعور القومي . فالملك كان رمز الوحدة القومية والاستقلال، والسيادة القومية كانت تكمن فيه. " الملك " و " السيادة " كانا في الواقع عبارتين متبادلتين " .

ولقد ارتبط نشوء الدولة القوية، بتنظيم حقوق الخلافة في السلطة بشكل يتحاشى الصراعات حولها عند وفاة الملك. وكان استمرار عائلة مالكة لمدة طويلة في الحكم عاملا مساعدا في توفيرذلك . الوحدة القومية كانت تترسخ عندما تشيع وتنتشر الفكرة القائلة بأن المملكة وحدة لا تتجزأ، وغير قابلة للتحويل (inalienable). ولكن هذه الفكرة كانت، في دورها، تتجسد باستمرار في شخص الملك الذي كان يوفر رمزاً حسياً لها .

النظام الملكي عنصر لا يمكن إغفاله أبداً ، وبأي شكل، في أية دراسة تاريخية علمية لظهور الوطنية أو الدولة القومية. فالملك كان في تلك المرحلة يوفر صورة عن " أب للوطن الأم " ، حامي الامة ودليلها في طفولتها، " مصدر " الشرف والعدالة ، والوجه الأساسي في الادارة القومية. علاوة على ذلك، كان الملك رمز الوحدة القومية، وتجسيداً للمطامح الوطنية، كما كان، من زاوية دينية، " اداة الله وممثله ". المؤرخ الفرنسي ميشاليه أسماه " المخلص الجديد " . لقد جعل كل هذا منه، محورا للشعور القومي، حيث اصبح الولاء له هو الولاء الرئيسي لكل فرد، ولجميع الرعايا. " الوجه الرئيسي في ظهور الدولة- القومية كان الملك الذي أصبحت مملكته الأساس الاقليمي لظهورها. ولم يكن فقط المهندس والمؤسس الذي يشرف عليها، بل كانت إرادته الارادة الموجهة للدولة الجديدة .

" عبادة " الملك رافقت نشوء الدولة. فهو " مكرس بزيت مرسل مباشرة من السماء ". وهو " قادر على شفاء المرضى ". نمو احتفالات البلاط والاجلال الذي كان يحيط به كانا، في الواقع، تعبيراً خارجياً عن تمجيد متزايد لقوة وسلطة الحاكم . هذا التمجيد تحقق قبل ظهور نظريات الحق الالهي بمدة طويلة، والإعتراف بسلطة الملك التنفيذية الفريدة كان قبل عدة اجيال من نظرية بودين في السيادة التى كانت، في الواقع، تعبيراً عن الوضع السياسي السائد.

في عام ١٥٧٦ حدد بودين السيادة، وكان أول من استعمل هذه العبارة، بأنها " سلطة الدولة المطلقة والدائمة "، و " غير المحددة بالقانون "، ثم اكد أن ليس هناك من سلطة إنسانية فوق سلطة حاكم الدولة.

وقد دمج في ذلك بين حقوق الدولة التى لا تتجزأ وحقوق " صاحب الجلالة "، وذلك " لأن الأمة- الدولة برزت في كل مكان في ظل الملوك الذين كانوا آنذاك يمارسون السلطة أو يطمحون إلى ممارستها بشكل مطلق . ولم يكن بودين وحيدا في هذا، اذ اكد كثيرمن مفكري القرن على هذا المفهوم.

في القرن السابع عشرتبلورت نهائيا إيديولوجية النظام الملكي الدينية، وأخذت تؤكد أن الملوك يستمدون سلطتهم مباشرة من الله وليس من الشعب، وأنهم مسؤولون فقط أمام الله . قدم الأسقف المشهور، بوسيه، هذه النظرية في دعم سلطة لويس الرابع عشر (١٦٤٣- ١٧١٥). ففى شخص الملك تترسخ " سلطة وإرادة وحتى عقل الدولة ". الموافقة الشعبية فسرت تماما علاقتها بالموضوع . واعلن أسقف شارتر آنذاك، أنه " بالاضافة إلى موافقة الشعوب والأمم الشاملة، فإن الأنبياء أعلنوا، والرسل أكدوا، والشهداء اعترفوا أن الله هو الذي يرسم الملوك... وأنهم هم أيضاً آلهة" . واجتمع مجلس " طبقات- الأمة " في فرنسا لآخر مرة عام ١٦١٤. وذلك من اجل توكيد المبدأ نفسه، والمطالبة، بشجب وإدانة حق مقاومة السلطة الملكية مهما كانت الذريعة التي تقدمها.

السبب في قبول نظرية أو عقيدة من هذا النوع من قبل مفكري وفلاسفة العصرلا يعود طبعا إلى " سخافة " تميزهم- (كل عصر يتميز " بسخافة " إيديولوجية خاصة به)- بل إلى ماشعروا به من حاجة أو ضرورة إلى تبرير السلطة المطلقة التي كان النظام الملكي يمارسها في الواقع، والتي بدت للكثيرين، كما بدت لبودين، بأنها ضرورية للنظام السياسي . مقاومة مزاعم الملك كانت تؤدي عادة إلى الحرب الأهلية، وخطر الفوضى الاقطاعية، والاضطرابات العامة، وهذا كان يدعو إلى سلطة مركزة.

القوة الخام المجردة، وإن كانت الوسيلة المباشرة في إخضاع الآخرين، تكون في المدى البعيد على الأقل عاجزة عن تثبيت وترسيخ أية سلطة. هذا يفترض عناصر أخرى ذات طبيعة إيديولوجية تبرر هذه السيطرة وتجعلها شيئا طبيعيا في نظر الناس أو الاتباع ، وقد شكلت الأديان التاريخية عبر مراحل التاريخ المختلفة، وحتى ظهور العقل الحضاري الحديث، هذه الأداة الايديولوجية. لهذا نرى أن هذه المراحل كانت تعتبر الفاتحين، والشارعين الكبار، الخ .. آلهة أو نصف آلهة ، لأن الأصل الالهي فقط كان يستطيع، كما يبدو، تفسير وتبرير " عظمتهم " و " تفوقهم " في تلك المراحل. أساس كل شكل من أشكال السلطة الكبيرة كان آنذاك أساساً دينياً ، ولهذا استطاعت هذه السلطة أن تخضع فكر الانسان وتتحكم به عن طريق تكبيله بسلاسل اتكالية روحية غيبية، قبل تكبيله بقيودها السياسية. لهذا يمكن القول، مع كثير من المفكرين، أن الشخصية العنيفة، القاسية، الحاقدة التي كانت تميز الآلهة تعكس إستبدادية الرؤساء والملوك والقادة العسكريين الذين كانوا يحكمون في جو من الإرهاب والخوف يسود شعوبهم. ولقد استطاعت الفيلولوجيا الحديثة ، في كثيرمن المناسبات، أن تبرهن على أن أسماء الآلهة نفسها كانت في الأصل تعبر عن المفاهيم التي كانت تجسد فكرة السلطة.

هنا تجدر الإشارة الى أن المفكرين والأدباء كانوا يقفون عادة وراء السلطة، التي كانت تعتمد الأساطير الدينية اساسا تبريريا لسلطتها في تلك المراحل التاريخية " ولم يكونوا يمجدون الاساطير فقط بل طبيعة القائد الإلهية ايضا. كما ان ما قيل في قادة الثورات الكبرى الحديثة لا يختلف جوهريا- كما سنرى فيما بعد في هذا الكتاب- عن هذا، وموقف المفكرين والعلماء والأدباء في ظل هذه الثورات العلمانية لا يختلف أساسيا عن موقفهم في تلك المراحل. هذا يدل، أولاً ، أن لكل مرحلة تاريخية مناخاً سياسياً ايديولوجياً يفرض ذاته، وثانيا، أن العلاقة بالسلطة تتسم ببعض السمات الأساسية التي تعيد ذاتها عند تماثل الأوضاع.

كان الولاء للملك عاملا مساعداً في توسيع الحدود السياسية، يمتد إلى ومع هذه الحدود. " يعلمنا التاريخ ان الوطنية كانت في الأغلب شعوراً ثانويا ، أو بالأحرى تحولا لشعور أول هو شعور الأمانة لرجل أو أسرة حاكمة. هذا الشعور الذي تركز أولا على كائن حسي كان يمتد بعد ذلك تدريجيا الى الكائن المجرد، كائن الأمة، الذي تجسد على مهل، وكان من عمل سلسلة طويلة من القادة الذين تابعوا بدرجات متفاوتة من الثبات والسعادة توسيع الإقليم أو المدينة الأصلية " . لهذا كتب تارد أنه " منذ بداية التاريخ، أوحتى منذ ما قبل التاريخ، كانت تتشكل دول اصطناعية عن طريق افتتان عام بقائد مشهور ". ثم يضيف بأن " التأمل في الماضي البعيد يكشف عن الأثر الذي مارسه قادة يشبهون الأساطيرعلى معاصريهم وترجع إليهم جميع الحضارات أصولها ، جميع معرفتها، قوانينها وصناعاتها. أوانيس في بابيلون، كاتز- ألكواتل في المكسيك، الملكيات الالهية في مصر، الخ.. هي أمثلة على ذلك... الاعتقاد بفكرة العقد الاجتماعي على طريقة روسو انتهى منذ مدة طويلة. فالتعاقد لم يشكل الرابطة الأولى بين الارادات الانسانية ، وقبل بروز فكرته التي كانت نتيجة تطور بطيء، احتاج الانسان إلى قرون من الخضوع للمراسيم القسرية، للطاعة الساكنة للأوامر... ففى البداية كان رجل واحد يحتكر دائماً السلطة وحق التوجيه ولم يكن أحد ينازعه في ذلك . كل شيء يقوله كان يجب أن يطاع من الجميع ...

□□□

بالاضافة إلى الشرعية الايديولوجية، فإن أهم الوسائل التي اعتمدتها الأنظمة الملكية في تحقيق الوحدة الداخلية في ظل سيطرتها، كانت :

١- طبقة جديدة من الموظفين القانونيين تماثل البيروقراطية الحديثة، كانت تتشكل في البداية من اكليركيين، ومن ثم من علمانيين ينتمون إلى الطبقة الوسطى والارستقراطية الصغيرة.

٢- جنود مرتزقة، أكثريتهم من الأجانب ، في جيش خاص كان يعطي الملوك فرصة في كسب قسم من النبلاء وذلك باستخدامهم كضباط .

٣- مجموعة من المفكرين السياسيين ابتدأت بالظهور في القرن الثاني عشر ، وكان تفكيرها ولا شك متأثراً بدراسة القانون الروماني . وقد أكد هؤلاء على الفكرة القائلة بأن الملك هو صاحب السيادة المباشرة على جميع الاشخاص في مملكته .

٤- البرلمانات الحديثة وفكرة الوحدة القومية ترجع في طورها الأول ، وفي كل مكان إلى مبادرات الملوك الذين استخدموها في سبيل تدعيم سلطانهم وسياستهم التوسعية.

٥- الطبقة الوسطى التي أسهمت كثيراً في عملية التوحيد القومي، وذلك بمساندة الملوك ضد الأرستقراطية.

في الصراع ضد البارونات الاقطاعيين، وفي سبيل إقامة القانون والنظام والوحدة الداخلية، استطاع الملوك الاعتماد على هذه الطبقة الجديدة، فئاتها العليا بشكل خاص، التي رأت أن الكثير من مصالحها يرتبط بشكل وثيق برئيس النظام الملكي . فالتجار، ورجال الصناعة، وأصحاب البنوك، والحرفيون، وآخرون، كانوا يريدون سيادة الأمن والنظام ، نهاية حروب البارونات التافهة التي كانت تعيق التجارة: الغزو المستمر الذي كان يقوم به هؤلاء- بالتعاون في كثير من الأحيان مع قطاع الطرق- على القافلات التجارية، الضرائب التي كان يفرضها الأسياد الاقطاعيون على جميع البضائع التي كانت تمر عبر أراضيهم.

ولكن هذا لا يعني أبداً أن الطبقة الوسطى أو البورجوازية كانت مسؤولة عن نشوء الدولة القومية. إنها كانت في البداية أداة فقط في يد الملوك الذين كانوا يضعون الأسس والبنى التى أفرزتها ورسختها وطورتها. يجب ان لا ننسى، في الواقع، " بأن هذه الطبقة الوسطى كانت تخضع، هي الأخرى، للتقليد الاقطاعي والمحلى . فالمدينة كانت، في البداية، الوطن الأول لهذه الطبقة التي لم تكن في أغلب الأحيان أقل امتناعا من النبلاء عن القيام بتنازلات في سبيل المصالح القومية العامة. في البلدان التى لم تكن خاضعة فيها لنظام ملكى قوي ، كانت هذه المدن تتحول الى مسرح لصراعات اجتماعية وسياسية حادة فيما بينها".

مدن المانيا وإيطاليا الشمالية المترابطة تجاريا قاومت لمدة طويلة الاندماج في دولة قومية. خلقت اتحادات تجارية، كاتحاد " الهانس " الذي كان يضم مئات المدن، ولكن ، دون جيوش، بيروقراطيات، أو أنظمة مالية مشتركة. التركيب الذي ساد في أوروبا بعد القرن الخامس عشر. اي الدولة القومية، كان يختلف عن تركيب المدن والتركيب الاقطاعي بأنه كان، أولاً، يهيمن على منطقة موحدة واضحة الحدود. ثانيا، كان ذا " سلطة مركزة نسبيا ؛ ثالثا، كان يحتكر وسائل العنف ، المادي ضمن المنطقة التي يسودها. فالدولة الحديثة تختلف عن الدولة في القرون الوسطى في كونها وحدة مستقلة عن أية سلطة خارجية، مسؤولة كليا عن ممارسة السلطة في حدودها، تعترف بقانون واحد مشترك في أراضيها، ويحكمها حاكم

يدين له جميع المواطنين، دون استثناء، بالطاعة القانونية. البورجوازية لم تخطط لتطور كهذا، ولم تكن، في الواقع، تعي مجراه.

" لو أن تجار القرنين الثالث عشر والرابع عشر وضعوا تخطيطا سياسيا عاماً لأوروبا، لكانوا أغفلوا دون شك أية إشارة إلى الدولة القومية كظاهرة تاريخية، لأنهم كانوا ينشغلون ويهتمون أساسيا بالمدن، استمرارها والروابط القائمة بينها " .

ولقد قاومت، المناطق التجارية في المانيا الغربية، في الواقع، ضمها إلى دولة- قومية. فالدول الأوروبية الكبيرة نشأت أولا خارج الدائرة التجارية الأساسية في القارة والتي تمتد من الفلاندر وموانىء البلطيك، إلى إيطاليا. " التسويق المكثف لم يخلق الدول، ومن الممكن القول أنه حال دون تشكيلها " .

إن الارتباط التاريخي بين تطور الدولة- القومية وبين امتداد الرأسمالية كان موجودا، غيرأن هذا لا يعني أن الارتباط كان وثيقا أو لا يمكن تجنبه، وذلك لأن مشاريع الرأسمالية الأولى كانت غريبة عن حركة البناء القومي، كما أن الدول القومية الأولى كفرنسا وإسبانيا لم تكن مراكز أساسية للرأسمالية . " في أوروبا، لم تكن البورجوازية، بل العائلات المالكة هي التي خلقت أسس الأمم الحديثة. ثم ان البورجوازية لم تكن وحدها قومية، بل الكثيرمن النبلاء انفسهم، وفيما بعد الناس العاديون، البروليتاريا، والفلاحون " .

في آسيا، وخصوصا في افريقيا، حيث الطبقات البورجوازية، بالمعنى الغربي، غيرموجودة تقريبا وحيث نجد أنها كانت دائما ضعيفة وصغيرة، نستطيع بصعوبة القول أن الدول الجديدة تعود الى أو هى من صنع البورجوازية أو الرأسمالية. ثم ان القومية التي فرضت ذاتها على الأنظمة الشيوعية لم تكن هي الأخرى من صنع البورجوازية.

فى القرن السابع عشر تبلور معنى الشعور القومي، ولكن على قاعدة الدولة القومية التى كانت عملية بنائها تفرض نفسها ابتداء من القرن الثاني عشر على الاقل، وذلك عن طريق عائلات مالكة قوية. وكانت هذه الأنظمة الملكية تفكر وتعمل وكأنها وحدها تشكل هدف ولاء وطاعة رعاياها. ولكن، وكنتيجة غيرمباشرة لعمل هذه الأنظمة، وللوحدة القانونية والإدارية والثقافية والسياسية التي نتجت عن هذا العمل التاريخي، كان ولاء الرعايا ينتقل ويتركز تدريجيا على الوطن والأمة، إلى أن ابتدأ يعبر عن نفسه في القرن السابع عشر، ويفرض ذاته ابتداءاً من القرن الثامن عشر. هذا يعنى أن الدولة القومية تقدمت على الثورة البورجوازية، وكانت موجودة كإطار مادي- سياسى لهذه الثورة.

لقد كانت المبادرة الناجحة في خلق الدولة القومية، دائما، بشكل تقريبي، في يد النظام الملكي. وقد اعترف ماركس نفسه بهذا، فبعد أن يصف الدولة الفرنسية الحديثة أو " السلطة التنفيذية في جهازها البيروقراطي والعسكري الرهيب، وبآلتها الحكومية المصطنعة التي تشمل جماعات مختلفة عن طريق مجموعة كبيرة من الموظفين تبلغ النصف مليون " . يخلص إلى القول " بأن هذه السلطة التنفيذية نتجت عن أيام الملكية المطلقة، ومع انحلال النظام الاقطاعي الذي عجلت به ".

القومية الالمانية، مثلا، كانت حركة طبقة وسطى في معظم القرن التاسع عشر، ولكنها كانت تتطلع الى انتفاضة من تحت، تتمثل في جماهير متحمسة لها. محاولة توحيد المانيا بهذا الشكل فشلت بوضوح عام ١٨٤٨- ١٨٤٩. في ذلك الوقت حاولت الجمعية القومية في فرانكفورت أن تمارس سلطتها على المانيا كلها، وتوفرت لها فرصة لذلك عندما شلت الثورة مؤقتا برلين وفيينا، وكان يسيطر عليها ليبراليون يريدون المانيا فيدرالية ذات نظام ملكي دستوري، ولكنها فشلت في المحافظة على سلطتها، أو في البقاء أمينة لمبادئها القومية. في عام ١٨٤٩، عندما أصبح عجزها واضحا واسترجعت برلين وفيينا سيطرتهما- السابقة، أرسلت الجمعية القومية وفداً إلى برلين يعرض التاج الامبراطوري على ويليام فردريك الرابع، ملك بروسيا. ولكن هذا الأخير رفض، بإرشاد من وزرائه، العرض قائلا، " إنني لا أستلم التاج من الحمأة "، مما يعني أنه يقبل التاج فقط من الأمراء الالمان الذين كانوا غيرمستعدين آنذاك للتنازل عن سلطتهم، فلقد مثل عام ١٨٤٩ فشل القومية الليبرالية، أو فشل البورجوازية في توحيد المانيا.

فجاء هذا التوحيد من " فوق ". بدأت العملية عام ١٨٦٢، عندما أصبح بيسمارك رئيس وزراء بروسيا. وفي عشر سنوات أعلن ثلاث حروب سريعة ضد الدانيمارك ، النمسا، وفرنسا، قادت إلى المانيا موحدة تحت هيمنة بروسيا. فليست المانيا هي التي أمتصت بروسيا، بل قامت الأخيرة بضم الأولى، وبموجب شروطها.

وتنطبق المعادلة نفسها على إيطاليا، وروسيا، وإسبانيا، وفرنسا، الخ... من ناحية أخرى، يمكن القول " أن التوسع التجاري الاقتصادي الأوروبي نفسه، في نهاية القرون الوسطى، وبداية الازمنة الحديثة، كان وثيق الارتباط بظهور الدولة- القومية ، لأن ملوك ورعايا هذه الدولة في البرتغال، إسبانيا، هولندا، فرنسا، وانكلترا، الذين تبنوا رحلات الاستكشافات الجديدة التي استعمرت أماكن بعيدة " .

وأخيراً يجب أن لا نغفل استخدام العنف أو القوة العسكرية في الإشارة إلى الوسائل التي كان النظام الملكي يعتمدها في توسيع نطاقه، وفي عملية الدمج السياسي الذي كان يحققه. " ملوك القرن الخامس عشر، القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر، اعتمدوا الحرب في إرغام إمارات إقطاعية صغيرة على الاذعان لسلطة مشتركة، وبعد ترسيخ حكمهم في القرون التالية، خلقوا أمما نتيجة السلطة التي وفرتها لهم السيادة العسكرية على الإدارة المدنية، الاقتصاد القومي، والرأي العام " .

قبل قيام الدولة- القومية، كانت هناك مجالس تمارس السلطة في جميع مستويات الحياة السياسية، من القرية إلى الامبراطورية. ولقد قاومت هذه المجالس حركة الدمج السياسي التي قامت بها الأنظمة الملكية، ولكنها لم تكن وحيدة في ذلك، فبالاضافة إليها كان هناك ثلاثة قطاعات كبيرة تشارك في هذه المقاومة، وهي: أولاً ، الشعب : الذي يطلب منه تقديم الرجال، والمال، واليد العاملة، وفي بعض الأحيان، الأرض نفسها؟ ثانيا، السلطات المحلية : التي كانت تواجه ضغطاً مستمراً للتنازل عن امتيازاتها واستقلالها؟ وثالثاً ، المنافسون الآخرون : الذين كانوا يريدون هذه السيادة الجديدة لأنفسهم .

وعلى الرغم من الفكرة الشائعة حول سهولة القيادة ، على الأقل في مرحلة نشوء الدولة القومية الحديثة، فإن الشعب في أوروبا قاوم آنذاك طيلة قرون بدعوى ومطالب الدول المركزية. ففي انكلترا، مثلا، كان على التيودورز إخضاع تمردات شعبية عديدة، عام ١٤٨٩ ، عام ١٤٩٦، عام ١٥٣٦، عام ١٥٤٧، عام ١٥٤٩، عام ١٥٥٣، الخ... كانت هذه الانتفاضات الشعبية رداً على سياسة التاج الرامية الى تركيز السلطة. بعد عام ١٦٠٠ خمدت هذه التمردات إلى حد كبير. ولكن على الرغم من ذلك ، فإن ثورات القرن السابع عشركانت تعود مباشرة إلى جهود الستيوارت في تركيز السلطة في التاج .

أما حركة التوحيد السياسي في فرنسا، فلم تكن أقل عنفا. فالحروب الدينية في القرن السادس عشر مثلا، كانت تدور إلى حد كبير حول تناقض الامتيازات الملكية مع الحريات المحلية.

وقد استطاعت الأنظمة الملكية الجديدة فرض إراداتها على المنافسين وعلى الشعب عبر قرون من الجهود القاسية والحروب. في جميع هذه الجهود كان الملوك يجدون غالبا أن السلطات المحلية كانت تتحالف مع الشعب ضدهم.

ولكن في نهاية القرون الوسطى، عندما بدأت دول أوروبا الغربية تأخذ شكلها النهائي، ابتدأ الشعب يرحب من ناحية عامة بهذا التطور الذي " كان يجد صدى إيجابيا لديه وإن كان يعود إلى مبادرات ومطامح العائلات المالكة، وذلك لأنه كان يشكل مخرجا وحلاً للفوضى التي كانت تسود القرن الخامس عشر، الحافل بالحروب الخارجية والأهلية التي كانت تهدد بانهيار جميع أشكال التركيب الاجتماعي آنذاك ".

المنافسون كانوا عديدين، أمراء، ودوقات، وأساقفه، وملوك آخرون، كان يجب الانتصار عليهم كلهم وتطويعهم من أجل بناء الدولة الجديدة.

التوحيد السياسي تحقق مباشرة عن طريق الشعب في دول اتحادية قليلة، بين أجزاء متساوية، أو في اتحاد إرادي تحت رعاية شريك أقوى من الآخرين. اما في الحالات الأخرى، فقد حدث التوحيد عن طريق القوة العسكرية، المصادرة، الشراء، الزواج ، الوراثة، الخ. ولم تكن إرادة الشعب تؤخذ بالاعتبار، والغاية الوحيدة كانت توسيع سلطة العائلات المالكة والحدود الاستراتيجية، إخضاع أقاليم توفر منافع اقتصادية تكمل الانتاج المحلى، وكسب دافعي ضرائب، وجنود آخرين .

من ناحية عامة يمكن أن نقسم عمليات التوحيد السياسي في التاريخ إلى أنموذجين أساسيين ، الأنموذج العسكري الذي تتم فيه عملية التوحيد عن طريق القوة العسكرية التي يمارسها جزء معين ضد الأجزاء الأخرى ؛ والأنموذج الاتحادي أو الفيدرالي . وفيه ، تلتقي وحدات سياسية معينة ، وتقرر بملء إرادتها أن تتنازل عن سيادتها والاندماج في كيان سياسي جديد. هذان الأنموذجان هما، في الواقع، مفهومان مجردان مفيدان في تنسيق الأحداث التي ندرسها، ولكنهما لا يقدمان وصفاً موضوعياً دقيقاً لعمليات التوحيد بين كيانات سياسية مختلفة، وذلك لأنه ليس من عملية عسكرية توحيدية تعتمد القوة فقط . كما أنه ليس من عملية توحيد فيدرالية تعتمد الاقناع أو الاجماع الصرف. فالدولة التي تسود عن الطريق الأولى تجد دائما في الأجزاء الأخرى قطاعات عديدة من الموالين لعمليتها التوحيدية. والوحدات السياسية التى تتحقق عن الطريق الثانية لا تصنع ذلك بموافقة إجماعية، لأن أعدادا كبيرة من السكان تجد نفسها مرغمة على القبول بهذه الدولة الجديدة لأن الرفض قد يخلق نتائج وخيمة بالنسبة لها. أو لأن الأوضاع التي تمر فيها تفرض عليها اللجوء إلى هذا الحل الاتحادي وإن كانت مبدئيا غير راغبة فيه.

عملية التوحيد السياسي كانت أساسيا تتحقق عن طريق القوة العسكرية، وتستمر عن طريق العنف والخوف، إلى أن تستقر أنظمتها سياسيا ونفسيا. لهذا كان يحب، كي تكون العملية ثابتة، أن تعتمد على عناصر أخرى أقوى وأهم في المدى البعيد، وهي موافقة الأطراف أو الأقاليم التي تمتد إليها. وإرادة شعبية عامة تدعمها. في بعض الأحيان نجد الوسيلتين جنبا إلى جنب، كما حدث في الولايات المتحدة. ولكن في الأكثرية الساحقة نرى أن الموافقة العامة كانت تتأخركثيراً عن ممارسة القوة وتأتي كنتيجة بعيدة. فانكلترا، مثلا، سيطرت على والز عام ١٢٨٢، ولكن الاتجاه نحو الاتحاد السياسي الذي يقوم على الموافقة لم يحدث حتى عام ١٤٨٥. الفتح الأول لم يحقق اي دمج رئيسي للأنظمة القانونية والادارية والاجتماعية، والتوحيد النهائي لم يتحقق، في الواقع، قبل عام ١٥٣٦. من ناحية أخرى، إن الاتجاه نحو إقامة الوحدة السياسية قد يبدأ قبل تحقيقها بفترة طويلة، كما نرى في تجارب سويسرا، و المانيا، وإيطاليا.

عندما نراجع التاريخ السياسي لتجارب التاريخ الوحدوية، نجد أن الوحدات التي تمت عن الطريق الفيدرالي مفقودة تقريبا في الشرق، وأنها قليلة جداً في الغرب. الأمثلة التى تتبادر إلى الذهن في تجربة هولندا، سويسرا، والولايات المتحدة، وعلى صعيد أقل أهمية تجربة كندا، وأوستراليا. ولكن يجب استثناء تجربة الولايات المتحدة ، إن نحن تجاوزنا بدايتها إلى مرحلة تطورها ونموها، لأن المرحلة الثانية كانت

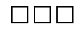
تحتاج إلى حرب أهلية رهيبة في توكيد ذاتها عندها فرضت الدولة الاتحادية أو الولايات الشمالية، بالقوة العسكرية ، على الولايات الجنوبية البقاء في الاتحاد . من ناحية أخرى ، يجب التنبيه الى ان التمهيد لهذه التجارب " الاتحادية "، حدث، كما نرى بوضوح في التجربة الاميركية، في مرحلة كانت فيها السلطة الاستعمارية تعامل كمنطقة واحدة، كوحدة ، الأقاليم أو الولايات التى اتحدت. هذه السلطة خلقت بينها تقليداً اتحاديا، وارتباطا بسلطة مركزية تمثلها كلها. بالاضافة إلى ذلك يمكن الاشارة إلى " جامعتين " في اليونان القديمة ، جامعة Achoen وجامعة Aetolien، تقعان في هذا النوع وإن كانتا من النوع الكونفيدرالي وليس الفيدرالي .

من هنا يتضح أن " أكثرية عمليات التوحيد السياسي كانت تتم عن طريق ما أسميه " بالأسلوب الامبريالي " . الدراسات السياسية التاريخية في نشوء وتطور الدولة، دلت بوضوح أن عملية التوحيد السياسي لجماعات عديدة ومتناقضة في كيانات سياسية جديدة، كانت تعتمد القوة العسكرية. الصراع بين القبائل المختلفة وسيادة بعضها على البعض الآخركان العامل الأساسي في توسيع الكيانات الاجتماعية ونشوء الدولة . " لقد برزت الأمم كلها عن طريق الحروب والصراعات المختلفة" . توحيد شعوب منفصلة، أو كيانات سياسية مستقلة بوسائل سلمية كان ظاهرة نادرة الوقوع . " أسلوب التوحيد، الأكثر تكراراً واعتياداً كان دون شك هزيمة شعوب منافسة، ولكن شرط أن يتم دمجها في حكومة مشتركة " .

هذا التفسير الذي يدل أن القوة العسكرية كانت سبب ظهور الدولة والاتحادات السياسية الجديدة، يكشف أيضاً أن أشكال التركيب الطبقي الأولي نتجت عن العمل العسكري أو الفتح . فالقبيلة التى كانت تتغلب على قبائل أخرى ، كانت تستثني هذه الأخيرة من مراكز القيادة، وتستخدم قسما من إنتاجها لمصلحتها. فجميع أشكال السيطرة السياسية الأولى كانت أشكالاً أجنبية ، أي أشكالا يمارسها المنتصر على المهزوم، وتحول المنتصرين إلى طبقة ذات امتيازات عديدة تحكم المغلوب وتستثمره في سبيل مصالحها.

من ناحية عامة، يمكن القول أن أشكال الدمج السياسي الأولى برزت كنتيجة لغزو كانت تقوم به القبائل البدوية، وتفرض كنتيجة له سيطرتها على الجماعات الزراعية المستقرة . دراسات كدراسات جامبلوفيتش ، راتزنهوفر، أوبنهايمر، التى كانت الأولى في التركيز المنظم على هذه الظاهرة، أشارت بأن جميع الدول المعروفة في التاريخ تتميز عادة بسيادة طبقة تمارس سيطرتها بغية الاستثمار الاقتصادي، وأن أصل الدولة يعود إلى الغزو والفتوحات. فالرعاة كانوا يغزون المزارعين ويقتلونهم في البداية. ولكن فيما بعد أخذوا يفيدون منهم، ومن ثم سكنوا بينهم كأرستقراطية تدافع عنهم وتقاسمهم منتوجاتهم . " البنى السياسية "، كما كتب هربرت سبنسر في كتاب " مبادىء علم الاجتماع " كانت في كل مكان تنتج عن الحروب بين جماعات مختلفة ".

من هنا انتقل الفكر الاجتماعي السياسي إلى الاستنتاج بأن الحضارة نفسها كانت نتيجة الحرب، أو بالأحرى ظهرت كنتيجة غيرمباشرة لها، وذلك لأن الانتقال من الطور القبلي إلى الدولة السياسية كان ضروريا في وضع الأسس التي يحتاجها ظهور الحضارة . " الحضارة كانت نتيجة وسبب الروح الحربية. اذ خلقت عادة الحروب أساساً لتجمعات أكبر .... ولكن هذا لا يعني أن الحرب كانت تقدمية في الأطوار اللاحقة " . ولكن هذا القانون العام كان يفرض نفسه، وكان، دون شك، تقدميا في أطوار التاريخ الأولى إذ " يظهر أن تنافس الجماعات المختلفة في العصر الحجري ... كان العنصر العام الذي قاد إلى تطور جامعات الدمج القبلية... وأنه لولا المشاكل السياسية الخارجية لما تحقق هذا الدمج القبلي .... وأن متطلبات الدفاع والهجوم كانت، كما يبدو، العناصر المختارة التي دلت على أهمية التحالف والوحدة ".



هذا البحث في نشوء الدولة القومية الحديثة يدل بوضوح أن النظام الملكي كان قاعدة هذا النشوء. " فكي يمكن بناء أمة، وجب أن يتم البناء حول محور، وهذا المحوركان يتمثل في الملك، في أواخر القرون الوسطى".

الدولة القومية الحديثة التي ابتدأت بالتبلور، ابتداء من القرن السادس عشر، كانت كما رأينا تعتمد في تطورها ونموها على تركيز السلطة في يد ملك يمارسها في إخضاع الأمراء الآخرين . " فالأمراء الأتوقراطيون هزموا الأمراء غير الاوتوقراطيين في القرن السادس عشر " . النظام الملكي كان إذن القاعدة التي نشأت فيها وحولها الدولة القومية الحديثة . " إن مفهوم مركب الدولة كله تشكل حول شخص الملك الالهي " .

الوسائل الست الأساسية التي ذكرناها فيما تقدم بين الوسائل التي اعتمدها النظام الملكي في تحقيق الوحدة السياسية الداخلية، كانت تؤدي تدريجيا إلى ظهور شعور قومي واحد، ووعى لهوية قومية خاصة بالشعب الذي يسكن في الحدود الاقليمية التي يشملها هذا النظام . أما الأسباب التي دفعت إلى ذلك فهي:

١- حاجة النظام إلى إعلان قوانين واتخاذ إجراءات تكون واضحة ومفهومة من الجميع، أدت إلى إلغاء اللاتينية واستبدالها التدريجي باللغة المحلية كأداة تنظم الاتصالات اليومية . هذه اللغة كانت عادة لغة البلاط.

٢- بالإضافة إلى اللغة الواحدة، كان النظام يحتاج إلى قوانين واحدة تشمل جميع المقاطعات التي يمتد إليها. خلقت هذه القوانين الى جانب اللغة، رابطة أخرى بين الأجزاء والأفراد الذين تتشكل منهم الدولة.

٣- ظهور طبقة التجار الجديدة والأجهزة البيروقراطية التي كانت تعنى بروز طبقة أو أعداد ضخمة أخرى في خدمة الملك، وقد قاد هذا إلى وجود زيادة كبيرة في اعداد " المستفيدين من الملكية ، يعني في الوقت نفسه زيادة كبيرة في عدد الذين يتمتعون وبالتالي الذين أصبح لهم مصلحة في الوطن، وفي حماية وحدته وحدوده .

٤- ظهور لغة قومية ذات أدب قومي خاص، وقوانين واحدة، وطبقة جديدة تعبر عنها أفكار وتصورات جديدة، كان يقترن بظهور ثقافة وتربية علمانيتين . إن انهيار احتكار الكنيسة للغة كان يعني أيضا نهاية احتكارها للتربية. وقد قاد هذا إلى فصل التربية والثقافة عن تقليد الكنيسة العالمي (Universal)، وربطهما بالتقليد الجديد في كل دولة خاصة ، أي بتقليد سيصبح سريعا التقليد القومي.

٥- التحولات التي كانت تترتب على ظهور هذه العناصر السياسية، القانونية، الاقتصادية، اللغوية، والثقافية، والتي كانت تتضافر في صنع الشعور القومي ، وجدت دعما اضافيا لها في الاحتكاك العدائي الذي كان يحدث بين هذه المجتمعات القومية الحديثة الظهور.

٦- غير أن استمرار الكنيسة في نظامها العالمي كان يحول دون تكامل مفهوم الأمة الحديث. فالثورة على روما، التي كانت تعود إلى بواعث دينية وأخلاقية واقتصادية أدت إلى نتائج سياسية لا تقل أهمية عن النتائج الدينية. اعتبار لوثرمن رواد القومية الالمانية لم يكن من قبيل الصدفة. فحركة التمرد على السلطة البابوية كانت تعنى تحويل هذه السلطة إلى الملك أو إخضاع الكنيسة له. هنا أيضاً نجد أثر ودور النظام الملكي الذي دعم هذا التمرد. الملك هنري الثامن كان في الواقع هو الذي اتخذ الخطوات الأولى في رفض سلطة البابا.

٧- اتاح النظام التمثيلي الذي ولد في غربي أوروبا، وخصوصا في انكلترا، والذي ساهم الملوك بقدركبير في خلقه، للمواطنين بأن يشعروا أن لهم قسطا ومسؤولية شخصية في الدولة، وقد حرك هذا وعيهم السياسى وطوره. المبدآن الأساسيان اللذان تقوم فيهما الديمقراطية الحديثة، مبدأ التمثيل الشعبي، ومبدأ الأكثرية، يرجعان في جذورهما إلى هذه التجربة التي أراد الملوك منها خدمة مقاصد السلطة . وقد مارس هذان المبدآن دوراً كبيراً في تشكيل الوحدة القومية والوعي القومي، وذلك لأن البرلمان الذي كان يعبر عنهما كان يتجاوز الحدود والحواجز المحلية والاقليمية، يولد رأيا عاماً ، ويفرز مشاعر وروابط مشتركة.

هذا الدور الذي مارسه النظام الملكي بهذا الشكل لا يعود طبعا الى ارادات فردية وعائلية، أو رغبات شخصية في السلطة استطاعت أن تبلور التاريخ في خدمتها، بل إلى قوى تاريخية جديدة عبرت عن ذاتها في إرادات ورغبات من هذا النوع . فعلى الرغم من التفريط الكبير بالسلطة، كانت الأنظمة الملكية تطورا تاريخيا طبيعيا، وفي كثير من النواحي إيجابيا، وذلك لأن التاريخ أفرز حاجة كبيرة إلى وضع نهاية للنظام الاقطاعي والفوضى الناتجة عنه، وخلق أساسا سياسيا اقتصادياً صلباً لحضارة جديدة.

الفصل الثاني

دور الدولة كقاعدة في بناء القومية والأمة

الوقائع التي أتينا على ذكرها في الفصل السابق تجعل من الطبيعي الانتقال إلى القول بأن الدول الجديدة التى خلقتها الأنظمة الملكية في أوروبا كانت هي التي تخلق مع الوقت ثقافات، وبالتالي هويات قومية خاصة. فالأنظمة الملكية الكبيرة في القرون الوسطى، هي التي خلقت الوحدات السياسية أو الدول التي دفعت إلى ظهور لغة واحدة وثقافة مشتركة. هذه الدول " كإنكلترا، وفرنسا، وبوهيميا، وهنغاريا، الخ.. كانت نتائج سياسية. قومياتها الثقافية نمت من عناصر مختلفة في رعاية الأنظمة الملكية " .

إن الدول ذات السلطة المركزة التي سحقت الاقطاعية في غربي أوروبا هي التي خلقت أساس القومية. لهذا فإن " القومية الحديثة كانت تستحيل قبل أو لولا ظهور الدولة الحديثة بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر " ، وكانت هذه السلطة تضعف الفروق القائمة بين الأقاليم التى تمتد إليها، وبالتالي تشجع نمو المشاعر القومية الواحدة.

عندما ابتدأت الأنظمة الملكية في بناء دولها، لم تكن الشعوب التي امتدت إليها تشكل أية قومية خاصة بها. " نمو القومية كان عملية دمج لجماهيركبيرة من الناس في شكل سياسي موحد، تفترض القومية إذن، في الواقع أوكمثال، وجود سلطة حكومية مركزة تمتد إلى أرض واسعة متميزة. الملكية المطلقة هي التى خلقت أولا هذا الشكل السياسي ، وبذلك حددت طريق القومية الحديثة . الثورة الفرنسية ورثت وتابعت هذه الاتجاهات (الملكية) نحو التركيز ، ولكنها في الوقت نفسه غذت النظام المركزي بروح جديدة ، وقدرة على الوحدة لم تكونا معروفتين سابقاً " .

إن تشكيل الدول القومية ، سواء في العصور الوسطى (عن طريق الملكية الإقطاعية) أو في العصر الحديث ، كان عملية سياسية لم تمارس فيها الفروق العرقية ، واللغوية ، والثقافية سوى دور ثانوي .

أميركا شمالا وجنوبا ، افريقيا وآسيا بعد الاستقلال ، تعبر عن الظاهرة نفسها : ظاهرة الأمم السياسية ، ولكن سويسرا لا تزال المثل الكلاسيكي .

تكوين الدولة ، الأرض ، أو اللغة القومية ، لم يكن نتاج نمو الشعور القومي ، بل أن الشعور القومي كان نتاج هذا التكوين الذي نتج بدوره عن سياسة الانظمة الملكية الدمجية . ففي أوروبا حيث مسرح القوميات الحديثة ليس هناك من أمة واحدة ، لم تتشكل من شعوب مختلفة كانت - ولا تزال في بعض الأحيان - تتميز بكيانات خاصة بها ، وتتكلم لغات متباينة ، وتعود إلى أصول وثقافات مختلفة ، ولكنها دمجت في وحدة قومية سياسية واحدة عن طريق الدولة .

القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي دفعت نحو التوحيد السياسي وخلق الأمة أو القومية الحديثة ، كانت تعكس تطور أوروبا التاريخي ككل . في أوروبا الوسطى وفي جنوبها ، وبشكل خاص في المانيا وإيطاليا تقدمت ولادة الثقافة القومية على الوحدة السياسية الفعلية بدرجة أكبر مما حدث في غربي أوروبا . إذ السياسة هي ، في الواقع ، جزء من الثقافة العامة ، وكما نرى في مسألة الدجاجة والبيضة ، يصعب تحديد أولوية الواحدة ، على الأخرى . " ولكن من ناحية عامة ، ليس من شك بأن السمات الثقافية الخاصة تشكلت في نفس القرون التي كانت تتم فيها عمليات الدمج السياسي " .

الدولة الروسية هى التي وفرت الأطار الذي دمج عشرات القوميات في هوية قومية عامة . والدولة الفيدرالية في الولايات المتحدة هي التي كانت الأداة في صهر عدد كبيرمن القوميات في قومية أميركية واحدة ، وهكذا دواليك ! . " في مجمح سياسي كبير نجد أن المشاعر الوطنية والقومية كانت نتيجة ، وليست سبب عمليات تاريخية وسياسية أدت إلى التوحيد السياسي " .

بما أن توفر شعور قوي ، أو ولاء لهوية قومية واحدة ، يعني أولا مشاركة في حياة سياسية واحدة تسمح بولادة الشعور والولاء ، وبما أن هذه الحياة تفترض سلطة مركزية تعبر عنها ،فإن هذا يعني أن الأمة كانت تحتاج إلى خلفية الدولة التي تسمح بظهورها . هذا لا يعني أن بناء الدولة يقود آليا إلى بناء الأمة ، بل أن بناء الأمة قد ينتج عن بناء الدولة . بعد مراجعة التركيب الثقافي في كثير من الأمم ، يستنتج إمرسون بأن " مفهوم الثقافة القومية الواحدة التى تحدد حياة مجتمع ما ، وتشمل جميع سكانه ، هو مفهوم عظيم ، ولكن ضعفه الأساسي يكمن في بعده عن الواقع التاريخي " . لهذا نبه مؤرخون ومفكرون عديدون بأن النقطة التي كان يجب توكيدها حول القومية الحديثة هى أن السياسة جاءت أولا ، والثقافة القومية تأسست فيما بعد .

كل وحدة لغوية تقريبا كانت في الأصل نتيجة وحدة سياسية سابقة . الثقافة كانت تنمو وتمتد من قاعدة مركزية . عند الرجوع ، مثلا ، إلى أعرق قوميتين أوروبيتين ، نرى بوضوح هذه الظاهرة ، فمن

القاعدة الثقافية التي قامت في باريس ولندن نمت حركة ثقافية إلى الأجزاء الأخرى ، والثقافة التي أفرزتها أصبحت الثقافة القومية . في مطلع القرن الثالث عشر أصبحت كل من باريس ولندن ، ليس فقط عاصمة الحياة السياسية والاقتصادية ، بل الثقافية أيضا ، ومع انتشار نفوذهما ولغتهما ، ازداد الوعي القومي . وقد ذكر مونتسكيو ، الماضي بشيء من الحنين " عندما كانت كل قرية عاصمة " . ففي زمانه كانت هناك عاصمة واحدة فقط : باريس . " فلكي يمكن إجراء عقد تجاري " ، كما كتب ، " انهاء دعوى ، الحصول على خدمة ، يجب الذهاب إلى باريس " . تفوق لندن وباريس الذي كان يعود أساسيا إلى موقعهما الجغرافي والاقتصادي ، سهل بروز وامتداد اللغة الباريسية في فرنسا ، ولغة الأراضي الوسطى الجنوبية - الشرقية في انكلترا كاللغة القياسية فيها . لغة باريس لم تكن عامة حتى في أواخر القرن الثامن عشر ، وتعميمها كان ، في الواقع ، أحد الأعمال والمنافع التي نتجت عن الثورة . فالسلطة المركزة التي مارستها عممت اللغة الفرنسية وفرضتها في كافة أجزاء البلاد التي كان بعضها يستخدم لغات محلية ، وبذلك أنهت ما قام به النظام الملكي .

إذ الناس الذين عاشوا في ظل دول كانت تزداد تماسكا كوحدات سياسية واقتصادية ، كانوا يزدادون وعيا لوضعهم المشترك ، وينمون ثقافة عامة ، وقد انتج كل ذلك شعور الدولة — القومية.

على الرغم من توكيده الكبير على اللغة كأساس للقومية ، يكتب هايز ، مؤرخ القومية المعروف ، بأن " الاختلاف في التقاليد التاريخية ، وتوكيد التباين الثقافي ، حقيقيا كان أم خياليا ، وخصوصا عندما يكونان مدعومين بالانفصال السياسي ، قد يرجحان قوة على اللغة الواحدة ، وبالتالي يخلقان قومية أخرى مستقلة بشكل مطلق تقريبا " . ثم يضيف في مكان آخر ، بأن " نمو القوميات الفرنسية والإنكليزية والإسبانية كان قد تقدم عليه امتداد سيطرة ملوك فرنسا ، وانكلترا ، وإسبانيا السياسية " . كانت اللغة الواحدة إذن نتيجة الدولة الواحدة . كانت تنمو وتمتد لأن الملوك وحكوماتهم كانوا ، مع استخدام قوانين وضرائب وجيوش واحدة ، يحتاجون إلى فرض لغة واحدة . لقد كسبوا الناس للغة واحدة . لأن هؤلاء وجدوا أنه من المناسب اعتماد لغة واحدة في حياتهم الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية . وكانت اللغة ، بعد استقرارها واستخدامها في الكتابة ، تنمو من ذاتها وتتحول إلى شيء عادي ، الاستخدام كان يقود إلى ويحث على استخدام أكبر .

لغة أميركا اللاتينية ، من إسبانية وبرتغالية ، كانت نتيجة السيادة الإسبانية والبرتغالية . ولغة شمالي أميركا . ، وأوستراليا ، ونيوزيلندا ، كانت نتيجة السيادة الانكليزية . هذه الأخيرة كانت مسؤولة عن لغة الهند وبعض دول أفريقيا أيضاً . استخدام اللغة العربية عبر الوطن العربي كان هو الآخر نتيجة السيادة العربية التي جاءت مع الفتح العربي .

على الرغم من أن المعنى الأصلي لكلمة الأمة (nation) يوحي بأصل واحد ، ليس هناك من دولة واحدة بين الدول القومية في اواخر القرون الوسطى ، تستطيع ان تزعم بحق أية درجة من النقاء العنصري . وينطبق الشيء نفسه تقريباً على اللغة ، حيث لا نجد لغة واحدة تسود بشكل تام في معظم الدول الأوروبية ، أهم شذوذ كان على الأرجح في البرتغال التي ظهرت فيها وحدة اللغة بشكل مبكر . اما في الدول القومية الأخرى حيث كان يمكن للغة واحدة " أن تكون مصدر قوة كبيرة في خلق نفسية واحدة وتقوية وحدة الدولة . ولكنها كانت ظاهرة متأخرة على ظهور الدولة " .

المجتمعات القومية التي تستخدم لغة واحدة فقط قليلة جداً . حتى في فرنسا وبريطانيا ، أعرق الدول القومية الحديثة في أوروبا ، نجد بعض اللغات المحلية ، البريتون والباسك في الأولى ، والوالش في الثانية . هنا نرى أن الدولة ظهرت ، استقرت وأصبحت موحدة الأجهزة والسلطة قبل تكريس واستخدام لغة واحدة في جميع أجزاء البلاد ، في التربية ، والتعليم ، والإدارة ، الخ . . ضرورة استخدام لغة واحدة في جميع مجالات الدولة والمجتمع ابتدأت تفرض نفسها بدءاً من القرن الثامن عشر فقط . شيوع لغة واحدة كان يعني شعوراً بالقرابة ينتقل من العائلة والقبيلة إلى شعوب بأكملها ، وبالتالي كان يشكل عنصراً أساسياً في دعم عملية التوحيد السياسي التاريخي . هنا يجب الإشارة إلى ان تقدم الثقافة القومية النسبي على الوحدة السياسية في ألمانيا وإيطاليا ، كما أشرنا فيما سبق ، لم يكن يعني أن شعب كل منهما كان متحداً ومخلصاً لايطاليا أو لألمانيا ككل . فعلى الرغم من أن الايطالية أو الألمانية كانت تشكل اللغة المشتركة ، وعلى الرغم من وجود ثقافة يمكن تحديدها بأنها ثقافة ايطالية أو ألمانية ، فقد كان من الضروري تطويع ودمج ولاءات قديمة ومحلية واقليمية عديدة في الهوية القومية الجديدة . إن صنع أمة جديدة من الشعوب المختلفة التي كانت تتكون منها كل من ايطاليا والمانيا لم يكن قد تم عند تحقيق الوحدة ، بل احتاج إلى وقت طويل فيما بعد ، ولم يكن على الأرجح قد نضج واكتمل عند تسلم هتلر وموسوليني للسلطة . فالذي يقرأ كتابات هتلر وتوكيده المستمر على ضرورة الشعور القومي الالماني الموحد ، يرى أن هذه الوحدة القومية لم تكن قد تمت بعد على الرغم من نصف قرن من الوحدة السياسية . إن كافور لم يكن قوي النزعة الإيطالية أو الشعور الوحدوي . وبيسمارك لم يكن قوميا المانيا متحمساً . كلاهما أراد تقوية دولته الخاصة ، لكن من اجل أن يكون هذا ممكنا ، كان عليهما قيادة حملة قومية أنتهت بخلق دولة إيطاليا ودولة المانيا .

إذا عدنا إلى الوراء بدرجة كافية ، نجد أن ليس هناك من لغة أوروبية واحدة كانت متداولة بين أسلاف الامم الحالية . الدولة هى التى – في أوروبا ، أميركا ، افريقيا ، آسيا – فرضت عادة اللغات الرسمية التي أصبحت لغات الشعوب القومية .

□□□

اللغة ، وإن كانت عاملا أساسيا ، لا توفر في كثير من الأحيان المقياس أو العامل الكافي فى تحديد القومية .

عندما عقدت معاهدات الصلح عام ١٩١٩ ، افترض أن الشعوب التي تتكلم اللغة نفسها أو لغات متماثلة ، تريد تشكيل أمة واحدة . هكذا تشكلت تشيكوسلوفاكيا ، من التشيك والسلوفاك ، ويوغسلافيا من الصرب ، الكرواش ، والسلوفين ، هذه التشكيلات الجديدة جابهت معارضة ليس فقط من الأقليات ، بل من القوميات المميزة فيها ، كالسلوفاك والكرواش .

في بعض الحالات جعلت هذه المعاهدات مسألة التكوين السياسي الجديد مرتبطاً باستفتاءات عامة كان يفترض فيها التعبيرعن الأمة أو الدولة التى يريد الشعب الانضمام إليها . من الجدير ملاحظته أن نتيجة هذه الاستفتاءات كانت في بعضها تعارض الافتراض القائل بأن اللغة كافية في تحديد القومية .

فالسلاف في بروسيا الشرقية ، وكثيرون من السلوفين في كارينتيا ، فضلوا الانضمام إلى المانيا أو النمسا بدلا من الانضمام إلى دول سلافية . وسكان أودينبرغ الذين يتكلمون الالمانية فضلوا الانضمام إلى هنغاريا ، وسكان هولشتين الذين يتكلم ثمانون بالمائة منهم التشيكية ، والذين ضموا الى تشيكوسلوفاكيا ، عارضوا هذا الضم وصوتوا لحزب الماني قومي .

في البلقان نجد شعوبا كانت على الأغلب تتكلم لغة سلافية واحدة في الماضي قد انقسمت إلى جماعات ذات لغات محلية نشأت حول بلغراد ، وصوفيا ، ومحاور بلقانية أخرى . فهناك الآن على الأقل ست لغات سلافية . يعود هذا الانقسام إلى العزلة التي فصلت بين هذه الشعوب ، وإلى فقدان حكومة واحدة مستقرة تحفظ وحدتها ، وإلى كون التطور الاقتصادي في البلقان كان أكثر بطأً بكثير مما كان عليه في الغرب .

الاتحاد السوفياتي يضم ما لا يقل عن عشرين لغة أساسية ، لا يقل حجم أصغر الجماعات التي تتكلمها عن مليون من الناس . ولكن اذا أضفنا إلى هذا جماعات أخرى أصغر فإن العدد يحلق عاليا ، ويبلغ ، حسب إحصاء أخذ في العشرينات ، مائة وتسعا وثمانين .

اليقظة القومية في إرلندا هي التي قادت إلى المطالبة بلغة الجاليك (Gaelic) وبإحيائها ، تلك اللغة لم تتقدم هذه اليقظة .

اللوكسمبرغ تتكلم لغتين ، الالمانية والفرنسية ، وبلجيكا تتكلم لغتين ، الوالون ، والفليميش . وسويسرا تعتمد ثلاث لغات رئيسية ، الالمانية ، الفرنسية ، والإيطالية . كندا تستخدم لغتين ، الفرنسية والإنكليزية .

سكان والز كانوا يتكلمون لغة غير الانكليزية ، ولا يزال هناك أكثرمن مليون بينهم يتكلمون هذه اللغة . اتخذت والز لغة وقوانين وأجهزة انكلترا الادارية بعد وحدتها معها . واسكتلندا اتخذت عن الاخيرة أيضا لغتها وأنظمتها وقوانينها بعد اتحادها معها ، وذلك بعد حالة حرب استمرت ثلاثة قرون .

أما لغة ثلثي سكان النروج فهي لغة محورة عن اللغة الدانيماركية ، وترجح في تاريخها الى الاتحاد الطويل الذي كان يضم النروج والدانيمارك ، والذي انتهى عام ١٨١٤ .

الالزاس كانت دائما المانية في لغتها ، والمانية أيضا في شعورها . ولكن بعد أن ضمها لويس الرابع عشر إلى فرنسا أصبحت مع الوقت فرنسية في مشاعرها .

سكان الريفيرا الفرنسية الحالية ، مثلاً ، ذهبوا الى النوم يوماً كإيطاليين ، ولكنهم استيقظوا في الصباح كفرنسيين ، وذلك لأن العلاقات السياسية بين بعض الدول فرضت ذلك .

في كثير من القوميات حاول علماء اللغة إحياء لغات بائدة ، كما نجد في ارلندا مثلاً ، أوفي البلقان حيث نجد أن العنف كان أداة إقناع الناس باستخدام لغات تتكلمها جماهير الفلاحين .

في الهند نجد بالإضافة إلى اللغات الأساسية ، مئات من اللغات الثانوية والمحلية . هناك ، في الواقع ، ما لا يقل عن ٢٦لغة رئيسية ، وما يقارب من ٦٠٠ لغة محلية . الدستور الهندي نفسه يعترف في المادة ٣٥١ بأربع عشرة لغة ، بالإضافة إلى الانكليزية . هذه الأخيرة كانت اللغة التي توحد بين جميع المثقفين الذين قادوا حركة الاستقلال ، وذلك لأنها كانت لغة الدولة والإدارة أثناء الحكم البريطاني ، والأداة الوحيدة للتقدم والترقية . وقد استمر هؤلاء في استخدام هذه اللغة لأنهم كانوا لا يملكون لغة أخرى ، ولأنها كانت ضرورية في الشؤون الثقافية والدولية . الضغوط القومية عارضت استخدام لغة أجنبية ، ولكن حزب المؤتمر استطاع فقط ان يوافق بأن الانكليزية يجب أن لا تبقى لغة الهند الرسمية . الحل الذي تم الوصول إليه عند الاستقلال ، كان إعطاء أربع عشرة لغة صفة رسمية . الهندية كانت اللغة التي كرست كلغة الهند كلها ، والانكليزية كان يجب أن تلغى كلغة رسمية عام ١٩٦٥ . في البداية ، كان آباء الحركة الاستقلالية في الهند يأملون بأن تصبح البلاد ذات وحدة لغوية في مجرى بضع سنوات . ولكن اتضح فيما بعد أنه من الضروري ليس فقط القبول بتعدد اللغات ، بل تعديل تنظيم البلاد تبعا للمصالح اللغوية والثقافية المختلفة . اننا نجد حتى بين الشعوب الهندوسية المختلفة كراهيات عديدة . " فالأقاليم الهندوسية لا تتميز بتقاليد مشتركة أومصالح تربط بينها " .

من هذا يتضح ، أولا ، أنه عندما توجد لغة واحدة للبلاد كلها ، فذلك يعود إلى دور الدولة وتدخلها ، (الإنكليزية ، الهندية) ؛ ثانيا ، ان ما يسمى بالقومية الهندية أو الهوية المشتركة يعود إلى توفر دولة واحدة أفرزت حياة مشتركة هي المسؤولة عن توليد هذا الشعور . كتب طاغور مرة بان مشكلة الهند هي مشكلة العالم في شكل مصغر . إنها تشكل بلدانا عديدة مجمعة في وعاء جغرافي . ولكن ما أغفله طاغور يشكل تباينا جذريا في هذه المقارنة ، وهو توفر دولة مركزية واحدة للهند جمعاء كانت تعني المشاركة الواحدة في تاريخ واحد ، في حياة واحدة ، وهي التي ادت إلى إفراز شعور بهوية قومية أو بحياة واحدة . مشكلة العالم لا تجد ، مع الأسف ، مخرجاً كهذا المخرج . فهذا العالم يتشكل من دول قومية متنافرة ومتناقضة ، دون أية دولة واحدة يمكن لها في المدى البعيد إفراز شعور بهوية أو حياة واحدة .

فى مالايا ، بورما ، سيلان ودول شرقي جنوبي آسيا ، نجد شعوبا عديده ذات لغات وثقافات متميزة ، تعيش جنبا إلى جنب ، ويعود شعورها بالمشاركة في حياه واحدة الى العيش فى دولة واحدة .

في نيجيريا ، نجد أن سكانها الذين يبلغون أربعة وثلاثين مليونا ، يتكلمون ما لا يقل عن ٢٥٠ لغة . وعندما أصدرت حكومتها بعض المنشورات في تفسير دستورها للمواطنين كان عليها أن تنشرها في اثنتي عشرة لغة ، بالإضافة إلى الإنكليزية . هذه حالة عادية في البلدان الافريقية ، فقد بنت هذه البلدان يقظتها القومية بلغات اوروبية ، وأنشئت دولها الجديدة في الحدود السياسية السابقة التي عملت فيها الادارة الاستعمارية . الحدود الاقليمية اوالقومية في افريقيا لم تتحدد بالانقسامات القبلية ، المجموعات اللغوية أو الثقافية ، بل بكيانات سياسية سابقة . " الأمم الجديدة " في إفريقيا تحتاج إلى جميع العناصر الأساسية (لغة واحدة ، ثقافة واحدة ، وحدة أثنية ، تقاليد واحدة ، الخ . . .) التي تتشكل منها هذه الأمم . حتى الأرض الواحدة التي تشارك فيها كانت من صنع سلطة اجنبية . العنصر الأساسي الأول المسؤول عنها هو دولة واحدة حلت محل هذه السلطة وفي الحدود التي كانت تعمل فيها .

في الصين تختلف اللغات المحلية (Dialects) إلى درجة لا يستطيع فيها الصيني من الشمال ، أن يفهم ما يقوله الصيني من الجنوب . " فهناك عدد كبير من الأقليات القومية .. وكلها تتميز بتاريخ طويل ومستويات مختلفة من التطور الثقافي " . سكان الصين لا يتكلمون لغة صينية واحدة ، بل عدة لغات محلية غير مفهومة فيما بينهم . فهم في الواقع يشاركون في نظام كتابي واحد ، ولكنه لا يقتصر على أية لغة لأنه نظام إيديوغرافي . ثم أن طبيعته الإيديوغرافية هذه تجعله غيرمتيسر لأكثرية الناس . أما المثقفون فيستطيعون التفاهم بلغة واحدة (Dialect) هي لغة بكين التي يمكن القول أنها تقوم بدورمشابه لدور اللاتينية في أوروبا الوسطى . ولقد بدأت الثورة الشيوعية بعد استلام السلطة في الصين ، في فرض لغة واحدة (لغة منطقة بكين) بنظام كتابي مبسط على الصين كلها . والهند ، من طرفها ، أخذت ولا تزال تحاول نشراللغة الهندية (Hindi) في جيع أجزاء الهند . هنا نجد مثالاً واضحاً عن دور الدولة كقاعدة

لولادة لغة أوثقافة واحدة . هذه المحاولات تكون ، عند نجاحها ، نتيجة توحيد البلاد السياسي وعمل الدولة . هنا نواجه محاولة شبيهة بمحاولات الأنظمة الملكية المطلقة في نشوء الدولة القومية في أوروبا .

إسبانيا والبرتغال يرجعان إلى أصل واحد ، يتكلمان لغة ترجع إلى الجذور نفسها ومتماثلة جدا ، يتجاوران جغرافياً ، ويتميزان بسمات أخرى مشتركة ، ولكن كلاهما يعبر عن هوية مستقلة . وهذا يعود إلى عمل الدولة المستقلة .

عناصر التجاور الجغرافي او الوحدة الجغرافية ، اللغة الواحدة ، الثقافة والعادات المشتركة ، كما نرى في كثير من مناطق العالم ، لا تشكل ارضية كافية لمجموعة من الوحدات السياسية المستقلة بأن تلغي وجودها السياسي المستقل وتتحد في دولة جديدة . الإنكليزية هي لغة الولايات المتحدة وكندا ، وهي لغة بريطانيا وأوستراليا ونيوزيلندا وإرلندا . والفرنسية لغة فرنسا وأجزاء من بلجيكا وسويسرا ، وكندا . في أميركا اللاتينية نجد ، ما عدا البرازيل ، لغة واحدة ، ولكن سكان كل دولة يشعرون بهوية قومية خاصة ، وبعض هذه الدول عرفت ولا تزال حروبا وخصومات حادة بينها .

البلدان الاسكندينافية المماثلة في لغاتها ، في أنظمتها البرلمانية ، والاجتماعية ، والإيديولوجية ، بقوانينها ، ونظام التعليم والتربية ، الخلفية اللوثرية ، السياسة الخارجية ، والحماس للاصلاح الاجتماعي ، تشكل أربع دول قومية منفصلة . ليس هناك من منطقة في أوروبا تكشف ما نجد في المنطقة الاسكندينافية من تماثل عام . قليلة هي ، في الواقع ، المناطق الموجودة في العالم التي تعبر عن تجانس عام كتجانسها ، ولكن هذه المنطقة غير متحدة ، ولا تدل على اتجاه نحو الاتحاد . وجود التماثل الاجتماعي والسياسي والثقافي والايديولوجي ، الخ . . . يوفر خلفية مناسبة وإيجابية فقط ، ولكنه لا يشكل فى ذاته مصدر دفع نحو دمج سياسي .

□□□

يمكن أن نخلص مما تقدم إل القول بأنه لا يمكن الحديث عن تحديد ثقافي لنشوء الأمة بل عن تحديد سياسي . عند مراجعة تاريخ نشوء الأمم والدول القومية الحديثة ، نرى بوضوح أن صورة الأمة كوحدة ثقافية تتطور إلى وحدة سياسية ، لا تنطبق على الواقع ، وانه يجب أن نبدأ أساسيا من تصور سياسي . فالتطور الذي يمكن الكشف عنه يبدأ من وجهة معاكسة ، من السياسي إلى الثقافي وليس من الثاني على الأول . فالأمم الحديثة كانت عادة نتيجة سلطة سياسية مارستها في القرون الوسطى أنظمة ملكية قوية . مفهوم الأمة كوحدة لغوية أو ثقافية تتقدم على الدولة السياسية ، تبلور بشكل خاص كنتيجة للثورة الفرنسية.

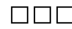
بعد ثورات القرن السابع عشر في إنكلترا ، والثامن عشر في فرنسا ، اصبحت قطاعات جديدة كبيرة ، وخصوصا الطبقة الوسطى . في مركز تستطيع فيه استخدام الدولة أداة في التعبير عن إرادتها . أصبحت الحكومة حكومة الشعب ، والشعب ابتدأ يجد تحديده أو هويته في اللغة التي يستخدمها . نابليون أصبح امبراطور الفرنسيين ، شعب يتكلم لغة واحدة ، بينما ملوك البوربون كانوا ملوك فرنسا ، أي أرض يسكنها شعب يتكلم أكثر من لغة . هكذا ظهر تطور جديد يميز الدول أو الشعوب باللغات القومية التي تسودها . اصبحت المجتمعات التي تتكلم لغة واحدة ، قوميات أو أمم جديدة ، والرغبة في إقامة حكومة أو دولة تعبر عن هذه الهوية الجديدة أصبحت عنصراً أساسياً في الظاهرة القومية .

من ناحية عامة يمكن القول ، كنتيجة لهذا التطور الجديد ، أنه حيث تجد الدولة لغات قد أكدت وجودها ومدت عميقاً جذورها ، وعبرت عن ذاتها في نمو أدب خاص بها قبل ان تمتد الدولة إليها ، فإن هذه الأخيرة قد تعجز ، كما يبدو ، عن إقامة أمة أو قومية خاصة بها . هذا ما نجده مثلاً في المناطق الأوروبية التي كانت تخضع لسيادة الامبراطورية النمساوية — الهنغارية ، الامبراطورية العثمانية ، والامبراطورية القيصرية الروسية . هنا نرى أن محاولات هذه الحكومات في فرض لغاتها كانت تثير المقاومة وتزيد من تمسك الشعوب المختلفة بلغاتها ، خصوصاً بعد ان أخذت هذه الشعوب تطالب بالإسهام في السلطة .

لقد دفعت الثورة الديمقراطية هذه الشعوب الى المطالبة باحترام لغتها والاعتراف بها ، أو بأن تكون لغة الدولة ، لأن هذا وحده كان يوفر لها الفرصة الحرة المتساوية في الانتخابات ، المنافسة الديمقراطية أو المشاركة في السلطة . هذه الثورة وما رافقها من تطلع إلى الإسهام والمشاركة في الدولة كان إذن أحد الأسباب الأولى وراء التمسك باللغة وإعلانها كتعبير عن هوية قومية منفصلة . بالإضافة إلى ذلك يمكن أيضاً الإشارة إلى ما أحدثته الثورة الصناعية والثورة التكنولوجية ، من حاجة الى الاتصال مع الآخرين وعلى نطاق يزداد اتساعا بشكل يومي تقريباً . كما أن الثورة في المواصلات دعت الناس الى وفرضت عليهم هذا الاتصال ، وهواتصال يكون سهلا وممكنا عندما تتوفر لهم لغة واحدة ينشأون عليها . لهذا فإن المجتمع القومي اتجه في شكله المتطور إلى لغة واحدة . ولهذا أخذت القومية تعمل ، بعد الثورة الفرنسية ، على أن تكون أساساً للدولة . ولكن هنا يجب ان لا ننسى بأن الشعور بهذه القوميات يعود هو نفسه إلى وجود دولة واحدة في الماضي .

قيام الدولة بدورها الموحد الذي يؤدي إلى ولادة أمة أو قومية جديدة ، يرتبط بطبيعة وقوة وترسخ وطور الشعوب التي تمتد إليها . فمما لا شك فيه أن السمات الاجتماعية والثقافية التي تميزها تضع حدوداً معينة قد تكون ضخمة او صغيرة ، ضد القوى الجديدة التي تحرك عملية التوحيد السياسي . هذه العملية تكون أكثر سهولة وقبولا للتحقيق ، في حالة كون هذه الشعوب متقاربة ومتشابهة ، ولا تتصف بتناقضات كبيرة ، كالثقافة ، واللغة ، الخ ... ففي الجزر الاندونيسية ، مثلاً كان الوضع ملائماً في ظل الدولة الواحدة لأن التناقضات الكبيرة كانت محدودة نسبياً . ولكن الصينيين بقوا خارج هذه العملية

محافظين على هويتهم ، وذلك بسبب ما يميزهم من ميزات خاصة ومترسخة . من المشكوك فيه مثلاً ، ان يكون باستطاعة حكومة ، مهما كانت سياستها ء أن تحقق دمجاً قومياً في مالايا ، فتذيب الملايين والصينيين والهنود في هوية واحدة . من ناحية أخرى ، يمكن القول أن عملية التوحيد تكون ممكنة واكثر سهولة عندما تقبل الأجزاء التي تطولها الثقافة التي تقودها باعتبارها ثقافة اعلى ، لكنها تكون اشد صعوبة اذا كانت هذه الأجزاء تعتبر هذه الثقافة أدنى منزلة . العرب في الولايات المتحدة ، مثلاً ، اندمجوا بسهولة في المجتمع الأميركي لأنهم اعتبروا هويته أو ثقافته ميزة إيجابية ، ولكنهم لم يندمجوا في المجتمع الإفريقي في هجرتهم إلى أفريقيا . على العكس من ذلك ، فقد عرفوا يقظة قومية لا يعرفونها في الوطن الأم عادة ، وذلك لأنهم لم يروا ميزة ايجابية في تبني هويته الثقافية او السياسية .



كما يظهر دور واهمية الدولة في خلق الأمة أو القومية ، من ناحية أخرى ، في كون الوحدات أو الاتحادات السياسية الجديدة ترجح إلى وتستوحي عادة دولة سابقة كانت تقوم في حدودها .

إن هوير ، في دراسته القيمة للاتحادات السياسية الحديثة ء رأى من بين الشروط الأساسية التي كانت ترافقها ، درجة من المشاركة السياسية ، السابقة للاتحاد ، بين اعضائه ، إما في شكل تحالف أو كونفيدراسيون ، كما حدث بين الولايات المتحدة الاميركية أو الكانتونات السويسرية ، وإما كأجزاء في امبراطورية واحدة كما نرى في أوستراليا وكندا . " عندما ننظر إلى الجذور التاريخية لأية أمة أو قومية حديثة ، نجد مرة بعد أخرى ، وبشكل مستمر تقريبا ، أن هناك دولة أو تركيبا سياسيا سابقا ينطبق إلى حد كبيرعلى هذه الأمة أو القومية في حدودها الإقليمية الحالية . انتظام هذه الظاهرة وتكررها يوحيان بأن الأمة كانت نتيجة ترتب ظهورها على وجود دولة سابقة " .

هذه الظاهرة تبرز بوضوح أكبر في القارة الأميركية ، وذلك لحداثة تاريخها الذي يجعلها واضحة . فهنا لا نجد مجتمعات قديمة دعيت إلى يقظة قومية في طور لاحق متقدم من تاريخها . فالحدود التي تفصل بين دولها ، الدول التي تمتد إلى شعوب تتميز بوعي قومي خاص ، كانت أساسيا الحدود الإقليمية التي وضعتها السلطات الامبراطورية الاستعمارية . وقد اعلن وزيرخارجية الارجنتين ، جوزه كانتيللو ، في مؤتمر لدول أميركا اللاتينية عام ١٩٣٨ ، " إن قومياتنا هي مخلوقات إدارية من عمل التيجان الإسبانية والفرنسية والبرتغالية . فالحدود القائمة بين معظم الجمهوريات الأميركية الإسبانية هي حدود نيابات ملكية قديمة".

التاريخ الذي أدى في شمالي اميركا إلى الفصل بين كندا والولايات المتحدة ، كان نتيجة كيانات سياسة مختلفة ، وليس أي عنصر آخر . فلقد ادت مجموعة من الأحداث التاريخية المتتابعة إلى

نشوء دولتين منفصلتين أثرتا على شعبيهما بشكل مختلف ، وقد قاد هذا ، مع الزمن ، إلى قوميتين مختلفتين . هنا نجد ان قرارات وأحكام سياسية عرضية أدت في النهاية إلى هذه النتيجة . لوجرت هذه الأحداث التاريخية بشكل آخر لكانت كندا الآن جزءاً من الولايات المتحدة ، أولرأينا أمماً أخرى غيركندا والولايات المتحدة . في كل من هاتين التجربتين ، كانت فكرة دولة او سلطة سياسية واحدة ، تحققت أثناء السيادة البريطانية ، نقف كمصدر يوحي ويشجع على بناء الدولة الجديدة واستمرارها .

صعوبات الاتحاد التي واجهتها البلدان " الكاريبية " هي ولا شك ذات صلة قوية بكونها تتشكل أساسيا من جزرتفصل بينها مساحات شاسعة ، ولكنها تعود أيضا إل كونها تتفرع من كيانات سياسية سابقة مختلفة ، أي أن فكرة اوصورة الدولة الواحدة السابقة لم تكن تتوفر لها .

الأمم التي ظهرت في أميركا ، شمالا وجنوبا ، تدين بوجودها ، بشكل خاص ، إذن ، إلى عمل قوى سياسية . فلقد عملت الدول المستقلة ، على خلق شعور بالانفصال وبهوية قومية مستقلة .

ما ينطبق على أميركا وخصوصا أميركا اللاتينية ينطبق أيضاً على افريقيا وآسيا . ليس هناك من أمثلة واضحة في إبراز دور الدولة في فرزكيان سياسي مستقل وشعور قومي منفصل ، أكثر من تلك التي نجدها في البلدان الإفريقية والأسيوية التي كانت خاضعة للاستعمار . لا تحتاج هذه الظاهرة إلى أية ملاحظات إيضاحية في افريقيا ، فهي واضحة كل الوضوح . أما آسيا فانها تقدم هي الأخرى ، إثباتات تدل على هذه الظاهرة وإن كان الوضع أكثر تعقيداً . فهنا نجد أيضاً من إندونيسيا إلى الفليبين ، ومن الهند إلى الوطن العربي ، أمثلة واضحة على دور الحدود السياسية التي رسمها الاستعمار ، أوفكرة دولة واحدة سابقة ، فى بروزكيانات سياسية جديدة مستقلة .

مايستوقف النظر هو أن الحدود التي وضعها الاستعماركانت تستمر تقريباً كما هي ٠ بعد أن نالت " المستعمرات " استقلالها . الدول الجديدة التى نشأت في إطار هذه الحدود لم تتمزق أو تنقسم على ذاتها ، على الرغم من أنها تتشكل عادة من لغات وثقافات مختلفة . هكذا ساد العامل السياسي التاريخي سيادة شبه تامة تشكيل الدول الجديدة .

الدول الجديدة التي تتمتع بأفضل حظوظ النجاح هي التي تطابق إلى حد كبير وحدات سياسية سابقة ، والتي عرفت في ماضيها تجربة الحياة السياسية الواحدة في تركيب سياسي مستمر ، عبر أجيال عديدة ، اعطى ابناءها شعوراً بهوية واحدة . ولكن الدول التي لا تتصل حدودها بأية صلة قوية بوحدة سياسية سابقة والتي يعي سكانها تماماً أن دولتهم هي فقط قطعة أوشظية من وحدة سياسية وثقافية سابقة ، تكون دولاً يصعب عليها جداً ، هذا إذ لم نقل يستحيل عليها ، ان تتحول إلى أمة .

في كل من فرنسا وانكلترا ، مثلا ، وهما أعرق قوميتين في أوروبا كانت هناك تقاليد سيادة ملكية تعود إلى تاريخ السيادة الرومانية . والحدود الإقليمية التي حددت فيما بعد حدود المملكة التي كان يحكمها أو يطالب بها ملوك البلدين ، كانت ، في الواقع ، الحدود التي اقامتها الإدارة الرومانية الامبريالية . سويسرا تعترف بعام ١٢٦١ تاريخا لميلادها كدولة ، وهو التاريخ الذي تم فيه التحالف النهائي بين أوري شفيتز وأونتيرفالدين ، المناطق التي شكلت نواة الاتحاد الأولى . ولكن من الواضح أن مضمون المعاهدة التي تعلن هذا التحالف يدل أن ما حدث عام ١٢٦١ كان فقط تجديداً ، مع بعض التوسع ، لاتحاد سابق وتتضح أهمية دور الدولة في بناء القومية الحديثة أيضاً ، عندما نذكر التناقضات والخصومات والأحقاد التي كانت تفصل بين الأقاليم المتحدة ، والتي كانت تحتاج إلى سلطة الدولة المركزية في تنسيقها وتحقيق الانسجام بينها .

حتى عشية الاتحاد ، عام ١٧٠٧، بين اسكتلندا وانكلترا ، مثلا ، كانت الأحقاد والخصومات تسود علاقاتهما ، الى درجة جعلت البلدين يتخذان إجراءات عدائية دفعتهما إلى حافة الحرب ، وذلك أثناء المفاوضات حول الاتحاد . لهذا أشار بعض المؤرخين بأنه لوجرى استفتاء عام آنذاك لكانت الأكثرية اقترعت ضد الاتحاد .

في القرن التاسع عشر ، قبيل تحقيق الوحدة الالمانية بقليل ، نجد أن ما كان يميز المانيا لم يكن الشعور القومي بل غياب هذا الشعور . فإقليمية الحكام ، ونزعة المفكرين الأممية ، وانتماءات الشعب المحلية ، هي التي كانت سائدة . وقد اشار قادة حركة الوحدة الإيطالية أنفسهم إلى الهوة العميقة التي تفصل بين أقاليم إيطاليا عند تحقيق وحدتها . كتب كافورمثلا " إن تحقيق الانسجام بين الشمال والجنوب اكثر صعوبة من الحرب ضد النمسا أو الصراع ضد روما " . ودانزيالو ، أحد قادة إيطاليا آنذاك أعلن " لقد صنعنا إيطاليا وعلينا أن نصنع الإيطاليين " . يشير هذا القوك بوضوح إلى حقيقة علاقة الدولة بالأمة ، ويكشف أن الدولة الإيطالية الجديدة هي التي ستخلق القومية الايطالية ، وأنها الأداة في إعطاء هوية واحدة للشعب الإيطالي . إن الكره الذي كان قائما آنذاك بين سكان بعض هذه المدن الإيطالية كـ " بيزا " و " جنوه " مثلا ، دفع البعض إلى الملاحظة بأن البغض المتبادل بينهما كان ذا طبيعة حيوانية ، يدفع كل شعب إلى محاولة إفناء الآخر .

ونرى حاليا في افريقيا وآسيا الظاهرة نفسها التي تشير إليها بوضوح وبساطة عبارة دانزيالو . فالاكثرية الساحقة من البلدان المستقلة حديثا صنعت الدولة أولا ، وهي الآن تحاول أن تصنع الأمة عن طريق الدولة.

قصة الخصومات والأحقاد التي قامت في كندا بين الإنكليز والفرنسيين ، والتي نشطرها إلى شطرين هي قصة معروفة لاتحتاج إلى تعليق . فالدولة وحدها ، هي القاعدة لوحدة الطرفين . كما بلغ

الاستياء من الاتحاد في اوستراليا درجة قادت ، في المنطقة الغربية ، الى استفتاء طالب فيه ثلثا السكان تقريبا بالانفصال عنه . وعلى أثر ذلك أرسل المجلس التشريعي في الولاية عريضة إلى البرلمان الانكليزي طالب فيها بالانفصال عن الكومنولث الاسترالي ، ولكن هذه العريضة رفضت على أساس قانوني . حتى في فرنسا ، وهي القومية الحديثة العريقة ، والتي يمكن اعتبارها من أكثر الأمم وحدة وانسجاما في العالم ، نرى شعوبا لا تزال تتميز ، رغم قرون عديدة من الوحدة ، بشعور قومي خاص كما نرى في الباسك وبريتانيا . هنا تجب الاشارة " أن هذه القوميات الأخيرة كانت تتطابق في الماضي مع دول مستقلة " . طيله هذه القرون ، كانت الدولة الفرنسية هي التي تشكل أساس وحدة هذه الشعوب مع الأمة .

في الولايات المتحدة نرى أن الشعور بقومية أميركية واحدة نتج عن الدولة الاتحادية ، وليس العكس . فلو سئل سكان الولايات المختلفة قبل تأسيس الاتحاد عن وطنهم أو قوميتهم لأجابت أكثريتهم الكبرى عفوياً ، كما يكتب المؤرخ موريسون ، بأنها كارولينية ، فيرجينية ، بانسيلفانية ، نيوركية ، الخ ... وليس أميركية . وقد أشار دي توكفيل بحق ، في الربع الأول من القرن الماضي ، بأن الجاذبية السياسية والاجتماعية فيها كانت تدور حول الحكومات المحلية وليس الحكومة الاتحادية .

إن ضرورة وجود مجتمع أميركي واحد ، ذا حكومة مركزية تستحق هذا الاسم لم تقرر وتُحسم نهائياً ، في الواقع إلا عام ١٨٦٥ ، أي بعد حرب اهلية امتدت اربع سنوات . لم يكن بامكان أحد ان ينبىء ، في الواقع ، في أواسط القرن الثامن عشر بظهور امة جديدة من المستعمرات الاميركية . فهذه المستعمرات أو الولايات كانت منفصلة انفصالاً شبه تام عن بعضها البعض ، وكل واحدة منها كانت عالماً صغيراً في ذاته ، معزولة مادياً وتتصل مع جاراتها عن طريق البحر او النهر . لهذا لم يكن غريباً بقاء هذه الولايات لوقت طويل منقسمة في مشاعرها ومصالحها . وقد كتب احد الزائين الأوروبيين الذي تنقل بينها آنذاك " إن الماء والنار لا تختلفان كما تختلف المستعمرات الموجودة في شمالي أميركا . فليس من شيء يستطيع أن يزيد من درجة الحسد والمنافسة القائمة بينها " .

" عندما كان يناقش الدستور الأميركي فبل تبنيه عام ١٧٨٧ وعام ١٧٨٨ ، كانت الفروق الاقليمية عنصراً مهماً . لقد كان هناك في الواقع مراقبون عديدون يعتقدون أنه لا يمكن لوحدة حقيقية أن تتحقق أبداً" . قبل عام واحد فقط من انعقاد الجمعية الدستورية (١٧٨٧) ، أي بعد انتهاء الثورة ، كتب ماديسون الى جافرسون قائلاً " إن ما أعرفه عن جورجيا لا يزيد عما أعرفه عن كامشاتكا " . وقبل انتهاء اجتماع هذه الجمعية ، أعلن مندوب من كارولينا الجنوبية بأن مصالح مناطق البلاد المختلفة تختلف اختلاف مصالح روسيا وتركيا . جون آدمز أشار إلى هذه الانقسامات الحادة بقوله : لقد حاول الثوريون أثناء الثورة الأميركية أن يجعلوا ثلاث عشرة ساعة (عدد الولايات آنذاك) تدق كساعة واحدة .

قبل الثورة لم يكن هناك أي شعور بولاء لكل اجتماعي ثقافي أو تاريخي اسمه أميركا . إن أميركا لم تكن موجودة كمفهوم سياسي ، كقاعدة ولاء وانتماء ، لأن الولاء كان يتركز على بريطانيا أو الولايات الفردية . العلاقات بين هذه الأخيرة كانت تتمحور حول الحسد والمنافسة التجارية والاقتصادية الحادة .

وقد طلب لويس موريس في وصيته ،عام ١٧٦٠ ، بأن لا يذهب ابنه ، حاكم ولاية نيويورك ، إلى ولاية كونيكتيكيت " خوفاً من أن يتشرب شيئا من خداع وفكر أبنائها " . وفي العام نفسه كتب بنجامين فرانكلين نفسه متذمراً من الروح الانفصالية الهائلة التي تسود الحكومات الأربع عشرة ، من الحسد القائم بينها ، من إغفالها لقضية الوحدة السياسية الضرورية لحياتها ، وهي ضرورة كانت هذه الحكومات تعترف بها ولكن لا تصنع شيئاً في سبيلها . ثم أضاف معبراً عن تشاؤمه بإمكان وحدتها ، بأنها إن لم تستطع أن تتحد ضد الفرنسيين والهنود الذين كانوا يزعجون ويرهقون مستوطناتها باستمرار ، فإنها ولا شك لن تستطيع تحقيق وحدتها ضد انكلترا التي تنتمي إليها وترتبط بها بروابط عديدة .

قاد النصر في حرب الاستقلال إلى الدولة الاتحادية ، ولكن دون جذورعميقة راسخة ، وقد بقيت مسألة تكوين الولايات المتحدة ، وهل يتشكل من شعب واحد ، أومن عدد من الشعوب يعادل عدد الولايات ، بقيت لمدة طويلة مصدر خصومات وانقسامات داخلية . ان قوى الإقليمية كانت قوية وتشكل خطراً مستمراً على الاتحاد . كل ولاية تقريباً ، سواء في الشمال أو الجنوب مارست في بعض الأحيان سياسة إقليمية متطرفة . وأول من حاول الانفصال عن الاتحاد وتشكيل دولة جديدة لم تكن ولايات الجنوب ، بل مجموعة من الولايات الشمالية . كل تنسيق موجود في إدارة الولايات آنذاك كان يعود إلى جهود الحكومة البريطانية ، وليس إلى تعاون هذه الولايات ، التي كانت عاجزة حتى أواسط القرن الثامن عشر عن تنظيم دفاع مشترك على الحدود الغربية . ثم إن العلاقات القائمة بين بعضها كانت تثير الخوف من وقوع حرب بينها .

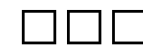
على الرغم من الأوضاع العديدة المؤاتية ، فإن اتحاد الولايات ظل طيلة قرن معرضاً للانهيار ، وكان عليه أن يواجه عدة حركات انفصالية كانت تخمد بالقوة والعنف .

اقامة الدولة الاتحادية ونشوء أحزاب تعمل عل الصعيد القومي العام لم يزيلا الاختلافات، التناقضات والخصومات الكبيرة أو الحركات والمحاولات التي ارادت الخروج من هذه الدولة ، وسلخ ولاية أو أخرى عن الكيان الاتحاد . المصادقة على الدستور لم تعط شرعية جديدة للدولة الاتحادية ، وإن كانت وفرت أساسا للوحدة القومية . مع الوقت فقط ، وبعد حدوث محاولات عديدة متتابعة في تعثير عملها ، استطاعت هذه الدولة تحقيق الشرعية السياسية التي تحتاجها . هناك عدد كبيرمن المؤرخين الأميركيين

الذين أشاروا بأن كل ولاية ، وكل تشكيل سياسي مهم تقريبا ، حاول في بعض الأحيان ، بين عام ١٧٩٠ وعام ١٨٦٠ ، اضعاف سلطة الحكومة الاتحادية أو الانسلاخ عنها .

النتائج الوحدوية الايجابية التي ترتبت على حرب الاستقلال ، ومن ثم على استعمار الغرب ، لم تكرس نهائياً وحدة الولايات . فلقد كانت هذه الوحدة بحاجة الى وقت والى أحداث تاريخية أخرى ملائمة قبل ان تستقر وتضرب جذورا قوية في تربة المجتمع الاميركي ، وتحول الدولة الواحدة إلى تقليد يعيشه هذا المجتمع . هذا توفر لها بعد الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ ، التي مهدت الطريق لمفهوم دولة فيدرالية جديدة مركزة تتطور بثبات نحو توكيد وحدة الأمة ، حكومتها ، أنظمتها وأجهزتها .

لقد توقفت بشيء من التفصيل من اجل إبراز دور الدولة في خلق وحدة و هوية المجتمع الأميركي ، لأن التجربة الأميركية تقدم عادة كتجربة مثلى للطريق " الاتحادي " ضد الطريق " العسكري " ، الطريق الاقتصادي ضد الطريق السياسي . الملاحظات السابقة تدل بوضوح على نقيض ذلك ، وتكشف أن الدولة كانت قاعدة وحدة المجتمع الأميركي ، الطريق إلى هذه الوحدة ، وأنها كانت تستخدم القوة العسكرية ضد المحاولات الانفصالية في ممارستها لهذا الدور .



تكشف الصفحات السابقة بوضوح أن الدولة كانت قاعدة لنشوء الأمة والقومية ، وهو إنجاز حققته بسبب دورها هذا كقاعدة تنظم ، توحد ، وتنسق في حياة مشتركة واحدة حياة الاقاليم التي تتشكل منها . فالدولة كانت توفر النظام الواحد لهذه الحياة ، الأداة التي تستطيع تجميد واسكات ، ومن ثم إزالة الاختلافات والانقسامات التي تهدد وحدتها .

من هذا نستدل ان أهم عنصر خارجي في تشكيل القومية هو كما يخلص إلى القول أحد كبار مؤرخي الدولة القومية ، " دولة واحدة " فالحدود السياسية تعمل على إقامة القوميات ... من ناحية عامة ، يمكننا القول أن الانتماء إلى دولة واحدة ، يشكل عنصراً أساسياً في حياة كل قومية . قد لا تكون هناك حاجة إلى هذا الشرط عند ظهور قومية معينة ، ولكن في حالة كهذه (كحالة التشيك في أواخر القرن الثامن عشر) نجد دائماً أن ذكرى دولة سابقة والطموح إلى الانتماء إلى دولة واحدة يميزان القوميات في هذا العصر الحديث .

الخضوع لدولة واحدة يضع الشعب مباشرة ، وجها لوجه ، أمام وحدة تحيط به ، وحدة تتحول إلى تجربة يومية لا يمكن له أن يتجاهلها أو يقف بعيداً عنها .إقامتها في ذاتها تحولها إلى هذه التجربة اليومية في حياة الشعب ، فتؤثر تدريجيا في نفسيته وتحددها بشكل يتلاءم مع مقاصدها . إنها تفرض على الشعب

الذي يرتبط بها قدراً مشتركاً يفصله عن الشعوب الأخرى ، ويميزه بمصالح وقضايا ومشاكل خاصة . إنها تخلق الأنظمة والأجهزة الواحدة التي تجعل وحدة الشعب معاناة حسية ، تسهل المواصلات والاتصالات في الداخل ، وتزيد من صعوبتها مع الخارج .

لا يصبح الناس فرنسيين ، صينيين ، جمهوريين أو ملكيين ، الخ ... بسبب " جوهر " خاص ، بل بسبب أوضاع واحدة ينشأون ويشاركون فيها . فالدولة كانت الأداة التيخلق هذه المشاركة . الفكرة القديمة التي ترجع نشوء الدولة القومية إلى يقظة الشعور القومي أو إلى هوية قومية سابقة هي فكرة خاطئة ، فهينتيجة تفكير ميتافيزيقي يعطي وجود الأمة ماهية ثابتة . فالأمة ، كما رأينا ، " كانت نتيجة الدولة وليست سبباً لها . فالدولة هي التي خلقت الأمة وليست الأمة هي التي خلقت الدولة " .

الشعور بهوية قومية خاصة ، بمصير واحد ، بوحدة مصالح ومقاصد مشتركة ، بضرورة أنظمة واحدة تمثل ذلك ، الخ . . هي أمور تنتج عادة عن حياة واحدة في ظل دولة واحدة وعن مشاركة سياسية فعالة في إطارها . هكذا تفرز الدولة الأساس الضروري لنشوء القومية والأمة . التجارب التاريخية تدل أن العملية الوحدوية كانت عملية طويلة تأخذ قرونا طويلة قبل بناء وحدة أوهوية قومية راسخة ثابتة ، توفر دولة واحدة كان قاعدة هذه العملية . هذا ما يفسر الى حد كبير ، مثلا ، التناقض الواضح بين التجانس الموجود في اليابان والصين (نسبياً) اللتين توفرت لهما هذه الدولة ، وبين الهند التي كان ينقصها في معظم تاريخا ا الأنظمة الحكومية المركزية المستقلة والقوية التي تنتج عن توفر دولة مستقرة لها . وجود دولة كهذه يعني تفاعلا طويلا يمتص الفروق الأساسية بين أجزاء المجتمع الذي تسوده ، ويحول دون نموهذه الفروق بسبب العزلة التي تكون مصيرهذه الأجزاء إن هي عاشت دون سلطة من هذا النوع . توفر دولة واحدة امر أساسي ، بل هو الأمر الأساسي ، لأنه يعني معاناة واحدة للتاريخ تفرز شعوراً بهوية قومية واحدة .

الفصل الثالث

دور الاقليم القاعدة في عملية التوحيد السياسي

رأينا فيما تقدم أن النظام الملكي كان قاعدة لنشوء الدولة الحديثة، كما رأينا أيضاً أن هذه الدولة نفسها كانت، في دورها، قاعدة لنشوء القومية الحديثة التى تمت في إطارها . في هذا الفصل سنرى أن هناك إقليم- قاعدة كانت تتمحور حوله عملية التوحيد السياسي نفسها التي أدت الى نشوء الدولة السياسية الحديثة والقومية .

" الوجه الأساسي في نشوء الدولة القومية كان الحاكم الذي أصبح إقليمه الأساس الإقليمي للدولة الجديدة " . فالعنصر السياسي ، كان دون شك، العنصر الأهم في خلق الوحدة القومية. لهذا درج

المؤرخون على القول ، " إن الملكية صنعت فرنسا " ولكن كي يمكن للملكية أن تصنع فرنسا أو الدولة القومية، فإنها كانت تحتاج إلى إقليم - قاعدة. لهذا يمكن إعادة سبك قول المؤرخين، بالقول " إن الاقليم- القاعدة هو الذي صنع الدولة- القومية " . السلطة الملكية التي كانت تعتمد على إقليم من هذا النوع ، كانت ، في الواقع ، العنصر الرئيسي المسؤول عن وحدة البلاد في البداية. وقد كانت الفوضى الداخلية سائدة في فرنسا وانكلترا وإسبانيا، الخ .. قبل إقامة نظام ملكي قوي ، والتغلب على الإقطاعية المحلية لم يكن سهلاً . الخطوة الأولى الأساسية كانت خلق دولة إقليمية موحدة، وذلك بامتصاص العدد الكبير من الدول الإقطاعية.

" يكشف تاريخ الغرب، الذي يمتد إلى خمسة آلاف سنة " ، كما يكتب المؤرخ برينتون، " أن المجتمع الغربي لم يستطع أبداً أن يحقق السلام لمدة طويلة في منطقة معينة إلا بإخضاع هذه المنطقة إلى سلطة حكومة واحدة " .

الأوضاع التي كانت ترافق عملية التوحيد السياسي عبر التاريخ ، السياسة التي كانت تتبعها ، المقاصد التي كانت تبغيها، القيم التي كانت تعبر عنها، التركيب الاجتماعي الذي كانت تعتمده أو ترمي إلى إقامته ، التحالفات التي كانت تمارسها، وسائل التوحيد التي لجأت اليها، الموارد والقوى التي اعتمدت عليها والتي أصبح من الممكن الاعتماد عليها، الصعوبة أو السهولة التي واجهتها، الخ .. قد تختلف من عملية توحيد إلى أخرى ، ولكن توفر إقليم - قاعدة كان ظاهرة ثابتة ترافقها كلها.

بعد أن يذكر أن الدول القومية الحديثة كانت إلى حد كبير من صنع عائلات مالكة ، يكتب هايز أن هؤلاء الملوك كانوا يفرضون سيادتهم على أقاليم يسكنها (أجانب)، ويتقايضون الشعوب وكأنها مواشي . ولكن في جميع هذه الصراعات الملكية والصفقات العائلية ، فإن قاعدة كل عائلة مالكة كانت باستمرار قومية ذات لغة وتقاليد مشتركة ، أي بكلمة أخرى إقليم يمثل وعاء هذه القومية .

عملية التوحيد السياسي تعني التزام شعوب ووحدات سياسية منفصلة بأن تنقل ولاءاتها والتزاماتها السياسية إلى محور جديد يتجاوزها، ينزع عنها هويتها السابقة ويعطيها هوية جديدة ويمارس سلطة مباشرة عليها. لهذا يمكن القول أن دور الإقليم – القاعدة متأصل في طبيعة العملية الوحدوية نفسها، لأن تقدمه على وقيادته للأقاليم الأخرى يوفر الأداة التي يمكن بها لتلك الشعوب والوحدات ان تتجاوز ذاتها في أرضية واحدة مشتركة . " جميع الدول الأوروبية الحالية والتي ترجع في جذورها الى العصور الوسطى ، ظهرت إلى الوجود عن طريق ضم اراض كانت سابقا مستقلة عنها. فمن قاعدة مركزية ، امتدت حدودها خارجيا في جميع الاتجاهات وفي دوائر كانت تتسع باستمرار " .

لقد كانت عملية التوحيد السياسي تمر تقريبا دائما في إقليم- قاعدة تتمحور عليه في تحققها. الملكية المطلقة رافقت ظهور الوحدات السياسية الكبيرة. هنا نجد أن أحد الأجزاء التي يتشكل منها مجتمع يرتبط ببعض الروابط السياسية الضعيفة، يفرض نفسه على الأجزاء الأخرى ويحقق وحدته. مراجعة تجارب التاريخ الوحدوية ، وخصوصاً التجارب الأوروبية التي كانت مسرحاً لظهور الدولة- القومية الحديثة، تكشف بوضوح عن هذه الظاهرة، أوعن هذا القانون العام الذي يسودها. الأمثلة التالية تدل على هذا :

يوفر لنا تاريخ فرنسا أحد الأمثلة البارزة على هذا القانون . ففي القرون الوسطى كان الشارعون الملكيون يعلنون أن فرنسا هي الخليفة الشرعي لبلاد " الغال " القديمة ، وبالتالي فهي تمتلك حق المطالبة بحدودها كما وصفها قيصر، أي الراين والآلب ، والبيرينيه. واصبح هذا المبدأ تقليداً في السياسة الفرنسية الخارجية، وجر أوروبا إلى حروب كبيرة عديدة .

اسم " فرنسا " كان انذاك يشمل الأراضي المحيطة بباريس ، والتي كانت تجد حدودها في خمسة أنهر تحيط بها. لهذا كانت هذه الأراضي تسمى بـ " إيل دي فرانس " . أي جزيرة فرنسا وحول هذه المنطقة تشكلت فرنسا الحالية ، وكان ذلك ممكنا لأن " ايل دي فرانس " كانت قاعدة امتدت منها حركة توحيد استمرت تعمل قرونا عديدة بغية تحقيق حدود " الغال " ضمن هذه الحدود، أي حدود فرنسا الحالية، كان هناك عدد كبير من القوميات المختلفة، بريتون، المان، باسك، فليمينش، البروفنسال ، الخ ...

تكونت فرنسا عبر قرون عديدة من مئات من الوحدات الإقطاعية وتقدم طريقة تكوينها صورة واضحة عن الكيفية التي كانت تتم بها عملية التوحيد في تجارب التاريخ الوحدوية . ففى القرن الحادي عشر كان ولاء النورماندي، الباريسي ، الفلاندري ، البروفنسالي ، الخ .. يتركز على دوق، مركيز، او ملك المقاطعة. وكان الفرد يشعر أن القتال أو الموت في سبيل السيد الإقطاعي واجب عليه القيام به ، ولكن بعد بضعة قرون زالت هذه الولاءات كنتيجة عملية الدمج التي قامت بها إيل دي فرانس ، فتحولت إلى كيان جديد يدعى فرنسا، وأصبح واجب الفرنسي أن يقاتل ويموت في سبيل هذا الكيان الجديد ، كما أصبح من الجريمة أن يقتل فرنسي فرنسيا آخر.

عن طريق " ايل دي فرانس " كقاعدة، كان الملوك الفرنسيون يضمون الأرض باطراد إلى أن حققت فرنسا الحالية وحدتها الاقليمية . حرب المائة عام (١٣٣٧- ١٤٥٣) وما انتجته من تدمير وفوضى بعثرت وحدة البلاد إلى درجة جعلت الكثيرين يشكون باحتمال اقامتها من جديد . ولكن " ايل دي فرانس " أصبحت من جديد القاعدة التي جمعت حولها القوى المتفرقة .

وكانت حركة التوحيد التي تمتد من " إيل دي فرانس "، تواجه باستمرار مقاطعات فرنسية تقف مع أعداء فرنسا وتحارب معهم ضدها . ففي حرب المائة عام ، مثلاً ، كان سكان الجنوب الغربي، وخصوصا

سكان غاسكوني وغويان، الى الجانب الانكليزي ، بينما كان النبلاء يقفون إلى الجانب الفرنسي ، وإن لم يكن لأسباب قومية . في المراحل الأخيرة من الحرب وقفت أجزاء عديدة من الشمال إلى جانب دوق بورغوندي الذي كان متحالفاً مع انكلترا ضد حركة التوحيد في ظل التاج الفرنسي . كثيرة هي المدن الفرنسية التي كانت تنجذب آنذاك إلى المدن البلجيكية أكثر من انجذابها إلى قصد الوحدة الفرنسية في ظل ملك متحالف مع الإقطاع .

هنا تجدر الملاحظة ، الى انه يمكن القول ، من ناحية عامة، أن المدن التي كان يسودها حزب ديمقراطي كانت ، في تلك المرحلة ، مع بورغوندي والإنكليز، بينما كانت أحزاب النبلاء في هذه المدن تقف إلى جانب " الإيل دي فرانس " ، وأن المدن الصناعية الحرة في البلدان المنخفضة كانت العمود الفقري للحزب البورغوندي أي الحزب الذي كان يقاوم حركة التوحيد .

وقد أشار الكثيرمن المؤرخين الى انه لو انتصرت انكلترا وبورغوندي في هذه الحرب ، لكان أدى الانتصار إلى ظهور عدد من الأمم المستقلة في الأرض التي تتشكل منها فرنسا الحالية ، وخصوصا ظهور بلجيكا كبرى في الشمال، وأمة بروفنسالية في الجنوب . هذا الميل المحلي إلى الاستقلال كان قوياً أيضاً في أجزاء أخرى من فرنسا. إن النجاح الذي حققه لويس الرابع عشر في ضم أوكسب ولاء الأقاليم الأخرى هو الذي يجعل اليوم من هذه السياسة سياسة قومية. فحيثما نجحت هذه السياسة، سياسة الدمج مع " ايل دي فرانس " وصفت على انها سياسة قومية وحدوية، وحيثما فشلت وصفت على انها سياسة ضم و إعتداء !.. الهجوم على بلجيكا يُعتبر اليوم اعتداءً لا مبرر له ، ولكن ضم مقاطعات أخرى كمقاطعة اللورين، ومقاطعة الفرانش كومتيه، مثلا، فإنه يجد تبريره في ضوء مبدأ الوحدة القومية ، على الرغم من أن السكان كانوا لا يميلون إلى هذه الوحدة آنذاك، ولم يكونوا أقل ابتعاداً عنها من البلجيك أنفسهم .

لقد قاتل سكان اللورين قتالا شديداً ، وإن كان يائسا ضد الفرنسيين، أي ضد " إيل دي فرانس "، فقتل قسم كبير منهم ، كما أن الحكومة فكرت ، بسبب هذه المقاومة ، بترحيل القسم الباقي إلى كندا. ولكن على الرغم من هذا فإن اللورين لم تتحد نهائيا مع فرنسا إلا عام ١٧٦٦. أما إقليم الفرانش كومتيه، فإنه قدم إلى المؤتمر الذي هيأ صلح " يوتريخت " عريضة يطالب فيها بالتحرر من " العبودية الفرنسية " ، وذلك بعد ثلاثين عاما من الوحدة مع فرنسا أو " إيل دي فرانس " وعشية الثورة الفرنسية التي فرضت نهائيا الوحدة الفرنسية كان هناك بعض الأقاليم التي أرادت الاعتراف بها كأمم مستقلة .

على الرغم من أن فرنسا كانت تخضع عبر قرون لنظام واحد مركز، فإن ذكرى الاستقلال السابق كانت لا تزال حية في عدة أجزاء من أراضيها في القرن التاسع عشر ، حيث نرى حركات تدعو إلى ثقافة خاصة وإلى استقلال ذاتي لهذه الأجزاء يدعمها مفكرون معروفون. حتى في النصف الثاني من القرن العشرين نرى بعض الحركات المماثلة.

ومنذ عام ١٧٨٩ اصبحت فرنسا، بشكل خاص، انموذج وحدة الأمة- الدولة . ومنذ ذلك التاريخ حققت درجة عليا من الوحدة الثقافية جعلت الكثيرين ينسون القرون العديدة التي احتاجت إليها في صياغة هذه الوحدة، وكأن الوحدة كانت متأصلة في مزاجها، أو يرون أن بناء وحدتها من مئات من الأجزاء الإقطاعية المتحاربة كان نتيجة محتومة وطبيعية ، وبالتالي كان لا يمكن تجنبه ، هذا التطور لم يحدث في هذا المجرى " الميتافيزيقي " . فالرغبات الخاصة والارادات والأهواء الذاتية المختلفة ، وحتى الصدف والاحتيالات القانونية لعبت دورها في هذه العملية التوحيدية الطويلة. وحدة فرنسا الحالية أو الطريقة التي تحققت فيها تدين بشيء للصدفة أو الحظ الذي رافق، مثلا، الملوك " الكابسيان " في إنجاب الأولاد الذكور طيلة قرون . ولكن من الممكن القول أن وراء جميع الأسباب التي تدخلت في هذه العملية الوحدوية وأسهمت فيها مباشرة أو غير مباشرة، كان يقف عاملان أساسيان ضبطا ووجها هذه الأسباب في هذه الوجهة القومية الاتحادية ، وأنه لولا توفرهما لاستحالت هذه النتيجة. وهذان العاملان هما: اولا، توفر اقليم - قاعدة، وثانيا، توفر قائد رمز لعملية التوحيد . ولكن بما أن هذا الأخير كان أيضاً ملك " إيل دي فرانس " الاقليم- القاعدة، وبما أن دوره كرمز كان يرتبط بوجود هذا الاقليم ودوره ويستحيل دونه، يمكن القول، في الواقع، أن هناك عاملا اساسيا يقف وراء جميع الأسباب التي اسهمت في العملية الوحدوية، وهو توفر الاقليم — القاعدة .

ولم تكن طريق هذه العملية الوحدوية، من ناحية عامة الطريق " الفيدرالي " بل الطريق " العسكري " . فالأقاليم المختلفة كانت تضم عادة إلى الإقليم- القاعدة دون موافقتها . تاريخ فرنسا السياسي كان طيلة قرون عديدة تاريخ العائلات المالكة، كـ " الكابيه " ، و " الفالوا " و " البوربون " التي عملت على تركيز السلطة في دولة قومية بالانطلاق من قاعدتها : " إيل دي فرانس " . فالمنطقة التي تدعى حاليا فرنسا لم تكن تضم عدة شعوب فقط ، بل عدة لغات. وفي بعض المراحل كان جنوب فرنسا، مثلا، يتطلع عبر البيرنيه بدلا من التطلع شمالا إلى باريس. وقد سحق استقلال الميدي نتيجة الحملة الالبيجانسية ، اما حركات الجنوب التي حاولت فيما بعد الإنفصال عن فرنسا فقد هزمت بعد الحروب الدينية بين الكاثوليك والهوغينو (البروتستانت). لقد كان هناك أيضاً مراحل كان فيها ملوك انكلترا- النورمان، والبلانتيجانية- يحكمون قسما من فرنسا أكبر من القسم الذي كان يحكمه ملوكها أنفسهم .

ولكن منذ بداية القرن السابع عشر- عبر جهود هنري الرابع ووزيره سولي، لويس الثالث عشر ووزيره ريشيليو، ومن ثم لويس الرابع عشر- استقرت السلطة المركزية عبر فرنسا . وكان هذا الصراع بشكل دائم هو صراع بين القاعدة المهيمنة وبين مناطق مجاورة ، أي مناطق الحدود، بين سلطة ملكية مطلقة تمثل هذه القاعدة وبين السلطة المحلية ، سلطة الأمراء الإقطاعيين . ولكن على الرغم من أن السلطة الملكية كانت قد ثبتت قواعدها بشكل يتجاوز كل خطر في عهد لويس الرابع عشر، فان

الارستقراطية الاقطاعية ظلت محافظة ليس فقط على امتيازاتها (كالإعفاء من الضرائب مثلاً) ، بل على شعور بأنها تشكل طبقة عليا ومنفصلة في داخل الدولة الفرنسية.

أما النورمندي فقد ضمت عن طريق حرب خسرها الدوق المعروف باسم الملك جون لسيده الإقطاعي ملك " إيل دي فرانس ". واللانغيدوك الحقت أيضا بالقاعدة بعد حرب لم تشارك فيها. هذه المنطقة كانت مركز الهرطقة المعروفة ، بـ " المونية " ، والكونت دي تولوز، سيدها الإقطاعي لم يستطع القضاء عليها. عندئذ تشكلت حملة صليبية ضدها، بتشجيع من البابا، قضت عليها نهائيا، ومن ثم ضمت أراضي المقاطعة إلى فرنسا.

ولكن هنا يجب التنبيه بأن القوة العسكرية لا تفسر وحدها عملية توحيد تداخلت فيها عوامل شتى تمتد من العامل الإيديولوجي إلى العامل الاقتصادي، ومن العامل الديبلوماسي إلى الخداع والحظ.

فضم اللورين، مثلا، لم يكن نتيجة هزيمة عسكرية فقط. اذ تعطي قصته — لو اتسع المجال لعرضها- مثلا بارزاً عن التعقيدات الكبيرة التي رافقت عملية التوحيد السياسي . ما يسمى بحرب الخلافة البولندية التي حدثت بين عام ١٧٣٣ وعام ١٧٣٥ هي التي أدت الى هذا الضم . فالمطالب بالعرش الذي كانت فرنسا تدعمه، والذي هزم فيها ، عُوض عن خسارته بدوقية اللورين التي كان مركز سيادتها شاغراً آنذاك، وعندما توفي كان له ابنة متزوجة من لويس الخامس عشر. وقد جعلتها وفاته الوريثة الشرعية الوحيدة له ، وبذلك ضمت اللورين نهائيا لفرنسا أي للايل دي فرانس .

أما الألزاس التي ضمت اليها، قبل ضم اللورين بما يقارب القرن، فإنها تمثل وجهاً آخر- مسليا، في الواقع، في كثيرمن التفاصيل- هو وجه التوحيد عن طريق المحامين ، المناورات والاحتيالات القانونية. هؤلاء كانوا يوجهون اهتمامهم إلى الممتلكات الأقطاعية في منطقة ما، يبحثون في ماضيها، ويفتشون فيه عن التبريرات القانونية التي تبرر ضمها لملوك الإيل دي فرانس . وكانوا يخرجون دائما من هذا البحث بمخطوطة أو وثيقة تدل على وجود شخص من أقارب العائلة المالكة كان يمتلك تلك أو هذه الأرض، أو أن تلك أو هذه البلدة كانت قد أعطيت براءة من أحد ملوك فرنسا، اي، إيل دي فرانس، أو أن ذلك أو هذا الدير كان تابعا لدير فرنسي ، الخ... فكانوا، بكلمة أخرى، قادرين دائما على البرهنة بأن الأرض كانت جزءاً من فرنسا.

بريتانيا تقدم افضل مثال على ضم حدث عن طريق الزواج فقط . ولكن بما أن سكانها كانوا من " السيلت " الذين لا يتكلمون اللغة الفرنسية، فلقد اقتضى امتصاصهم في الوحدة الفرنسية وقتاً أطول .

لقد استطاعت جميع العوامل، التي كانت تساهم في عملية التوحيد السياسي ، العمل في وجهة الوحدة، أو بالأحرى ، في خدمة هذه العملية بسبب وجود إقليم- قاعدة كان يستخدمها ويضبطها في هذه الطريق .

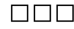
وفي جميع المراحل ، كانت هذه العملية التوحيدية الطويلة تدين بالشيء الكثير إلى الأجهزة الادارية والقضائية والعسكرية والسياسية، التي كانت تتشكل منها القاعدة ، وقد وفرت هذه الأجهزة الأرضية القانونية الواحدة التي تستطيع تنسيق وتنظيم الحياة اليومية حولها . هنا يجب ان نضيف بأن إيل دي فرانس دعمت عملية التوحيد عن طريق فرض لغتها أيضا على الأقاليم الأخرى التي كانت تضمها. وقد اخذت هذه اللغة في تحقيق درجة من الأولوية في القرن الحادي عشر ، وفي القرن الخامس عشر أصبحت لغة الشعب الأدبية . كانت تتحول إلى القياس الذي تتبلور فيه اللغات اللاتينية المحلية ، وكانت تنتشر وتؤكد سيادتها مع انتشار واتساع سلطة الإقليم – القاعدة .

هنا نجد أيضاً أن ظهور طليعة فكرية جديدة تفكر تفكيراً فرنسياً وليس تفكيراً إقليمياً ، وتمتد آفاقها مع امتداد القاعدة ، كان من أهم القوى الدافعة للوحدة والكامنة وراء الدولة الجديدة. هذه الطليعة كانت تشعر أنها فرنسية أولا، تدين بالولاء لفرنسا المتمثلة في مملكة إيل دي فرانس، وليس لأي إقليم على حدة، ولهذا وضعت إمكاناتها في خدمة القاعدة والتاج في متابعة عملية التوحيد وتحقيقها.

يستطيع المؤرخ أن يشير إلى عوامل وتحولات أخرى عديدة أسهمت سلبيا أو إيجابياً ، في عملية توحيد فرنسا، كعلاقة التاج بالبورجوازية، مثلا، ولكنه سيجد نفسه كيفما اتجه أمام الدور الأساسي الذي مارسته إيل دي فرانس كقاعدة. " التاج الفرنسي كان الرمز الذي نشأت حوله الأمة الفرنسية، والإيل دي فرانس القاعدة التي وحّدت أجزاء المملكة ، الحقوق المحلية الإقطاعية، الطبقات والتقاليد القانونية " . إن مفهوم سيادة رمزية تتجسد في شخص الملك لم يغب تماماً عن مملكة فرنسا حتى أثناء التفكك العام الذي ساد أثناء القرون الوسطى . ولكن مع نمو سلطة الملوك بنمو قوة القاعدة ، نمت أيضاً قوة التاج الفرنسي ، كما قوي جداً دوره التوحيدي . هذا الدور ازداد قوة، ليس فقط بسبب نموتلك السلطة ، بل بسبب نمو ولاء الشعب له أيضاً . وقد استمرهذا الولاء في الواقع حتى الثورة الفرنسية ، فكان الشعب يشعر حتى في ذلك التاريخ بولاء حقيقي لشخص الملك . في عام ١٧٨٩ كانت، في الواقع ، اكثرية الشعب الساحقة – ٨٠ ٪ تبعاً لبعض التقديرات- لا تزال تعطي ولاءها للويس السادس عشركرمز للوحدة الفرنسية . لقد لعب التاج الفرنسي الدور نفسه الذي لعبته عبادة الامبراطور في الامبراطورية الرومانية . وعندما نعي سيادة الانتماءات المحلية وقتها آنذاك ، ندرك أهمية هذا الدور الرمزي الذي مارسه التاج، ليس في فرنسا فقط ، بل في جميع الأنظمة الملكية التي اقترنت بنشوء الدولة القومية الحديثة . والحادثة التالية تكشف بوضوح عن هذه الأهمية . ففي عام ١٧٩٢ ، عندما انفجرت الحرب الأوروبية العامة بين الثورة

وأعدائها، صدر قانون يفرض تسجيل الأجانب في كل بلدة وقرية. وكانت النتيجة أن السلطات المحلية سجلت كأجنبي كل شخص لم يكن من الأبناء المحليين .

لقد وقفنا بشيء من التفصيل النسبي عند التجربة الفرنسية كي نعطي فكرة عامة عن دور الإقليم- القاعدة في العملية الوحدوية. هذه السمات العامة التي أشرنا إليها هنا كانت، في الواقع، تعيد ذاتها من ناحية أساسية في التجارب الوحدوية الأخرى ، وبالتالي ليس هناك ضرورة للاشارة إليها في الأمثلة الأخرى . لهذا نقتصر فيما يلي على الاشارة الموجزة .



في إسبانيا كانت كاستيل الاقليم- القاعدة الذي لعب الدور القيادي في توحيدها . اتحاد آراغون، وليون معها ثبت هذا الدور وجعله مهيمنا على الوضع . وشكل زواج فرديناند، وريث عرش آراغون، وإيزابيلا وريثة عرش كاستيل ، عام ١٤٦٩، الحدث التمهيدي في حركة الوحدة القومية.

إن أهم التطورات التي حدثت في إسبانيا، من هذه الزاوية ، بين عام ١٠٣١ ، تاريخ سقوط قرطبة، وأواسط القرن الثالث عشر، كان قيام كاستيل بدور التوحيد. ففي عام ١٠٣٥ أصبح فرديناند الأول ملكاً على كاستيل ، وبعد عامين ، ونتيجة لحرب ظافرة ، ضم ليون إلى مملكته. وفي حرب أخرى ضم نافار، وبعد ذلك، مناطق أخرى. هذه الحركة التوحيدية مهدت الطريق أمام خلفاء فرديناند، في استرجاع الأراضي الأخرى التي كان يسودها العرب ، ولكن هذه الوحدة بين كاستيل وليون تعرضت لنكسات عديدة ، ولم تتحقق بشكل دائم إلا في القرن الثالث عشر، عام ١٢٣٠، في عهد فرديناند الثالث الذي تابع بنجاح سياسة التوحيد والتحرير.

كانت كاستيل تضم المناطق الوسطى الغربية، ولذلك كانت أكبر مملكة في إسبانيا. ففي عهد فرديناند الأول سادت القسم الأكبر مما أصبح فيما بعد البرتغال، وغزت مملكتي توليدو وسافيل العربيتين، وفي عهد فرديناند الثالث جعلت وسط وغربي الأندلس مناطق كاستيلية . وفي عهد إيزابيلا انتزعت غرناطة من العرب، وأدخلت مناطق الباسك نهائيا في دائرة نفوذها .

لم تكن إسبانيا موزعة الى ممالك وإمارات مختلفة فقط بل كانت تتقاسمها أيضاً اتجاهات محلية وثقافية متناقضة. ودور كاستيل كقاعدة لوحدة اسبانيا، لم يكن فقط بسبب كونها قاعدة سياسية وعسكرية ، بل ايضا " لأن هويتها الثقافية كانت تمتد وتؤكد ذاتها قرنا بعد قرن ، بدءا من القرن الثالث عشر، بشكل عفوي وطبيعي، دون اللجوء الى العنف أو القسر السياسي ضد المناطق الأخرى. فمع تطور لغتها وتميزها بالفاعلية والتنوع والمرونة والجمال ، وخلق أدب متزايد النشاط ، تمكنت هذه الهوية من

امتصاص اللغات الأخرى التي تنتسب معها إلى أصل واحد، والتي كانت قد ظهرت في أستورياس ، غاليسيا ، ليون ، اراغوان وغيرها. وقد سادت اللغة الكاستيلية عليها كلها كلغة الحياة الفكرية وكتعبير عن الإيديولوجية الاسبانية " .

تشكلت إسبانيا إذن من الأقاليم التي استطاعت كاستيل، الإقليم- القاعدة، أن تضمها . اما المناطق التي عجزت عن ضمها، كمنطقة البرتغال، مثلا، فقد بقيت خارجها ولقد لعبت احداث خارجية عرضية الدور الرئيسي في جعل البرتغال دولة مستقلة ، و خلقت تدريجيا بين سكانها شعورا بأنهم شعب منفصل . التدخلات الخارجية من قبل بورغوندي، ورهبنة كلوني، ومطامح حاكمها الكونت هنري، هي التي أدت إلى فصلها عن إسبانيا . إن البرتغال وُلدت ونمت من إرادتها بأن لا تكون كاستيل " .

اما انكلترا فقد وجدت في ويسكس، الإقليم- القاعدة الذي تمحورت عليه وحدتها. ففي بداية القرون الوسطى كانت انكلترا مجموعة كبيرة من الإمارات والممالك المتخاصمة والمتحاربة. ولكن عائلة ويسيكس استطاعت أن تحقق نوعاً من الاتحاد بينها في القرن الحادي عشر، وهو اتحاد كان يمكن أن يكون مؤقتاً وغير مستمر لولا الغزو النورماني الذي أمن له الاستمرار عن طريق إدارة مركزة أعطتها وحدة سياسية قومية فعالة قبل أي مجتمع آخر في أوروبا. وبريطانيا وجدت قاعدة وحدتها في انكلترا التي قادت عملية الترحيد عبر قرون وحروب عديدة ضد والز واسكتلندا وارلندا، الى ان تم دمج الجزر التي تتشكل منها المملكة المتحدة. ومارست بريطانيا نفسها فيما بعد ما يمكن تسميته بدور القاعدة لنوع من (الاتحاد) اوسع بكثير، وهو اتحاد الكومنولث، وقد انهار الكومنولث عندما خسرت بريطانيا دورها الأساسي ، ولم يعد بإمكانها أن تمارس، بسبب ضعفها المتزايد، دور القاعدة. وقد بقي هذا الاعتراف قائما كما يكتب توينبي، حتى الحرب العالمية الثانية .

تختلف تجربة بريطانيا الوحدوية في كثيرمن تفاصيلها عن تجربة فرنسا او اسبانيا ، ولكن لو عدنا إليها بدلا من الأولى، كنموذج للعملية الوحدوية، لوجدنا أن الخطوط أو الاتجاهات العامة والأساسية واحدة.

في سويسرا نجد أن الاقليم- القاعدة تشكل في البداية من اتحاد ثلاث كانتونات وهي يوري وشفيتز وأونترفالدين، وقد تحالفت معا ضد السلطة الاعتباطية التي مارسها ممثلو رودولف، ملك الهابسبورغ، إقليم شفيتز كان قاعدة هذه النواة الأولى بسبب الدور الطليعي الذي قام به في كل هجوم تقريبا ضد النمسا. هذا الدور هو الذي برر نقل اسمه للكونفيدراسيون ككل . من ناحية أخرى، كان هناك سبب آخر لهذا الدور، وهو أن سكان شفيتز كانوا كلهم من الأحرار، بينما كان سكان الكانتونين الآخرين يخضعان للقنانة . عند وفاة رودولف حولت هذه الكانتونات تحالفها الى تحالف دائم ضد كل تدخل خارجي في أمورها .

لم تكن الكانتونات السويسرية قد حققت في أواخر القرن الرابع عشر اتحاداً بينها ، أو حتى كونفيدارسيونا صحيحا. وتطور هذا التحالف الأولي فيما بعد الى كونفيدراسيون ، ومن ثم إلى اتحاد ذي تركيب سياسي ثابت. أما أهم الأسباب لهذا التطور فكانت : أولاً ، الاتحاد المتماسك بين الكانتونات الثلاثة الأولى الذي وفر قاعدة جعلت من الممكن توسيع الاتحاد، ثانيا، العمل التمهيدي الذي حققته مملكة الهابسبورغ نفسها في محاولتها بأن تصنع إقليما واحداً من المنطقة السويسرية. وفي مملكة الهابسبورغ نجد وضعاً مماثلاً لوضع سويسرا، أي أن الإقليم- القاعدة تشكل أولا من تعاون وثيق، ومن ثم دمج سياسي لما كان يُسمى بالاراضي الألبية الوراثية. هذه الأقاليم كونت أساس قوة الهابسبورغ قبل عام ١٥٢٦، وأصبحت فيما بعد الأساس لاتحاد مع بوهيميا، هنغاريا، وأقاليم أخرى ، وبقيت المصدر لسلطتها وللولاء للملكية حتى تاريخ انهيارها عام ١٩١٨ .

في أمثلة كهذه ، وهي قليلة جداً في تجارب التاريخ الوحدوية نجد ما يمكن تسميته بـ " القاعدة المركبة " .

أما روسيا الحديثة فقد بدأت دون ضجة تاريخية في مطلع القرن الرابع عشر، في عهد حاكم اسمه ايفان كاليتا، ولكنها لم تصبح قوة ذات شأن إلا في أواسط القرن السادس عشر في عهد ايفان الرهيب المعاصر لهنري الثامن ومكيافيللي ، والذي كان يمثل آراء في السلطة مماثلة لآرائهما. منذ ذلك التاريخ شملت الدولة الروسية مجموعة كبيرة من الروس والتتر الذين يتكلمون عدة لغات، وأخذت بالامتداد نحو الغرب إلى أن ضمت في القرن السابع عشر أوكرانيا وعشرات القوميات الأخرى .

كانت امارة موسكوفيا الكبرى هي الإقليم - القاعدة لهذه الدولة. وفي مقال ظهر في البرافدا ، ١١ ايلول/ سبتمبر، ١٩٤٧، في الاحتفال بالعيد الثمانمائة لتأسيس موسكو ، أعلن ستالين : " إن أروع خدمة قدمتها موسكو هي صيرورتها مركزاً لتوحيد روسيا المجزأة في دولة واحدة، وحكومة واحدة وقيادة واحدة ". ثم يضيف " وكل بلاد في العالم لم تستطع التحررمن التجزئة الاقطاعية والتنازع بين الأمراء، لا يمكنها أن تأمل في المحافظة على استقلالها وتحقيق تقدم اقتصادي وثقافي محسوس. البلد الموحد في دولة مركزية يستطيع وحده التوصل إلى تحقيق تقدم ثقافي اقتصادي محسوس وتوطيد استقلاله ".

تشكلت روسيا من شعوب عديدة متمايزة التطور ومختلفة الأصول، ولكن دور الشعب الروسي اقترن بدور الاقليم- القاعدة وشكل معه محور العملية الوحدوية. لقد اخذت روسيا، في الواقع، اسمها من روس كياف (Rus). وجعل ستالين، فيما بعد ، من " الروس " الشعب القاعدة للاتحاد السوفياتي، وفي الحرب ضد الغزو النازي أعلن ، مرة بعد أخرى، أن (الروس الكبار) هم القوة الدافعة في الاتحاد السوفياتي، وليس فقط من واحد وثمانين شعباً يتشكل منهم هذا الاتحاد.

أثناء القرون الوسطى التي ساد فيها التتر، كانت الكنيسة الارثوذكسية النظام الوحيد الذي ظل يمثل فكرة الوحدة الدينية والقومية التي غرسها حكام كياف في انفس السلاف الشرقيين الارثوذكس. ولكن الوحدة الدينية في ظل كياف كانت دون أهمية سياسية طالما أن القسم الأكبر من السكان السلاف الارثوذكس كان يخضع لسلطة الدولة الكاثوليكية البولونية- الليتوانية، او لسلطة امراء روس صغار تحت حكم التتر المسلمين . وجدت الكنيسة الارثوذكسية أن من مصلحتها دعم أقوى الامراء الروس كي تتمكن في احد الأيام من توحيد جميع الأراضي الروسية.

ولكن على الرغم من أن مطرانية كياف كانت قد انتقلت إلى موسكو في بداية القرن الرابع عشر، فإن الكنيسة الارثوذكسية، لم تؤيد امراء موسكو باعتبارهم حماة التقاليد الدينية والقومية في جميع الأراضي الروسية إلا بعد معركة ١٣٨٠ الظافرة ضد التتر. من الصعب القول إلى أية درجة رضى أمراء موسكو، في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، بهذا الدور الذي يجعلهم مكملين لتقاليد كياف الدينية والقومية. ولكن في نهاية القرن الخامس عشر، اعلن ايفمان الثالث نفسه رسميا " سيد روسيا كلها " ، و ذلك بنعمة الله ، وكإرث من أجداده، هذا الإعلان كان تعبيراً ، في الواقع، عن تصميمه على إخضاع جميع الأراضي التي كانت في السابق جزءاً من كياف، أو التي يسكنها سلاف شرقيون أرثوذكس .

من هذا نستدل أن حركة التوحيد القومي الروسي اعتمدت في نجاحها على إقليم – قاعدة يتمثل في إمارة موسكو وعلى رمز عام تجسد في أمرائها وعلى حرب تحريرية ضد احتلال خارجي وعلى تقليد وحدة سابقة ترجع إلى إمارة كياف ودورها وعلى ايديولوجية موحدة عبرت عنها كنيسة معينة.

وحدة المانيا ، بالأحرى عملية توحيدها السياسي تُعطى أيضاً مثلا كلاسيكيا آخر على الاتجاهات الاساسية التي رافقت التجارب الوحدوية الأخرى . فهي كانت خاضعة لتجزئة قاسية تتقاسمها مئات الإمارات والممالك. ولم يكن تجاوزهذه التجزئة ممكنا كشفه إلا عن طريق إقليم - قاعدة توفر لها في بروسيا، ومنه انطلقت العملية الوحدوية باعتماد سياسة " الحديد والنار " التي أعلن عنها بيسمارك .

ويعود تأخر تحقيق وحدة المانيا حتى الثلث الأخير من القرن الماضي، في الواقع، بقدر كبير إلى عدم توفر الإقليم- القاعدة ، الذي يمكن بالعمل معه والارتباط به سحق الاقاليم والكيانات الاقطاعية الموجودة . " ما كانت تحتاجه المانيا كان عائلة مالكة نشطة يمكن لحركة قومية أن تتمحور حولها " .

ثورة ١٨٤٨ ، وهرب ميتيرنيخ من النمسا، أديا إلى نتائج مهمة في تاريخ الوحدة الالمانية . فقد تشكلت آنذاك جمعية ليبرالية تشريعية كانت، في الواقع، أول جمعية تمثيلية في التاريخ الالماني ، واجتمعت في فرانكفورت كي تضع دستوراً لالمانيا موحدة، وكانت المشكلة الاساسية ، من بين المشاكل العديدة التي واجهتها، هي مشكلة الاقليم – القاعدة ، أو المنافسة بين بروسيا والنمسا على قيادة المانيا نحو الوحدة . فقد

كان هناك من يدعو إلى ما يسمى " بالحل الكبير " بقيادة الثانية ، ومن يدعو إلى ما يُسمى " بالحل الصغير " بقيادة الأولى . وأخيراً عندما قدمت الجمعية التاج لملك بروسيا، رفضه هذا الأخير بازدراء ، فقد كانت الجمعية مثار سخرية كـ " برلمان من الاساتذة " عاجز عن الوصول الى أي اتفاق . وقد شعر القوميون الألمان بخيبة كبيرة بسبب فشل ١٨٤٨ ، وأدركوا آنذاك الهوة الكبيرة بين المطامح الليبرالية ، السياسية وبين النفوذ الليبرالي الفعلي . وبعد تقلص موجة الثورة ، دُفنت الحركة الوحدوية الليبرالية وانتصر المحور البروسي الالماني ! وبدءا من ذلك الوقت اعتمدت عملية التوحيد على هذا المحوركقاعدة لها .

تأخر وحدة إيطاليا كان يعود بقدر كبير إلى أسباب مماثلة للأسباب المسؤولة عن تأخرها في المانيا . السبب الأساسي هنا كان أيضاً عدم وجود إقليم- قاعدة، يقترن به نظام ملكي قوي يلتزم بعملية التوحيد. ثم ان المدن العديدة التي كانت تتقاسم ايطاليا في القرون الوسطى كانت متماثلة إلى حد كبيرمن حيث القوة، مما يعني أنه لم يكن هناك من مدينة قوية بين هذه المدن بلغت درجة من القوة تستطيع بها أن تهيمن وتمارس دور القاعدة .

ولكن هذه العملية قدمت، عندما بدأت ، صورة واضحة عن دور الإقليم- القاعدة في تحقيق عملية توحيد من هذا النوع . بيدمونتي كانت هذه القاعدة التي قادت حركة التوحيد إلى أن تمت وحدة إيطاليا.

وتشكلت وحدة هولندا الأولى من سبعة أقاليم ، وذلك عام ١٥٧٢ ، اثناء حرب الاستقلال ضد إسبانيا. أحد هذه الأقاليم كان هولندا. وهو الذي أعطى اسمه لهذه النواة الأولى لأنه كان أهمها وقاعدتها.

في الولايات المتحدة لا نجد ولاية تتميز بالقوة والإمكانات التي تجعلها متفوقة على الولايات الأخرى وقادرة بأن تفرض هيمنتها وقيادتها، كما نجد في التجارب الأخرى، ولكننا نجد وضعا مماثلا لوضع سويسرا، ومملكة الهابسبورغ، اي ما أشرنا اليه بعبارة " القاعدة المركبة " ، أو نواة تشكلت في البداية من بضع ولايات كرد على تحديات ومخاطرخارجية، وكانت تمتلك قدرا من القوة والإمكانات وفر لها هذا التفوق . وفرضت عليها هذه المخاطر العمل يداً واحدة في مواجهتها. وهي ولايات: بانسلفانيا ، ماستشوسيتس، وفرجينيا. بعد ذلك نجد ان الدولة الاتحادية التي تشكلت من الولايات الثلاث عشرة الأولى مارست دور القاعدة في عملية الدمج السياسي الذي امتد إلى المناطق والولايات التي ظهرت فيما بعد.

□□□

دور الإقليم- القاعدة الأساسي في عملية التوحيد السياسي الذي تكشف عنه هذه الأمثلة في ظهور الدول القومية الحديثة يكشف عن ذاته أيضاً بوضوح في نشوء الدول والامبراطوريات في العالم القديم .

كان الرومان يتميزون بوطنية حادة، ولكن وطنيتهم كانت تعبيرا عن ولائهم لمدينة التلال السبع ، وليس لجميع الذين يتكلمون اللاتينية . ومع امتداد روما ، المدينة – الدولة إلى امبراطورية ، تطورت وطنية الرومان المحلية إلى مفاخرة بالامبراطورية العالمية دون المرور في طور القومية المتوسط . وجدت هذه الامبراطورية قاعدتها في روما ، المدينة – الدولة .

ايطاليا تشكل وحدة جغرافية ، ولكن الشواطىء الطويلة التي تشكل حدودها كانت تجعلها عرضة للغزو والاعتداءات . لهذا رأت روما أن توحيدها يشكل الأساس الأول لأية سياسة عالمية تريدها . وفي سبيل هذا الهدف قامت روما بسلسلة من الحروب التي كانت تقود شعباً إثر آخر إلى الخضوع لها والارتباط بها كقاعدة لهذه الوحدة . اما سياستها تجاه القبائل المختلفة التي كانت تسكن شبه الجزيرة فكانت سياسة معتدلة ، لأنها كانت تريد الاستقرار السياسي فيها كي يمكن لها متابعة سياستها الامبريالية في الخارج . وقد ساعد خطر قبائل الغال في تدعيم هذه السياسة لأنه دفع قبائل ايطاليا الى الاعتماد على روما في حمايتها . هكذا نما مع الوقت شعور عام بالتماسك والالتحام بين هذه القبائل ، تبلور تدريجياً في شعور وطني موحد . وأخذ الناس يشعرون ، نتيجة لهذه المشاركة ، ليس في روما فقط بل في جميع أنحاء شبه الجزيرة بأنهم رومان .

كان موقع روما الجغرافي من أهم أسباب نجاحها كقاعدة لامبراطورية ضخمة . كانت مدينة – دولة في عالم من المدن – الدول ، وتملك بالتالي الوحدة والحيوية اللتين يولهما عادة تركيب المدينة – الدولة في المجتمع . ولكن مناطق ايطاليا الوسطى التي كانت تحيط بها كانت تشكل عالماً من الجماعات التي لا تزال في طور ما قبل المدينة – الدولة . سكانها لم يكونوا بالتالي قد حققوا بعد الوعي السياسي الذي كان يدفع بشدة مواطني المدينة – الدولة الى الدفاع عن استقلالهم والامتناع عن التسليم بسيادتهم . روما وجدت ، كما وجدت أثينا واسبارطة من قبلها ، أنه من الصعب عليها أن تخضع المدن – الدول القديمة المعروفة لسيادتها مهما كانت هذه السيادة معتدلة . مدن – دول كـ تارنتوم ، صقلية ، كابوا ، مثلاً ، قاومت بشدة ، وفي النهاية خضعت فقط بعد التعرض لأشكال شديدة من الارغام والعنف . ولكن روما استطاعت ، على عكس ذلك ، أن تضم المناطق الأخرى واقناعها بأن تصبح جزءاً منها دون مقاومة تذكر .

كتب أدوارد جيبون مرة أنه " لو طلب الى انسان بأن يعين المرحلة التاريخية في تاريخ العالم التي كان فيها وضع الانسان أكثرما يكون عليه سعادة وتقدما، فإنه يدل دون تردد على تلك المرحلة التي تمتد من وفاة دوميشيان إلى ارتقاء كومودوس العرش " ، كانت هذه المرحلة التاريخية تمتد في ذهن جيبون من عام ٩٦ إلى عام ١٨٠ ب. م . فيها قامت الامبراطورية الرومانية. والذي دعاه إلى تمييز هذه المرحلة بهذا الشكل كان السلام العالمي الذي حققته روما آنذاك في أكبر رقعة من العالم لفترة أطول من اية فترة مماثلة عرفها الغرب.

استطاعت هذه الأمبراطورية توكيد ذاتها بسبب توفر قاعدة لها، قامت مقام المقلب منها، واستطاعت أن تستقطب المشاعر والأفكار حولها بشكل شبه مقدس . بالاضافة إلى ذلك ، يأتي دور الامبراطور كرمز حي للقاعدة والامبراطورية . فقد اصبح الامبراطور موضوع عبادة وتأليه مع بداية الامبراطورية، وهي ظاهرة أثارت استغراب المؤرخين الذين أرجعوها عادة إلى أباطرة أصيبوا بجنون العظمة. ولكن الكثيرمن هؤلاء وجدوا كما نعرف الآن من تاريخهم، أن هذه العبادة كريهة ومزعجة، وأنه كان عليهم أن يقاسوها بسبب شعور بالواجب فقط ، وذلك لأنها كانت، كما يبدو، أداة سياسية خلقتها روما عن وعي وسابق تصميم كي توفر لسكان الامبراطورية ، الأميين في أكثريتهم الساحقة ، والمتعددي الأجناس والتقاليد والثقافات رمزاً حسيا لوحدة الدولة ، كأي رمز حديث تستخدمه الدولة المعاصرة ، كالعلم أو التاج البريطاني ...

ذكر فوستال دي كولانج في كتاب قيم " الغال الرومانية " أنه اذا كان باستطاعة ثلاثين فيلق فقط إخضاع مائة مليون من الناس ، فسبب طاعتهم يعود إلى كون الامبراطور الذي كان يجسد عظمة روما، كان يُعبد بإجماع عام كإله ، وكانت المذابح تقام له في كل مكان في عرض البلاد وطولها، من اصغر قرية الى اكبر مدينة. ففي جميع أنحاء الامبراطورية ظهر دين جديد كانت آلهته الأباطرة أنفسهم .

ومن بين الأسباب الأخرى المسؤولة عن نجاح روما كقاعدة لتلك الامبراطورية العالمية، ينبغي الإشارة إلى الجهاز الإداري الفعال الذي كان يربط مختلف أجزائها بروما ، ويدين بالولاء لها فقط ، غياب مجلس تشريعي خاص بالامبراطورية، زاد، في الواقع، من أهمية هذا الجهاز في ربط مختلف هذه الأجزاء بها. وإلى جانب هذا الجهازكان هناك عدد من الكتاب والفلاسفة والمدرسين، وعدد آخر من ذوي الدخل المستقل والنبلاء والتجار ، الخ ... من الذين يتميزون بنزعة عالمية. وقد عبرت هذه النزعة عن ذاتها في الرواقية التي دعمت المواطنية الرومانية الواحدة لجميع أجزاء الامبراطورية، وخلقت مناخاً يغذيها باستمرار .

وفي اليونان القديمة بقيت المدن اليونانية منفصلة ومتخاصمة إلى أن توفرت لها قاعدة في مقدونيا استطاعت أن تفرض عليها الوحدة ، وتجعل من ملكها فيليب رمزاً وسيداً لها . وقبل ذلك كانت تبرز هنا وهناك جامعات أو تحالفات سياسية تتشكل من بعض هذه المدن التي تلتقي فيها ككيانات مستقلة ، وتتمتع بحقوق متساوية. ولكن عند مراجعة تاريخها نرى أن المدينة كانت تلعب دور القاعدة . " كان هذا التحالف يتطور في بعض الأحيان فيضفي على إحدى المدن، كما نرى في جامعة (Delia-Attica) التي تحولت فيها السيطرة إلى أثينا ، دوراً قيادياً ويعطيها بسبب ذلك امتيازات وحقوقا خاصة " .

كانت هذه التحالفات أو الجامعات تظهر بسبب ضرورات عسكرية. فبدءاً من أواسط القرن السادس ق.م ، اخذ هذا الشكل السياسي الجديد يظهر في الحياة اليونانية ، وكان يعني تحالف عدد من المدن-الدول حول مدينة- دولة يعطيها مركزاً قياديا في الحرب ، لا يلبث أن يتحول إلى مركز قيادي في السياسة. وفي جميع هذه الجامعات التي كانت تتشكل بين المدن اليونانية القديمة نجد مدينة تقوم بدور القاعدة .

ولكن الولاء السياسي للمدينة - الدولة كان طاغيا يمنع الارتباط الكلي بأي شكل سياسي يتجاوزها . " ولاء اليونانيين القدماء للمدينة - الدولة كان السبب الرئيسي الذي أدى إلى فشلهم السياسي وخسارة استقلالهم " .

وكانت الصين في بداية تاريخها مجزأة إلى أنظمة إقطاعية ودول عديدة تتقاتل باستمرار في القرن الرابع ق.م . كان هناك سبع دول كبيرة تتمحور حولها هذه الصراعات ، وتحققت وحدتها السياسية للمرة الأولى في تاريخها في نهاية القرن الثالث ق.م . (عام ٢٢١)، وكان ذلك يعود إلى دولة " شين " التي قامت بدور القاعدة ، ومارست باستمرار سياسة توحيدية الى أن تم إنشاء الدولة الواحدة، وتابعت مملكة الهان هذا الطريق فيما بعد. حققت الشين حركة إصلاح زراعي كبيرة أدت إلى " ديمقراطية " اجتماعية قضت على الاقطاع عن طريق الاصلاحات التي جعلت المزارعين أحراراً في شراء الاراضي وبيعها . وفي مملكة الشين وعن طريقها أصبحت الصين لأول مرة في التاريخ موحدة في ظل سلطة أوتوقراطية قيصرية. كان رئيس هذه الدولة يُدعى " وانج " أو الملك ، وكان يحكم باسم حق إلهي من السماء، وبسبب (Te) وهي كلمة كانت تعني أولا قدرة سحرية ، ثم أعطتها الكونفشية فيما بعد المعنى الأخلاقي الذي تمثله كلمة فضيلة. كان هناك أيضاً إيديولوجية (دين) تقدم أساساً شرعياً لهذه الدولة، تربط بين جميع أجزاء الصين ، ونظام ثابت من الطقوس المعقدة المتنوعة يربط بين الطبقات والجماعات المختلفة . وكان الملك يرمز إلى هذه الدولة، ويقوم بدور الكاهن الأكبر.

هذا النظام الذي وحد الصين عن طريق " الشين " وحولها إلى وحدة إدارية وثقافية واحدة استمر منذ ذلك التاريخ بشكله الاساسي رغم تتابع العائلات المالكة المختلفة والحروب الأهلية ، إلى أن حدثت الثورة الجمهورية في نهاية العقد الأول من هذا القرن .

كان شيه هوانغ- تي هو القائد المسؤول عن تحقيق هذه الدولة الأولى، أما النظام الذي دمج فيه الامبراطورية آنذاك فقد تميز بجميع ميزات الخلق العبقري . واسم الصين يشتق من هذه الدولة-القاعدة التي سحقت النظام الاقطاعي القديم و حققت وحدتها .

الايديولوجية التي رافقت ظهور هذه الدولة كانت تشتق من أفكار وفلسفة مدرسة " القانونيين ". ولكن هذه الفلسفة كانت، كما يبدو، جذرية أكثر مما يجب ، ولهذا صححت مملكة الهان الوضع بتبني الكونفشية.

عند انهيار مملكة الهان في بداية القرن الثالث ب. م . انقسمت الامبراطورية لمدة طويلة (٢٢١-٢٦٥) بين ثلاث دول ، وتشكلت ما يُسمى في التاريخ الصيني بمرحلة الممالك الثلاث وهي مملكة " واي " (Wei)، مملكة واو (Wu) ومملكة شو (Shu) .. استمرت هذه التجزئة إلى أن تغلبت الأولى على الثانية والثالثة ، وجددت، كنتيجة لانتصارها ، وحدة الصين فوحدة الصين لم تكن ممكنة من جديد طالما كان هناك دول تتخاصم حول قيادة عملية الدمج السياسي ، وأن هذه العملية أصبحت ممكنة وتحققت سريعا عندما توفرت قاعدة واحدة بدلا من ثلاث.

وفي جميع حركات التوحيد السياسي التي كانت تحدث في الصين بعد مراحل تجزئة وانقسام عديدة كانت تتم فيها عملية انتقال السلطة من عائلة مالكة الى عائلة أخرى ، ونرى أيضاً بوضوح دور الامبراطور، فلم يكن هناك إقليم معين يقوم بدور القاعدة، فقط ، بل وجد إلى جانب ذلك عائلة مالكة تقود هذه القاعدة وإيديولوجية تعبر عن شرعيتها وامبراطور أو ملك يرمز إليهاكابن السماء وكأب للشعب الصيني .

ما ينطبق على الصين ينطبق على البلدان الأخرى في جنوبي شرقي آسيا. إن تاريخ بورما مثلا كان ، قبل تحقيق وحدتها، صراعاً مستمراً بين عدد كبيرمن الملوك والحكام ، كل واحد منهم يحاول السيطرة على الآخرين ، ويمثل في ذلك قبيلة معينة كـ " المونز "، و " الاراكانيز " ، " الشانز " ، و " الكارينز " ، و " الشينز "، و " البورمان " الذين جاؤوا من الجبال واندفعوا نحو السهول . اسم بورما يشتق من اسم أقوى هذه القبائل التي استطاعت أن تفرض ذاتها على القبائل الأخرى وتوحدها .

وما يصدق على الصين وروما واليونان وبورما ينطبق على جميع الامبراطوريات والممالك القديمة . " كل امبراطورية مشهورة... برزت الى الوجود لأن جماعة معينة سيطرت على الجماعات الأخرى .. في أميركا الوسطى .. في التاريخ الصيني ، الياباني ، الهندي ، والمصري ، كانت العملية نفسها (Process) تُعيد ذاتها . ففيها كلها نجد نظاماً اقطاعياً يتحول إلى نظام دولي، ومن ثم إلى امبراطورية عن طريق عملية توحيد تقوم بها إحدى الدول " .

يكشف تاريخ اليابان كالتاريخ الصيني ، عن القانون الوحدوي نفسه عبر دورات مختلفة من الوحدة والتجزئة، الى أن تحققت الوحدة النهائية في عهد التوكوغاوا ، في القرن السابع عشر. هنا نجد ان النظام الإقطاعي كان يجزيء البلاد إلى مقاطعات و إمارات عديدة . ولكن هنا وهناك كانت إحدى هذه المقاطعات تتمكن من فرض إرادتها وسلطتها على المقاطعات الأخرى وتحقيق وحدة قومية عامة. ولكن بعد

مدة ما، كانت هذه الوحدة تنهار لأسباب مختلفة ، فيعود الإقطاعيون إلى سابق عهدهم من التجزئة والاستقلال المحلي ، إلى أن يبرز مرة أخرى إقليم يستطيع أن يقود عملية دمج سياسي تفرض الوحدة السياسية ثانية وقد شهد تاريخ اليابان، من القرن الرابع حتى نهاية القرن السادس عشر ثلاث دورات من هذا النوع . هنا تنبغي الإشارة إلى أن كل انهيار جديد للوحدة كان يعني تجزئة أكثر تشتتا من السابق، كما أن الوحدة كانت، هي الأخرى، تأخذ أشكالاً أقوى في كل دورة جديدة ، كل دورة كانت نتيجة توفر اقليم- قاعدة يستطيع التفوق عسكرياً وسياسياً على القبائل أو الدول الأخرى .

الذي يجب إضافته هنا هو أن جميع هذه الامبراطوريات لا تدل فقط على وجود اقليم - قاعدة يقوم بعملية التوحيد ويحققها، بل على أنها كانت تقترن باستمرار بشخصية امبراطور أو ملك يرمز إلى وحدتها وهويتها.

في سومر، مثلا، نجد أن الحضارة برزت أولا في إطار من المدن- الدول كانت تتميز بجمعيات شعبية. وكانت هذه المدن توحد في بعض الأحيان في ممالك مؤقتة عن طريق القوة العسكرية. وأول محاولة ناجحة ثابتة من هذا النوع كانت محاولة سارجون . هنا نجد أيضاً مدينة- قاعدة، آكاد. تقود عملية التوحيد، وملكاً تتركز في يده سلطة التوحيد . " وجود ملك واحد لقب نفسه ملك " جهات العالم الاربع "، كان التذكير الدائم بوحدة الدولة " . وحوالي عام ٢٣٥٠ ق. م . استطاع سارجون أن يسود المنطقة كلها ومعظم غربي آسيا، وانشأ بذلك أول امبراطورية كبيرة في التاريخ . سومر لم تصبح أمة حقيقية، فقد انهارت امبراطورية سارجون بعد قرن من تأسيسها ، كما انهارت ايضا الامبراطورية الثانية التي انشأتها سلالة أور .

في حضارة مصر القديمة نجد الظاهرة نفسها. فالمصريون القدماء ذكروا أن مينيس الذي حكم أولاً في تيس، في مصر العليا، هو الذي وحد البلاد كلها تحت سيادته. وأشاروا إليه كأول ملك في أول عائلة مالكة ، وهكذا عينوا تاريخ توحيد بلادهم كبداية لتاريخهم . وقد دلت الاكتشافات الأثرية على صحة هذا التقليد. فإقامة المملكة الواحدة انطلاقاً من اقليم - قاعدة تبدو، في الواقع، كوجه سياسي لولادة الحضارة المصرية . وقد وجد المصريون القدماء وحدتهم حتى النهاية في الاعتقاد بأن رفاهيتهم ترتبط كليا بفرعون ، وبأن فرعون نفسه إله وليس نائب إله. وكان رعاياه في المملكة القديمة ، يدينون له بأرواحهم نفسها.

الملك أو الامبراطور في هذه الدول القديمة كان يرمز إلى وحدة البلاد أو الشعب في نواحيها الزمانية والغيبية. وكانت الحياة الحضارية نفسها وليس السياسية فقط تدور حوله .

وتقدم افريقيا أمثلة حديثة على ذلك. فالممالك العديدة التي نشأت فيها في القرن التاسع عشر، كانت تنشأ حول قبيلة تقوم بعملية الدمج السياسي . هذه الممالك ، كمملكة الباغندا ، ومملكة الأنكول، ومملكة روندا، كانت نتيجة سيادة قبائل من الرعاة على قبائل من المزارعين. " ولكن ما يلاحظ في هذه الامبراطوريات أيضا هو أنها كانت كالكثير من سابقاتها . تنهار عند موت مؤسسها .

هذا الاعتماد على أسرة أو قبيلة معينة في خلق الوحدات السياسية الكبيرة او الممالك القديمة كان يعود إلى كون الرابطة العائلية أو القبلية كانت الرابطة الأساسية ، وبالتالي كان على عملية التوحيد ان تبدأ من قبيلة كمحور لها. كما كانت تعني أيضاً أنه لا يمكن للمنتصر أن يعتمد كثيراً على المدن أو القبائل الأخرى المهزومة .

الامبراطوريات التاريخية لا تكون، من ناحية عامة ، أكثر اندماجا من الكتل والجبهات السياسية، ولكنها تتميز عنها عادة بقاعدة تقترن بالامبراطورية بقوة وتمثل مركز الثقل فيها .

" امثلة المصريين، والمغول، والسلاف، تدل على ان الدولة تشكلت أولا بالامتداد الداخلي ، الفتح الداخلي... هؤلاء كانوا يثبتون وضعهم، أولا ، في منطقة مركزية لسلطتهم ، ثم يمتدون منها إلى المناطق المجاورة، ومن هذه المناطق إلى الخارج " .

هذه الصفحات تدل بوضوح أن نشوء الدول التاريخية كان يتم عن طريق سيادة قبيلة على مجموعة من القبائل الأخرى، او سيادة دولة صغيرة على مجموعة من الدول الصغيرة الأخرى. هذا يعني بوضوح أن كل عملية توحيد سياسي في نشوء الدولة كانت تفترض توفر قاعدة (قبيلة، اسرة مالكة، مدينة، دولة صغيرة). تنطلق منها وترتبط بها هذه العملية .

□□□

واذا انتقلنا الآن الى صعيد آخر، صعيد الحركات الايديولوجية والسياسية الكبرى ، نجد ان تاريخ هذه الحركات يكشف بدوره أن هذه الحركات تتمزق دون قاعدة ، فوحدتها تحتاج إلى هذه القاعدة او انها تبقى ممزقة من دونها، تماما كالمجتمع المجزأ الذي لا يجد وحدته دون إقليم - قاعدة يقود عملية التوحيد السياسي . بعض الامثلة كافية في إيضاح هذه العلاقة.

فالكنيسة الكاثوليكية، مثلا، تجد وحدتها في الفاتيكان الذي يشكل قاعدتها . ووحدة العالم الكاثوليكي كانت تعود حتى الآن إلى وجود قاعدة لها في روما، ترتبط بها وتنقاد اليها. إن هذا الدور الذي يمارسه الفاتيكان هو نتيجة اعتراف عام بسلطة البابا التي تمثل سلطة الكنيسة وضميرها. ولقد حفظت

هذه القاعدة وحدة الكنيسة عبر العالم . وكل تمرد عليها قاد إلى تشتيت جديد للعالم المسيحي . البروتستانتية التي لا تجد قاعدة من هذا النوع اصبحت مشتتة في مئات من الكنائس المختلفة ، المتناقضة والمتخاصمة . وينطبق الشىء نفسه ، إلى حد كبير، على الكنيسة الأرثوذكسية .

في الستينات ابتدأ دور هذه القاعدة الكاثوليكية يضعف، فظهرت حركات على قدر كبير من الاستقلال ، مما جعل الكثيرين يرون أن مصير الكنيسة الكاثوليكية سينتهي، اذا تابع هذا التحول مجراه، الى مصير البروتستانتية .

في الثلاثينات تنبأ برتراند راسل، وهو يتأمل فيما لازم البروتستانتية من تبعثر وتشتت ، بأن الكنيسة الكاثوليكية ستسترجع من جديد سيادتها التامة على الغرب اذا تابعت البروتستانيتية التشتت المتزايد الذي لازمها في السابق. وحدة الكنيسة الكاثوليكية حول قاعدتها، كانت دون شك، هي قاعدة نبوءة راسل هذه، مما يعطي الكاثوليكي هوية عامة واضحة حاسمة ذات جذور نفسية اخلاقية عميقة. لا أعلم إذا كان راسل عاد عن رأيه هذا في الستينات قبل وفاته، ولكن مما لا شك فيه ان الضعف أو الاسترخاء الذي اصاب وحدتها حول القاعدة لا يُعدها، إن هو استمر، إلى تحقيق هذا التنبؤ .

في العالم العلماني الحديث، نجد أن أكثر الحركات مغزى ودلالة على هذه الظاهرة هي الحركة الشيوعية التي تقابل في أهميتها، من هذه الناحية- أي من حيث المغزى والدلالة – أهمية الكنيسة الكاثوليكية والحركة البروتستانتية بالنسبة للعالم الديني . كانت الحركة الشيوعية في العالم طيلة نصف قرن تقريبا تتركز على الاتحاد السوفياتي كقاعدة ، وتجد وحدتها في الارتباط بهذه القاعدة. وكان هذا الارتباط هو المقياس الذي يحدد ويوجه سياسة الأحزاب والأنظمة الشيوعية في العالم، التي كانت ترى أن كل ما يخدم القاعدة ويدعم قوتها وتطورها، يخدمها ويدعمها في آن واحد. وعندما زال دور هذه القاعدة تمزقت وحدة العالم الشيوعي .

وقد رأى لينين أن الاشتراكية العالمية لا تستطيع، إن هي أرادت أن تكون فعالة في القرن العشرين ، أن تستمر ككونفيدراسيون مهلهل، بل يجب عليها أن تصبح حركة مركزية حول السلطة والتنظيم ، وموحدة من ناحية إيديولوجية . لهذا عندما أنشأ " الأممية الثالثة " أرادها أن تكون خالية من الضعف الذي رافق الأولى ، والثانية ، فلا تكون اتحاداً حراً بين أحزاب مستقلة، أو" صندوق بريد ". كما كان يقول ساخراً ، بل " حزبا عالميا موحداً " يعمل من (مركز واحد)، وجيشاً عالميا من البروليتاريا الثورية " ، تنقاد لنظام حديدي يقارب النظام العسكري " ، وتوجهها سلطة واحدة تمارسها " هيئة اركان عامة للثورة العالمية " ، يكون مركز قيادتها موسكو، قلعة الثورة الأساسية ، أما الأحزاب التي تشترك فيها، فلن تكون أحزابا قومية بالمعنى العام للكلمة ، بل فروعاً " للأممية الثالثة " التي تعني تنظيما منسقا، وبرنامج عمل دقيق واضح.

الشروط الواحدة والعشرون التي كان يجب على كل حزب شيوعي أن يقبل بها ويعمل في ضوئها كانت ترمي إلى خلق هذا النوع من الحركة العالمية التي تجد قاعدتها في موسكو، اما الهدف في كل بلد على حدة، فلم يكن إقامة " جمهورية سوفياتية " أو " أمة اشتركية " ، فقط، بل تحويله إلى جزء من " الجمهورية السوفياتية العالمية " التي أصبحت على وشك الولادة.

قادت هذه الشروط إلى انشقاقات في جميع الأحزاب الاشتراكية ، وقد أمر لينين بطرد جميع القادة الذين حاولوا معارضته، كما أمر بتبني التكتيك الذي مارسه في التجربة الروسية كتكتيك شرعي في كل مكان. وبعد مدة قصيرة أصبحت الأحزاب الشيوعية نسخا عن أنموذجها السوفياتي، وأصبحت حاجات الثورة في موسكو تقرر أعمالها وسياستها. وقد وصل ارتباطها بموسكو إلى درجة ان خلافاتها الداخلية كانت تُحل في موسكو. محك الولاء للأممية الشيوعية أصبح الولاء للقاعدة الاشتراكية الوحيدة ، أي الاتحاد السوفياتي .

بقي الشيوعيون طيلة نصف قرن تقريبا ينظرون إلي الاتحاد السوفياتي كقاعدة لعملهم ، يتمحور حولها وعليها هذا العمل، ويرون أن كل ما يخدم الاتحاد السوفياتي ويدعم قوته وتطوره، يخدمهم ويدعم نضالهم في آن واحد. في المؤتمر الشيوعي السادس، المنعقد في تموز/ يوليو- ايلول/ سبتمبر، عام ١٩٢٦، اعلنت الأحزاب الشيوعية ارتباطها التام بموسكو وقررت " أن النظام الشيوعي العالمى يجب أن يعبر عن ذاته في خضوع المصالح المحلية والخاصة للأحزاب الشيوعية، وفي تنفيذها دون أي تحفظ لجميع القرارات التى تتخذها القيادة الاممية " . هذا القرار كان محض توكيد للمبدأ الذي أعلنه لينين نفسه ، ولكن ستالين كان معنياً بتنفيذه بصورة أدق . ولهذا أعلن أنه يجب على لجنة الكومينتيرن التنفيذية المقيمة في موسكو ان تهيمن على القرارات النهائية التي تتخذها الأحزاب الشيوعية .

كان ستالين يؤمن طبعا أن الرأسمالية تسير إلى الانهيار، ومقضى عليها بالموت، ولكنه كان يؤمن أن هذه النهاية لن تكون نتيجة مغامرات ثورية في الصين أو فرنسا، الخ .. بل نتيجة نمو قوة الاتحاد السوفياتي العسكرية والصناعية. فالأحزاب الشيوعية العالمية هي محض طلائع أمامية. الخط السياسي والأيديولوجي الذي كانت تتبعه موسكو كان واحداً بالنسبة للجميع ، والشيوعي الذي لا يلتزم بهذا الخط كان ينكر نفسه كشيوعي . وقد أرادت السلطة السوفياتية تصنيع روسيا وتحديثها وتحويلها إلى دولة اشتراكية، وفي هذا السبيل اعتمد استراتيجية داخلية وخارجية واضحة. فمن ناحية خارجية كان على هذه الاستراتيجية أن تختار بين العمل على إحداث ثورة عالمية أو بناء الاتحاد السوفياتي ، فاختارت أن تعمل في الوجهتين، ولكن بتقديم الهدف الثاني على الأول . ومع الزمن كانت هذه الاستراتيجية تؤكد بشكل مطرد على الهدف الثاني الى أن أصبح هذا الهدف يسود الهدف الأول بشكل عام . فالاتحاد السوفياتى

يجب أن يكون قلعة الثورة العالمية ويجب أن لا يحدث أي شيء يهدد بناءه. ارتبطت الأحزاب الشيوعية في العالم بهذه الاستراتيجية وكانت تعمل بها حتى عندما كانت تضحي بمصلحتها .

كانت وحدة العالم الشيوعي في المرحلة الستالينية تعود إلى الاعتراف الواضح بضرورة إعطاء أولوية سافرة لمصلحة الاتحاد السوفياتي كقاعدة على مصلحة الأحزاب الشيوعية في العالم ، وحتى على مصلحة الثورة العالمية ككل في حال حدوث أي تناقض بين المصلحتين .وكانت الحركات الشيوعية التي ارتبطت بالكومينترن سابقا، وبالكومينفورم فيما بعد، تتهم كل من لا يلتزم بالسياسة التي يتبعها الاتحاد السوفياتي، أيا كانت هذه السياسة، وكل من يتجاسر على انتقاد أية ظاهرة من ظواهر الحياة فيه، بالانحراف او البرجزة أو الخيانة او العمالة للمخابرات الأجنبية . قاعدة الشيوعية العالمية تتمثل في الاتحاد السوفياتي ، لذلك فإن كل انحراف عن الخط الذي تمارسه هذه القاعدة هو انحراف عن الاشتراكية وخيانة للبروليتاريا. وحتى الأمس القريب كانت الأحزاب الشيوعية في العالم تعترف بهذا الخطر، وتؤمن بأن موسكو هي التي تعطي الترجمة الصحيحة للثورة، لإرادة البروليتاريا، وحركة التاريخ، وهي ترجمة كان يجب على هذه الأحزاب التقيد بها في بلدانها المختلفة .

في عام ١٩٢٧، كتب ستالين. " الثوري هو من كان مستعدا لحماية الاتحاد السوفياتي، والدفاع عنه دون أي تحفظ ، دون اية شروط ، وبشكل صريح وصادق ... وذلك لأن الاتحاد السوفياتي هو قاعدة الحركة الثورية العالمية ، ولأنه لا يمكن الدفاع عن هذه الحركة وإعلاء شأنها دون الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ". كان مبدأ الارتباط بالاتحاد السوفياتي كقاعدة للحركة الشيوعية واضحاً في سياسة الكومينتيرن، ومن بعده الكومينفورم ، التي كانت تنكر مبدأ الطرق المتعددة نحو الاشتراكية وتعتبر كل قول بهذا المبدأ انحرافاً وخيانة . " قيادة الأممية الثالثة كانت في الواقع، تعين وتطرد قيادات الأحزاب الشيوعية الأخرى، وبذلك حولت سلطة الحزب اللينيني الأصيلة إلى احتكار وسيادة يمارسها الحزب الستاليني على الحركة الشيوعية العالمية " .

وقد استمر الحزب الشيوعي اليوغسلافي نفسه، لمدة طويلة بعد الانشقاق الذي حدث بين يوغسلافيا والاتحاد السوفياتي ، على الاعتراف، من ناحية نظرية، بالدور القيادي للحزب الشيوعي السوفياتي بعد أن نقض ذلك عمليا. هنا تجب الملاحظة بأن قرار الكومينفورم، تاريخ حزيران، عام ١٩٤٨، الذي طرد الحزب الشيوعي اليوغسلافي من صفوفه يكشف أن التهمة الاساسية كانت رفض الولاء للاتحاد السوفياتي.

شعار " وطن جميع الكادحين " كان يعبر طيلة المرحلة الستالينية عن مبدأ أساسي يعني أن مصلحة الاتحاد السوفياتي تمثل المصلحة العليا للشيوعية العالمية التي يجب على كل شيوعي أن يضحي في سبيلها كل اعتبارآخر. وكان هذا يعني على المستوى العملي ، ان انتصار الشيوعية في أي بلد هومسألة

يجب ان ترتبط بهذه المصلحة، وليس مرغوباً به اذا لم يكن بالاتفاق مع الاتحاد السوفياتي أوبمساعدته. فكل دولة شيوعية جديدة يجب أن تخضع لدور الاتحاد السوفياتي القيادي، كالاحزاب الشيوعية الأخرى .

بعد القرار الذي طرد يوغسلافيا من الكومينفورم أسرع المفكرون الشيوعيون ومناصرو الشيوعية إلى اتهام تيتو بشتى التهم . ففى فرنسا، مثلا، تنشر دومينيك ديزانتي " أقنعة ووجوه تيتو "، ويكتب رينودي جوفينال " مارشال الخونة " وفيهما يحاولان التدليل " العلمي " بأن تيتو هو، بالاضافة إلى أشياء أخرى، عميل للمخابرات الاميركية .

واكتشف جون كنابا فجأة ايضا في كتاب " الخائن والبروليتاري " أن تيتوكان المنظم لجميع أعمال الجاسوسية الأميركية في بلدان الديمقراطيات الشعبية. كما لاحظ جون بابي أنه لو أراد تيتو حقاً إقامة الاشتراكية، لكان خلق حزبا شيوعيا ذا ديمقراطية مركزية بدل استخدام أساليب الجستابو. وذهب أندريه ورمسور إلى أبعد من ذلك ، فكتب أن تيتو كان أقذر عميل للاستراتيجيا والجاسوسية الأميركية، وأنه هو الذي خان ماركوس .

بالنسبة إلى بيار كورتاد، لم يكن تيتو، عميل المخابرات الأميركية ، أكثر اشتراكية من موسوليني . ورأى بول هيرفيه في تيتو أداة في خدمة تشرشل وأتلي ، وعبر عن رعبه أمام ما يعتمده من نظام بوليسي يقوم على السجون والمعتقلات .

الشيوعيون الفرنسيون عزوا، في الواقع ، كل " الخطايا " التى كشفوا عنها في يوغوسلافيا إلى تيتو، أو بضعة من قادتها. فبعدأن مجدوا طيلة أربع سنوات البناء الاشتراكي في يوغوسلافيا اكتشفوا فجأة في هذا البناء نفسه جميع ظواهر الفاشية. وفي تقرير للجنة التنفيذية ، كانون أول/ ديسمبر، عام ١٩٤٩، أعلن جورج كونيو أن النظام اليوغسلافي البوليسي كان قاسياً كنظام هتلر، وأنه كان يعتمد على نفوذ الكولاك ، ورأسمالية المدن .

هذه الأسماء كانت بين أهم أسماء مفكري الحزب الشيوعي الفرنسي ، وموقفها هذا يدل بوضوح على حدة الارتباط الذي كانت تلتزم به الأحزاب الشيوعية بالاتحاد السوفياتي كقاعدة .

منذ بداية الثورة الشيوعية في روسيا ، آمن القادة السوفيات بصدق أن ما هو خير وصحيح للاتحاد السوفياتي هو خير وصحيح للحركة الشيوعية العالمية. وعن طريق الدعاية والتثقيف، وعن طريق التوجيه الذي مارسته موسكو، اقتنعت هذه الحركة ، هي الأخرى، بصدق هذا الطرح، أي بأن ما هو خير وصحيح للاتحاد السوفياتي هو خير وصحيح لهذه الحركة وأحزابها.

هذا الارتباط المركز بالاتحاد السوفياتي كقاعدة لم يقتصر على المرحلة الستالينية ، بل استمر مع المرحلة الخروشوفية، وإن لم يكن بالشدة ذاتها. وكان أساس سياسة خروشوف نحو الحركة الشيوعية العالمية، الاعتقاد بأنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض رئيسي بين مصلحة الاتحاد السوفياتي ومصلحة الأحزاب والدول الشيوعية الأخرى . وانهيار هذا المفهوم كان واضحاً في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفياتي الثاني والعشرين الذي كشف عن انهيار التسوية السوفياتية- الصينية التي تم الاتفاق عليها في مؤتمر الأحزاب الشيوعية العالمي عام ١٩٦٠. ولكن ما تجدر ملاحظته هنا هو أن السبب المباشر لذلك كان التحدي الصيني السافر لسلطة خروشوف ورفاقه، الذي عبر عن ذاته في تأييد الفئات الستالينية نفسها في الاتحاد السوفياتي والبلدان الشيوعية الأخرى في البلقان .

وفي مؤتمر موسكو، تشرين الثاني/ نوفمبر ، ١٩٥٧، الذي اشترك فيه واحد وثمانون من الأحزاب الشيوعية في العالم، كانت قضية الارتباط بالأنموذج السوفياتي من أهم القضايا التي طرحت. فقد كان واضحاً من الخطب التي القيت، ومن القرار الذي اتخذ، أن المؤتمر انتهى إلى تسوية بين دعاة الانسجام مع هذا النموذج والارتباط به وبين دعاة التعدد والتباين .

ولكن القرار النهائي أكد على أن هناك قوانين أساسية للبناء الاشتراكي تتمثل في التجربة السوفياتية ، ويجب على الأحزاب الشيوعية الأخرى في العالم تقليدها أو العمل على تنفيذها، وذلك على الرغم من الاعتراف بوجود " تعدد كبير في الخصائص القومية التاريخية.. التي يجب أن تُقدر كل التقدير وتؤخذ بالاعتبار " .

ولكن على الرغم من تغير الوضع بعد وفاة ستالين بشكل واضح، وظهور خط جديد يسمح بالتعدد والاختلاف فإن الاتحاد السوفياتي اكد بشكل صريح في المؤتمر الواحد والعشرين، والمؤتمر الثاني والعشرين، على أنه لا يزال النظام الذي يعين لآسيا وأوروبا الطريق الى الشيوعية، وأن من يريد أن يعرف ما هي الشيوعية يحسن به أن يدرس برنامج الحزب السوفياتي ووثائقه. وقد حاول القادة الجدد تبرير دور الاتحاد السوفياتي كقاعدة ، وذلك بالتوكيد على مفهوم خاص لمراحل التطور نحو المجتمع الشيوعي ، معلنين أن الاتحاد السوفياتي هو البلد الوحيد الذي حقق الطور الاشتراكي، وأنه في طريقه الى الطور الشيوعي النهائي، بينما البلدان الشيوعية الأخرى لا تزال في طور الجمهوريات الشعبية ، ومتخلفة بدرجات عديدة عنه. هذا الفرق يعطي، حسب هذا المفهوم ، الاتحاد السوفياتي حق قيادة العالم الشيوعي . وقد طرح خروشوف جانبا المبدأ الذي كان سائداً والقائل أنه يجب على جميع الأحزاب الشيوعية بأن تخضع للكرملين، وأكد على أن الحركة الشيوعية يجب أن تكون تحالفا من أحزاب متساوية ومستقلة. ولكن على الرغم من ذلك ، فإنه أكد أيضاً في الوقت نفسه أن على هذه الأحزاب أن تعترف بسلطة موسكو الايديولوجية ، وهو عندما أعلن في تقريره إلى المؤتمر العشرين بأن على كل حزب شيوعي أن يجد طريقه

الخاص إلى السلطة تبعا للأوضاع القومية، فإنه استثنى كما اتضح فيما بعد الأحزاب الشيوعية في شرقي أوروبا.

الصين نفسها كانت حتى أواخر الخمسينات تدعو إلى الارتباط بالاتحاد السوفياتي كقاعدة للعالم الشيوعي . ففي السابع عشرمن تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩٥٧، أعلن ماو تسي تونغ في موسكو: " يجب أن يكون للمعسكر الاشتراكي رأس.. وهذا الرأس هو الاتحاد السوفياتي ... والأحزاب الشيوعية والعمالية في جميع البلدان يجب أن يكون لها رأس ، وهذا الرأس هو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي " . ثم هاجم يوغسلافيا ليس فقط بسبب " انحرافها " ، بل لأنها ترفض الانصياع لنظام واحد يتمحور على الاتحاد السوفياتي كقاعدة له . وكان الحزب الشيوعي الصيني يرى آنذاك، أن هذا الارتباط ضروري ويشكل ضمانة لانتصارات ثورية مقبلة، وأن رفضه يعني رفض هذه الانتصارات ، واستمرار الامبريالية. هذا الارتباط بموسكو كقاعدة كان ضروريا، كما أضاف " لأن القوى الامبريالية لا تخاف بولندا واحدة، هنغاريا واحدة، صين واحدة. ما تخافه هو وحدة المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي " .

ثم برزت أزمة الشيوعية العالمية أو وحدة العالم الشيوعي بوضوح في أواسط الخمسينات، عندما رفض عدد كبيرمن القادة الشيوعيين الكبار وأحزاب شيوعية عديدة بكاملها، الاعتراف بالاتحاد السوفياتى قاعدة ترتبط بها هذه الأحزاب. هنا نجد ولادة الشيوعية القومية .

في نهاية عام ١٩٥٦، وبداية عام ١٩٥٧، بلغت الازمة الإيديولوجية أوجها . ولكن في ربيع عام ١٩٥٧ تحقق قادة جميع الأحزاب الشيوعية بأن خصوماتهم الإيديولوجية تهدد سلطتهم، وبدأوا العمل على إعادة بناء شكل من أشكال الوحدة الشيوعية العالمية. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٥٧، دعا خروشوف إلى مؤتمر للأحزاب الشيوعية في موسكو كي ينال الاعتراف بالمبدأ القائل أن الشيوعية العالمية تحتاج إلى سلطة واحدة تعبر عنها، وأن هذه السلطة لا يمكن أن تكون سوى الاتحاد السوفياتي كقاعدة لها ، وأن الوحدة الإيديولوجية في عالم مقسوم على ذاته تتطلب الولاء لهذه القاعدة . وكان نجاحه كبيرا على الرغم من استمرار يوغسلافيا في خطها المستقل. فالحزب الشيوعي الصيني، كما رأينا ، وبلسان ماوتسى تونغ نفسه، أكد بشدة على الاعتراف بالقيادة السوفياتية وسلطتها الايديولوجية والحزب البولندي وافقه على ذلك.

ولكن هذا النجاح كان مؤقتا وقصيراً، ولم يكن باستطاعته الاستمرار ، فابتدأ بالانفراط بدءا من عام ١٩٦٠، عندما أخذت الصين تمثل دور القاعدة الثانية .

رفض دور الاتحاد السوفياتي كقاعدة للحركة الشيوعية العالمية أدى بسرعة إلى تفكك وحدة هذه الحركة وتبعثرها في مراكز مختلفة، متناقضة أو متعادية . عندما أعلن تولياتي عام ١٩٥٦، فكرة "

تعدد المراكز " للحركة الشيوعية كان ذلك يعني أنه لم يكن بإمكان أي نظام شيوعي أن يعلن احكاما إيديولوجية أو سياسية واحدة تعبر عن إرادة العالم الشيوعي . الاعتراف بتعدد الطرق نحو إقامة سلطة اشتراكية، وتنوع الأنظمة في استخدام هذه السلطة كان يتناقض حتى مع وحدة السياسة الخارجية التي ظن الاتحاد السوفياتي والصين آنذاك إمكان الاستمرار عليها رغم الاعتراف بمبدأ من هذا النوع .

وقد اعلن بيان مؤتمر الأحزاب الشيوعية المنعقد في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٠ ، أن الحزب الشيوعي السوفياتي يمثل " الحزب القائد " للحركة الشيوعية العالمية ، ولكن بعد بضعة أشهر، طالب خروشوف نفسه بإسقاط هذا المبدأ لأنه أصبح من غير الممكن قيادة جميع الأحزاب الشيوعية من مركز واحد.

الاختلافات حول هذه العلاقة بين الاتحاد السوفياتي وأحزاب أوروبا الشرقية ظلت سائدة حتى الآن ، وقد وجدت حلاً مؤقتا عام ١٩٧٦، في مؤتمر للأحزاب الأوروبية عُقد في برلين الشرقية . فلقد وافق الروس آنذاك على أن الشيوعية العالمية لا تفرض قاعدة أو مركزاً واحداً لها ، وأن جميع الأحزاب الشيوعية متساوية. ولكن الاختلافات برزت منذ التاريخ وبالضبط حول علاقة هذه الأحزاب بموسكو.

كانت الحركة الشيوعية العالمية تشكل عالماً واحداً موحداً فقط عندما كانت ترتبط بمركز واحد ، بقاعدة . ولكن عندما انهار الارتباط بهذه القاعدة ، انهارت وحدتها فتمزقت الى عوالم عديدة متنافرة ومتخاصمة. لقد بدأ تفكك وحدة العالم الشيوعي مباشرة بعد وفاة ستالين . وهذا لايعني أن هذه الوفاة كانت مسؤولة عن ذلك، ولكنها كانت أحد الأسباب الأولى التي أدّت إلى هذه النتيجة، أو بالأحرى الى الكشف عن القوى التي قادت إلى هذه النتيجة . استطاع ستالين أن يفرض، بنفوذه الهائل ، الاتحاد السوفياتي كقاعدة للحركة الشيوعية العالمية، وقد اقترن اسمه بدور موسكوكمحور للعالم الشيوعي كله . وكانت وفاته هي وفاة الرمز الذي تبلورت حوله سلطة هذا الارتباط كتقليد. ولهذا عندما زال الرمز ، والسلطة التي كان يوفرها، تزعزع الارتباط ، وأصبح منذ ذلك الحين في انحسار مستمر .

لقد شكل انتصار الماوية عام ١٩٤٩، إنذاراً بقرب تمزق وحدة العالم الشيوعي ، لأنه كان يعني ظهور دولة شيوعية كبيرة تستطيع منافسة الاتحاد السوفياتي في استقطاب الحركة الشيوعية العالمية ، فخلق قاعدتين كبيرتين، سوف يمزق هذه الوحدة آجلا ام عاجلاً . هذا التطور الذي تبلور في بداية الستينات- بالإضافة إلى قدرة يوغسلافيا على الاستمرار في خطها المستقل- وضع نهاية لدور الاتحاد السوفياتي كقاعدة، وبذلك قضى على وحدة العالم الشيوعي . سلطة ستالين الهائلة عبر العالم الشيوعي كانت كافية أثناء حياته في الحد من أثر التحولات والقوى والتطورات التي كانت تدفع من الداخل نحو تفكك وحدة هذا العالم ، ولكن بعد وفاته كان على خلفائه الاعتراف بهذا الواقع والتكيف معه .

ظهور قاعدتين للعالم الشيوعي، واحدة في الاتحاد السوفياتي واخرى في الصين الشعبية، ترك هذا العالم في متاهة دون مركز واحد وسلطة ايديولوجية موحدة ، وبالتالي " حولته فيما بعد إلى بابل جديدة".

ولو أن الثورة الشيوعية انتصرت، إثر الحرب العالمية الأولى، في المانيا كما كان يتوقع لينين، لما كان على الارجح بإمكان العالم الشيوعي تحقيق الوحدة التي حققها في المرحلة الستالينية. فشل هذه الثورة في الغرب جعل من الممكن للحركة الشيوعية في العالم أن ترتبط بموسكو كقاعدة لأنه، لم يكن هناك من بلد شيوعي آخرقوي يستطيع منافستها . وقد سمح هذا الوضع للاتحاد السوفياتي بأن ينمو قويا دون أن تتحداه دولة شيوعية كبيرة تقدم ذاتها كقاعدة أخرى. ظهور قاعدتين لا يعني فقط انشقاق العالم الشيوعي إلى نصفين، بل اتساع تناقضات وخصومات الدول والأحزاب الشيوعية التي تجد نفسها مضطرة إلى الوقوف الى جانب جهة دون أخرى، اوعلى اتخاذ موقف الحياد بين الطرفين . هذا يعني ليس فقط وضعا يزيد من قدرة هذه الدول والأحزاب على الاستقلال بسياستها ، بل دفعها الى هذا الاستقلال، وبالتالي إلى تشكيل قواعد أخرى مستقلة عن القاعدتين الكبريين .

" ظهور قاعدتين للحركة الشيوعية العالمية، واحدة في موسكو، وأخرى في بكين ، كل منهما تنافس الأخرى في الهيمنة على العالم الشيوعي، مزق هذا العالم وحوله " كما يكتب دجيلاس، "إلى شيوعيات قومية تحدث في إطارها جميع التطورات الجديدة في الشيوعية " . ثم يضيف بأن " ما يربط حاليا بين الحركات والأنظمة الشيوعية المختلفة في العلاقات الدولية ، أو ما يدفعهم إلى الوقوف معاً ، هو الخوف من مخاطر خارجية وداخلية، والضغوط التي تمارسها القاعدتان".

هكذا تمزقت وحدة العالم الشيوعي الذي خسر، بعد المرحلة الستالينية ، قاعدته وكان بوخارين قد تنبأ سابقاً بأن الاتجاهات المركزية ستوحد يوما ما الشيوعية العالمية تحت لواء الكرملين. ولكن التطورات التي حدثت فيما بعد دللت على أن الأتجاهات التي سادت كانت من النوع المعاكس ، وأنه كان على التصور الماركسي- الشيوعي الأول لعالم واحد، ينتج عن تحولات اقتصادية وتقنية واجتماعية ، بأن لا يتحقق، وأن المرحلة الوحيدة التي كان ممكناً فيها كانت عندما توفرت قاعدة واحدة تم الارتباط بها والولاء لها. ومع فقدان هذه القاعدة عانى العالم الشيوعي تجزئة كانت تتزايد مع الوقت، وتزيد من قوة الاتجاه القومي على حساب الاتجاه الشيوعي . وفي أواخر الستينات لم يكن هناك كومينتيرن، بل دول شيوعية فقط .

ان التجارب الكاثوليكية ، البروتستانتية والشيوعية تدل على الظاهرة نفسها، وهي أن وحدة الحركة ترتبط بوجود قاعدة تتمحور حولها، وأن فقدان هذه القاعدة يعني تمزق الحركة إلى عوالم وهويات مختلفة .

الحركة الشيوعية دون موسكو كقاعدة، أو دولة شيوعية أخرى تقوم مقامها، دللت أنها شبيهة بالكنيسة الكاثوليكية دون الفاتيكان، أي بكنيسة تخسر وحدتها . وهي دون " ستالين " يرمز إلى وحدتها ويمثل قاعدتها، تصبح كالكنيسة الكاثوليكية دون البابا، أي كنيسة يصعب تصورها. تصبح عندئذ صورة عن البروتستانتية المبعثرة في مئات من الكنائس المستقلة، وفي المقابل تقدم تجربة يوغوسلافيا صورة عن دور القاعدة. اذ تشكل مسألة الدمج الاجتماعي السياسي فيها مشكلة هائلة لا تقل ، في الواقع ، ضخامة عما هي عليه في آسيا أو افريقيا. فهناك خمس جماعات اثنية أساسية - الصرب، الكرواش، السلوفين، سكان مقدونيا، وسكان الجبل الأسود — تشكل أكثرية السكان الكبرى. بالإضافة إليها، هناك أقليات أثنية عديدة ، كالألبان ، والأتراك، والبلغار، والسلوفاك، والماغيار، والروس ، والرومان، والألمان الخ ... دمج هذه الهويات الاثنية أوالقومية يتميز بصعوبة إضافية لأن كل واحدة منها تتركز في منطقة جغرافية معينة. هذا الدمج كان، من ناحية ثانية، يجد صعوبات أخرى في الفروق اللغوية والدينية السائدة. فهناك أربع لغات أساسية ، الصربية ، الكرواشية ، السلوفينية، والمقدونية، ولكن ليس هناك ما يمكن تسميته باللغة الرسمية . هناك يضاً أرثوذكس ، كاثوليك، بروتستانت ، ومسلمون .

المنافسة بين الجماعات الأثنية- وخصوصا الصرب، الكرواش، والسلوفين- كانت بارزة إلى درجة دعت إلى تسمية البلاد عند ولادتها عام ١٩١٨، " مملكة الصرب، والكرواش ، والسلوفين "، وهو اسم استمر حتى عام ١٩٢٩، عندما استبدل باسم يوغسلافيا . العنصر الصربي يمثل نواة مركزية ليوغسلافيا، ولكنه لا يملك قوة كافية في فرض لغة ، ثقافة أوشعور قومي واحد، لهذا فإن هيمنة الصرب لم تساعد في دعم وحدة البلاد، وكانت تسيء إلى الجماعات الأثنية الأخرى، وخصوصاً الكرواش . النتيجة كانت أزمات سياسية مستمرة انتهت بانهيار وحدة البلاد بعد الاحتلال النازي ، نيسان/ أبريل، عام ١٩٤١.

غير ان الحزب الشيوعي الذي قاد حرب التحرير وفر بعد ذلك قاعدة التوحيد . وعند تحرير بلغراد بمساعدة الجيش الأحمر، تشرين أول/ اكتوبر، عام ١٩٤٤ ، أخذ الحزب يعمل بسرعة على تثبيت سلطته كأداة في تحقيق دمج البلاد السياسي . وكان النظام الذي أقامه يرتكز على حكومة مركزية تمارس سلطة أوتوقراطية، ولكن الحزب كان قاعدة هذه السلطة.

في الاتحاد السوفياتي، في الصين، في فيتنام، الخ. كان الحزب الشيوعي وخاصة اثناء الثورة- قاعدة تستقطب وتقود جميع الطبقات والفئات الثورية، ومن ثم قاعدة لدمج وتفاعل شعوب، لغات ومناطق مختلفة. لهذا كتب ماوتسى تونغ، " إن غياب قاعدة صلبة من القوى الثورية يدفع الثورة إلى الهزيمة " .

كما تكشف بلدان العالم الثالث ايضاً وبشكل بارز عن هذه الظاهرة. هنا نجد أيضاً أن حركات التحول الاجتماعي السياسي تعتمد أداة لها الحزب الواحد الذي يتجه إلى الشعب ككل أما الأسباب التي تدعو الى هذا الحزب وتفسره كظاهرة عامة تُعيد ذاتها ، فهي عديدة ولا شك. ويأتي في طليعتها كون هذا

الحـزب يشـكل أداة (قاعـدة) في تجـاوز الـولاءات والانتمـاءات المحليـة مـن قبليـة، واثنيـة، ولغويـة، وعائليـة، وطائفية ، الخ .. وفي خلق ودمج سياسي اجتماعي يُذيب أو يمتص هذه التناقضات في هوية جديدة .

الفصل الرابع

غياب الاقليم – القاعدة

في تجارب التاريخ الوحدوية الفاشلة

مهما كانت القوى السياسية ، الاجتماعية ، الاقتصادية ، الإيديولوجية، الخ... التي تُستخدم في خلق وحدة سياسية جديدة ، فإن الطريقة التي تتوزع فيها هذه القوى بين الاقاليم المختلفة المدعوة إلى الاتحاد، تشكل قضية من أهم القضايا التي تواجه كل عمل وحدوي تاريخي ، لأن النتائج التي تترتب عليها قد تعني ولادة الاتحاد وحياته أو اجهاضه وموته .

فإذا ما توزعت هذه القوى بشكل متساو بين جميع الأقاليم أو بعضها، فان هذا التوزع يشكل حاجزاً كبيراً ضد الوحدة ، لأنه يعني قيام أو احتمال قيام محاور عديدة لها ، يستطيع كل منها أن يبرر وجوده بالرجوع إلى قوى موضوعية ، وبذلك تتجزأ وتتبعثر الجهود والطاقات الوحدوية ، وقد لا تصل ، بسبب ذلك ، إلى غايتها. ولكن إن هي توزعت بشكل تتركز فيه، كنتيجة لعمل التاريخ والواقع، في إقليم واحد، فإن ذلك يسهل العملية الوحدوية ، لأن العمل الوحدوي يمكنه آنذاك التركز حول محور يحقق تعبئته وتوحيده فلا يتمزق أو يتبعثر. في وضع كهذا يصبح من الصعب جداً أو حتى من المستحيل على الأقاليم الأخرى أو بالأحرى أي إقليم آخر أن ينافس ، في المدى البعيد، هذا الاقليم في دوره الطليعي القيادي كقاعدة . لا شك أن بعض هذه الأقاليم أو أحدها يستطيع أن يحاول منافسة الإقليم- القاعدة في هذا الدور. ولكن بما أن القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية التي يمكنه اعتمادها هي أضعف مما يتوفر لهذا الاخير، فإنه سيعجز في المدى البعيد، على الأقل، عن إعطاء الدور الطليعي الذي يزعمه لنفسه القدر الضروري من الفاعلية التي تضفي عليه ما يحتاجه من شرعية، خصوصا عندما يُحسن الإقليم- القاعدة استخدام إمكاناته في وجهة وحدوية . ولهذا فإن النتيجة النهائية لهذه المنافسة تكون فقط تعثير العمل الوحدوي .

في بعض التجارب الوحدوية نجد أن سلطة خارجية- أي من خارج الأجزاء التي تحاول الاتحاد- تدفع إلى الاتحاد وتقوم بدور القاعدة. ولكن كي تنجح في ذلك، يجب عليها أن تدرك طبيعة توزع القوى والإمكانات بين هذه الأجزاء. بريطانيا دفعت مثلاً ، إلى اتحاد " الوست انديز " ولكنها لم تنجح في سياستها لأنها كانت تدعم الجزر الصغيرة ضد الجزر الكبيرة . والولايات المتحدة دفعت، إثر الحرب العالمية الثانية

إلى وحدة أوروبا، ولكنها فشلت لأنها دعمت بريطانيا ضد فرنسا، وأعطت الأولى أفضلية في المعاملة، وهي سياسة اتضح فيما بعد أنها لم تكن منسجمة مع تطورات توزع القوى في أوروبا، أو تطور كل من فرنسا وبريطانيا، وخصوصاً بعد عام ١٩٥٨. في المراحل الأولى كانت الولايات المتحدة تقوم بدور القاعدة لانها كانت تدفع إلى وحدة أوروبا الغربية، وكانت بلدان هذه الأخيرة تعتمد اقتصاديا وعسكريا عليها. في الوضعيتين مارست الدولة الخارجية سلطتها في دعم عضو ضعيف، ولهذا فشلت سياستها ، في اتحاد " الوست انديز"، انسحب الأعضاء الأقوياء، وفي الوحدة الأوروبية الاقتصادية ، أدت هذه السياسة إلى استثناء العضو الضعيف. من ناحية أخرى يمكن القول أن سياسة الولايات المتحدة نجحت على صعيد آخر لأنها دعمت دخول ألمانيا وإسهامها في جميع التنظيمات الأوروبية. نمو قوة ألمانيا فيما بعد دل على نجاح هذه السياسة.

جميع تجارب التاريخ الوحدوية الناجحة كانت تقريبا- كما رأينا سابقا- من النوع الذي تتحقق فيه العملية الوحدوية التاريخية بقيادة إقليم – قاعدة . المفكرون و المؤرخون الذين اهتموا بهذه الظاهرة توصلوا إلى نتائج مماثلة ، " في الاتحادات الكبيرة توجد غالباً وحدة تلعب دور الضابط. انها ليست قوة من الدرجة الأولى ، ولكنها تكون أقوى من الوحدات الصغرى " .

العمل الوحدوي يعني تنسيق الجهود والنشاطات السياسية أو الوحدوية بين كيانات سياسية مستقلة بغية إلغائها ودمجها في وحدة سياسية جديدة . هذا التنسيق قد يتوفر ، نظرياً على الأقل ، أولا، عن طريق سلطة خارجية، اي سلطة لاتكون جزءاً من الكيانات المدعوة إلى الاتحاد ؛ ثانيا، عن طريق انسجام عفوي بين اقطار أو بلدان متساوية ؛ وثالثاً ، عن طريق مركز يتخذ القرارات الأساسية، وتتركز عليه الجهود الوحدوية، وتقترن به الهوية الجديدة . تدل التجارب التاريخية بوضوح أن أكثر التجارب الوحدوية نجاحاً كانت من النوع الثالث الذي يهيمن على هذه التجارب، ويأتي النوع الأول، رغم قلته، في الدرجة الثانية ، أما النوع الثاني فهو غيرموجود تقريبا، انه أقلها نجاحا، ونجاحه مؤقت.

تكشف جميع حركات التوحيد السياسي عن هذه الضرورة، فجميع الاتحادات السياسية هي بحاجة الى هذا الاقليم- القاعدة، إذا أرادت النجاح . " الوحدات التي تشكلت دون أن تتوفر لها قاعدة قوية و متفوقة تتمحور حولها، كانت عادة تفشل في الاستمرار ، كما نجد مثلا في تفكك وحدة أسوج ونروج " .

تتميز القضايا السياسية والعسكرية ، التي هي جزء فقط من العملية التوحيدية، بتعقد كبير ، وتثير مشاحنات وتناقضات أكبر ، وبالتالى لا تكون سهلة الانقياد للدمج السياسي ، لهذا كان مجرد ظهور انظمة سياسية وعسكرية جديدة يرتبط عادة بهزات من الوسط الخارجي ، وبوجود قيادة تسود وتهيمن .

يتحقق الاتحاد السياسي ويتطور عادة بعد نمو مهم في إمكانات إقليم واحد، على الأقل ، بين الاقاليم التي يشملها الاتحاد، كما نجد، مثلا، في بروسيا، وفي بعض التجارب ، في جميع الأقاليم كما نجد مثلا في الولايات المتحدة الأميركية قبل عام ١٧٨٩.

هناك نوعان من الإمكانات التي ترتبط بعملية التوحيد السياسي الأول، ويتعلق بقدرة إقليم على العمل السياسي وتتمثل في قوته العسكرية والاقتصادية والسياسية وفاعلية جهازه الاداري الخ ... والثاني ، يتعلق بقدرة هذا الإقليم على تحديد سياسته بشكل يسمح له بالتجاوب مع الأقاليم الأخرى التي تدخل معه فيما بعد في تشكيل الاتحاد السياسي الجديد ، فيعطي حاجات ورغبات هذه الاقاليم الوزن الذي تستحق ويسرع إلى مساندتها عند تحديد سياسته .

والنوعان مترابطان ولا يمكن الفصل بينهما. إن عجز الأقليم- القاعدة عن سيادة وضبط الإمكانات المتوفرة له أو التي يمكن أن تتوفر له ، فإن هذه الأمكانات تتبعثر ، والاستجابة للأقاليم الأخرى وحاجاتها تبقى آنذاك مجرد نية حسنة. عندما تتحقق الإمكانات التي يمكن أن تجعله الإقليم- القاعدة، فإن قدرته على هذه الاستجابة تأخذ أهمية أساسية في نجاح أو فشل العملية الوحدوية.

إن عجز البرلمان البريطاني، مثلا، عن الاستجابة سريعا وبشكل فعال لحاجات إرلندا أثناء المجاعة الهائلة التي أصابتها عام ١٨٤٦، ليس بسبب نقص في الامكانات المادية والمالية، بل لنقص في تحمل المسؤولية التي التزم بها البرلمان بموجب الاتحاد الإنكليزي- الارلندي، أدى إلى نتائج وخيمة ساهمت في إفشال الاتحاد.

فالتجارب الوحدوية تكشف عن أن أي توازن سياسي في القوى بين الأقطار أو بين بعض هذه الأقطار المدعوة إلى الأتحاد يشكل حاجزاً منيعاً امامه بشكل قد يؤدي الى القضاء عليه نهائيا. كذلك فان المحاولات التي ترمي إلى منع أحد هذه الأقطار بأن يتحول إلى قوة متفوقة، تؤدي هي الأخرى، إن نجحت، إلى النتيجة نفسها. ولكن توفرقاعدة قوية في أحد هذه الأقاليم يمهد الطريق ويختصرها، ويجعلها ممكنة.

هذه القواعد الوحدوية كانت أولا، أقوى من الأقطار الأخرى ؛ وثانيا ، أكثر تقدماً منها من ناحية سياسية وإدارية وتنظيمية، واقتصادية، وإعلامية، وعسكرية، وثالثاً ، أكثر قدرة في تطوير امكاناتها.

إن وجود إقليم- قاعدة تتمحور حوله الجهود الوحدوية ، يوفر شرطاً أساسياً في الانتقال من خلفية أوضاع ملائمة إلى عملية وحدوية ناجحة اما اذا كانت تلك الخلفية غيرموجودة ، فإن ظهور قاعدة من هذا النوع يثير الحذر والخوف ، وقد يؤدي إلى تحالفات واتحادات مناوئة لها. ولكن عندما تكون هذه

الخلفية متوفرة، فإن بروزهذه القاعدة لا يثير مخاوف من هذا النوع، بل يؤدي، على العكس، الى تحريك وخلق مشاعر واتجاهات ايجابية نحوها .

المسألة الأساسية هي قبل كل شيء أيهما أقرب إلى وأكثر فاعلية في تحقيق وحدة مجتمع مجزأ ، توزع القوى بين قاعدتين أو أكثر، أو تركزها على قاعدة واحدة تقود العمل الوحدوي ؟ ...

الاستنتاج الواضح الصريح الذي يفرض ذاته في كل دراسة علمية لتجارب التاريخ الوحدوية هو ان وجود قاعدة واحدة تقوم بدور القيادة وتتركز الجهود حولها التي تعمل باتجاه الوحدة ، هو أكثر فاعلية بكثير في تحقيق وحدة مجتمع مجزأ يسعى لوحدته، من وجود قاعدتين أو أكثر . " إننا نرقب أن تكون الاتحادات التي تتميز بوحدات طليعية قليلة أكثر نجاحاً من تلك التي تنطوي على وحدات كثيرة، وبشكل خاص أن تكون الاتحادات التي تتميز بطليعة واحدة أكثر نجاحاً من تلك التي تتميز باثنتين، وأن التي تتميز باثنتين أن تكون ناجحة أكثر من التي تتميز بثلاث. من الصعب جداً تصور اتحاد ممكن من أكثر من ثلاث طلائع . اننا دون شك نرقب أن يكون اتحاد من هذا النوع أقل نجاحاً من اتحاد لا يتميز بهذا العدد . وجود قاعدتين لا يعثر العمل الوحدوي كوجود ثلاث أو أكثر، ولكنه لا يساعد هذا العمل إن لم تكن القاعدتان متحالفتين ومنسجمتين... بعد دراستنا لأربع محاولات اتحادية ، نجد أنفسنا أشد قناعة من السابق بأنه كي يمكن لاتحاد أن ينجح ، يجب أن تكون هناك قاعدة طليعية تتوفر لها الموارد الضرورية والإرادة في استخدامها لأجل الاتحاد " الاتحاد السياسي " لا ينسجم كثيراً مع أوضاع يوجد فيها مركزان متصارعان . فبقدر ما يزيد عدد الجماعات القوية التي تشكل الاتحاد، بقدر ما تزيد صعوبات تحقيقه " .

حتى عندما يتوفر الاقليم- القاعدة بالشكل الذي أشرنا إليه سابقاً بعبارة "القاعدة المركبة " ، فإن العملية الوحدوية تواجه عادة صعوبات جمة لا تواجهها عندما تكون متمحورة حول اقليم واحد يهيمن عليها. فالصعوبات الكبيرة التي واجهها الاتحاد في التجربة الأميركية مثلا، من ظهوره حتى الحرب الأهلية، تعود ولا شك بقدركبير الى كونه لم ينطلق من إقليم- قاعدة واحد. وفي تجربة سويسرا الوحدوية يمكن القول أيضاً أنه كان هناك في مرحلة ما قاعدتان، واحدة تتمثل في " بيرن " والأخرى تتمثل في القاعدة الأولى التي تشكلت من اتحاد بوري، شفيتز، وأونتروفالدين. ويعود تأخرتكامل الاتحاد واستقراره نهائيا في أواسط القرن التاسع عشر إلى أسباب عديدة، ولكن فقدان إقليم واحد كقاعدة لا تنازعها قاعدة أخرى كان ولا شك احد هذه الأسباب.

□□□

لا يسمح توزع القوى والإمكانات بشكل معين ببروز محور واحد تتركز فيه . وكان هذا التوزع، مسؤولا الى حد ما، عن ظهور نظام الدول القومية في أوروبا.. فعلى الرغم من أن بناة هذا النظام ناضلوا

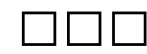
ضد البعثرة السياسية المتشعبة التي كانت تسود أوروبا ، فإن هذه البعثرة نفسها كانت أحد الأسباب التي أدت نهائيا إلى سيادة نظام الدول- القومية ، لأنها كانت تعني قواعد عديدة تناضل في سبيل توسيع حدودها الخاصة. ولكن بما أنها كانت متماثلة إلى حد كبيرمن حيث القوة والإمكانات. وبما أنه كان يتسنى لكل منها أن تتحالف مع آخرين من اجل الدفاع عن وجودها، وبما أن كثرة عدد الامارات والممالك الموجودة كانت تجعل هذا التحالف أمراً متيسراً، وتمنع أيا منها عن إخضاع قسم كبير من أوروبا، فإن تنافسها كان يمنع سيطرة إحداها، ويؤدي إلى الحد من امتداد بعضها . وفي كل وضع كانت تتوزع فيه الإمكانات الموجودة بشكل يسمح بظهور قاعدتين أو أكثر ، كانت النتيجة تعثيرأوقتل إمكان الاتحاد.

اما فيما يتعلق بالوحدة الأوروبية الحالية، فيمكن القول لو أن بريطانيا أو فرنسا رضيت بأن تقوم بدور القاعدة لها عندما كانت الظروف مؤاتية للأولى عند نهاية الحرب العالمية الثانية، وللأخرى في بداية الخمسينات، لكان من الممكن تحقيق هذه الوحدة بشكل فيدرالي ما. ولكن كلاهما تراجع عن هذا الدور، فزالت بذلك إمكانية الوحدة . " لقد كان من الممكن للمملكة المتحدة، الدولة الأوروبية الوحيدة التي خرجت ظافرة من هذه الحرب، أن تأخذ مباشرة عند نهايتها مكانتها كقائد لحركة التوحيد الأوروبي ، ولكن على الرغم من أن هذا المركز قُدم لها على طبق من فضه، فإنها رفضته بازدراء . في عام ١٩٥٠، ابتدأت نتيجة لذلك العملية الشاقة لولادة أوروبا " الصغيرة " من ستة أعضاء فقط ، وهو شيء لم يحلم به أحد في السابق في عام ١٩٥٣- ١٩٥٤ كان بإمكان فرنسا ، من ناحيتها ، أن تصنع من أوروبا ما تريده، ولكنها تجنبت الاتحاد بسبب خوفها من ولادة جديدة لإلمانيا... وبذلك فرضت على هذه الولادة أن تبقى داخل الحدود القومية . وفي رفضها لحل ممكن، اعتقدت أنها تتخلص من مشكلة، بينما كان ماصنعته هو رفض كومينوتيه أوروبية بقيادة فرنسا، وهو شيء كان جميع جيرانها مستعدين لقبوله بسعادة " .

فرنسا وألمانيا تعاونتا في بناء وحدة اقتصادية أوروبية . ولكن هذا التعاون كان ممكنا لأن الثانية تركت الاولى تمارس دوراً قياديا . " إن نجاح الكومينوتيه الأوروبية الاقتصادية يعود بقدر ما ، خاصة في سنواتها الأولى، إلى وجود قاعدتين، المانيا وفرنسا، إحداهما (فرنسا) تتمتع بأفضلية قيادية، والأخرى (المانيا) تدعم ولا تتحدى مركز وسياسة القاعدة المتفوقة " . لهذا رأى البعض أن استثناء بريطانيا آنذاك كان يعني استثناء دولة كان يمكن لها ان تمارس دور قاعدة لا تعترف بدور فرنسا القيادي، مما كان سيمزق بالتالي الجهود التي كانت تُبذل نحو خلق وحدة اقتصادية. " لهذا فإن انضمام بريطانيا، إلى هذه الكومينوتيه كان يهدد هذا التركيب الأساسي ، لأنه يضيف إليه قاعدة ثالثة لا تعترف بالعلاقة القائمة بين القاعدتين، وتنافس الاثنتين في قيادة الوحدة. وقد حاولت بريطانيا وهي لا تزال خارج الكومينوتية أن تفرق بين فرنسا وألمانيا وتستخدم الواحدة ضد الأخرى " .

ولقد لعبت بريطانيا ، من ناحيتها ، دورالقاعدة في تشكيل " اتحاد التجارة الحرة الأوروبي " ، ومن ثم في تفككه، أي أن ولادته وموته ارتبطا بدورها كقاعدة .

المحاولة السياسية في توحيد أوروبا فشلت لأن حركة الوحدة الأوروبية لم تكن تعتمد دولة –قاعدة ، ولأن هذه القاعدة لم تتوفر لها . المحاولة الاقتصادية ، كما نرى الآن بوضوح ، لم تفرز ، رغم توفر قاعدة لها، ضغوطاً كافية نحو التوحيد السياسي ، وبذلك تكشف مرة أخرى ان الطريق الاقتصادية إلى الوحدة عاجزة أن تقود في ذاتها إليها حتى عندما تتوفر لها افضل الاوضاع كما تدل هذه التجربة الأوروبية ". وفي مقال ظهر في " النيويورك تايمز " يشير شوستر الى ان هدف الأعضاء كما وضعته معاهدة روما ، وهو إلغاء الحدود الاقتصادية والاتجاه نحو الاتحاد السياسي ، لم يتحقق . كان الحديث يدور في البداية حول وحدة حقيقية وتصورات كبيرة، ولكن الحديث أصبح اليوم يدور حول المشاكل السياسية ، والاقتصادية والتوترات الاجتماعية والانقسامات، وصعوبات التحرك الى الأمام . كان الجميع يتوقع في البداية، التحول إلى ولايات أوروبية متحدة ، هذه التوقعات لم تتحقق، لقد حدث ارتفاع في درجة التوترات الاجتماعية والسياسية ، وتحول متزايد إلى الداخل نحو قضايا محلية . وبدلا من تطورها في اتجاه يجعلها أكثر تماثلاً ، أصبحت الاقتصادات الأوروبية مشوهة بما يسودها من تباين واختلاف ، كما أن الهوة اتسعت بدل أن تنحسر. لقد حدثت هوة واسعة بين الآمال وبين الواقع الحالي، وعجزت أوروبا عن تحقيق النظام الاتحادي . هذا حدث على الرغم من إنجازات كبيرة في تحقيق الوحدة الاقتصادية أو بالأحرى في الطريق إليها. فقد أزيلت حواجز تجارية عديدة كي يمكن للسلع الانتقال بحرية، كما كان من الممكن تحقيق سياسة زراعية واحدة حقيقية تضمن سعراً معينا لمنتوج معين بصرف النظرعن الكمية. العمال ينتقلون بحرية بين البلدان الأعضاء. والأطباء والمحامون يستطيعون العمل في أي بلد يريدون .



تشيرتجارب التاريخ الوحدوية إلى أن غياب قاعدة، أو وجود قاعدتين أو أكثر يخرب أو يقتل نهائيا إمكان الاتحاد السياسي في مجتمع مجزأ ، أو بين مجموعة من الكيانات السياسية المستقلة.

كما أن مراجعة تاريخ الامبراطوريات التاريخية يشير إلى أنها كانت تجابه باستمرار مشكلة قوى انفصالية تخرج من وعلى السلطة المركزية في أطراف الامبراطورية. الثورات والانفصالات والاتجاهات (الاقطاعية) كانت تنتشر بشكل مستمر في هذه الأطراف ، إذ أن بُعد هذه الأخيرة عن قاعدة الامبراطورية كان يُسهل ويشجع ظهور هذه القوى .

كما ان تجارب العالم الشيوعي الحالية في الإدارة والتوجيه الذاتي تكشف ، من زاوية أخرى ، عن الظاهرة نفسها. فهي تدل على أنه عند بلوغ حجم معين ذي درجة معينة من التعقيد ، يصبح من الضرورة اعتماد توجيه من هذا النوع ، أي إعطاء الفروع درجة معينة من الاستقلال لم تكن تتمتع به سابقا. وقد ادرك مدراء أكبر الشركات الأميركية هذه الحقيقة جيداً عندما وجدوا أنه عندما تبلغ الشركة حجما

كبيراً معيناً ، تصبح سيطرة المركز الأساسي بالغة الصعوبة أو مستحيلة، وبالتالي تصبح اللامركزية أو الإدارة الذاتية أمراً ضرورياً .

تدلنا هذه الأمثلة بطريقة غيرمباشرة الى أهمية المركز أو القاعدة في تحقيق وحدة الدولة أو المجتمع . فابتعاد الأجزاء عن هذه القاعدة يساعد على تفكك الدولة أو انحسار سيطرة المركز .

إن وجود مدن كبيرة مماثلة الإمكانات في اليونان القديمة، كأثينا، اسبارطة، سيبس ، كورنيس ، الخ .. كان من الأسباب الأولى- هذا إن لم نقل السبب الأول- التي منعت إقامة وحدة البلاد . إن أعظم حرب داخلية عرفتها هذه المدن حرب البيلوبونيز (Peloponnesian war) التي استمرت ثلاثين عاماً ، كانت تعود، كما يرى الكثير من المؤرخين ، إلى صراع حول وحدة اليونان القومية ، أو بالأحرى حول من يقود هذه الوحدة . وقد أصيبت مكانة اسبارطة العسكرية والسياسية بنكسة كبيرة بعد انتصار أثينا على الفرس في معركة " ماراسون " عام ٤٩٠ ق. م. ولهذا نراها بعد ذلك توجه جميع طاقتها السياسية نحو تعثير امتداد سيادتها.

وقد شكل وجود قاعدتين اساسيتين تتمثلان بشكل خاص في أثينا واسبارطة حاجزاً سميكاً ثابتاً ضد الوحدة . لهذا كانت مدن اليونان عاجزة عن تشكيل علاقة تتجاوز " التحالف " الذي كانت تمثله " الجامعات " التي تقام عادة كرد على خطر خارجي . " ولكن كل جامعة دول يجب أن تفشل، لأنها لا تملك سلطة مستقلة خاصة بها، قاعدة مركزية تمثل إرادتها ككل ، وتعتمد على إجماع الدول الأعضاء " .

في القرن الخامس ق . م تحقق اتحاد جزئي للعالم اليوناني استمر نصف قرن . ولكن هذا الاتحاد كان ممكنا لأن أثينا قادته وكانت قاعدة له .

كان الفاتيكان بين القوى الأساسية التي عارضت باستمرار حركة التوحيد الايطالية التي انتصرت فقط بعد صراع مباشر ضده قادته بيدمونتي، قاعدة التوحيد . الفاتيكان كان يمثل قاعدة ترفض الوحدة الإيطالية لأنه كان يخاف أن يؤدي قيام دولة إيطالية كبيرة إلى إنهاء سلطته على الدول البابوية. بما أن هذه الدول كانت تقع في وسط إيطاليا، وتفضل بالتالي الشمال على الجنوب، فإن الفاتيكان استطاع أن يعثر حركة الوحدة الايطالية ويؤجل تحقيقها لمدة طويلة ، لهذا قال غاريبالدي مرة " إن الكاهن يجسد الكذب ، ولكن الكاذب لص، واللص قاتل . وإنني استطيع أن أبرهن على صفات لعينة أخرى تميز الاكليروس" .

بروز المدن الجديدة المزدهرة، الفخورة باستقلالها الجمهوري والمتقاربة في إمكاناتها أدى . من ناحية أخرى، إلى النتيجة نفسها أي تعثيرحركة الوحدة الإيطالية وذلك لأن هذا الوضع كان يعثر قيام قاعدة تهيمن عليها.

وجود قاعدتين في المانيا المجزأة تتمثلان في بروسيا والنمسا، وتسعى كل واحدة منهما إلى قيادة البلاد، كان من أهم الأسباب التي عثرت وأجلت الوحدة الالمانية . هذا التناقض وجد في النهاية حلا له في القوة العسكرية التي كرست قيادة بروسيا و حققت الوحدة.

كما نجد، في القرن العشرين، محاولات وحدوية عديدة كانت تنتهي الى الفشل ، وهو فشل كان يعود، فيما يعود إليه، الى عدم توفر إقليم-   قاعدة.

في إفريقيا نجد كثيراً من المحاولات : " اتحاد غربي افريقيا " ، و" اتحاد افريقيا الاستوائية " اللذان برزا أثناء الوجود الفرنسي زالا مع زوال السلطة الاستعمارية التي كانت تقف وراءهما . " الوحدة التي كانت موجودة كانت وهمية. فهي وحدة فرضت من الخارج من أجل ضمان راحة السلطة الإدارية الاستعمارية ، كانت وحدة من أوروبا في أفريقيا ، تعكس سيادة البلد الاستعماري على مستعمراتها العديدة. لهذا لم يكن من المتوقع بعد إزالة أوروبا عن المسرح استمرار هذه الوحدة " .

بالاضافة إلى ذلك كان هناك أربع مجموعات أخرى حققت بينها درجة من الاتحاد ، وهي افريقيا الغربية البريطانية، شرقي أفريقيا، إفريقيا الوسطى، والمغرب العربي . هذا النوع من الاتحاد، وإن كان محدوداً ، زال في عهد الاستقلال . أحد الأسباب الأساسية هو أن القاعدة " الخارجية" التي تتمثل في بريطانيا أوفرنسا زالت ولم تحل محلها قاعدة أخرى . في سوريا ولبنان كان هناك اتحاد جمركي بينهما، ولكن في عهد الاستقلال زال هذا الاتحاد وللسبب نفسه.

الاتحاد المالي بين السودان والسينيغال فشل بعد تأسيسه بمدة قصيرة، لأن كليهما كان يأبى الاعتراف للآخر بأية أفضلية أو ميزة قيادية .

اتحاد غانا -   الجينية فشل للسبب نفسه رغم الضجة التي رافقته كنواة للوحدة الافريقية ، التي كان يدعو إليها مؤسساه ، نيكوروما، وسيكوتوريه، قبل إعطاء الاتحاد هذا الدور ، أي كنواة للوحدة الافريقية، كان يجب التدليل على وحدته، وكان هذا مسألة بعيدة التحقيق ، لأن الاتحاد كان دون قاعدة. كلا الجزأين كان يرفض أن يذوب في الثاني ، أو أن يدعه يتقدم عليه، كما أنه كان دون قيادة موحدة واحدة، لأن كل قائد، سواء كان نيكوروما أو سيكوتوريه، كان غيرمستعد للتنازل للثاني . وقد صرح

هوفوا- بواني ، رئيس ساحل العاج، آنذاك " من يعرف سيكوتوريه، ونيكوروما، كما أعرفهما لا يستطيع الاقتناع أن الواحد أوالآخر يريد أن يكون عازف كمان ثانوي للآخر " .

" اتحاد الدول الافريقي " بين غانا والجينيه ومالي، بقي هو الآخر حبراً على ورق بسبب تساوي الاعضاء التام، الذي كان يعني غياب القاعدة. فيما يتعلق بهذا الاتحاد يمكن القول مثلاً أنه لو ضم نيجيريا أو ساحل العاج كقاعدة لكان من المحتمل نجاحه لأن كليهما يتميز بتفوق كبيرمن حيث الثروة العامة (نيجيريا من حيث الحجم ايضاً) يؤهله لأن يمارس نفوذاً عاماً ضابطاً للاتحاد، يوفر له درجة الدمج الضرورية لاستمراره و الالتزام به .

كما أن التنافس بين نيجريا وغانا في بداية عهد الاستقلال قضى على أي أمل في تحقيق أي تعاون وثيق وليس فقط الاتحاد، بين دول افريقيا الغربية البريطانية .

الصراع بين السينيغال وساحل العاج حول قيادة افريقيا الغربية ، والذي قتل كل احتمال للاتحاد بينها، كان واضحاً قبل الاستقلال . هذا التنافس الذي تزايد حدة بسبب تناقض شخصي بين سينغور، وهوفوا- بواني، أدى تقريباً إلى فشل جميع الجهود نحو التعاون الإقليمي وليس فقط الاتحاد. فشل الاتحاد الجمركي بين دول افريقية الغربية كان يعود إلى هذه المنافسة. " إن جميع المحاولات نحو اتحاد وثيق فشلت " في افريقيا الغربية، " والسبب الخاص كان معارضة ساحل العاج في إحياء الحكومة الاتحادية".

ساحل العاج هو البلد الذي يتميز بين بلدان غربي إفريقيا الفرنسية بالامكانات الاقتصادية التي تجعله مؤهلاً لأن يكون الإقليم- القاعدة. " مجلس الحلف " الذي ضم ساحل العاج، الفولتا العليا، النيجر، والداهومي، نجح وكان فعالاً إلى حد كبير في المهام التي انتدب لها، لأن ساحل العاج قام بدور القاعدة.

خوف تانزانيا، ويوغندا من سيطرة كينيا على " سوق إفريقيا الشرقية المشتركة " أدى إلى تفكك وانهيار هذه السوق . وهكذا دواليك!..

ونواجه الظاهرة نفسها في أميركا اللاتينية. إن مقارنة عابرة بين شمالي أميركا وجنوبها تكشف بوضوح دور القاعدة في خلق الاتحادات السياسية الكبيرة . ففي الشمال استطاعت الولايات الأميركية أن تحقق اتحادها، ومن ثم أن توسعه من حدود كندا إلى حدود المكسيك ، ومن الأطلنطي إلى الباسفيك. هناك أسباب عديدة ساعدت على ذلك ، ولكن مما لاشك فيه أن توفر قاعدة سياسية في الولايات الأولى المتحدة كانت تتركز عليها وترتبط بها شعوب هذه الولايات كان من أهم هذه الأسباب. أهم الأسباب الأخرى التي أدت بالاضافة إلى حرب الاستقلال، إلى ترسيخ الدولة الاتحادية فما بعد كانت : أولاً ، استعمار

الأرض إلى الغرب، الذي كان يفرض تجميع جهود جميع الولايات اذا أريد له النجاح ، وهو تجميع كان يفرض الارتباط بالدولة الاتحادية كقاعدة له ؛ وثانيا، مجاورة مستعمرات تسودها دول أوروبية كبيرة مما كان يشكل خطراً دائماً على استقلال الولايات وخصوصاً الجديدة . كان هذا يفرض على هذه الأخيرة بشكل خاص الارتباط بالدولة الاتحادية ، كما كان يفرض على هذه الدولة العمل على دمجها بها ؛ ثالثا، هجرة ملايين جديدة من الناس الذين لا يعرفون أي ولاء محلي لأية ولاية خاصة، وكان شعورهم الوحيد بأي ولاء قومي يتجه إلى أميركا ككل .

لكن أميركا الوسطى والجنوبية مقسمة ، على نقيض أميركا الشمالية ، الى أكثر من عشرين دولة على الرغم من أن هذه الشعوب متجانسة من حيث الأصل والثقافة أكثر بكثير من شعوب الولايات المتحدة . السبب الذي يفسر، من بين أسباب أخرى، هذا الواقع هو أن أميركا اللاتينية لم يتوفر لها قاعدة تهيمن على الدول الأخرى، وتقود عملية توحيدها . فعلى الرغم من أن سيمون بوليفار " محرر " أميركا الجنوبية من السيادة الاسبانية فكر بخلق دولة اتحادية من جميع بلدانها، فإن مشروعه لم ينجح لأن مطامع الحكام المحليين والقادة العسكريين من أمثال برياتو في شيلى، غامارا في البيرو، فلوريس في الاكوادور ، وروزاس في الإرجنتين، دفعتهم الى معارضة مشروعه بكل وسيلة ممكنة . " إن نتيجة شهوة السلطة التي طغت على أقليات صغيرة، وبعض الأفراد الذين يميلون إلى الدكتاتورية ، كانت خلق عدد كبيرمن الدول القومية التي أصبحت تتحارب باسم المصلحة القومية و الشرف القومي " .

وتتشكل أميركا الوسطى من غواتيمالا، السلفادور، هوندوراس، نيكارغوا، كوستاريكا ، باناما . هذه الجمهوريات تتشابه أكثر من أية مجموعة أخرى من الحكومات في أميركا اللاتينية، ولهذا فإن المحاولات التي شاهدتها من اجل اقامة حكومة مركزية واحدة كانت تثيرمنذ البداية درجة عالية من التفاؤل . كما أن هذا التفاؤل يعود ، بشكل خاص، إلى كون هذه البلدان شكلت وحدة سياسية منسجمة لمدة ثلاثة قرون في ظل السيادة الإسبانية. بفشل المحاولة الاتحادية الأولى عام ١٨٢٣- ١٨٢٤ شكلت خمس جمهوريات صغيرة، ونمت ضغائن اثناء مماحكات طويلة حول مركز الحكومات المختلفة في الجمهورية الواحدة . وقد ادت الاحقاد الناجمة عن القرارات المختلفة والمتناقضة التي كانت تتخذها فيما يتعلق باتحادها، الى تدمير وحدة أميركا الوسطى . شكلت الحكومة الاتحادية الثانية عام ١٨٣٠ برئاسة مورازن، ولكنها لم تستطع الاطمئنان إلى ولاء أية حكومة بين الحكومات المحلية. وبعد فشل المحاولة الاتحادية الثانية عام ١٨٤٢ قامت محاولات أخرى لا تقل عن ثمانٍ بين عامي ١٨٤٢ و ١٨٦٣، ولكنها فشلت جميعاً . هذه النتائج السلبية دفعت آنذاك الكثيرين من الكتاب والسياسيين إلى حل جديد يرتبط بدعوة غواتيمالا الى ممارسة دورها القيادي، ويرى أن طريق الاتحاد يرتبط بهذا الدور . ولكن النظام الذي كان يسود غواتيمالا آنذاك، بزعامة كارارا، لم يبد اهتماما بهذه القضية ، وربما شكل اهماله هذا " جريمته الكبرى " .

لا شك أن فشل هذه المحاولات الوحدوية في أميركا الوسطى يرجع إلى أسباب عديدة . ولكن مما لا شك فيه أيضا أن تخوف الجمهوريات الأخرى من غواتيمالا ومن اقتران الحكومة الاتحادية بها وخضوعها لها، كان دائما سبباً في فشل محاولات الاتحاد . لقد فشلت حركة الاتحاد لأن غواتيمالا، وهي اهم بلدانها من حيث المساحة ، والحجم والإمكانات، لم ترد أو لم تستطع القيام بدورها كقاعدة . " غواتيمالا كانت القوة الأساسية في بناء، ومن ثم انهيار اتحاد أميركا الوسطي عام ١٨٢٣ – ١٨٣٩ " . وقد حول غياب هذه القاعدة أميركا الوسطى الى ميدان للصراعات والحروب المحلية ، وجعل الاتحاد أو حتى التحالف والصداقة بين اجزائها أمراً صعباً . فالمشاعر المحلية استمرت قوية ، وكانت كل حكومة تعتبر نفسها فوق الحكومات الأخرى .

ما ينطبق على أميركا الوسطى ينطبق على أميركا الجنوبية. فغياب قاعدة تتمحور حولها وترتبط بها الجهود السياسية الوحدوية، أو بالأحرى، توفرأكثرمن قاعدة واحدة، يشكل العثرة الكبرى ضد أي عمل وحدوي بينها.

اتحاد " الوست انديز " (West Indies) فشل أيضا لأن جامايكا، وترينيداد ، وهما الوحيدتان اللتان يمكن لهما القيام بدور القاعدة بين الجزر التي يتشكل منها الاتحاد لم تكونا راغبتين به . هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى فشل الإتحاد، ولكن انسحاب جامايكا منه ، وهي أكبر وأغنى بكثير من الجزر الأخرى، كان السبب المباشر لهذا الفشل . هذا في الواقع ما أشار إليه الدكتور ويليامز، رئيس وزراء ترينيداد آنذاك ، الذي أعلن أن هذا الانسحاب كان يعني إلغاء الاتحاد .

عندما انسحبت ، جامايكا من الاتحاد، اتجهت الأنظار إلى ترينيداد " لأن الاتحاد معها كان الحل الواضح " ، وذلك لأنها كانت الجزيرة الأخرى التي يمكنها، بإمكاناتها المتقدمة أن تقوم بدور القاعدة . غير أن الرأي القائل بامكانية الجزر الثمانية الأخرى في تشكيل الاتحاد دون تبني ترينيداد له اثبت خطأه كما تبين فيما بعد.

أما فشل اتحاد ماليزيا فهو يعود اساسا إلى وجود تنافس حاد بين سينغافورة ومالايا. وقد ألغى هذا التنافس امكانية احداهما للقيام بدور القاعدة. وبعد طرد الأولى من الاتحاد ، استطاعت مالايا ممارسة هذا الدور دون منازع، لأن الوحدات الأخرى التي انضمت إلى الاتحاد كـ " صاباه " و "سارواك " كانت أضعف من أن تتمكن من القيام بأية منافسة . فلقد خلق انفصال سينغافورة وسطاً سياسياً جديداً في ماليزيا، لأنه حرر الاتحاد من المعارضة التي كانت تمثلها قوى يقودها " حزب الشعب للعمل " الذي كان يتكلم باسمها.

أما وحدة البلاد الاسكندينافية فقد تعثرت ولا تزال ، لأن هذه البلدان الاربعة متساوية تقريباً من حيث عناصر القوة المختلفة (وإن كانت أسوج تتقدم قليلا) . " لهذا يمكن القول أنه بقدر تزايد مساواة البلدان المدعوة إلى الوحدة، بقدر ما تزداد صعوبات توحيدها " .

أثناء الحرب العالمية الثانية رفض الاتحاد السوفياتي تقديم أية معونة مهمة للانصار اليوغسلاف، وتجاهل نداءاتهم المتكررة في طلب هذه المساعدة ، كتموينهم بالأحذية والأدوية والأدوات الطبية. والمساعدة الفعالة التي جاءتهم من الخارج كانت من الدول الغربية . ولم يرسل الاتحاد السوفياتي، بعثة عسكرية الى تيتو قبل عام ١٩٤٤ ، وفي فترة ما اقترح حتى الاعتراف بالحكومة اليوغسلافية الملكية في لندن . هناك أسباب عديدة لهذا الموقف ، منها مثلا حاجات الاتحاد السوفياتي نفسها التي كانت كبيرة وملحة آنذاك ولا تسمح بالتفريط بما يتوفر له من إمكانات.. ولكن مما لا شك فيه أن هناك سبباً آخر وهو حذر ستالين من ظهور سلطة شيوعية ثورية في أوروبا الشرقية تستطيع بما يتوفر لها من دعم شعبي كالذي كان يتوفر لحركة تيتو، أن تقيم قاعدة أخرى مستقلة عن موسكو . فالاتحاد السوفياتي لم يكن منفتحا لمشروع الأنصار بخلق كونفيدراسيون بلقاني . غير أنه لم يكن يستطيع مقاومته علنا، غيرأنه حاول تعثيره والحيلولة دون تنفيذه، وقد كان هذا الموقف أحد الأسباب الأساسية لانشقاق عام ١٩٤٨.

من هذا يتضح انه عندما يريد شعب أومجتمع مجزأ تحقيق وحدته يجب عليه مقاومة تشكيل كتل سياسية أو اتحادات محدودة من بعض أقاليمه أو دوله، وذلك لأن هذه الاتحادات تصبح أكثر امتناعاً على الوحدة إن هي حققت تقارباً أو تماثلاً في الأمكانات التي تتوفر لها أو لبعضها. ويحول هذا دون ظهور إقليم- قاعدة. ولكن بما أن توفر هذا الأخير أساسي وشرط لا مفرمنه في تحقيق الوحدة بينها، فإن اتحادات من هذا النوع تكون انحرافاً وحدوياً خطيراً في المدى البعيد مهما كانت فوائدها المباشرة والقطرية كبيرة. كما ان هذا النوع من الاتحادات يستطيع أن يوحي لأعضائه بأنه قوي إلى درجة يستطيع بها متابعة طريقه نحو المستقبل بشكل مستقل، وبذلك تشتد إقليميته. الاتحاد الوحيد الذي يمكن قبوله، من زاوية وحدوية ، هو الاتحاد الضروري لقيام إقليم- قاعدة، هذا في حال عدم توفر هذا الاقليم ، أو مع الاقليم - القاعدة عندما يكون موجوداً. انه الاتحاد الذي لا يخلق قوة جديدة يمكنها أن توحي بالاكتفاء الذاتي أوتستطيع منافسة الإقليم- القاعدة .

□□□

كان الاقليم – القاعدة يستخدم عادة القوة العسكرية في عملية التوحيد السياسي عبر التاريخ ، ولكن استقرار نظام الدول- القومية في تقليد ثابت اخذ يحد من ويحول دون اعتماد هذه الاداة في بناء دول جديدة. هذا يعني أن عناصر بناء الأمة متقدم الآن على عناصر بناء الدولة . هذا البناء الأخيركان لا

يتطلب في الماضي وحدة ثقافية ، لغة واحدة ، شعوراً بهوية قومية واحدة يتم الالتزام بها، ولكنه أخذ الآن يحتاج إلى هذه المتطلبات .

اذا صح هذا ، فإن دور القاعدة يكون قد ازداد أهمية لأن الثورة وليس القوة العسكرية تصبح الأداة الاساسية في عملية التوحيد السياسي . هذا يعني توكيداً أكبر على دور القاعدة السياسي ، وعلى درجة أعلى من الارتباط بها. بناء نظام الدول القومية الحديثة كان قد تم قبل بروز الجماهير كعنصر سياسي أساسى، وهذا يجعل حاليا استخدام الثورة الداخلية بدلاً من القوة العسكرية الأداة الأنسب فى تحقيق عملية التوحيد السياسي .

منذ ظهور تيلور واستقرار نظام الدول-   القومية الحديثة. أصبح الاتحاد بين دول مستقلة بالغ الصعوبة ، ولم يحدث ، في الواقع ، دون توفر قرابة او وحدة لغوية وثقافية ، أو دون حاجة واضحة اليه بغية الدفاع ضد خطر خارجي . لهذا فإن التوحيد السياسي لدول سابقة كان نادراً جداً في القرن العشرين. الاتحادات التي حدثت كانت عادة في ظل الاستعمار أو تحت رعاية الأمم المتحدة قبل أن ينال الأعضاء استقلالهم .

هذا يعني أن فقدان القيادة التي تهيمن وتسود وتتمثل في إقليم-   قاعدة كان من أهم الأسباب التي تفسر عدم ظهور اتحادات سياسية جديدة . هذا لا يعني طبعا ان توفر الإقليم – القاعدة يؤمن في ذاته نجاح الاتحاد أو ولادته . فهو ضروري ولكنه ليس كافيا.

ان أي تنازل عن السيادة كان نتيجة القسر أو استخدام القوة العسكرية . فالطريق الفيدرالي "لا يبدو قادراً على تقديم حل لقيام نظام دولي أو لمشكلة هذا النظام . محاولات إنهاء الصراعات في داخل نظام دولي دللت أنها أقل فاعلية من الوحدة المفروضة . لا فصاحة ديموستينيس، ولا خطرمقدونيا استطاعا الحد من عبث مختلف الجامعات اليونانية في القرن الرابع ق. م.... حتى الدول الخمس الصغيرة في أميركا الوسطى لم تستطع تحقيق اتحاد في القرن التاسع عشر".

الحقيقة السياسية النهائية في التحالفات والأنظمة الدولية، هي الدولة ذات السيادة. لهذا عندما يمكن ضبط سلوك بعضها في حلف أو نظام دولي، فهذا لا يعود إلى قبول الدول الأعضاء الإرادي بالسلطة الفوق-   قومية، بل لأن إحدى هذه الدول التي تشكل جزءاً في الحلف أو النظام هي، في الواقع، سيدة الآخرين. الدولة فقط تملك سلطة تحقيق الأعمال التي تحدد، من يوم إلى آخر، تعديل المادة الدولية .

دور القاعدة في تجارب التاريخ الوحدوية كان يعتمد في بعضها على سياسة قسر تفرض الاتحاد فرضا على الأجزاء الأخرى، أو تعتمدها بين وسائل اخرى أساسية في البعض الآخر. ولكن استقرار نظام الدول-   القومية، بروز الجماهير كقوة سياسية هائلة، والأحزاب السياسية كأداة تنظيم سياسى وثوري،

جعلا الاعتماد على القوة العسكرية الخارجية سياسة غيرملائمة. وهذا لا يعني الإستغناء عن سياسة القسر والعنف. فهذه السياسة تفرض ذاتها، وكل عمل وحدوي لا يعتمدها و يخطط لها يكون عاجزاً ، ولكنها تأخذ اولا، في الأوضاع الحديثة، شكل العنف الثوري ضد الطبقات والقوى التي تقاوم الوحدة ، وتحاول الابقاء على الحدود الإقليمية التي تخدم مصالحها . الأوضاع الجديدة تعني إذن أن الثورة السياسية والاجتماعية في الأقاليم المختلفة ، التي تسحق النظام الإقليمي وتسرع بالانضمام إلى القاعدة وتشكل دولة جديدة معها ، هي التي تحل محل القوة العسكرية الخارجية التي كانت تمتد سابقا من القاعدة.

تدل تجارب التاريخ الوحدوية، التي أشرنا إليها، أن الإقليم- القاعدة ضروري جداً ، وهو شرط رئيسي لا يتقدم عليه أي شرط آخر في تحقيق وحدة مجتمع مجزأ، أودمج كيانات سياسية مستقلة . ليس هناك من ضعف يمكن أن يصيب حركة وحدوية أكثرمن الضعف الذي ينتج عن وجود اتجاهات مختلفة تتركز في محاور مختلفة دون قاعدة رئيسية تهيمن عليها وتستقطبها . عند وجود محاور من هذا النوع تتبعثر قوى وطاقات الشعب الوحدوية وتستنزف ذاتها في التناقضات القائمة بينها، فتموت الوحدة نتيجة لذلك.

الفصل الخامس

تفسير المضمون الوحدوي

في دور الاقليم – القاعدة في تجارب التاريخ الوحدوية

ولكنه ، وبعد هذا التحليل التاريخي ، يطرح الآن علينا سؤال بالغ الدلالة : لماذا تحتاج العملية الوحدوية الى قاعدة ؟

ان اهم الاسباب التي يمكن الاشارة اليها في تفسيرهذا القانون الوحدوي العام هي :

١- كان نشوء الدولة القومية، كما رأينا، يتقدم على الوحدة الثقافية أو القومية ، التي كانت تنشأ في إطار هذه الدولة وكنتيجة لها. هنا نجد عاملا أساسيا لدور الاقليم – القاعدة . فكي تستطيع اقطار وكيانات سياسية معينة ان تتحد، وجب عليها ان تتجانس في نمط حياتها، نظرتها إلى الحياة، ونظامها الاجتماعي، أي أن الأسباب التي تتفرع عادة من العيش في إطار دولة كان يجب أن تتقدم على هذه الدولة وتمهد لها، أو بكلمة أخرى ، كان يجب هنا على " النتيجة " أن تكون " سببا " ، وعلى المعلول ان يصبح علة . ولكن بما أن هذه الأسباب كانت مفقودة، فقد قام إقليم معين بدور القاعدة كي يخلق هذه الأسباب التي يحتاجها قيام دولة جديدة أوتوحيد جماعات مختلفة في مجتمع واحد .

القول بوحدة سياسية جديدة من كيانات ، أقاليم أو شعوب مختلفة دون قاعدة تقود عملية التوحيد يعني، في الواقع، أن الشعور المتجانس، إيديولوجيا، وسياسياً ، واجتماعيا، ونفسيا، والذي يعبر عن ذاته بأنظمة واحدة أو متماثلة، يجب أن يلعب الدور الأول في إقامة هذا الكيان دون أن يكون قد وُجد بعد. القاعدة ضرورية جداً ليس فقط لأن عملية التوحيد تفرض وجودها، بل لأن إقامة هذا الشعور وهذه الأنظمة بعد الانتهاء من إنشاء الكيان السياسي الجديد تحتاج إلى وجودها .

٢- بما أن الكيانات السياسية المستقلة تعني مصالح وأفكار واتجاهات متناقضة، فإن وجود قاعدة تمارس سلطة تتميز عن وتتقدم على سلطة هذه الكيانات وقياداتها، يصبح ضرورة أساسية في ضبط الإمكانات والطاقات المتوفرة في إقامة الدولة الجديدة . إن أوضاعاً كهذه ، هي التي أفرزت نظرية " السيادة المطلقة " بدءآ من القرن السادس عشر، وذلك بغية تبرير عمليات توحيد سياسي من هذا النوع، فقد عبرت عملية التحديث السياسي والانتقال إلى الدولة- القومية عن ذاتها، عبر هذه النظرية التي دعت الى خلق سلطة ملكية عليا تتجاوز وتعلو على جميع التشكيلات الاجتماعية والسياسية الموجودة والتي يجب أن تخضع لها وترتبط بها وتنفذ ارادتها غير المحدودة، وتستمد وجودها ذاته من هذه الارادة . في هذا المفهوم اصبحت الدولة وجوداً مستقلاً عن الفرد والعائلة و المهنة والاقليم والطبقة والأجهزة الموجودة ، الخ .. يعلو على جميع الجماعات والمصالح ويسودها . ولكن اذا كان هذا المفهوم قد أعطى للدولة هذا الدور، فمن أجل أن يوفر لها القدرة على ممارسة دور القاعدة التي تمثل المجتمع ككل وتحاول أن تجاوز تناقضاته العديدة ، وخلق وحدة جديدة من جماعاته وأجزائه المتباينة.

ظهور هذا المفهوم الذي يدعو الى سلطة ملكية مطلقة نتج عن انهيار المجتمع القروسطي (من القرون الوسطى) المتعدد التركيب، أي عن مرحلة انتقالية من مجتمع اقطاعي الى مجتمع حديث. وقد شكل هذا المفهوم أساساً لظهور الدولة - القومية الحديثة وساعد عملية التحديث والتوحيد السياسي ، لأنه قدم نظرية أضفت الشرعية على تركيز السلطة التي تحتاجه هذه العملية. لهذا يمكن القول أن هذه النظرية شكلت آنذاك نظيراً لنظرية سيادة الحزب أو السيادة القومية التي يستعين بها الكثيرمن بلدان العالم الثالث كأداة في سحق التشكيلات القبلية، الطائفية، الأثنية ، العائلية ، الطائفية المحلية ، الخ .. التي تحول دون وحدة الشعب .

٣- وإذا كانت تجارب التاريخ الوحدوية تدل بوضوح على دور الاقليم — القاعدة الأساسي ، فلأن عملية التوحيد تعني إرادة التوحيد، وإرادة التوحيد تعني كياناً سياسياً حسياً ملموساً يرمز إليها ويعبر عنها. فليس هناك من إرادة دون كيان يمارسها، كل عملية توحيد تحتاج إلى اعطاء صورة واضحة مستقلة عن ذاتها وعالمها تتسرب إلى النفسية العامة وتقف كفاصل بارز يفصل بين القصد الوحدوي والتجزئة . كل عملية وحدوية تحتاج إلى بناء هذا الفاصل الذي يدل على وجودها، ويشطر العمل السياسي شطرين: شطر يمثل صورتها عن مجتمع جديد بوضوح حاسم، وشطرآخر يقف ضد هذه الصورة .

٤- اذا أردنا لأقطار مختلفة أوكيانات سياسية متعددة بأن تحقق مقاصد واحدة فمن الضروري توفر اتفاق أساسي عام حول الطريق التي تؤدي الى خدمة هذه المقاصد . فهذه الأجزاء لا تستطيع العمل كوحدة أو في اتجاه واحد، اذا التزم بعضها بخطة ، بينما تبنى بعضها الآخرخطة اخرى. ان تعذر الوصول الى عمل مشترك، حتى اذا افترضنا جدلاً بأن الخطط المختلفة متساوية في فاعليتها، وهذا أمر غير محتمل، يعود الى تشتت الجهود والطاقات والعجز عن تعبئتها. في وضع كهذا يجد العمل الوحدوي أنه يدفع، بدلاً من صخرة واحدة، مجموعة من الصخور، ولكن دون أن يتمكن من زحزحتها.

الخط الاستراتيجي الواحد الذي يستطيع استقطاب وتعبئة الجهود والطاقات عبر المجتمع المجزأ لا يمكن أن يتوفر للعمل الوحدوي دون قاعدة. لذا تجد، كل حركة وحدوية وثورية، نفسها مضطرة، في كل وضع الى الاختيار بين بضع امكانات استراتيجية وتكتيكية قد يتميزكل منها بشيء من الصحة أو درجة ما من الفاعلية فتعبر قدرتها عن ذاتها عبر اختيار اصلح ما يمكن نسبياً، وفي تركيز قواها على الاتجاه الذي تختار الاقليم- القاعدة ضروري لأنه يوفر الأداة التي تحدد للعمل الوحدوي الاختيارات العامة التي ترتبط بالقضية الوحدوية ككل، والمحور الذي يمكن تركيز القوى والطاقات فيه أو عن طريقه.

التجارب الوحدوية التاريخية الناجحة تدل أن العملية الوحدوية تتعرض ، وخصوصا في مراحلها الأولى، إلى الفشل والنكسات. وأسباب ذلك عديدة ، ولكن من الممكن ترتيبها كلها في نوعين: الأول، يعود إلى نقص في الأوضاع التي تشكل أو يجب ان تشكل الخلفية الإيجابية لعملية وحدوية ناجحة ؛ والثاني، يعود إلى غياب خط استراتيجي واحد يتركز عليه العمل الوحدوي، أو عطل أساسي في هذا الخط . فقد كان فقدان هذا الخط يبعثر الجهود ويشتت الطاقات، يزرع البلبلة والتخبط ، فتتعثر العملية الوحدوية وتتعرض للفشل، تنتقل من كبوة الى اخرى ، وتبقى في هذا الوضع المتخبط إلى أن يستقيم سيرها الاستراتيجي . القاعدة ضرورية في الافادة من خلفية ايجابية وفي وجود استراتيجي فعال ، ولهذا كانت تفرض وجودها في تجارب التاريخ الوحدوية.

٥- إن جميع الحركات الوحدوية معرضة للنكسات والهزائم . غير أن وجود إقليم – قاعدة يمثل فكرة الوحدة والارتباط بها ، يدعو إليها ويعكسها في سياسته، ضروري للحد من الآثار النفسية السلبية التي تفرزها هذه النكسات والهزائم ، والتي يمكن لها ان تقتل هذه الفكرة . الفشل في ذاته لا يضعف العملية الوحدوية، لأن دوره يرتبط بما يضفيه سلباً أو إيجابا على الأوضاع التي ترافقها أوتشكل خلفيتها. لهذا يمكن للفشل أن ينطوي على جوانب إيجابية لأنه يساعد على تعديل أو تصحيح ما قد تنطوي عليه هذه الأوضاع من ضعف . ولكن كي يصح هذا يحتاج العمل الوحدوي عبر المجتمع المجزأ أو الكيانات السياسية

المستقلة المدعوة إلى الاتحاد، الى أن يوفق الى إرادة عامة تعبر عنه بفاعلية . والقاعدة هي التي تمارس هذه الإرادة .

٦- إن الولاءات والانتماءات التي تسود المجتمع المجزأ أو الكيانات السياسية المنفصلة ، هي ولاءات محلية. والاتحاد السياسي يقود الى إلغائها أو على الأقل تدجينها وضبطها في إطار الهوية الجديدة التي تمثل المجتمع الموحد. وهذه الولاءات ، بما انها كانت تسود وتبلور مشاعر الأفراد والجماعات عبر أجيال عديدة ، فانها تشكل حاجزاً منيعاً ضد إقامة مشاعر أخرى تربط المجتمع المجزأ بهوية جديدة. وجود لغة واحدة، ثقافة واحدة، أدب أو تراث واحد ، الخ .. لا يحول دون ظهور هذه الولاءات والانتماءات. لهذا فإن الشعور الوحدوي أثناء التجزئة يكون إلى حد كبيرنتيجة تجاوب أو تفاعل واحد في إطار القصد الوحدوي ويتخذ من هذا القصد منطلقاً له. ولكن كي يصح هذا التفاعل على نطاق واسع ويتخذ شكلا فعالا، فانه يحتاج إلى قاعدة يدور حولها، تنظمه وتدفعه في وجهة واحدة . كلما ازدادت درجة التجزئة تزداد أهمية القاعدة كمحور لهذا التفاعل .

٧- لا يؤكد القصد الوحدوي ذاته دون ممارسة. ان وجود إقليم - قاعدة يوفر شرطاً من أهم شروط هذه الممارسة أثناء التجزئة، لأن وجوده يذكر ويدعو إلى هذا القصد ويدفع يومياً باتجاه تجاوز الحدود والارتباطات التي تعبر عن هذه التجزئة. النوازع والتطلعات الوحدوية تُصاب بالضمور، ومن ثم الموت إن لم تمارس وتعكس ذاتها في الواقع . وجود الإقليم - القاعدة يُبقي عليها حية.

القواعد والأدوار، أو بكلمة عامة، الممارسات التي تنظم سلوكنا ليست مجرد أدوات تضبط أوتعبر عن هذا السلوك في أعمال خارجية، بل هي تصنع هذا السلوك وتغذيه . فالفرد مثلا ، " يشعر" بأنه أكثر تقى عندما يصلي ، اكثر حماسا عندما ينشد الاناشيد الوطنية، أكثر تواضعا عندما يركع أو يخدم الغير، أكثر غضبا عندما يهز قبضته ، الخ .. وذلك لأن هذه الأعمال لا تعبر فقط عن مقاصد معينة، بل تصنعها في الوقت نفسه . الأدوار أو الممارسات التي نقوم بها لا تنطوي على بعض المهام والواجبات بل تفرز المشاعر والميول التي تقترن بها. البروفسور الذي يلعب دوراً يزعم الحكمة قد ينتهي الى الاعتقاد بأنه حكيم ، والكاتب الذي يلعب دورالمفكر الكبير ينتهي الى الاعتقاد بأنه هذا المفكر ، والواعظ ينتهي بالايمان بما يعظ (وإن كان هذا لا يعني ممارسة ما يعظ) الخ ... ففي كثير من الحالات يمكن تعيين أسباب كافية تبرر الافتراض بأن الهوية التي تميز السلوك تنتج ، في الواقع ، عن هذا السلوك نفسه ، أي عن ممارسته.

يستقطب وجود الإقليم- القاعدة المشاعر ويضفي عليها مضمونا وحدوياً وبذلك يساعد على تلقيح الممارسات السياسية بالقصد الوحدوي، فلا يموت هذا القصد تحت وطأة التجزئة. نستطيع ان نشير الى مثال من واقعنا يؤكد على هذا الجانب من دور الاقليم- القاعدة. فعندما توفر لنا هذا الإقليم في مصر، أثناء المرحلة الناصرية ، كان القصد الوحدوي معاناة يومية، وجزءاً من حياتنا السياسية. ولكن

عندما " زال " هذا الاقليم- القاعدة اثناء المرحلة الساداتية، انحسر هذا القصد. الجانب الأساسي في كل قصد وحدوي ليس اكتشاف ضرورته أو التفكير به ، بل القبول به ومن ثم تحويله إلى ممارسة يومية ، فكرية أو سياسية. الإقليم- القاعدة يساعد، وهو إلى حد كبير أساسي ، في تحقيق هذا.

٨- إن التنسيق العام الذي يحتاجه كل عمل وحدوي يفترض الإقليم- القاعدة كأداة له. كما ان فقدان هذه القاعدة يعني أن التنسيق المنظم الذي يحتاجه هذا العمل يُترك إلى التفاعل العفوي بين أقاليم أو كيانات سياسية مستقلة تسودها مصالح وميول واتجاهات مختلفة ، أي إلى تفاعل لا يستطيع ان يقود إلى أي اتحاد.

فمعالجة أية مشكلة تواجه العمل الوحدوي تعتمد على وترتبط بالمشاكل الأخرى التي تتشكل منها القضية الوحدوية . هذا لا يعني فقط أن معالجة مشكلة فردية ترتبط بمستوى المعالجة العامة للمشاكل الأخرى ، بل ان المعالجات الجزئية يجب أن تكون منسجمة ، ومنسقة . مما يفترض وجود سلطة تنسق ، أي وجود اقليم- قاعدة يحول دون تحرك النضال السياسي على أساس قطري، والاتجاه به خارج الحدود الإقليمية في جميع أشكالها المباشرة وغير المباشرة . العمل الوحدوي يحتاج ، كي يحتفظ بوحدويته وفاعليته ، إلى من يعبر عنه كوحدة ويمثل الأمة أو المجتمع المجزأ ككل . القاعدة تلبي هذه الحاجة لأن وجودها ذاته يعني هذا ، أي قدرتها على تجاوز المصالح المحلية والانطلاق من مصلحة الاتحاد ككل . إنها ضرورية لأنها تكون الإقليم المؤهل لأن تسمح لما يمكن ان يكون بالنمو والتطور.

٩- الحركات الإيديولوجية والسياسية الثورية تبغي عادة السلطة في طورها الديناميكي الأول كأداة فقط ، كشيء لا تريده في ذاته بل في سبيل مقاصد عليا. ولكن بعد الاستيلاء عليها لا تلبث أن تتحول، فتتمسك بها كهدف في ذاته. طبيعة السلطة نفسها تدفع بها إلى التحول في مجرى الاستيلاء عليها وممارستها، من أداة محضة إلى غاية في ذاتها .

الحركات الوحدوية في مجتمع مجزأ تخضع للقانون نفسه. فهي قد تحاول استلام السلطة باسم الوحدة التي تتجاوز التجزئة. ولكن مع استمرار التجزئة فإنها تتحول عن ذلك ، وغن بشكل غير واع . توفر إقليم- قاعدة يعني قوة مضادة لهذا الاتجاه، تخلق وضعاً نفسياً يحد من نمو الاقليمية ، ويتحدى باستمرار أنظمتها وقياداتها.

١٠- الاقليم - القاعدة ضروري ليس فقط للتنسيق بل لتعبئة الجهود والطاقات ودفعها في اتجاه الاتحاد السياسي .

وقد كشفت بعض الدراسات التي ظهرت في سوسيولوجيا الانتخابات السياسية، أنه عندما تتزايد الضغوط المتعارضة على الناخبين، فإن هؤلاء يظهرون لا مبالاة بالوضع السياسي ، ولا يمارسون حق

الانتخاب. ولكن الذين لا يتعرضون لهذه الضغوط العديدة المتعارضة ، فإنهم كانوا يعبرون عن درجة عليا من الاهتمام بالانتخاب . التجزئة تعني اتجاهات سياسية متعارضة ومتناقضة، واستمرارها قد يؤدي إلى إفراز لامبالاة وحدوية . الطريق الأهم في سبيل مكافحة هذا الوضع، هي اعتماد جزء من الأجزاء يتم الارتباط السياسي به في الاتجاه نحو الاتحاد.

الارتباط بقاعدة من هذا النوع يتركز عليها ويتجه إليها العمل الوحدوي بالضرورة كبحا للحرية او قمعا للمبادرة المحلية، فهو مجرد اجراء يحاول فيه العملالوحدوي تعبئة إمكاناته وجهوده بشكل أكثر فاعلية. أشكال السلطة المركزة التي تنسجم تماماً مع الحرية، أي التي لا تعرف القمع والإرغام ظاهرة واسعة الانتشار، وتمتد ، مثلاً ، من دائرة البريد إلى قبطان الباخرة. السلطة التي نواجهها هنا قد تكون مثيرة ، مزعجة ومتعبة ، ولكنها ليست أوتوقراطية. الذين يوجهون السير الجوي من أبراج المطارات لا يمارسون عملاً قمعياً أو استبدادياً في قراراتهم التي توجه حركة الطيارين. شرطي السير لا يلغي الحرية أو يمارس عملا أوتوقراطيا عندما يفرض على السيارات مراعاة قوانين السير . لهذا لا يمكن القول أن سلطة قاعدة يتركزفيها العمل الوحدوي وتوفر الطريق التي تقود الى المقاصد التي يبغيها الشعب المجزأ، تكون في ذاتها قسرية أو قمعية تلغي المبادرة الحرة والحرية .

١١- مصلحة الاتحاد تختلف عن مصالح الأفراد، او المنظمات والحكومات القطرية. فالثانية قصيرة المدى عند المقارنة بالأولى . ولهذا فإن الأمانة للاتحاد تفرض على العمل الوحدوي التطلع إلى مصلحته وقياسها عبر مستقبل منفتح وغيرمحدود . هذا يعني أداة تستطيع أو يمكن لها أن تنظر إلى هذه المصلحة في ضوء هذا المقياس . القاعدة كانت ترافق كقانون عام تجارب التاريخ الوحدوية الناجحة لأنها كانت توفر هذه الأداة .

ان العمل الوحدوي الناجح، يجب أن يكون قادرا على وضع القصد الوحدوي في قلب عمله، وأن يحوله إلى مطلب جامع لكل القضايا الأخرى، وقياس يقيس به كل ما يواجهه. هذا يعني خلق وضع تتحول فيه شتى القضايا الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية إلى الارتباط بقضية الاتحاد السياسي . ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية ، يحتاج العمل الوحدوي إلى اقليم- قاعدة . ونرى في تجارب التاريخ الوحدوية الناجحة، أن أشكال الفشل التي كانت تعانيها في مراحلها الأولى تعود بقدر ما " إلى إرهاق انتباه المعاصرين لها بعدد كبيرمن المشاكل الملحة، ولكن غير المترابطة، والتي كانت تنافس قضية الاتحاد أو المج السياسي في جذب انتباه الناس ... بينما كان العجز عن الربط بين هذه المشاكل وبين قضية الوحدة من الأسباب التي أدت إلى الفشل المؤقت لهذه القضية، فإن القدرة على ربط هذه القضايا الإدارية والاجتماعية أو المحلية بقضية الوحدة الشاملة كانت على العكس من الاسباب التي ساعدت على تحقيقها".

ان التجربة الايطالية ، مثلاً ، كان هناك اختلاف أساسي حول شكل الوحدة بين الفيدراليين ودعاة الوحدة الدمجية (Unitaire)، بين الذين يريدون أن تشمل الوحدة البابا والذين يريدون أن يبقى خارجها، أو يريدون إلغاء سلطته الزمانية تماماً . وقد ادت الانقسامات إلى فشل محاولة عام ١٨٤٨ في توحيد إيطاليا. اما في التجربة الأميركية فنرى ، على العكس من ذلك ، أن القدرة على الربط بين القضايا المحلية والجزئية ، من ناحية ، وبين القضية الوحدوية من ناحية أخرى، كانت قدرة فريدة تحققت لها بسرعة. ولكن حتى في هذه التجربة الناجحة ، نرى أنه كان على الكثيرمن المشاكل أن تجد حلا لها على الصعيد المحلي ، أي في نطاق الولايات، وذلك عن طريق تبني دساتيرمحلية قبل أن يتحول الانتباه إلى قضية الاتحاد القومي . في التجربة الالمانية، كمثل آخر، نرى صورة واضحة عن هذا الضعف . فقضية الإصلاحات الإدارية والسياسية عام ١٨١٣- ١٨١٤ ، لم تكن مرتبطة مباشرة بقضية الوحدة او متصلة بها، ولهذا فإنها حولت الانتباه عنها . ولكن بعد أن عولجت هذه القضايا إلى حد ما، ظهرت قضية الوحدة وأصبحت مهيمنة . وهكذا دواليك .

لقد عرفت جميع التجارب الوحدوية ، هذا النوع من الضعف الاستراتيجي، وكان عليها تصحيحه قبل أن يستقيم سيرها. الاقليم- القاعدة كان ضروريا للتجارب الناجحة لأنه كان يوفر أرضية تلتقي فيها هذه القضايا المختلفة وتقاس بمقياس وحدوي عام .

١٢- إن أهم خطوة في تحقيق الاتحاد السياسي هي إقامة الأنظمة والأجهزة الإدارية للدولة الجديدة . انها ضرورية ليس فقط كأساس لهذه الدولة بل من اجل انشاء تقليد وحدوي ثابت يصبح مع الوقت مستقلا، عن القيادات والحركات التي دفعت إليه ، ويتجاوزها بشرعيته وقوته، فلا تنفصم عرى الدولة الجديدة في حال حدوث انشقاق بين تلك القيادات والحركات . توفر إقليم- قاعدة يقود عملية التوحيد السياسي ضروري في تحقيق هذه الخطوة الأساسية لأن إقامة تلك الأنظمة والأجهزة يفرض درجة من الاعتراف بإرادة طليعية قيادية يمكنها ممارسة المبادرات التي يحتاجها ذلك . الإقليم- القاعدة ، كما رأينا في فصل سابق، جعل نشوء الدولة ممكنا لأنه جعل من الممكن امتداد أنظمة وأجهزة واحدة إلى أقاليم مختلفة، مما أدى الى نشوء ثقافة عامة واحدة غذت و جعلت من الممكن ظهور شعور بهوية واحدة ومصير واحد. لقد رأينا أن اللغة الواحدة نفسها كانت تمتد مع امتداد الإقليم- القاعدة .

الأنظمة والأجهزة والمفاهيم التي تتشكل منها الدولة الجديدة، تنقل فكرة الوحدة من الصعيد الخارجي إلى الصعيد الباطني، وبالتالي تحولها إلى واقعة نفسية يومية . الاتحاد أو الوحدة تحتاج، بكلمة أخرى، كي تستمر وتترسخ هويتها الجديدة المستقلة ، إلى ما يسمى في علم النفس بعملية التذوت (Internatization)، أي دمج المفاهيم الفكرية التي تحددها بالذهنية العامة وتحويلها إلى جزء منها. في هذه العملية تصبح هذه المفاهيم التي كان يُعلن عنها فكريا وسياسيا وإعلاميا جزءاً من المشاعر العامة

اللاواعية ، وتتحول إلى ضابط عام للسلوك السياسي . عندما يحدث هذا التحول تستقر قواعد الوحدة نهائيا.

١٣- سيل الأحداث السريع وتغيرها المستمر يجعلان من الصعب جداً على العمل الوحدوي الامساك بها وضبطها في أي اتجاه ثابت إن لم يكن موحد الإرادة . ودون هذه الإرادة الموحدة يصبح هذا العمل فريسة الأحداث التي تتلاعب به وتتقاذفه يمنة ويسرة ، فينجر وراءها ويتذيل بها دون أية قدرة حتى على مجاراتها، فما أن يعي واقعاً ما أو يرى أن الأحداث تحولت في اتجاه معين، حتى يجد أن الوضع أخذ يتغيرمن جديد ، أو ان حالته السابقة أصبحت في طيات الماضي. الإقليم القاعدة يوفر هذه الارادة الموحدة التي يمكن لها ضبط الأحداث في اتجاه الوحدة.

هذه هي بعض الأسباب التي تفسر ظاهرة الإقليم - القاعدة وتدعو إليها كقانون وحدوي عام في تجارب التاريخ الوحدوية .

لهذا عندما يتوفر إقليم- قاعدة لا يمكن- في مرحلة معينة على الأقل- أن يحل محله ، في دوره الوحدوي ، أي إقليم آخر بين الأقاليم المدعوة إلى الوحدة ، ويُصبح الارتباط الحاسم به هو الموقف الوحدوي الوحيد الذي يمكن لدعاة الوحدة اتخاذه.

أما حين لا تتوفر للعمل الوحدوي قاعدة له، او عندما لا يرتبط هذا العمل بالقاعدة في حال توفرها ، فإن التجزئة تستمر إلى أن تثقف مدرسة التاريخ العمل الوحدوي، بما تولده من آلام ونكسات، بضرورة الارتباط بقاعدة من اجل أن يتجاوز الاقليمية.

القسم الثاني

دور المخاطر الخارجية في تجارب التاريخ الوحدوية

الفصل الأول

المخاطر الخارجية وعملية التوحيد السياسي

القانوني الوحدوي الأساسي الثاني الذي يفرض وجوده على الباحث في دراسة الظاهرة الوحدوية عبر التاريخ، هو اقتران المخاطر الخارجية المستمر بهذه الظاهرة. فهي تكشف بوضوح ، أن هذه المخاطركانت تلازمها وتُعيد ذاتها فيها. المراجعة التالية لمجموعة من أهم التاريخ الوحدوية - التجارب التي كان يتم فيها الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة - تدل بوضوح على هذا القانون الوحدوي العام الذي كان يسودها.

تقدم تجربة فرنسا مثلا بارزاً على ذلك . يرى بعض المؤرخين ك " تياري " ان تبلور الشعور القومي الفرنسي برز في القرن التاسع، ولكن معظم المؤرخين، من أمثال جيزو ، وميشاليه، أكدوا على أهمية حرب المائة عام في القرن الرابع عشر.

مؤرخون آخرون يرون أن القرن الحاسم كان القرن السابع عشر، قرن التوحيد السياسي ، الانتصارات العسكرية الكبيرة والازدهار الثقافي . ولكن قسما آخر، من أمثال لافيس ، وأولار. يعتقد أن الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشركانت العامل الذي أفرز ذلك .

القاسم المشترك بين هذه الاتجاهات هو التوكيد على وإبراز دور الحروب والمخاطر الخارجية في صنع الأمة الفرنسية، قوميتها ووحدتها.

لقد أيقظت حرب المائة عام بين الفرنسيين والانكليز الشعور القومي، ورسخت تقاليد قومية في الجانبين. في هذه الحرب التي امتدت من القرن الرابع عشرحتى بداية القرن الخامس عشر، نمت القومية الفرنسية. الصراع المستمرمن اجل طرد الإنكليز وما تضمنه ذلك من آلام وتضحيات مستمرة جعل الفرنسيين واعين لوحدتهم و لعاداتهم وتقاليدهم المشتركة. وطن مشترك، واتجاه نحو لغة واحدة . لقد اعطاهم هذا الصراع ، شعوراً اكثر قوة بوحدتهم . كما اثار هذا الشعور (القومي) الجديد حماساً كبيراً للملك شارل السابع الذي " خلص فرنسا " ، مما اعطى الشعب رمزاً حيا يجسد له فكرة الوطن الأم الواحد ويساعد في بلورة وتطوير الشعور بقومية واحدة .

قبل نهاية القرون الوسطى أصبحت فرنسا تعي وتنظر إلى نفسها كجماعة قومية كبيرة تتكلم اللغة الفرنسية. ويعود السبب الاساسي لهذا الوعي القومي الى الفترة الطويلة التي قاتل فيها الفرنسيون

جيرانهم الانكليز. غير ان وحدة فرنسا القومية لم تتوطد وتترسخ بشكل نهائي الا في حروب الثورة الفرنسية التي كانت تدافع فيها فرنسا عن نفسها ضد الأنظمة الأوروبية الرجعية. هذه الحروب هي التي جعلت الفرنسيين يعون أن هناك مصالح واحدة مشتركة توحد بينهم كشعب، وأن الدولة التي يدافعون عنها هي دولتهم . منذ ذلك التاريخ أصبح واضحاً أن الولاء يتجه لأرض، لشعب يتميز بلغة خاصة ،. ولدولة ينتمي إليها الفرد، وهي السمة المميزة للأمم .

لقد ظهرت الأمة الفرنسية ، إلى حد كبير، كنتيجة للصراع الفرنسي – الانكليزي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كما بلورت الحروب الثورية الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر القومية الفرنسية بشكل نهائي .

هذه الخلفية هي التي دعت المؤرخ الفرنسي ، أولار، الى إن يكتب بأن القومية الجمهورية الفرنسية وُلدت في الحرب، وبقيت لمدة طويلة في الذهن الفرنسي ملتحمة بساحة المعركة والمفاخر العسكرية. الأمة وليس الملكية هي التي انتصرت ضد الأجانب ، والانتصار في ساحة المعركة هو الذي حول فرنسا من الولاء الملكي الى القومية الجمهورية .

عندما تحركت قوى الثورة الفرنسية، كانت المشكلة الأولى التي واجهتها هي ، في عبارة جون آدمز ، كيف يمكن لخمسة وعشرين مليونا من الفرنسيين الذين لم يعرفوا أو يفكروا بأي قانون غير إرادة الملك، أن يتحدوا في دستور حر !..

هنا نجد مصدراً أساسياً لجاذبية النظرية التي قدمها روسو. فقد وجد رجالات الثورة الفرنسية في تلك النظرية طريقة فعالة في تحويل عدد كبيرمن الناس إلى شخص واحد، لأن الإرادة العامة التي قدمتها كانت توحد الكثرة في " واحد " . نقطة انطلاق روسو في بناء هذا " الواحد " المتعدد الرؤوس ، تتفرع من تجربة عامة وهي ما نراه عادة من اتحاد يحدث بين مصلحتين متناقضتين في- وجه مصلحة ثالثة تهدد الاثنتين . فعلى الصعيد السياسي افترض روسو وجود عدو قومي واعتمد على ذلك في توحيد المصالح المتعددة التي تتشكل منها الأمة.. فأمام العدو المشترك فقط يمكن لظاهرة كالأمة التي لا تتجزأ (nation une et indivisible) أن تتحقق. لذلك كان على الوحدة القومية أن تحقق ذاتها عبر الشؤون الخارجية ، وفي أوضاع تنطوي على إمكانات العداء والخصام . هذا هو المبدأ الذي كان، كما يبدو، في ذهن سان جوست عندما أعلن بأن الشؤون الخارجية هي وحدها فقط ذات صفة سياسية بينما العلاقات الانسانية هي في ذاتها علاقات اجتماعية.

أما انكلترا ، فقد حققت وحدتها قبل الأمم الأوروبية الأخرى، والعامل الذي دفع إلى ذلك كان ، باعتراف المؤرخين، الخطر الدانيماركي . هذا الخطر هو الذي حفز الانكليز على الوحدة، كما انه دفع اسكتلندا ايضا إلى تحقيق وحدتها. دورها في الدفاع عن البلاد ضد الدانيمارك كرس تفوقها على المناطق الأخرى وأعطاها سيادة اسمية على والز واسكتلندا ، هذه الوحدة ضعفت فيما بعد، ولكن غزو النورمان، دمج البلاد من جديد. منع حدوث تفكك إقطاعي داخلي كالذي حدث في أوروبا .

بين القرن السادس والقرن الحادي عشركانت انكلترا مجزأة إلى ممالك مختلفة. ولكن هنا وهناك كان أحد الملوك يتمكن من بناء قوته ، ويفرض على بعض الملوك الآخرين الخضوع له ويضم أراضيهم إلى مملكته. في أواخر القرن الثامن قام الفايكينغ الدانيماركيون بأول غزو لإنكلترا وكانوا ، لمدة قرن بعد ذلك، يضمون أجزاء متتابعة إليهم . بعد القرن الثامن بقليل كان بإمكان ملك واسيكس إقناع أو إرغام الملوك الستة الآخرين بالانضمام إليه لمجابهة هذا الخطر، والاتحاد معه وتحت إمرته في كيان واحد يرمي إلى تحرير البلاد. هكذا نشأت أول وحدة انكليزية من الأجزاء أو الأقاليم التي لم يكن قد سيطرعليها الفايكينغ بعد، وهر وحدة نمت وتطورت إلى أن ترسخت نهائياً في عهد ألفرد الكبير- بين عامي ٨٧١ و ٨٩٩- الذي استطاع آنذاك أن يوقف بها تقدم الغزاة . ثم استطاع ابنه وحفيده تحرير البلاد منهم وإن لم يكن بصورة نهائية.

في نهاية القرون الوسطى كانت حرب المائة عام بين انكلترا وفرنسا عاملاً آخر في تحقيق وحدة الأولى . " كون البلدان لغات خاصة وطورا وعيهما بهوية سياسية خاصة عن طريق حروبهما الإقطاعية المتواصلة. هذا العداء المستمر هو الذي خلق تقريباً القومية المنفصلة لكل منهما " .

في الثلاثينات من القرن السادس عشر، كان خطر هجوم يقوم به الامبراطور شارل الخامس عاملاً في دفع انكلترا الى ترتيب الاتحاد مع والز. وبعد عام ١٧٠١ كانت حرب الخلافة الإسبانية التي دخلتها انكلترا آنذاك سبباً في دفع البرلمان الإنكليزي ، وذلك بغية تقوية الاتحاد، الى القبول بتنازلات عديدة لاسكتلندا، تعطيها نفس الامتيازات التجارية التي يتمتع بها الإنكليز، والتي كانت قد رفضتها البرلمانات السابقة .

" النزعة القومية المتوهجة التي امتدحها شكسبير استمدت الكثيرمن حرارتها من إحساسه بالصراع الطويل ضد " البلدان الأقل سعادة " - ضد فرنسا في مسرحياته التاريخية وضد إسبانيا أثناء حياته " .

اما المانيا فقد حققت وحدتها عبر مقاومة للاحتلال الفرنسي . " جميع الجهود اتحدت ووجهت اولا نحو التحرر من قيود السيطرة النابليونية . بهذا المعنى أصبح نابليون الموحد الكبير للالمان كما كان أيضاً لشعوب أوروبية أخرى " .

قبل الاحتلال الفرنسي كان معظم مفكري المانيا ذوي نزعة إنسانية أممية تنكر القومية والارتباط بها ، وتعتبرها في كثيرمن الأحيان غير لائقة بالمفكر. ولكن هزيمة المانيا التي أدت الى ذلك الاحتلال غيرت هذا الموقف وأحدثت تحولا جذريا في أفكارهم ، فأخذوا ينادون بالقومية، ويستعيضون عن دعوتهم الإنسانية والعالمية بمشاعر الحماس الوطني الذي ظل مشتعلاً منذ ذلك الحين . المفكرون الذين قاموا بالدور الأساسي في إيقاظ الشعور القومي الالماني ضد التسلط الفرنسي كانوا أربعة : فيخته، شلايرمايخر، آرنت، وجاهن . أما تفكيرهم الوحدوي التحريري فكان قد تبلور ونما في النضال ضد فرنسا. كلهم جاءوا من المانيا الشرقية والشمالية، ولكنهم كلهم اعتبروا بروسيا قاعدة معركة التحرير والتوحيد، ووطنهم الروحي.

لم يكن الاحتلال الفرنسي هو التحدي الخارجي الوحيد الذي أثار المشاعر القومية في ألمانيا ودفعها إلى الاتحاد، فالشعب الالماني كان عرضة للعدوان الخارجي ليس فقط من الدول الكبرى ، بل من دول صغرى كالدانيمارك، وهذا ما حثه بشكل خاص على تحقيق هذا الاتحاد . " إن انتهاكات الدانيمارك المتكررة لدستور هولشتين، ومحاولاتها القسرية في دمركة شليزويغ ، أثارت ، كما كتب أنجلز، " معظم المواطنين الالمان، هؤلاء كانوا قد تعودوا تنمّر الدول الكبرى عليهم، ولكنهم كانوا لا يستطيعون تحمل الركلات من دولة صغيرة كالدانيمارك . لهذا تأسست الجمعية القومية التي كانت تعتمد بشكل خاص على بورجوزاية الدول الالمانية الصغيرة . هذه الجمعية، وإن كانت ليبرالية في صميمها ، طالبت أولا وقبل كل شيء، بالوحدة القومية بقيادة بروسيا، بروسيا ليبرالية ، إذا كان هذا ممكنا ، ولكن في ظل أي نظام بروسي . اذا كان هذا ضروريا " .

دور المخاطر الخارجية في إيقاظ المشاعر القومية وتحفيز الشعوب المجزأة على الاتحاد كان بشكل خاص بين السكان المتاخمين للحدود، الذين كانوا يعبرون عادة عن أكثر الأشكال القومية والوحدوية حدّة بسبب مواجهتهم المباشرة لهذه المخاطر . هذه الظاهرة كانت واضحة كل الوضوح في التجربة الالمانية. " قومية ما يُسمى، من قبل بعض علماء الاجتماع ، بالقومية التخمية- أي قومية السكان الذين يعيشون على الحدود الفاصلة بين دولتين- تتميز عادة في كونها أكثر حدة في شعورها القومي من سكان المناطق الخلفية الداخلية ... إن المان الحدود مشهورون ويٌضرب بهم المثل بأنهم أكثرنزعة المانية من المان برلين " .

في دراسة هيبيرله لمنطقة هولشتين- شليزويغ في المانيا، التي صوتت للحزب النازي بشكل كاسح عام ١٩٣٢، ودعمته أكثرمن أية منطقة أخرى . يعود سبب هذا الموقف الى كونها منطقة حدودية، تجابه اكثر من غيرها المخاطر الخارجية ، وتتميز بانفتاح أكبر على الدعوة القومية النازية القوية بسبب حساسيتها للمشكلة التي نتجت عن سلخ بعض الأقاليم عن المانيا . جميع هذه المناطق التي تقع على الحدود، وخصوصا تلك التي كانت قرب بولندا، كانت تميل إلى دعم الحركات القومية بشكل حاسم أكثر من المناطق الأخرى .

إيطاليا وجدت وحدتها، كما يكتب أنجلز أيضا، في صراعها ضد السيطرة النمساوية . لقد كررت ايطاليا في عصر النهضة، مأساة اليونان الكلاسيكية على صعيد أوسع وأكثر قسوة. المدن- الدول الايطالية كانت تحارب بعضها البعض ، ممزقة بالصراعات الداخلية والحروب الأهلية التي وصلت إلى حد لا يصدق تقريباً من الحدة الهستيرية. هذه المدن عجزت عن تحقيق وحدتها ضد خطر فرنسا وإسبانيا أو ضد طموح البابوية المستمر، ولهذا خسرت كلها بالتالي- ما عدا روما، وفينيسيا- استقلالها ، ومع استقلالها قوة الابداع فيها . ولكن الحروب النابليونية مهدت الطريق امام اتحاد إيطاليا . وفي حروب تحريرية ضد الاحتلالين الفرنسي والنمساوي تمت الوحدة الايطالية . كانت إيطاليا مسرح قتال بين فرنسا وإسبانيا والنمسا، التي كانت تتقاتل وتتنافس من اجل الاستيلاء على أراضيها. ولكن حتى في القرن الثامن عشرعندما استتب الأمر للنمسا فأكدت سيادتها على إيطاليا، لم يكن هناك، في الواقع، حركات

تحرير وتوحيد وكانت التجزئة راسخة والاقليمية متحكمة. ولكن الثورة الفرنسية غيرت الوضع بشكل جذري . فتوحيد البلاد مؤقتا في عهد نابليون بعث شعور الوحدة بين أجزائها وأقاليمها المختلفة ، والمفاهيم والمبادىء التي أشاعتها الثورة الفرنسية نتيجة هذا الاحتلال عززت من هذا الشعور ورسخته. لهذا واجهت النمسا مداً قومياً قوياً لم تعرفه سابقا عندما أعادت سيادتها على إيطاليا إثر سقوط نابليون .

بداية الاتحاد السويسري تشكلت أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشرمن تحالفات بين جماعات مختلفة ارادت الدفاع عن ذاتها ضد اعتداءات خارجية. نواة هذا الاتحاد الأولى تكونت من ثلاث " كومونات " تحالفت معاً ضد سلطة الهابسبورغ.

محارلة ملوك الهابسبورغ فرض سيطرتهم على البلاد السويسرية، دفع الى قيام حرب تحريرية امتدت لمدة قرن ونصف. في الرد على هذا الخطر، خطر الخضوع لدولة الهابسبرغ والذوبان فيها، الذي كان يهدد عدة كانتونات ذات تقاليد استقلالية، نجد جذور الاتحاد السويسري .

الكانتونات الثلاثة الأولى التي شكلت نواة الاتحاد كانت ذات تركيب اجتماعي متجانس . ولكن الحرب التحريرية ضد الهابسبورغ فرضت على هذه النواة الامتداد، وعلى كانتونات أخرى، مهددة بالخطر نفسه، الانضمام إليها. كانتون " غلاروس " الذي كان عضواً من عام ١٣٥١ إلى عام ١٣٥٥، وانضم نهائيا إلى الاتحاد عام ١٣٨٨، و " زوغ " الذي انضم عام ١٣٦٥، كانا متجانسين مع النواة الأولى من حيث التركيب الاجتماعي . ولكن " لوسيرن " ، " زوريخ " و " بيرن "، التي انضمت إلى الاتحاد تباعاً ١٣٣٢، ١٣٥١، ١٣٥٣، كانت كانتونات مدينية وليست زراعية. وقد افقد هذا الوضع الجديد التحالف الأول تجانسه، فأدى التناقض في المقاصد إلى توتر في علاقاته وإجهاد لها " إن القوة التي حافظت، في التحليل النهائي، على تماسكه كانت العداء المشترك للهابسبورغ " . فعلى الرغم من التناقضات والمصالح المختلفة بين الكانتونات السويسرية الأولى ، فإن الحرب ضد الهابسبورغ وحدت بينها وذلك " لأن المصلحة المشتركة الثابتة كانت الحرية من الهابسبورغ " . وقد ظهر الحافز الذي دفع نهائيا إلى الاتحاد الفيدرالي نتيجة الفتوحات النابليونية ، فقد فرض نابليون الأول الوحدة على الكانتونات في بعض المناطق التي سادها، وبشكل خاص زوريخ، لوسير، وبيرن ، وأدخل إليها أنظمة تحريرية. هزيمته فيمابعد أدت إلى ردة أرستقراطية جاءت في ذيلها ، ودفعت الطبقات التقليدية الحاكمة إلى توكيد سيادتها. ولكن مبادىء الثورة الفرنسية كانت قد امتدت في تربة اجتماعية منفتحة، ولم يكن من الممكن إزالتها . النظام الفيدرالي السويسري ترسخ وثبت قواعده نهائيا في حرب عام ١٨٤٧، التي حولت هذا النظام إلى نظام اتحادي حقيقي عام ١٨٤٨.

الاقاليم التي تشكلت منها هولندا وجدت وحدتها وحريتها في حرب تحريرية ضد اسبانيا امتدت إلى ثمانين عاماً وانتهت بمعاهدة مونستر في ٣٠ كانون الثاني / يناير ، ١٦٤٨ . هولندا كانت أهم هذه الأقاليم . " المجتمع الهولندي السياسي نفسه ولد كنتيجة .. لمقاومة ناجحة ضد محاولات التسلط السياسي المركز الذي قام به الأسياد البورغانديون والهابسبورغ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر " .

اما روسيا فحققت وحدتها في حرب تحريرية خاضتها لمدة قرون عديدة ضد احتلال التتر، والمغول، والبولنديين، والليتوانيين، والأسوجيين، والفرنسيين- وحدوا ونظموا روسيا على أساس عسكري بغية الدفاع عنها ضد الغزو الخارجي الذي كانت البلاد تتعرض له من جميع هذه الجهات. ضغوط هذه المخاطر والحروب التي كانت تجر إليها كانت العنصر الأول في ظهور وتحقق وحدة روسيا.

أمام الغزو الالماني فرضت القومية الروسية ذاتها من جديد . وكان ستالين قائد هذه اليقظة. وقدم لينين في صورة جديدة، كرسول القومية الروسية ، والمقالات والابحاث والأشعار، كانت تظهر تباعاً حول هذه القومية، حول روسيا الوطن الأم . القضية كانت واضحة بالنسبة لستالين: فروسيا السوفياتية كان وجودها مهددا من قبل عدو قاتل ، والطريقة الوحيدة في مقاومته كانت الاعتماد على الحياة القومية الروسية كسلاح جبار في الانتقام من هذا العدو.

هذا التحول إلى القومية الروسية عبر عن ذاته بتحوله عن نشيد الأممية الشيوعية إلى نشيد قومي . ففي كانون اول/ ديسمبر، عام ١٩٤٣، حل نشيد حماسي جديد " الوطن الأم " على النشيد السابق وكان يبتدىء بهذه الأسطر:

اتحاد جمهوريات الحرية الذي لا ينفصم

صهرته روسيا الكبرى ليستمر دائما

غنوا لوطننا الأم المجد الذي لا يموت.

لم يؤد خطر الحرب الهائل ،إلى احياء القومية الروسية من جديد فقط ، بل إلى التمحور على العنصر الروسي كقاعدة لها. وقد اعلن ستالين أكثر من مرة، أن " الروس الكبار " يشكلون القوة الدافعة- وليس فقط أحد العشرات العديدة من الشعوب التي يتشكل منها الاتحاد السوفياتي- في الحرب ضد " الحيوان الفاشي هتلر" .

وقد كتب الشاعر السوفياتي نيقولا نيكونوف ، " إن الكبرياء القومية التي كانت حتى الآن مدفونة في قلوب الشعب السوفياتي، انفجرت كنار لاهبة امام خطر العبودية وفي مجابهة خطرمميت " .

النهاية الظافرة التي انتهى إليها هذا الصراع ضد خطر الاحتلال النازي كانت انتصاراً للوطنية والمشاعر القومية في الدولة السوفياتية . فالاتحاد السوفياتي أحيا القومية في أشد أشكالها ، وانطلق في علاقته مع العالم الخارجي من موقف يعترف ضمنا على الأقل بأن المشاعر الطبقية هي أقل تفجراً وأهمية من المشاعر القومية.

أما إسبانيا فقد استطاعت في حربها ضد العرب فقط ، أن تجد وحدتها كشعب واحد ، وأن تحقق دولتها الواحدة. "حرب استرجاع الأرض الأسبانية من العرب صنعت للأسبان ما صنعته حرب المائة عام للفرنسيين، لقد خلقت شعوراً مشتركاً بينهم قاد إلى وحدتهم السياسية " .

يوغسلافيا ظهرت إلى الوجود واستمرت كوحدة سياسية مستقلة نتيجة الصراع ضد ، امبراطويات تهددها- الامبراطورية التركية أولا، ثم الامبراطورية النمساوية ، وبعد ذلك الالمانية، والإيطالية وأخيراً الخطر السوفياتي . "هذه الامبراطوريات" كما يكتب دجيلاس ، " هي، باستثناء الاتحاد السوفياتي إلى حد ما، "غيرموجودة الآن ... مع ضعف الحزب الشيوعي ستضعف داخليا ليس فقط القوى التي تحافظ على يوغسلافيا كدولة مركزية، بل فكرة يوغسلافيا نفسها " .

تكشف التجربة اليوغسلافية عن تقليد طويل من الصراعات الدامية بين شعوبها المختلفة، وهو تقليد ظل بارزاً حتى اثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن ضرورة الدفاع عن الوجود اليوغسلافي وحريته والقتال الطويل المرير ضد الاحتلال النازي أديا إلى تقوية وحدتها بشكل واضح . ولكن بما أن هذه الوحدة كانت تعتمد دائماً على خطر خارجي ، فان غياب هذا الخطر حالياً كشف الصعاب والتناقضات الداخلية التي تواجهها .

الامبراطورية النمساوية التي تشكلت عام ١٨٠٤، وكانت تضم شعوباً مختلفة ترجع، في الواقع، في جذورها إلى الخطر العثماني في القرن السادس عشر . هذا الخطر كان السبب الذي دفع بوهيميا وجزءاً من هنغاريا ، وكرواشيا، إلى اختيار الارشيديوق فرديناند النمساوي كامبراطور عليها. الخطر الروسي فما بعد ولّد الضغوط التي ساعدت على استمرار وحدة هذه الامبراطورية . وقد تساءل أنجلز مرة عما يمكن أن يكون عليه مستقبل الامبراطورية النمساوية- الهنغارية اذا حدثت ثورة اجتماعية ناجحة في روسيا ، فأجاب بأن النتيجة تكون انهيار هذه الامبراطورية من ذاتها، وذلك لأنها كانت تجد وحدتها أولا في الحاجة إلى الاتحاد في مقاومة الأتراك ، وفيما بعد في الخوف من السيطرة الروسية .

تشكيل الدول السياسية في أوروبا الشرقية كان يتحدد بشكل كبير بوجود هذا النوع من المخاطر الخارجية. " غزو المغول والأتراك لبلدان أوروبا الشرقية ، وحرب السبعمائة عام التي قامت بها دويلات مسيحية في شمالي شبه الجزيرة الإسبانية ضد العرب ، دعما كثيراً نمو دول قوية في شرقي وغربي القارة .

اتحاد كندا في اواسط القرن التاسع عشر كان مدفوعاً بمقاصد دفاعية ضد خطر خارجي هو الخطر الأميركي . كتب المؤرخ الكندي المعروف ، كلارك ، حول ولادة كندا " بأنه من الممكن القول تقريباً أن الحياة القومية الكندية وُلدت من إرادة سلبية في مقاومة الامتصاص من قبل الجمهورية الاميركية . فالوعي لوحدة قومية كندية نما الى حد كبير حول الولايات المتحدة كنقيض لها " . حوافز الاتحاد عام ١٨٦٧ كانت سياسية وعسكرية : أولاً ، خوف حقيقي من التوسع الاميركي إلى الشمال . ثم ان الأقاليم المختلفة رأت أنه يتوجب عليها إن هي أرادت أن لا تعتمد كلياً على جارها الكبير أن توسع تجارتها فيما بينها. وكانت الولايات المتحدة قد حاولت ضم كندا عسكرياً ، ولكنها فشلت ، وكانت حربها ضد كندا عام ١٨١٢ واحدة من الحروب القليلة التي خسرتها . " إن الشعور القومي في كندا يدين بوجوده بقدر كبير إلى إحساسه بالخطر الأميركي، السياسي في الماضي والثقافي الاقتصادي حالياً . الشعب الكندي لم يجد من الضروري حماية نفسه من التوسع الأميركي فقط ، بل وجد من الضروري أيضاً أن يحدد لماذا لا

يعتبر نفسه أميركياً ، ولماذا لا يجب أن يصبح أميركياً ، وقد صنع ذلك بازدراء عناصرعديدة من الحياة الأميركية ، وخصوصاً تلك التي تشتق من الديمقراطية الجماهيرية ومن توكيد مبالغ فيه على المساواة".

أن الولايات المتحدة خلقت اتحادها في حرب تحريرية ضد عدو خارجي ، وحافظت على هذا الاتحاد بعد انتهاء الحرب، لأنها خافت أن تتحول التجزئة إلى مدخل لتدخلات أجنبية أو نقطة ارتكاز لسيطرة خارجية. هذه الولايات عرفت قبل ذلك عدة محاولات من اجل توحيدها ولكنها فشلت كلها. وقد رأى كثيرمن المراقبين والمؤرخين أن الأحقاد والخصومات القائمة بين هذه الولايات تحول دون اتحادها وقد كتب الاقتصادي البريطاني جوزيه توكر، بأن الاميركان لن يتمكنوا من التوصل الى " الاتحاد" بسبب مشاعرهم المتنافرة ومصالحهم المتناقضة. بنجامين فرانكلين نفسه كان شبه يائس من إمكان تحقيق الاتحاد بسبب هذه المشاعر المتخاصمة. ولكن تلك الحرب ولّدت الضغوط والمصالح الجديدة التي تجاوزتها ودفعت الولايات الى اتحاد لم يكن في الحسبان منذ سنوات قليلة سابقة.

الخوف من الفرنسيين والهنود، وخصوصا بين مستوطني الحدود، كان يولد ضغطاً إضافيا على الولايات الأميركية في تحقيق اتحادها والاستمرار به. لهذا يمكن القول أن هذه الولايات سارت الى الاتحاد وتمسكت به كرد على مخاطر خارجية . حرب ١٨١٢ ضد بريطانيا كانت، في الواقع، حربا اعتدائية قامت بها الولايات المتحدة بغية ضم كندا وطرد بريطانيا من القارة، وتوحيد الشعب كله في جهود ومشاعر واحدة من الحقد والاعزاز الذاتي . " الوعي القومي الذي نتج عن الحرب الثانية ضد بريطانيا كان أهم النتائج السياسية وأبعدها أثراً " .

فريدريك تورنر وجد أن الخصائص الأميركية تطورت تحت مؤثرات وضغوط " الحدود " ، وتكلم بخشية عما يمكن أن يحدث لهذه الخصائص عندما تزول هذه الحدود، لأن زوالها يعني زوال العامل الذي كان يحددها. وأقام نظرية عامة حول الهوية الأميركية تتفرع عما يمكن تسميته بديالكتيك الحدود، ولهذا لم يكن غريبا أن يخلص إلى هذه النتيجة . مفهوم تورنرحول دور الحدود يقدم تفسيراً لهذه الهوية في ضوء الوسط الخارجي . " قليلون هم المؤرخون الذين يمكن لهم أن ينكروا بأن ما قدمه تورنر يشكل أهم عنصر في تفسير الهوية الأميركية" .

الشعور القومي كان بين أهم هذه الخصائص التي نتجت عن " تأثير الحدود " روّاد التوسع نحو الغرب كانوا يتطلعون دائماً إلى الحكومة المركزية كي تتبنى الاجراءات التي يحتاجون إليها: التحسينات الداخلية، ادارة القطاع العام، تدعمهم في مجابهة المخاطر الخارجية، وتعطي بشكل خاص للمنطقة التي يستوطنونها وضعاً إقليمياً شرعياً ، ومن ثم تقبلها كولاية.

إن مقارنة عابرة بين شمالي أميركا وجنوبيها لا تكشف فقط - كما أشرنا سابقاً - دور الدولة في خلق الأمم والقوميات، بل دور المخاطر الخارجية أيضاً في خلق هذه الدول . ففي الشمال استطاعت الولايات الأميركية لأسباب عديدة، كانت المخاطر الخارجية من أهمها ، أن تحقق اتحادها وأن تمد حدود

هذا الاتحاد من حدود كندا إلى حدود المكسيك، هذا على الرغم من أن هذه الولايات ضمت خليطاً كبيراً من الشعوب . ولكن أميركا اللاتينية مقسومة إلى أكثرمن عشرين دولة على الرغم من أن شعوبها متجانسة من حيث الأصل والثقافة واللغة والدين أكثر بكثيرمن شعوب الشمال .

السبب الذي يفسر- بين أسباب أخرى- ذلك هو أن تطور أميركا اللاتينية السياسي اختلف عما كان عليه في الشمال ، وخصوصا في كونه لم يجابه المخاطر والضغوط التي واجهها الأخير . البعثرة السياسية التي سادت الجنوب تعود إلى فقدان المخاطر الخارجية التي كان يمكنها توليد الضغوط التي تدفع المناطق المختلفة إلى تجاوز اختلافاتها وتحقيق اتحادها . " إنني أعتقد أن فقدان تجربة استعمارية حديثة، وغياب أعداء أجانب خطيرين على الحدود ، يعملان على إضعاف الاتجاه نحو التوحيد القومي البنّاء في أميركا اللاتينية. مخاطر الغزو الخارجي وذكريات الامبريالية هي أقوى الحوافز في تشجيع مصالح متعددة على التعاون ، وعلى الاندماج السياسي عندما يتحقق حد ثقافي ومادي أدنى للوحدة الداخلية . فقدان هذا الحافز هو الذي يفصل قضية أميركا اللاتينية عن غيرها في أكثر أجزاء العالم " .

لقد اعترف قادة حركة الاستقلال في اميركا اللاتينية بمبدأ " يوتي بوسيديتيس " (Uti Possidetis) الذي يعني أن على الجمهوريات الجديدة أن تحافظ على الحدود التي كانت تفصل بينها طيلة ثلاثة قرون في ظل السيادة الإسبانية . هذا كان يعني طبعاً بعثرة أميركا اللاتينية السياسية تبعاً للوحدات الإدارية التي أقامتها تلك السيادة . فرضت هذه البعثرة ذاتها لأن الضغط الخارجي الذي كانت تحتاجه هذه الوحدات الادارية كي تتحد كان مفقوداً ، فاستقلالها عن إسبانيا لم يكن نتيجة حرب شديدة تستطيع تعبئة المناطق المختلفة وشعوبها في وحدة جديدة.

لقد نالت بلدان أميركا اللاتينية استقلالها عن طريق عمليات عسكرية قادها بشكل منفصل قائدان، هما سيمون دي بوليفار، وجوزه سان مارتين .

لم تشارك الجماهير الشعبية في هذه العمليات العسكرية، ولم تلعب دوراً يذكر في حركة الاستقلال . وقد تم هذا الاستقلال في مختلف المناطق، في ظل أقليات أوليغاركية من أصل إسباني . لذلك يمكن القول أن الشعور القومي كان مفقوداً في حركة الاستقلال في أميركا اللاتينية. الحركة نفسها قادت أميركا الشمالية إلى اتحاد ولايات مستقلة ، ولكنها في أميركا اللاتينية أدت إلى استقلال بلدان كانت متحدة . الاستقلال نزع الشرعية عن الأجهزة الحكومية السابقة، ولكنه لم يؤد إلى تحول ثوري يخلق شرعية جديدة . " التركيب الاجتماعي والروحي الماضي استمر في أشكال جديدة ، كما استمرت أيضاً الهياراركا الاجتماعية وامتيازات الفئات الخاصة... قيم الكنيسة الكاثوليكية والتقليد الإسباني " .

لم تستخدم أميركا اللاتينية، كالولايات المتحدة، حرب التحرير ضد أسبانيا كأداة تؤدي إلى وتعطي الشرعية لتحولات سياسية اجتماعية. اذ بقيت هذه الحرب في إطار النظام الإقطاعي التقليدي، وبالتالي كانت تعزز، عند انتصارها، لأنها كانت تعني غياب طليعة أو طبقة جديدة تتحد عبر الحدود المحلية في قيم جديدة تدعو إلى إصلاحات أو تحولات جذرية . لهذا لم يكن من الغريب أن تتحول المناطق أو

" نيابات الملك " المختلفة إلى دول جديدة . الاستقلال ثبت سيطرة طبقة ملاكي الأرض التقليدية على السلطة ، التي استطاعت آنذاك ، بالتحالف مع العسكريين، أن تسود الوضع وأن تهزم المثقفين والطبقات الوسطى في المدن . سيطرة الإقطاعية الكبيرة كانت تعني أن الامتيازات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي تتمتع بها نسبة قليلة تشكل القضية المهمة للحكم . وكانت هذه الاقطاعية الكبيرة، ذات الجذور العميقة في الماضي الاستعماري، تمثل مقاومة ساكنة للسلطة المركزية.

ان العوامل التي تفسر بلقنة أميركا اللاتينية بشكل عام تفسر بلقنة أميركا الوسطى بشكل خاص على الرغم من صغر حجم بلدانها. غياب الخطر الخارجي كان سبب هذه البلقنة . وصول هذه الأخيرة إلى استقلالها دون حرب مع إسبانيا هو الذي يفسر فشل جمهوريات أميركا الوسطى في تحقيق الاتحاد . فليس بين هذه الجمهوريات من بلد واحد دخل حرباً تحريرية ضد إسبانيا في سبيل الحصول على الاستقلال . يمكن القول ، أن إسبانيا وليس أميركا الوسطى هي التي أنهت، في الواقع، العلاقة الاستعمارية القائمة بينهما ، وأن الكثيرين من سكان الأولى كانوا يأملون لمدة طويلة فيما بعد بأن تُعيد إسبانيا إقامة امبراطوريتها هناك . بعد أن انهارت المحاولة الاتحادية الأولى عام ١٨٣٩ حاولت جمهوريات أميركا الوسطى الاتحاد، وتمت اهم هذه المحاولات عام ١٨٤٢، وكان سببها المباشر وجود خطر خارجي يتمثل في المكسيك وفي الوجود البريطاني . وفي بداية القرن العشرين حدثت محاولة اخرى وكان سببها خطر خارجي جديد يتمثل في الوجود الاميركي .

" لأهم ما كان ولا يزال ينقص بلدان أميركا الوسطى في محاولاتها المتتابعة من اجل تحقيق اتحاد فيما بينها كان فقدان الشعور بالوحدة، وهو نقص يرجع إلى عدم وجود عدو مشترك عندما حققت استقلالها، وبالتالي عدم وجود تلك القوى الموحدة التي ترافق حربا ثورية من هذا النوع. هنا يكمن جوهر المشكلة. فالحكومات كانت فتية وغير ناضجة ... فامتنع لقاؤها في مفاهيم سياسية واحدة متماسكة، وتحولت كل قرية إلى دولة ذات سيادة " .

جيل الاستقلال كان يتشكل من عدد صغير من القادة وجمهور كبير يتمثل في الشعب ، ولكن الشعب لم يكن يشعرحقاً بأي ولاء للنظام الجديد، ولم يكن يوليه مساندته إلا طمعا بمغانم جديدة .

المدن اليونانية القديمة كانت تعيش في تجزئة سياسية هائلة وتخوض حروبا كبيرة ضد بعضها البعض، ولكنها كانت تتحالف في بعض الأحيان، وذلك عند التعرض لغزو أو خطر خارجي. والإلياذة نفسها، وهي أول ملحمة اسطورية عرفتها اليونان تدور حول الصراع ضد طروادة، المدينة الأسيوية التي كانت تهدد وجودها. أول مؤتمر اجتمعت فيه هذه المدن انعقد عام ٤٨١ ق. م. وجمع، على شكل تحالف، قسما كبيراً من البلاد ضد الغزو الفارسي ، كما أنه أقر السلام في الداخل. اما سبب هذا التحالف فكان عسكريا ومن اجل رد خطرخارجي .

أمام الغزو الفارسي في أوائل القرن الخامس ق. م استطاعت المدن اليونانية البحرية أن تتغلب على العدو، لأن الغزو دفعها إلى تشكيل اتحاد " ديلوس " بقيادة أثينا ، الذي استطاع طرد الفرس نهائيا من

البحر (الإيجي). سكان اليونان القديمة كانوا يقدمون ولاءهم وإخلاصهم للمدينة- الدولة، وليس لليونان . ولكن في ذروة الخطر الفارسي عندما غزت جيوش فارس أراضيها وهزمت الاسبارطيين والتيسبيانز، قال الأثينيون لهؤلاء بأنهم لن يتخلوا عنهم بعد هذا (وذلك بسبب أخوتنا المشتركة مع اليونانيين : لغتنا الواحدة، هياكلنا وضحايانا الواحدة... والهوية المشتركة التي نحملها " . لقد ايقظ الخطر الخارجي وللمرة الأولى، شعوراً بوحدة اليونان وشعبها. ولكن المدن اليونانية كانت تعود إلى تجزئتها بعد زوال هذا الخطر المباشر، والتحالفات التي كانت تعقدها كانت مؤقتة ترتبط بوجود العدو على أرضها. لهذا لم تستطع هذه المدن تجاوز تجزئتها .

في حديثه عن الحياة اليونانية القديمة كتب جاك آلول أن تجزئتها المستمرة تعود إلى غياب خطرخارجي يفرض عليها تجاوز التجزئة . " إن كل مدينة كانت تحيا حياة خاصة تمارس سياسة خاصة، وتطور أنظمتها المستقلة. الفكر اليوناني كان يرفض الارتفاع فوق مثال المدينة التي تكتفي بذاتها على الرغم من شعورقوي بوحدة العالم اليوناني الثقافية . الغريب عن هذا العالم هو البربري الذي لا يُعترف له بأي حق وأية قيمة . هذه المدن ، في الأرض اليونانية ذاتها على الأقل، لم تكن على صلة بأي خطر خارجي يُرغمها على الاتحاد " .

هذه الظاهرة السياسية التي كشفت عنها المدن اليونانية القديمة تطالعنا في حياة المدن الإيطالية أثناء القرون الوسطى . فهذه المدن كانت تتحد بسبب خطرخارجي هو الخطر الالماني، ولكن عندما كان هذا الخطر يزول كان اتحادها يتفكك وتعود إلى سابق عهدها من التجزئة. " مبدأ الاتحاد رُفض في إيطاليا بعد أن أدى دوره في تحقيق القصد الخاص الذي أنيط به، وهوتنظيم المقاومة ضد امبراطورية الهوهينستافن . السبب المباشر في تبني هذا الشكل الاتحادي كان محاولة فريدريك بارباروسا استعادة السلطة الأمبراطورية في لومباردي ... وقد ادت هذه المحاولة إلى بروزجامعات دولية عديدة ، توجت في جامعة لومباردي عام ١١٦٧" .

سقوط الهوهينسآفن والتنازل عن المطامع السابقة في إيطاليا وضعا نهاية لخطر السيطرة " التويوتونية " فانتهى بذلك الاتحاد وما كان يترتب عليه من سلام بين المدن الإيطالية التي أخذت أنذاك توجه نشاطها نحوتوسيع حدودها على حساب بعضها البعض . زوال الخطر دفع بكلمة أخرى إلى التجزئة والاقتتال .

عندما نتطلع إلى المانيا نرى أن " حركة التحرر في المدن الالمانية لم تكن قوية كما كانت في المدن الإيطالية، وذلك لسبب خاص وهوأنها لم تكن موجهة ضد أجانب " . كانت هذه المدن كالمدن الإيطالية، تدخل في اتحادات معينة لدرء خطر الأمراء والملوك عنها.

هذه الأشكال من الاتحادات الكونفيدرالية والفيدرالية كانت تشكل تباعاً وتكراراً كرد على تحديات أومخاطرخارجية.

قليلة هي البلدان التي تتجانس كما تتجانس البلدان الاسكندينافية من حيث الثقافة والتقاليد واللغة والأصل الأثني والتركيب السياسي والاجتماعي والدين . ولكن هذه البلدان المتجاورة غيرمتحدة ولا تشعر بضرورة الاتحاد، وذلك لأنه ليس هناك من خطر يتهددها . وكانت قد شعرت بضرورة الاتحاد فقط عندما واجهت ضغوط ومخاطر المانيا النازية ، ولكن خلق اتحاد من هذا النوع في الوقت القصير الذي واجهت فيه هذه الأزمة لم يكن عمليا وممكنا .

وتشيرتجربة الصين الوحدوية الى القانون نفسه. دولة " الشين " التي لعبت دور أول وحدة صينية في التاريخ، كانت دولة على الحدود، في مجابهة مستمرة مع (البرابرة) الذين كانوا يهددون الصين باستمرار. هذه الدولة استطاعت الاستمرار لأنها خلقت إدارة فعالة وسياسة ديناميكية أعطتها تفوقا هائلا على سكان الصين الآخرين . هذا الوضع ، بالإضافة إلى عدد سكانها الذي كان كبيراً بالنسبة للدول الصينية الأخرى، وفر لها الدوافع والقدرة على توحيد الصين.

الحركة القومية الصينية الحديثة ظهرت إلى الوجود أثناء حرب الأفيون (١٨٣٩- ١٨٤٠) التي حركت الصين ضد الغرب، وأثارت بشكل خاص عداءها ضد بريطانيا ، المسؤولة الأولى عن تلك الحرب. واتخذت هذه الحركة شكلاً حاسما في نهاية القرن الماضي إثرهزيمة الصين (١٨٩٥) على يد اليابان . أمام هذه المخاطر المتلاحقة التي كانت تجابه الصين باعتداءات الدول الكبرى عليها، كانت الحركة القومية الثورية تزداد شدة إلى أن تم لها تحرير الصين وتحقيق وحدتها في ظل النظام الشيوعي .

نجاح استراتيجيا الحرب الشعبية كان يعود أولا إلى الحرب ضد اليابان والاحتلال الياباني . هذه الحرب التحريرية هي التي خلقت الوضعية الملائمة لنجاح الماوية لأنها قامت بدور المذيب الذي بدد جميع مقومات سلطة الدولة ومزق العلاقات الاجتماعية العضوية التقليدية، مما خلق ظاهرة التذرر الاجتماعي الذي جعل من الممكن تعبئة الجماهير في أشكال جديدة . بالإضافة إلى ذلك، استطاع الاحتلال الياباني الممكن للحركة الشيوعية ليس فقط إضافة الصيغة القومية إلى برنامجها، بل أن تجعل من نفسها التعبير الأصيل عن هذه الصيغة، وتطرح نفسها كأداة التحرير القومي .

بعد أن يصف ماوتسي تونغ النفسية المحلية السائدة في الصين، وكيف أن الاجتماعات الحزبية في القرى كانت غالبا اجتماعات عشائرية من أعضاء يحملون اسما عائليا واحداً ، كيف أن هذه الروح المحلية الضيقة كانت تسود الناس إلى درجة خطيرة ؟ في الاقاليم والأقضية المختلفة فتفصل بينها . وكيف ان هؤلاء كانوا لا يفهمون في الغالب دعوة الحزب إلى تجاهل هذه الارتباطات والانتماءات المحلية ، نراه يخلص إلى القول بأن أثر التفكير المنطقي في إزالة هذه النفسية لا يقود، في أحسن حالاته، إلا إلى نتائج محدودة ، وأن المعالجة الفعالة لها كانت تحتاج إلى " اضطهاد أبيض " لا يقتصر أبدأ على حدود محلية .

الخطر الخارجي الذي كان يهدد اليابان في أواسط القرن الماضي لم يؤد فقط إلى إسقاط نظام " التوكوغاوا " والطبقة الحاكمة السابقة ، بل إلى تفكيك النظام الإقطاعي نفسه ، وإنشاء نظام سياسي ذي وحدة جديدة . بين أهم الخطوات التي أدت إلى خلق دولة مركزية في اليابان ، كجزء من ردها على

الاعتداء الأميركي والخطر الذي يمثله، تجدر الإشارة إلى الخطوة الكبيرة التي اتخذتها الأقاليم الإقطاعية الغربية الأربعة عندما قدمت نفسها " طوعاً واختياراً " للعرش، وهي تعلن ضرورة وجود حكم مركزي قوي وسلطة شاملة تميزه في الرد على الإعتداء الغربي.

في أوستراليا ، اخذت حركة الاتحاد المتأخرة خطوات متسارعة تحت وطأة المخاطر التي كانت تنذر بها السياسة الاستعمارية في الباسيفيك. " معجزة " اليابان الحديثة كما اتضحت في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن، كانت أيضا عنصراً مباشراً في هذا التعجيل لأنها كانت تشكل خطراً جديداً . الخوف من التوسع الالماني في المحيط الباسفيكي كان أيضاً محرضاً آخر حث على الاتحاد في اوستراليا.

لقد ساد الاستعمار الغربي آسيا لأن بلدانها كانت تفتقد أي شعور بوحدتها، أي حس قومي جماعي بارز. لقد اتاح فقدان هذا الشعور لبريطانيا مثلا بأن تغزو الهند وتسود البنغال بقوة لا تتجاوز الألف رجل، في وقت كانت فيه البنغال تُعتبر - على الورق- من أقوى الدول المعاصرة وأغناها، وذات إمكانات مالية وعسكرية تضاهي إمكانات أقوى الدول الغربية آنذاك . المؤرخون والخبراء البريطانيون اعترفوا باستمرار أن بريطانيا استطاعت أن تسود الهند بسبب نقص في الشعور القومي بين أبنائها، وهو نقص سهل عليها اعتماد الهنود أنفسهم في محاربة استقلال الهند، كما أنهم اعترفوا أن هذه السيادة ستلقى نهايتها حتما عندما يستيقظ هذا الشعور.

فكرة الهند كدولة قومية تعبر عن القومية الهندية استمدت قوتها ووعيها لذاتها إلى حد كبير من النضال ضد السيادة البريطانية. قبل هذه السيادة لم تكن الهند أبداً موحدة بشكل تام . الاحتلال الانكليزي أخضعها كلها لادارة واحدة بعد تدمير الامبراطورية المغولية . كانت البلاد مجزأة إلى دول عديدة، والامبراطورية المغولية، اقوى هذه الدول كانت في حالة انحلال.

لقد كان الاحتلال الانكليزي للهند من قبل " شركة الهند الشرقية " اولا ، وفيما بعد من قبل الحكومة الانكليزية، كان ممكنا لأن " الهند " لم تكن موجودة عند حدوث ذلك، فقد كانت تجمعا جغرافيا من دول كبيرة وصغيرة، سلطنات، ممالك ، إمارات وحتى مناطق قبلية . وحدة الهند الإدارية وحتى اللغة التي أصبحت اللغة العامة (الانكليزية) فيما بعد كانتا نتيجة هذا الاحتلال. وعي الهند لذاتها، لهويتها القومية الواحدة كان نتيجة صراعها لأجل التحرر من هذا الاحتلال. لقد خلق الاحتلال نقيضه، أي المشاعر التي اتحدت قوميا في مجابهة عدو واحدمشترك. ومع هذا التطور صار من المستحيل على مجموعة محدودة من البريطانيين، مهما كان هؤلاء مستعدين للتضحيه وقادرين على التنظيم والنظام، أن تؤمن استمرار السيادة البريطانية في بلد لا يقل عدد سكانه عن ٦٠٠ مليون من الناس الذين التقوا في وحدة النضال لأجل الاستقلال . لقد خلق الاستعمار وعزز وحدة وإرادة ضحاياه وخصوصاً عندما تبرز تباشير ضعفه أو إمكانية وضع نهاية له . إنه بكلمة أخرى كان يخلق نقيضه .

الشعوب الأسيوية والإفريقية المختلفة حققت وعيها لذاتها كهويات قومية تتميز بقدر مستقل ومصالح مشتركة منفصلة نتيجة مواجهة حادة بينها وبين شعوب أخرى كانت تمثل الاستعمار الحديث،

تستغلها، تمتهن كرامتها، وتهدد وجودها . لقد د.فع الاستعمار بهذه الشعوب إلى تجاوز ولاءاتها المحلية من اجل الارتباط بهويات قومية عامة ، أخذت تعانيها وتعيها بسبب تناقضها الأساسي مع الاستعمار.

كما ساعد هذا الاستعمار من زاوية أخرى أيضاً ، على دفع الشعوب التي تعرضت له إلى تجاوز ولاءاتها المحلية، وتغذية هويتها القومية، لأنه مزق العلاقات والإطارات التقليدية التي كانت تضبط سلوك الفرد، ليس فقط نتيجة وجوده ومصالحه المباشرة ، بل نتيجة وسائل المواصلات الحديثة التي حملها معه. هذه الوسائل لم تسهل فقط عمل وسياسة الاستعمار، بل قربت أيضاً بين أجزاء البلد المستعمر، ووفرت لشعبه الاحتكاك والاتصال المباشر ووضعته وجها لوجه وككل ليس فقط مع المستعمر بل مع المعرفة العلمية والأفكار الحديثة التي تقترن بها وتترتب عليها.

وجود الاستعمار كان يعني أيضاً انتشار الأفكار والمفاهيم السياسية الحديثة ، وهو انتشار لم يكن متوقعا أو مرغوبا به من قبل الاستعمار الغربي . وكان المفهوم الشائع مع بداية الاستعمار، أن شعوب وحضارات افريقيا وآسيا لن تتمثل لتلك الأفكار والمفاهيم ، وستستمر في ممارسة طرقها السياسية التقليدية. ولكن كان يستحيل، كما تبين فيما بعد ، الحد من انتشار وأثر هذه الأفكار الحديثة. الطرقات، والخطوط الحديدية، وشبكات البرق والبريد ، والصحف، والمذياع، والكتب، والمنشورات المختلفة ، والمدارس الخ ... التي كان القصد منها خدمة المشروع الاستعماري كانت في الوقت نفسه تعمل على خلق نقيضه، أي الإنسان المقاوم له. هذه النتائج المباشرة وغير المباشرة، التي ترتبت على وجود الاستعمار قضت على العزلة التي كانت تفصل بين الناس، وخلقت في كل بلد خضع له وعيا عاما مشتركا وشعوراً قومياً واحداً أديا بدورهما إلى إفراز العمل السياسي الذي وضع نهاية له .

المرحلة الأولى في ظهور الهوية القومية في آسيا وافريقيا كانت إذن مرحلة سلبية ، تتمثل في مقاومة مشتركة. " ففي مواجهة الآخر المشترك - الرجل الأبيض- ظهر الرجل الأسود الافريقي " . حدد سيتهوله ، القائد الإفريقي في " زيمبوابي " الشعور القومي الافريقي كشعور سياسي يعبر عن ذاته أساسيا ضد السيادة الأوروبية وسعيا وراء السيادة الافريقية ، هذا الشعور بالوحدة التي يوحي بها النضال ضد سيادة أجنبية كان جزءاً ملازما للقومية في كل مكان . حركات التحرر في بلدان العالم الثالث كانت، كسابقاتها في أوروبا ، حركات شعوب ترمي إلى التحرر من السيادة الأجنبية، وتريد قبل كل شيء حق تقرير المصير، حق حكم ذاتها بذاتها، حق الوجود كأمم ودول مستقلة.

يوليوس نياريري أشار أيضاً الى إن الإفريقيين اكتشفوا هويتهم الإفريقية الواحدة ووحدة مصيرهم بسبب عدو خارجي واحد ، بسبب عذاب واحد دمج مشاعرهم أمام هذا العدو . فقد كتب، " الإفريقيون، عبر القارة كلها، ودون كلمة يتفوه بها فرد مع آخر، دون كلمة من بلد إفريقي لبلد آخر، نظروا إلى الأوروبي ، وإلى بعضهم البعض ، فأدركوا من علاقتهم بهذا الأوروبي أنهم واحد " . لقد ايقظ القهر الأجنبي الشعور القومي بدلاً من إضعافه. الدول الإفريقية لا تتميز عادة بأية " قومية موضوعية "

مهما كان القياس الذي نستخدمه في تحديد القومية. القياس الوحيد كان الشعور الواحد الذي تبلور ضد وجود الأجنبي في مناطق إدارية كانت قد امتدت إليها سيادته.

لهذا يمكن القول أن اليقظة القومية في آسيا وافريقيا لا تعود أولا إلى وحدة لغوية وثقافية ، بل إلى شيء آخر هو في الواقع العدو الخارجي ، وإلى النضال ضد سيادته . القومية في هذه البلدان (تشارك ، كما يبدو، القومية في أوروبا، في كونها تعبر عن رغبة في الخلاص من حكام أجانب، وفي إقامة حكومات خاصه بها) . لقد استخدمت حركات التحرير بنجاح جزئي على الأقل توزيع الأرض على الفلاحين، ولكن النداء الذي كان له الأثر الأول والنجاح الأكبر في تحفيز الجماهير وتعبئتها الثورية كان الدعوة إلى الدفاع عن الوطن ضد الغزاة الأجانب وعملائهم في الداخل . مهما كان نوع الكفاح المسلح الذي ندرسه ، فإننا نستطيع القول أن القاسم المشترك هو الشعور القومي . في كل مكان كانت تعبئة الجماهيرتتم ضد المعتدي الأجنبي، لأن القوى الثورية كانت تمثل في نظر الثوريين القيم القومية الأصيلة ضد عدو أجنبي أوضد نظام فاسد يرتبط به . طور الاستقلال في بلدان افريقيا وآسيا يدل، في الواقع، أن إحدى المشاكل الأولى هي في كيفية الحفاظ على الوحدة السياسية التي كانت سائدة في مرحلة النضال ضد الاستعمار . فالحركات القومية الاستقلالية كانت تتفكك بعد نيل الاستقلال لأن زوال الخطر أو العدو الخارجي كان يُزيل معه الضغوط التي كانت توحد هذه الحركات في أرضية واحدة . كشف علماء الانثروبولرجيا في دراساتهم للمجتمعات البدائية عن هذا القانون الوحدوي . فقد تبينوا أن وحدة هذه المجتمعات تستمد جذورها من وجودها قرب جماعات أخرى تختلف عنها . " يظهر أن تنافس الجماعات المختلفة في العصر الحجري... كان العنصر العام الذى قاد إلى تطور جامعات الدمج القبلية... وأن مشاكل السياسة الخارجية هي التي كانت تدعو إلى هذا الدمج القبلي .. فمتطلبات الدفاع والهجوم كانت، كما يبدو ، العناصر المختارة التي دلّت على أهمية التحالف والوحدة " . وكان داروين قد أشار إلى ان النزاع لأجل البقاء بين قبيلة وأخرى يعتمد على التقدم الأخلاقي الذي يتحقق لهما ، أي على درجة الوحدة التي تتحقق لهما. كتب في " أصل الإنسان " بأن القبيلة التي تتفوق في الوطنية والولاء والطاعة والتعاون والاستعداد للتضحية في سبيل الخير العام تنتصر دون شك ضد القبيلة التي لا تتميز بهذه الخصائص.



نستنتج مما تقدم بأن عملية التوحيد السياسي تقترن عادة بوجود مخاطر خارجية وتتحقق عن طريق تنظيم المقاومة ضد عدو أوخطر خارجي . " كانت الهوية القومية ترتبط عادة بعدو، بقرار حاسم يتخذه الشعب في مواجهة عدو خارجي . إنه قرار يغير ويحدد قدر ومستقبل الشعب الذي يتخذه " .

كما أن الصراعات التاريخية بين الجماعات الانسانية المختلفة ، كانت سببا رئيسياً في بناء الوحدات السياسية الجديدة . عندما نصف الكيفية التي كانت تؤكد فيها الخصومات والصراعات الدولية المشاعر القومية، فإننا نصف في الوقت نفسه ظهور وانتشار وجذور القومية نفسها . " الخوف من غزو أو الأمل في فتح كان يؤمن الولاء لوحدة أكبر .. إن اسلوب المعارضة، المنافسة أو الصراع ضد جماعة في الخارج

- استخدم في دمج وتقوية كل وحدة جماعية ، كما كالعشائر، والقبائل ، والمدينة- الدولة، والأمة- الدولة، والاتحادات. حتى الكنائس وحدت المؤمنين في قضية مشتركة ضد الكفر والإلحاد والخطيئة... الجماعات الانسانية التي يزيد حجمها عن حجم الجماعة الأولية (primary) نُظمت عادة عن طريق الفتوحات .. ودُمجت داخليا عن طريق الخوف من غزوخارجي " . الوجه الآخر لهذا الشعور بالوحدة أمام المخاطر والتحديات الخارجية يتمثل في الشعور بالعزلة الذي يتعرض له الفرد عندما يكون بعيداً عن الجماعة التي ينتمي إليها .

هناك واقعة واضحة وهي أن الجماعات التي عانت المهانة والاضطهاد بسبب سيادة أجنبية، كانت تتحول بشدة إلى القومية . الدليل على ذلك واضح وكثيف. شعوب القوميات المقهورة والمظلومة- الارلندية، البولندية، الصربية، التشيكية، الخ... كانت في أوروبا تعبر باستمرار عن مشاعر قومية تزداد قوة وجذوراً مع كفاحها لأجل حريتها واستقلالها . الشعوب المهزومة في حرب: الفرنسيون بعد ١٨٧٠، الالمان بعد ١٩١٨، الروس بعد ١٩٤٠، الخ .. كانت تُصبح أكثرتعلقا بقوميتها.

لقد نما الشعور القومي الحديث في أوروبا الغربية بشكل خاص أثناء حروب ١٧٩٢ — ١٨١٥ . انتشر وساد فرنسا بدءا من عام ١٧٩٢، عندما أصبحت الوطنية مرادفاً لدعم الثورة ضد الأعداء الذين يهاجمونها من الداخل والخارج . وبلغ هذا الشعور درجة قوية في انكلترا، المانيا وإسبانيا وامتد وإن بشكل أخف إلى إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية، بسبب الخوف من والحقد على فرنسا، وخصوصاً فرنسا " النابليويية ". المشاعر القومية القوية نمت في أوروبا كرد على فرنسا وفتوحاتها . لقد اكتشف نابليون، ولكن بعد فوات الأوان، في بروسيا، روسيا، إسبانيا، أن تدمير أمة بغية إرغامها على الاستسلام والخضوع يخلق، في الواقع، استراتيجيا قومية مضادة .

الاحتكاك بأفكار الثورة الفرنسية أيقظ الفكر السياسي في القارة الأوروبية ، والشعور القومي الجديد الذي أثارته الثورة الفرنسية في الخارج ارتد ضد فرنسا . من الممكن القول، أن المطالبة بحق تقرير المصيركانت تبدأ عادة كحركة دفاعية . " ليس التعاطف مع الآخرين، بل العداء ضد شعب خارجي، هو الذي يصنع الشعور القومي " .

هذه العلاقة الوثيقة، بين تطور الدولة والقومية الحديثة وبين المخاطر الخارجية ، دعت البعض إلى الكتابة أنه " بصرف النظرعن طبيعة الخطر، سواء كان عسكرياً ، دينيا، أو اقتصاديا، فإنه من الواضح أن الضغوط الخارجية وليس التحولات الداخلية في التركيب السياسي ، الاجتماعي، أو الاقتصادي، هي التي كانت حاسمة في تطور الدول، ومنها تطور فكرة الدولة الحديثة " . لا شك أن هناك مبالغة في قول كهذا ، ولكنه يدل بوضوح على أهمية هذه العلاقة الأساسية.

وقد دعت هذه العلاقة الكثيرين إلى الاشارة إلى أهمية الحروب التاريخية في تطور الدولة التاريخي. المؤرخ الفرنسي ، فرانسوا جيزو، لم يكن بعيداً عن الحقيقة عندما خلص الى أن الوعي بالوحدة القومية كان نتيجة العداء والحرب . " الاستعداد للحرب، كان يمثل النشاط الكبير وراء بناء الدول " . وقد يكون

ترايتشكيه مبالغا في قوله " بأن الحرب هي التي تحول شعبا إلى أمة "، ولكن أن تكون الحرب أداة ساعدت في خلق وترسيخ الوعي أو الشعور القومي، فأمر واضح لمن درس التاريخ. ولكن مرة أخرى يجب التنبيه إلى أن الحرب تشكل عنصراً واحداً فقط ولا يصح توكيده بشكل تام على حساب العناصر الأخرى.

الوطنية في الشكل الذي عرفناها به طيلة قرنين تقريبا لا تنفصل عن الحرب أو الثورة " ... القوى التي دمرت أو أضعفت أقدم العلاقات التي تدور على الجنس، والدين، والنسب (Kinship) ، والوحدات المحلية كولاءات فعّالة، أدت إلى خلق شعور بـ " فرنسا الجميلة " ، الوطن فوق الجميع، جون بول، العم سام، وما شابه. النقطة العليا في نمو الوطنية القومية الحديثة تحققت ولا شك في الغرب أثناء الحرب العالمية الأولى " . برزت الأمم كلها عن طريق الحروب والصراعات المختلفة .

وقد ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك، وأشاروا إلى أن الحضارة نفسها كانت ذات علاقة وثيقة بالحرب. إن كوينسى رايت، مثلا، يكتب في دراسته التاريخية القيمة عن الحرب بأن " الحضارة كانت نتيجة وسبب الروح الحربية، وأن عادة الحرب خلقت أساساً لمجتمعات كبيرة "، ولكنه يضيف "هذا لا يعني أن الحرب كانت تقدمية في الأطوار اللاحقة " .

هنا نجد الصعوبة الأولى والكبرى في إقامة حكومة عالمية. واذا اعتمدنا تجارب التاريخ الوحدوية والقوانين العامة التي تسودها، وهي التجارب التي يجب أن نرجع إليها في أي تقييم علمي صحيح لأحتمال إقامة حكومة كهذه، يتبين لنا بوضوح أن تحقيق هذه الفكرة مستحيل حالياً لأن الإنسانية لا تواجه ككل عدواً خارجياً يدفعها الى هذه الوحدة ثم ان هذه الحكومة لا تجد، من ناحية أخرى، قاعدة عالمية ترتبط بها، وهذا يكشف بوضوح أكبر عن استحالتها.

لهذا كان الانتقال- في المدى القريب على الأقل- من مجتمعات أو دول قومية مستقلة إلى مجتمع عالمي واحد، أصعب بكثير مما يظن البعض، لأنها خطوة تختلف نوعاً وليس كماً فقط عن التجارب السابقة. فهي، في الواقع، تختلف عنها إلى درجة تجعل ، مع الأسف، من الصعب علينا الاطمئنان إلى إمكان تحقيقها في مجرى التاريخ كما نعرفه ، إن ضرورة يائسة فقط تحقق ذلك، وهي ضرورة قد تفرض ذاتها، في الواقع، بشكل جديد عن طريق التحديات الكبيرة التي تواجه الإنسانية بمخاطر فناء هائلة تتمثل في تلوث المحيط ، جواً وبراً وبحراً ، في خطر الحروب الذرية، وفي تفجر عدد السكان . تجارب التاريخ تدل، من ناحية أخرى، أنه كلما قل تماسك مجتمع ما بقوى ذاتية موحدة ، كلما ازدادت حاجته إلى القوة في تحقيق وحدته. لذلك كانت الحكومة العالمية تحتاج ، اذا كان تحقيقها ممكناً ، إلى القوة وبدرجة أكبر مما يتناسب مع ضرورات العدالة، و بشكل يهدد بقاء الإنسانية ذاته . هذا لا يعني طبعا انه لا يجب العمل في سبيلها، بل أن نعي الأوضاع التي تحيط بها كي يستدل العمل بذلك على طريقه، فيتجه بوحي التاريخ، وليس بالرجوع إلى مجردات صرفة.

لا تستطيع فكرة حكومة عالمية تشمل الإنسانية كلها ان تفرض نفسها بسبب حاجات اقتصادية ورغبات سياسية، بل عندما تبرز حالة تجعل أمن هذه الإنسانية ككل في خطر . إن ضرورة الدفاع ضد

خطرمن هذا النوع هو الذي يمكن أن يجعل فكرة تنظيم عالمي فكرة واقعية . اتجاه العالم نحو وحدات أكبر بدلا من وحدات اصغر قد ينتصر في النهاية، ولكن من المتناقضات أن البلدان الصغيرة تستمر وتزداد عدداً ، وأن الاتحادات السياسية التي تشكل تنهار، هذا رغم الروابط الحديثة المتزايدة التي تشد أجزاء العالم إلى بعضها، والتي تسود المواصلات والإنتاج والتجارة. " ان تفسير ذلك هو ، كما يبدو، غياب ضغط... يتغلب على النفور الطبيعي من الخضوع لحكومة مركزية " . فشعوب العالم تريد، كما يبدو، السلام وتجنب الحروب. ولكن بما أن ليس هناك، كما لاحظ أحد المفكرين، من كوكب آخر ينافس الأرض ويهددها، فإن سكان الأرض يفتقدون العنصر الأساسي الذي يمكن أن يدفع بهم إلى الاتحاد.

كتب أرنولد توينبي أنه أصبح من الممكن الآن التطلع إلى وقت يبرز فيه تصور جديد للماضي ، لا ينظر اليه من زاوية هذه أوتلك القومية، تلك الحضارة أو هذا الدين، بل من زاوية إنسانية واحدة موحدة. اذا استطاعت الانسانية أن ترد بنجاح على تحدي المحنة التي تواجهها الآن فتنجومن خطر الإبادة الجماعية الذي خلقته لنفسها، فإن ذلك يكون نتيجة أو مكافأة جهد مشترك تتجاوز فيه جميع الانقسامات التقليدية ، فتعيش كعائلة واحدة لأول مرة منذ ظهور الإنسان على هذه الأرض .

ولكن عند مراجعة التاريخ نرى أن هذا النوع من النتائج التي يتطلع إليها توينبي- والانسانية من ناحية عامة- أي دمج كيانات سياسية مستقلة في كيان واحد كانت تتحقق عادة نتيجة حروب وكرد على مخاطر خارجية . التحدي الكبير الذي يواجه الانسانية اليوم هو بالضبط كيف يمكنها تحقيق وحدتها دون عدوخارجي مشترك يهددها كلها، فيفرض بوجوده هذه الوحدة ؟... لا شك ان حاجتها إلى هذه الوحدة كبيرة جداً، ولكن الحاجة التي كانت تدعو تاريخيا إلى الاتحاد، وتحققه كانت الحاجة التي تنتج عن وجود عدو أو خطر خارجي . المنافع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية كانت عاجزة في ذاتها عن الدفع الى تشكيل الاتحادات السياسية الكبيرة . " الدويلات- المزارع " العديدة التي تبعثر إمكانات افريقيا ، أميركا اللاتينية، آسيا، الشرق العربي، وحتى أوروبا، رغم الحاجة إلى اتحادات أكبر بكثير ، تقف شاهداً على ذلك .

كما يكشف تاريخ الأديان عن الظاهرة نفسها. فهنا نجد أيضاً أن الضغوط والصراعات الخارجية تولد وحدة الحركات الدينية، وغيابها أوضعفها يؤدي إلى استرخائها أو تعرضها للانشقاقات الداخلية. فالجماعات المختلفة التي تتشكل منها حركة ما تنجح في تحقيق الوحدة عندما تُهدد بخطر واحد اوعندما تجابه قصداً واحداً مركزاً، وبعد زوال الخطر أو تحقيق القصد، ينفرط عقدها فتعود إلى ما كانت عليه من انقسامات. إن لوثر، مثلاً ، وحّد في حركة واحدة لمدة قصيرة اتجاهات مختلفة كانت تلتقي في عدائها للكنيسة الكاثوليكية فقط أو النظام الذي كانت تدعمه . فبالاضافة إلى الذين كان يهمهم تجديد النظرة أو الحياة الدينية ، نجد ذوي النزعة الإنسانية، القوميين الالمان، الفلاحين ، الخ ... كل فريق بسبب غايات خاصة، ولكن في عداء واحد وحدهم ضد عدو واحد . ولكن نجاح الحركة وتحقق المقاصد الخاصة أديا إلى نهاية هذه الوحدة الأولى . التعايش بين البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية قضى تماماً على درجة الوحدة

التي حققتها الأولى . لهذا أشار كثيرون بأن البروتستانتية خسرت حيويتها أو وحدتها الداخلية إلى درجة أصبحت تعيد في داخلها صراعها مع العدو، وذلك بالانقسام إلى اتجاه تقليدي واتجاه ليبرالي . من ناحية أخرى ، إن شعور الكنيسة الكاثوليكية بوحدتها كان دون شك يترسخ عن طريق حركات الهرطقة ضدها . معارضتها اللدودة للهرطقة كانت تسمح للعناصر المختلفة فيها بأن تذكر وحدتها وتوجه نفسها في اتجاه واحد رغم بعض المصالح المختلفة .

في البلدان البروتستانتية ، " نرى أنه بقدر ما يزداد الهجوم على الكنيسة السائدة من قبل فرق دينية منشقة ، بقدر ما يتزايد الحماس الاخلاقي . هكذا يتضح ان الاعتقاد يعتمد على صراع المعتقدات ، التي ينظر كل منها إلى ذاته كجيش الحقيقة في حرب ضد جيوش الشر " . أشار لي بلاي (Le Play) الى هذه الناحية عندما قارن في أوائل القرن التاسع عشر بين وحدة وتماسك المعتقدات الدينية التي لقيها في بلدان متعددة المعتقدات ، وبين نفسية الركود التي تسود البلدان التي تخضع لمعتقد واحد . وقد جعلت ظواهر من هذا النوع زيميل يخلص إلى القول في دراسة قيّمة " بأن انتصار جماعة ما انتصاراً تاماً على أعدائها لا يشكل دائماً خيراً من ناحية سوسيولوجية . فالنصر يضعف الطاقة التي تضمن وحدة الجماعة ، فتسود قوى التفكك التي تتابع عملها .. بالنسبة لبعض الجماعات . قد يكون من الحكمة السياسية خلق بعض الأعداء كي يمكن لوحدة أفرادها أن تكون فعالة ، وكي تبقى واعية لمصلحتها الحيوية في هذه الوحدة " .

هكذا يتضح أن السوق المشتركة والخطوات الأولى في بروز تحالف بين أعضائها كانت نتيجة تعاون أو تحالف عسكري . فخوف هذه الدول من العالم الشيوعي هو الذي قادها إلى التنازل عن جزء من سيادتها . " ولكن هذه الخطوات توقفت ولم تؤد إلى كونفدراسيون أو اتحاد سياسي لأن هذا الخطر انحسر أخيراً " . لقد نجحت السوق المشتركة ، غير ان الدمج السياسي الذي كان من المفترض به أن يرافقها أو ينتج عنها ، لم يحدث . ففي جو الانفراج الذي ساد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، " خسر الرأي العام اهتمامه بالمقاصد الفيدرالية وأخذ ينظر الى سلطات " الكومينوتيه " في بروكسل كبيروقراطية أخرى دون هوية " . لقد ارادت الأمم الاوروبية، من محاولة الاتحاد الاوروبي، إنشاء كتلة واحدة من كياناتها المختلفة كرد على هيمنة وتفوق الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . ولكنها كانت محاولة فاشلة لأنه لم تتوفر لها ضغوط الخطر الخارجي المباشر الكبير.

هنا تجدر الإشارة أيضاً إلى أن حركات المقاومة الأوروبية ضد الاحتلال النازي لم تكن تقاتل بغية الرجوع إلى الوضع السابق، بل بالانطلاق من وعي أوروبي جديد في سبيل أوروبا جديدة تتمثل في اتحاد ديمقراطي يضم جميع أممها. ولكن بعد زوال الخطر النازي وانتهاء الاحتلال، ضاع هذا الاتجاه الاتحادي. هنا نجد وجه شبه بين هذه الحركات وبين حركات الاستقلال في إفريقيا وآسيا. ونلاحظ ايضاً انه مع زوال الاستعمار، زالت درجة من الاتحاد كانت تسودها أو مقاصد التوحيد السياسي التي كانت تحرك الكثير منها.

ودفع ظهور السوق الأوروبية المشتركة إلى سوق شيوعية مماثلة كرد عليها . فالحذر من نتائجها السيئة على تجارة أوروبا الشرقية مع أوروبا الغربية، كان عاملاً أساسياً في خلق " الكوميون " أو السوق المشتركة في أوروبا الشرقية.

الطبقات الاجتماعية ظاهرة موضوعية وحقيقية، في كثير من الأوضاع تكون المصالح والتجارب الطبقية الخاصة واضحة إلى درجة يمكن على أساسها للأعضاء التفاعل والتعاون كوحدة ، أو الشعور بأنهم يشكلون كلا اجتماعيا خاصا يميزهم عن الآخرين . ولكن كي يمكن لهذه المصالح والتجارب أن تكون بارزة فإنها تحتاج عادة إلى تناقض أوصراع صريح مع مصالح وتجارب جماعات أو طبقات أخرى . إنها، في الواقع، تزداد وضوحاً وقدرة على توحيد أعضائها في وحدة مميزة كلما ازدادت حدة التناقض أو الصراع مع هذه الأخيرة . فالمصالح والتجارب الخاصة لا تكفي في ذاتها. فمن اجل ان تتمكن جماعة من الناس من البروز وتوكيد هويتها الطبقية، فانها تحتاج إلى الصراع ضد طبقات أخرى . فهذا الصراع الذي يفرز الضغوط والتحديات الخارجية، هو الذي يخلق الوضع النفسي الضروري لتكوين وعيها الطبقي .

بعد ان يصف الصعوبات والمخاطر التي واجهت ظهور البورجوازية المدينية في القرون الوسطى يكتب المؤرخ هربرت ميللر، بأن " تجار أوروبا استثمروا تماما الفرص المتوفرة لهم ... ومنها الشدائد التي اعترضتهم .. فالصعوبات والمخاطر التي أحاطت بهم فرضت عليهم التعاون، فاتحدوا معا في وقت مبكرلحماية أنفسهم وشكلوا سريعا شركات تجارية ، ومارسوا تقليد التنظيم المتحد " .

ان الطبقة الرأسمالية لا تستطيع أن تكون على ما هي عليه لولا استثمارها البروليتاريا، لذلك فهي تدرك جوهرها كنتيجة لخوفها من ثورة الاخيرة. انها تجد ذاتها وهويتها في النقض الذي تمثله البروليتاريا لوجودها. وبما أن هذه الأخيرة هي ما هي عليه أيضاً بسبب النظام الرأسمالي الذي يستثمرها، فإنها تجد ذاتها في حقدها وتمردها على هذا النظام . الطبقة تتبعثر ويضيع محورها كطبقة ذات هوية خاصة دون هذا الصراع . " عندما يزول هذا الصراع تزول هذه الوحدة وتحل محلها " ، كما يكتب المفكر الماركسى فوجيرولاس، " المنافسة الداخلية بين قطاعات وأفراد الطبقة، فينحسر الوعي الطبقي ويصبح في حالة تمزق وبعثرة " . في " الثامن عشرمن بروميير " كتب ماركس " الأفراد المنعزلون يشكلون طبقة فقط بالقدر الذي يخوضون فيه معركة مشتركة ضد طبقة أخرى . دون هذا تسودهم علاقات عدائية بسبب تنافسهم مع بعضهم البعض ".

في رسالة إلى سورج يعلق فيها على الأسباب التي أدّت إلى سقوط الأممية الأولى، كتب أنجلز بأن موتها يعود إلى نجاحها نفسه. فطالما كانت الحركة العمالية والاشتركية تخضع للقمع في أوروبا، فإن الاضطهاد كان يعطيها الوحدة ويجمد المشاحنات الداخلية ، فكانت المصالح العالمية المشتركة للأعضاء تستطيع بالتالي أن تشغل المكان الأساسي من الأهتمام، ولكن أول نجاح كبيركان يعني بعثرة هذا اللقاء بين جميع الفرقاء. هذا النجاح كان " الكوميونة " الباريسية. جميع الاتجاهات أرادت استغلالها لمآربها الخاصة ، فابتدأ الانهيار.

ماركس وأنجلز وصفا المجتمع الصيني في القرن التاسع عشر بأنه يتميز بنظام استاتي لا ينفتح لتحول اجتماعي من الداخل ينتج عن تناقضات داخلية دينامية، بل يعتمد في ذلك على تدخل الغرب الرأسمالي فيه . كما كتب ماركس في مناسبة أخرى ، أن الاستعمار البريطاني في الهند يتميز بصفات إيجابية تقدمية لأنه يولد الضغوط الخارجية التي تمزق جمود وركود المجتمع الهندي .

وعن حياة الفلاحين في فرنسا، وصف ماركس كيف يحيون في اوضاع متماثلة ، ولكن دون علاقات وروابط عديدة تربط بينهم، لأن نمط الانتاج الذي يسودهم يفصل بينهم بدلاً من أن يجمع بينهم في تفاعل قوي متبادل . في ملاحظة حول هذا القول يخلص جورج لوكاش إلى الاستنتاج بأن هناك " حاجة إلى الاضطرابات الداخلية ، كالحرب والثورات في المدن الخ .. كي يمكن لهذه الجماهيرأن تتحد في حركة موحدة " .



تؤكد الصفحات السابقة بوضوح أن وحدة المجتمع المجزأ تنمو وتؤكد ذاتها عن طريق التناقض مع مجتمعات ودول أخرى، وأن الخطر الخارجي الكبير الذي يهدد حرية وبقاء مجتمع ما كان، في الواقع، أقرب الطرق وأكثرها فاعلية في تحقيق وحدته . فكما أن وحدة الطبقة وثوريتها تحتاجان إلى صراع مع طبقة أخرى تناقضها، كذلك يحتاج المجتمع المجزأ إلى تناقض مع عدو، مع خطر يهدده كي يتمكن من اكتشاف وحدته وهويته الواحدة . وكما أن الفرد لا يجد فرديته دون علاقة تناقض مع آخرين، وكما أن إنسانيته ذاتها تكشف عن ذاتها في شكل من أشكال الرفض والتمرد ، كذلك أيضاً المجتمع المجزأ يجد وحدته وهويته في وضع يضطر فيه لأن يرفض علاقات معينة يحاول آخرون فرضها عليه. ومن اجل ان تتوفر درجة من الوحدة توحد بين أجزاء سياسية وجماعات مختلفة ، من الضروري توفر ضغوط خارجية تبلغ درجة معينة من الخطر والحدة . " إن أفراد مجتمع ما يتحدون حقا "، كما يكتب راسل، " لأنهم يخافون من الشنق فيما إذا كانوا منقسمين " تعترف السوسيولوجيا الحديثة أن الصراع ضد قوى خارجية هو الذي كان ، إلى حد كبير، يقرر حدود المجتمعات التاريخية التي كانت تجد ذاتها عن طريق صراعات وتناقضات مع مجتمعات أخرى . خطر عدو مشترك يشكل العنصر الذي يرجع إليه المؤرخون وعلماء الاجتماع أكثر من غيره في تفسير الوحدات السياسية وظهور الدول الجديدة . " خطر عدو مشترك هو على الأرجح العامل الذي يعطي الرصيد الأكبر في دفع بعض البلدان إلى الاتحاد عند البداية " .

وحتى عندما يتم اعتراف تام بالحاجة إلى الاتحاد وضرورته ، تبقى هناك صعوبات عديدة عنيدة في طريق تنفيذه . فالبيروقراطيات المحلية والطبقات والفئات والأحزاب ، الخ .. التي تفيد من التجزئة ، تشكل ، بالاضافة الى الانتماءات والولاءات التقليدية السائدة ، عثرات ضخمة ضد تحقيقه . لهذا فإن " الدعم الضروري للاتحاد كان يأتي فقط عندما تصبح ضرورته القاهرة ومخاطر كارثة ما واضحة لقطاعات مهمة وفعالة من السكان " .

في دراسته القيمة حول " الحكومة الاتحادية " استنتج هوير " ان الشعور بخطر عسكري وما ينتج عنه من حاجة لدفاع مشترك " كان أحد الأسباب الستة التي نجدها في جميع التجارب التي كشفت عن اتجاه إلى الاتحاد " .. الحاجة إلى الدفاع تأتي في طليعة قائمة الأسباب التي تحرّض على الاتحاد " . وفي تعليق على الاتجاهات الواحدة المتكررة ، في عملية التوحيد السياسي ، التي خلص إليها هوير ، يكتب سبرينغر أنه عند مراجعة الأمثلة الوحدوية المتوفرة يتضح بشكل إضافي " ان الشعور بحاجة إلى دفاع مشترك يأتي في رأس القائمة ، وأن الرغبة في الاستقلال ومكاسب اقتصادية مشتركة تشكل تباعا السبب الثاني والسبب الثالث . الدفاع المشترك كان الباعث الرئيسي في خلق الولايات المتحدة ، الخوف من الأخيرة وحدّ الأقاليم الكندية ، الخوف من التوسع الألماني في الباسيفيك كان عنصراً موحداً في اتحاد اوستراليا ، والخوف من روسيا كان العنصر الحاسم في دمج أوروبا " . ثم يضيف بأن " الخوف قد يكون الإغراء الوحيد الأكيد في الاتحاد ، قد يكون ، صحيحاً ، على الأرجح ، ان المجتمعات تتحد مع بعضها البعض أحياناً بسبب مكسب اقتصادي أو الرغبة في الاستتقال، ولكنها ستتحد دائما إن كانت تؤمن أن الاتحاد يؤمن بقاءها. حتى عندما يبدأ الاتحاد الفيدرالي بنجاح دون شعور بخطر ، فإنه من الصعب المحافظة عليه دونه".

كثيرون من الذين ينبهون إلى أهمية الأسباب والحاجات الاقتصادية ، يؤكدون في الوقت نفسه على أولوية أو أهمية المخاطر الخارجية. المراجعة التاريخية تكشف بوضوح " أن الدول كانت تتحرك عادة نحو الاتحاد تحت ضغط الحاجات الدفاعية و الاقتصادية ، ففي الولايات المتحدة، مثلا، كانت الحاجات الدفاعية السبب الأول البارز في تشكيل " مواد الكونفيدراسيون، والتنافس الاقتصادي بين الولايات خلق دفعا إضافياً ساهم مع الأول في خلق الدستور الفيدرالي . الشيء نفسه ينطبق على تجارب سويسرا ، ألمانيا ، كندا، أوستراليا، حيث تعود الاتحادات الفيدرالية الى عجز الدول الأعضاء عن توفير دفاع ملائم ضد مخاطرخارجية واقعية أوممكنة تهدد وجودها، ومن كون الحاجة إلى أسواق ومواد ضرورية كانت قد تجاوزت قدرة أية دولة منها في تلبيتها. ففي جميع هذه الأمثلة ، وفي غيرها، نرى أن المشاكل العسكرية والاقتصادية أصبحت واحدة بين جميع الدول الأعضاء، ولم يكن بمقدور أية دولة منها أن تعالجها وحدها. هذا فرض بوضوح سلطة واحدة مشتركة " ...

بعد أن يذكر جون فيشر بأن حركة التاريخ تدل على خط عام يتقدم باستمرار نحو وحدات سياسية أكبر، وبعد أن ينبه إلى الصعوبات الكبيرة التي تعترض التحول من وحدة معينة إلى وحدة أكبر، يكتب " بأن هذا التحول لم يحدث أبدأ تقريباً بشكل إرادي . فقد كان يحدث- كقاعدة عامة- فقط عندما تفرضه بعض الضغوط القاهرة : تزايد عدد السكان، اختراعات عسكرية، تغييرات ثورية في الاقتصاد والتكنولوجيا ، وخطر أعداء من الخارج . هذه الضغوط تقاوم عادة حتى آخر لحظة ممكنة ، وآنذاك نرى أن الوحدة السياسية الكبيرة الجديدة تظهر غالبا (عن طريق القوة وفي القليل النادر عن طريق الموافقة) بسرعة مدهشة " . يكشف التاريخ بوضوح (أن الاتحادات السياسية القوية ظهرت وترسخت فقط بسبب اتحادات أخرى معادية " .

هناك قول مأثور في أوروبا (إن الأمة جماعة من الناس موحدة بخطأ مشترك حول أسلافها ، وبكراهية مشتركة لجيرانها " . وإذا استطاع كافور، وغاريبالدي، شتاين، وهاردينبرغ ، وخصوصا بيسمارك في المانيا الخ.. ان يحققوا ما حققوه من توحيد قومي، فالسبب يعود أولاً إلى ضغوط المخاطر الخارجية . القومية الماغيار كانت تخاف حركة البان - سلافية، والبان- جرمانية، والسيادة الروسية. القومية الالمانية كانت تخاف الانتقام الفرنسي والتوسع الروسي. القومية الفرنسية كانت تخاف نمو القومية أو القوة الألمانية . القومية الرومانية كانت تخاف امتصاصها في القومية الماغيار ومن ثم في الامبراطورية النمساوية - الهنغارية. القومية الصربية كانت تخاف القومية الماغيار، والقومية الايطالية كانت تخاف السيادة النمساوية — الهنغارية في البلقان وبالتالي في الادرياتيك. وهكذا دواليك ! .... الخوف [من عدو خارجي] كان عاملاً ديناميكياً — أو على الأقل حافزاً - في معظم التجارب الاتحادية التي كانت أكثر من تجارب مقلدة " .

هذا يعني، من ناحية أخرى، أن غياب الخطر الخارجي أو زواله كان يؤدي إلى فشل الاتحادات السياسية والمحاولات الاتحادية. الاتحادات التي حاولتها افريقيا وفي طليعتها اتحاد غربي افريقيا الفرنسية، اتحاد افريقيا الإستوائية الفرنسية، اتحاد المالي والسنيغال، كانت فاشلة لأسباب عديدة، ولكن مما لا شك فيه أن غياب خطر خارجي كان من أهم هذه الأسباب . " اتحاد الوست إنديز " الذي نتج، إلى حد ما على الأقل، عن مقاومة الوجود البريطاني زال بعد أن استقر استقلال الجزر المختلفة التي شاركت فيه. المناطق التي شكلت تحت قيادة بوليفار في النصف الأول من القرن الماضي دولة كولومبيا الكبرى نتيجة صراعها ضد إسبانيا، قضت على الاتحاد فيما بعد وشكلت ثلاث دول هي الاكوادور ، فنزويلا، وكولومبيا . اتحاد أميركا الوسطى الذي تشكل عام ١٨٢٣ انهار أيضاً وأصبح عام ١٨٣٨، خمس دول منفصلة وهي غواتيمالا، نيكاراغوا، سلفادور، هوندوراس، وكوستاريكا، وهكذا دواليك !..

السؤال الذي يطرح نفسه الان هو : ما هي الأوضاع التي يمكن فيها لتحالف دفاعي أن يتطور إلى اتحاد ، أو لاتحاد يفرضه خطر خارجي أن يستمر بعد زوال الخطر ! .

إن قدرة مجتمع ما على خلق وحدة من أجزائه أو أقاليمه المنفصلة في مواجهة عدو خارجي لا يعني أية ضمانة لاستمرار هذه الوحدة بعد زوال الخطر . ولكن من ناحية أخرى ، يمكن القول أن متابعة صراع طويل مركز ضد هذا العدو تشكل في ذاتها عاملاً كبيراً في خلق المشاعر والنفسية الموحدة الصميمية ، التي تجعل الاتحاد ثابتاً مستمراً . هذه المشاعر والنفسية تكون أسهل منالاً وتحقيقاً إن استطاعت الاعتماد على هوية واحدة سابقة يعي الشعب وجودها ، أو على خلفية تنطوي على أسباب أخرى ايجابية تساعد عملية التوحيد ، كوجود لغة واحدة ، وتماثل اجتماعي ايديولوجي بين الكيانات السياسية المدعوة الى الاتحاد .

كي يمكن للاتحاد الاستمرار يجب ان يعتمد على درجة كبيرة من الولاء له بين الأعضاء . الخطر الخارجي يولد حاجة مباشرة إليه ، ولكن هذه الحاجة يجب ان تؤدي أثناء وجودها إلى إفراز ذلك الولاء الشعبي له ، مع الأجهزة والتنظيمات والعلاقات الوحدوية المستقلة التي تعبر عنه . لهذا كان الاسراع

بإنشاء الاتحاد وترسيخه أثناء الصراع ضد العدو يشكل – اذا كان ذلك ممكنا – أكثر الطرق فاعلية في تثبيته .

الاتحاد ضد خطر خارجي يمتد عادة ، ويجب ان يمتد ، إلى مصالح وقوى توحيد إضافية تكون ذات قيمة في ذاتها . لهذا فإن قدرة الاتحاد على الاستمرار قد تتحدد أساسيا بمدة وحدة الخطر . لهذا يكون من الأفضل ، من هذه الزاوية الوحدوية ، وجود خطر يستمر لمدة طويلة ، ويفرض صراعاً طويلاً حاداً في مقاومته .

كي يمكن للخطر الخارجي أن يؤدي إلى اتحاد سياسي مستقر ثابت يجب ، من ناحية أخرى ، أن يمتد إلى أجزاء المجتمع المجزأ كلها ، أو أكثرها ، وأن يكون قاسياً في امتداده . هنا نجد ، مثلاً ، من زاوية وحدوية الجانب السلبي في نكبة فلسطين . فهذه النكبة حلّت بجزء من الوطن العربي ، وكانت قاسية عليه فقط . انها لم تمتد مباشرة وبشكل قاس إلى الأجزاء الأخرى أو بعضها ، وهذا ما أضعف من مضمونها الوحدوي . ولكن بما ان معركة تحرير فلسطين معركة طويلة ، فإنها ستؤدي مع الوقت – او هذا ما يفترض فيها – إلى تقوية وتعزيز وفرض هذا المضمون .

الفصل الثاني

تفسير المضمون الوحدوي في المخاطر الخارجية

تدفع المخاطر الخارجية المجتمعات المجزأة أو الكيانات السياسية المنفصلة إلى الاتحاد لأنها تفرز اتجاهات تدفع إلى وتحفز على ذلك ، ونشير فيما يلى إلى أهم هذه الاتجاهات:

١- احتكاك مجتمع ما بعدو خارجي يزيد من وعيه لهويته الخاصة ومن شعوره بوحدته، وذلك لأن الشعور الموحد، سواء كان قوميا، طبقيا، أو إيديولوجيا، يعني توكيداً على " نحن " ضد " هم " . المخاطر الخارجية تهدد المجتمعات التي تتعرض لها في حريتها وكرامتها وعيشها، وفي أحيان كثيرة في بقائها ذاته، ولهذا كانت تغذي وتعمق وحدة الـ "نحن " الخارجية التي تهددها . الضمير القومي أو الجماعي العام الفعال لا يبرز بشكل مجرد ، بل نتيجة وأثناء الممارسة . وجود خطر خارجي كبير يهدد أجزاء المجتمع المختلفة يشكل اداة فعالة في خلق هذا الضمير لأنه يكشف للأجزاء ضرورة وحدتها في مجابهته ،

ويفرض عليها ممارسة هذه الوحدة في ممارسة المجابهة . " ليس من شيء يركز مشاعر الانسان القومية أكثر من الوعي لمشاعر أخرى مماثلة بين الآخرين " .

يوحد الخطر الكبير الشعب ، أكثر من الوضع الآمن أو المعاناة المستقرة للحياة . ويفسر هذا كيف ان الذين يظهرون اهتماما جانبيا بقضايا وطنهم في اوقات الاستقرار يقدمون في كثير من الأحيان على شتى أشكال التضحية ، ومنها التضحية بالحياة نفسها في الدفاع عن هذا الوطن عندما يتعرض لاعتداء خارجي ، وكيف ان زوال الخطر كان يقود إلى انحسار الوعي الجماعي ووحدة الشعور بالمصالح المشتركة أو المصير الواحد . يقود الشعور الوحدوي الناس الى كبح النوازع والارتباطات المحلية في سبيل خدمة المقاصد العامة. وإلى مقاومة جميع الأغراءات والضغوط التي تهدد أولوية الكل وتماسكه . وفي حال غياب هذا الشعور والجو السياسي الإيديولوجي الذي يرافقه ، فإن الانشغال بالمصالح المحلية والفردية يهيمن ويسود . المخاطر الخارجية توجه المشاعر والأفكار إلى وتركزها على المجتمع ككل، وتفرز أحاسيس واحدة بمصير مشترك . فالخوف او الحقد الذي يتجه ضد العدو يشكل عامل دمج فعال لأنه يفصل بحدة بين العدو والشعب الذي يهدده ، ويبرز بوضوح معالم الهوية التي تميز الواحد عن الآخر. كان هيجل على الرغم من المفهوم الميتافيزيقي الذي قدمه حول الدولة، هو المفكر الذي أعطى النظرية التاريخية في الأمة . فالأمة ، في هذه النظرية، تجد وحدتها في مجابهة عدو مشترك، وفي الصراع ضده.

لقد بحث المؤرخون وعلماء الاجتماع عبثا عن عامل إيجابي ثابت دائم يفصل بين ويميز الأمم المختلفة، كاللغة، الدين، الجنس، المصالح الأقتصادية، الوحدة الجغرافية ، التقاليد الواحدة، الخ .. ولكن أمام كل عامل من هذه العوامل، كان يمكن الاشارة إلى أمثلة عديدة تخرج عنه ولا تنطبق عليه. العامل الوحيد الذي يلازم كل أمة ويتكرر في كل قومية هو، في الواقع، العامل الذاتي أو الشعور بهوية واحدة مشتركة . يعود هذا الشعور دون شك إلى أسباب موضوعية، وهي أسباب قد تختلف من مكان إلى آخر ، ولكن وجوده يشكل السيمة الأساسية العامة التي تعيد ذاتها في وتقترن بكل قومية . الواقعة الأكثر وضوحاً وبداهة حول القومية هي أنها موجودة . إنها قد لا تقدم أي مقياس موضوعي عام لوجودها، ولكن الشعور بهوية خاصة تميزها ظاهرة تفرض ذاتها . لهذا كتب آرنست رينان، في تحديده المعروف، أن الأمة هي وحدة عامة ترجع إلى تضحيات عانتها في الماضي ، والى ارادة في تقديم تضحيات مماثلة في المستقبل. أنها تنتج عن آلام ومسرات واحدة شاركت فيها في الماضي ، وعن رغبة في حياة واحدة في المستقبل . الصراع ضد مخاطر خارجية يولد هذه الآلآم والمسرات (على الأقل عند الانتصار).

ان ما يميز القومية ويشكلها ينتج بالدرجة الأولى عن مشاكل وتجارب تاريخية مشتركة. هذه هي المؤشرات الأولى التي تحدد هويتها. اللغة نفسها تعبر ، في الواقع ، عن تجربة تاريخية مشتركة، تمثل موجزاً للشعور بانتماء واحد، للمشاركة في ذكريات واحدة ، وتراث ثقافي واحد. المخاطر الخارجية تشكل جانبا من أهم جوانب هذه المشاكل والتجارب التاريخية، هذا إن لم نقل أهمها على الإطلاق . إن أكبر حافز للاتحاد السياسي هو عادة الحاجة إلى عمل مشترك كبير. المجتمع القومي، أو أي مجتمع آخر يتشكل من

ناحية سوسيولوجية عندما يكون هناك تفاعل متواصل بين أعضائه في إطار تعاون أو ترابط عام منظم . اما اذا كان هؤلاء لا يوحدون جهودهم وطاقاتهم في تحقيق مقاصد واحدة ، أو لا يجدون غايات واحدة بارزة يتفاعلون ويتجاوبون فيها، فإنهم لا يجدون، في الواقع ، شيئاً كبيراً يوحدهم . ما يحول دون انفصالهم وتبعثرهم هو أن تفاعلهم المنظم يدلهم بوضوح أنه من الممكن لهم مجتمعين ومتحدين تحقيق ما لا يمكن تحقيقه منفصلين . المخاطر الخارجية تُذكر بذلك، تبرزه، وتفرضه، لأنها تعني تجربة واحدة تفرز تفاعلا مشتركاً حاداً ، وتخلق مشاعر واحدة تفصل مجتمعا معينا عن غيره في " نحن " خاصة تميزه بوعي واضح لهوية منفصلة. هذا ينطبق على كل " جماعة " . فالشعور بـ " نحن " ، بهوية منفصلة ، يعتمد على تناقض مع " هم " وهو شعور يزداد وعيا لذاته وحدة في الوعي مع ازدياد ذلك التناقض وحدته.

أشار سارتر بأن كل مجتمع يحدد ذاته بالنسبة إلى مجتمع آخر، ويعي هويته فقط بالرجوع إلى مجتمعات تختلف عنه وينظر إليها كشيء، كموضوع له . في هذا الاتجاه نراه يؤكد ، كما صنع ماركس سابقا، بأن العمال في المصنع لا يتحدون فقط بسبب الضرورة التي تفرض عليهم التعاون في إنتاج بعض المواد الصناعية، بل أيضا بسبب شعور بالتناقض أو الصراع ضد أصحاب العمل . فلو قامت، مثلا، أوضاع تجعل العمال وأصحاب العمل يشاركون في مقاصد واحدة، تكون النتيجة إما إضعاف هائل لشعور الوحدة بين العمال، أوتوسيع هذا الشعوربشكل يضم أصحاب العمل. ولكن في حالة كهذه ، يتم فيها شعور بالوحدة بين الطرفين ، يجب انطلاق هذا الشعوربـ " نحن " جديدة من صراع ضد، أو تناقض بارز مع " نحن " أخرى تميز جماعة أو مجتمعا آخر. " تبرز حدود الجماعات عن طريق الصراع مع العالم الخارجي، وبالتالي فإن المجتمع يحدد ذاته عن طريق الصراع مع جماعات أخرى" .

في الولايات المتحدة، مثلا، لا يشكل العمال " بروليتاريا " ولا يعتبرون أنفسهم " بروليتاريا "، لا يتطلعون إلى تغييرجذري للنظام القائم واستبداله بنظام آخر ، أو إلى إيديولوجية مختلفة فهناك إجماع عام (Consensus) على قيم أساسية عامة كـ المنافسة ، الحريات والحقوق الفردية، حق الملكية، حرية العمل، المساواة، الخ.. وهو إجماع يمد جسراً فوق الفواصل الطبقية والمراتب الاجتماعية الموجودة. لا تقتصر هذه الظاهرة على الولايات المتحدة، بل تمتد بدرجات متفاوتة إلى جميع البلدان الصناعية المتقدمة ، حيث نرى أن انحسار التناقض البارز الحاد يؤدي إلى انحسار الصراع الطبقي، و هو انحسار يؤدي بدوره إلى انحسار الشعور بهوية طبقية خاصة.

٢- أمام المخاطر الخارجية تأخذ أعمال الأفراد والجماعات التي تتعرض لها طابعاً متشابها يولد، خصوصا إن طال وجودها وطال الصراع ضدها ، نفسية متماثلة . لذلك فهي ، على الرغم من الشرور الكبيرة التي قد تترتب عليها ، ذات أثر ايجابي من هذه الناحية لأنها تدفع كيانات سياسية منفصلة ، وجماعات متباينة ، إلى العمل يداً واحدة في اتجاهات واحدة ، فتوسع بذلك من نطاق الوحدات السياسية . ان قوة أي نظام اجتماعي سياسي تعتمد على درجة وعمق الروابط الواحدة . المخاطر الخارجية توفر هذا . لهذا كانت " وحدة الحياة الجماعية تقوم من الحاجة للدفاع ضد أعداء مشتركين " . هذا واقع تعترف به

السوسيولوجيا الحديثة من ناحية عامة . المجتمعات التي تدخل أشكال الصراع القوية التي تفرضها المخاطر الخارجية تميل الى التعصب ولا تنفتح للاعتدال ، تؤكد وحدتها الجماعية ولا تقبل بانحرافات عنها .

يفرض الصراع ضد مخاطر خارجية، تعبئة الموارد والطاقات الموجودة ، وبالتالي يدفع المجتمع المهدد إلى شكل أعلى من الوحدة كأداة في تحقيق هذه التعبئة . لهذا نجد في كثير من الأحيان أن الأنظمة التي تجابه مشاكل وتناقضات داخلية مستعصية أو كبيرة ، تتطلع إلى أعداء ومخاطر خارجية كي تتغلب عليها . الفكرة القائلة بوجود علاقة سببية بين النظام الداخلي وبين المخاطر أو الصراعات الخارجية هي ، في الواقع ، فكرة قديمة في تاريخ الفكر السياسي. ويذهب بعض المفكرين إلى القول، بأنه قد يكون من الحكمة السياسية ايجاد أو خلق بعض الأعداء كي تبقى وحدة المجتمع فعالة ، وكي يعي أفراده باستمرار هذه الوحدة . لهذا ليس من الغريب أن يكون الشعور القومي قد ظهر في أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا، وأميركا في أوضاع متشابهة ، مقاومة سيادة خارجية. كما تكشف تجارب التاريخ من ناحية أخرى ، ان عدم وجود مخاطر خارجية يقود إلى ضعف في نشاط ووحدة المجتمع الداخلية ، فتسود عوامل التفكك والانقسام .

٣- لا يعني القتال ضد عدو خارجي القتل والعنف ، الألم والعذاب، الالفة والتعاون ، الحقد والكراهية ، التضحيات الذاتية والأعمال الكبيرة التي يتجاوز الانسان فيها ذاته ، الخ ... فقط ، بل يعني أيضاً تمزق الحياة اليومية في علاقاتها الرتيبة والتقليدية . إنه يعني خلق وضع يستطيع فيه الفرد القيام بالأعمال الممنوعة ، الاتجاه في اتجاهات جديدة ، تجاوز قواعد السلوك السابقة ، التنكر للتقليد ، والارتباط بولاءات وقناعات وقيم جديدة . هذا التطلع إلى التغيير يشكل أهم ما قد ينتج عن صراعات من هذا النوع . عندما يعاني الناس هذا التمزق يميلون الى اعتناق مفاهيم جديدة تبرر تطلعات جديدة ، وينفتحون لشتى التحولات الجذرية التي تساعد في معالجة هذا التمزق والتغلب عليه . " قد يبدو من المؤسف أن يكون الكثير من تفكيرنا الاجتماعي السياسي قد حدث في اوقات شاذة أو غير اعتيادية ، ولكن العقل يعمل بوضوح عندما يكون العمل ملحاً ولا يمكن تجنبه " .

ان مجابهة عدو خارجي في حرب تحوير ودفاع تزيل أو تدفع إلى إزالة قيود وضوابط النظام التقليدي ، وتكشف عن التناقضات التي قد ينطوي عليها والتي كانت مجمدة . وبما أن التجزئة تشكل أحد هذه التناقضات الأساسية التي سمحت بالاعتداء الخارجي أو انتصار العدو، فإن الرد يدفع إلى معالجتها بالتوحيد السياسي . ان الطاقات التي يكشف عنها ، تتجه آنذاك نحو أشكال شعورية وتنظيمية جديدة ، وهذا ما يجعل الاتجاه نحو الإتحاد الذي يتجاوز التجزئة، نحو هوية سياسية جديدة، تجديد أو تقوية وإنعاش هوية موجودة ، اتجاها قويا يصعب في كثيرمن الأحيان تجاهله أو مقاومته .

٤- يكون العمل السياسي في مجتمع مجزأ متعدد الوجوه في العادة ، ويعود هذا الى الأوضاع المحلية المختلفة الاتجاهات والتجمعات المتعددة التي تدعو إليها . غير ان توفر خطر خارجي يهدد هذه

الأجزاء، يستطيع أن يولد قوة استقطاب توحد بين الجهود المختلفة، التغلب على هذه الاختلافات وتوفير أرضية مشتركة تلتقي فيها.

ومن اجل ان يتمكن المجتمع المجزأ من تحقيق وحدته، يجب أن يتمكن من معاناة ذاته كوحدة، وكي يستطيع ذلك يجب أن يكون للأحداث التي تقع في أي جزء منه ليس فقط نتائج وانعكاسات مباشرة فى جميع الأجزاء الأخرى، بل انعكاسات ونتائج تتخذ وجهة أو معنى واحداً . العدو الخارجي الواحد يشكل أداة مهمة في توفيرهذه التجربة .

لا نستطيع، في المجتمع المجزأ، الحديث عن إرادة عامة، وذلك لأن التجزئة تعني كيانات سياسية مستقلة يعبركل منها عن ارادة خاصة به تنتج عن تفاعله المستقل مع الوسط الخارجي والداخلي الذي يحيط به . تفاعلات هذه الكيانات لا تتحدد بإرادة واحدة ، لأن إرادة من هذا النوع غير ممكنة عندما تسود التجزئة ، وأي مفهوم كهذا يكون مفهوما ميتافيزيقيا . ما يحدث عندما يقال بإرادة كهذه هو، في الواقع، ترجمات وتفاسير هذه الكيانات المستقلة لما يبدو لها من زواياها المختلفة كإرادة واحدة أو قومية. المجتمع المجزأ يعني إرادات سياسية مستقلة، أي مختلفة ومتناقضة، وبالتالي معاناة للتاريخ وردود فعل مختلفة. لهذا فإن استمرار التجزئة يعني ترسيخا لها إلى أن تصبح نهائية . وجود عدو خارجي واحد يهدد بقاء وحرية وكرامة هذا المجتمع يحول دون هذا الانزلاق في تجزئة نهائية ويستطيع أن يعكس الاتجاه التاريخي ويدفعه نحو الوحدة لأن وجوده يخلق " الموضوع " الذي يمكن أن تتمحور، في مقاومته والحقد عليه، إرادة جماعية أو قومية عامة . ان الاحتلال الفرنسي النابليوني لأوروبا ، مثلا، دفع المفكرين في كل بلد من بلدانها وخصوصا المانيا، إلى مهاجمة نزعة القرن الثامن عشر السياسية العالمية كحلم غير واقعي يعبر عنه إنسانيون (Philanthropists) سطحيون أو " أسوأ " . ولكن قبل حروب الثورة الفرنسية وما أدت إليه من احتلال نابليوني، كان هؤلاء المفكرون يمليون إلى التعبيرعن مثل ومقاصد إنسانية، والدعوة إلى نزعة عالمية.

المشكلة التي تواجهها عملية التوحيد السياسي في، وإنشاء دولة جديدة من، مجتمع مجزأ أوكيانات سياسية مستقلة، هي كيفية تحويل مشاغل الناس السياسية من الجزء إلى الكل . يعتاد هؤلاء سلوكاً سياسياً يدور في إطار كيانات سياسية مستقلة، وهذا يعني تمحور جهودهم عليها لأنها تجابههم يوميا بمشاكل محلية تستغرق وقتهم واهتمامهم . لهذا فإن الوضع الذي يعملون فيه يؤدي إلى إغفال " الكل " والابتعاد عن قضاياه الواحدة . العدو أو الخطر الخارجي الذي يهدد هذه الكيانات المستقلة أو المجتمع المجزأ ككل يجذب إليه الناس، ومشاغلهم في الأجزاء المختلفة، يستقطبها وينقلها إلى صعيد " الكل " المشترك ، ويوفر لها نقطة لقاء تتجاوزفيها الحدود المحلية.

تدل الدراسات التي ظهرت حول السلوك السياسي على أن الجماعات والأفراد الذين يخضعون لضغوط تدفع بهم في اتجاهات سياسية مختلفة متناقضة، يتعرضون للانحراف واللامبالاة . هذه الضغوط تكون عادية ويومية في المجتمع المجزأ، وبالتالي فهي تضعف ما يحتاجه عمل التوحيد من مشاعر وطاقة

على الالتزام به ، ولكن وجود عدو خارجي يهدد حرية وبقاء هذا المجتمع يولد ضغطا عاماً يهيمن على الضغوط المحلية المتباينة، وبذلك يجمد انزلاقها في تجزئة نهائية. "يجب الا يكون هناك " كما يكتب ماوتسى تونغ في حديثه عن العمل الثوري "عدد من المهام الرئيسية في وقت واحد. ففي أي وقت معين يمكن أن تكون هناك نقطة فقط مهمة واحدة، تُضاف اليها مهام أخرى من درجة ثانية أو ثالثة من حيث الأهمية " . يستطيع العدوالخارجي، وخاصة في حالة امتداد خطره المباشر إلى جميع الأجزاء ، ليس فقط أن يُبرزضرورة التحرير، بل ايضا ضرورة التوحيد في سبيل التحرير، باعتبارها المهمة الرئيسية. هناك في كل عمل سياسي مقاصد أساسية وأخرى ثانوية ، والثانوية تخضع أو يجب أن تخضع للأساسية. الخطر الخارجي يساعد في ذلك لأنه يحول المشاغل المحلية إلى مشاغل ثانوية، ويقدم قصد التوحيد لأجل التحرير.

٥- الهزيمة تعني ذلاً عاما يحل بالمهزوم، وهي تحثه بالتالي، وتحركه على العمل يداً واحدة لوضع نهاية لها. هذا العمل الواحد في قصد واحد مركز يُطلق إمكانات الخاق التي ميزت في كل مكان الانتفاضات الثورية. كما تكشف الهزيمة من ناحية أخرى أن النظام السياسي السابق عاجز عن التجاوب مع أو الاستجابة لقوى التاريخ وتحدياته الجديدة ، ان الفئات والطبقة الحاكمة التي تعبر عنه لا تصلح للقيادة . هذا ينزع، عاجلاً أوآجلاً ، الشرعية عن ذلك النظام والقيادات التي تمثله، ويعني أنه لا يمكن للشعب البقاء راضياً عن التركيب السياسي التقليدي وما ينطوي عليه من تجزئة، فالعمل السياسي الذي يفرض أشكالاً جديدة من التنظيم والتوحيد يُصبح ضرورياً كأداة في حل هذا التناقض . كما تجعل الهزيمة الوعي الثوري ممكنا وضروريا. ممكنا، لأنها قد تؤدي إلى تجريد النظام السياسي المسؤول عنها من شرعيته وتطرحه كمشكلة، وضروريا، لأن الهزيمة كشفت عن عجزه، وهي تفرض في مجابهتها والتغلب عليها بديلا له. وبما أن التجزئة تشكل سمة اساسية لهذا النظام ، فإن البديل الذي تطرحه الهزيمة وتوحي به يكون من النوع الاتحادي الذي يتجاوزكياناتها المستقلة في وحدة عامة. تصبح الثورة ممكنة ضد وضع قائم عندما يحقق الشعب أوقطاعات كبيرة منه التحرر الشعوري والايديولوجي من نفوذه ، وفي كثير من الأحيان ، تولد الهزيمة هذا التحرر، وتجعل بالتالي ، من الثورة عملية ممكنة . فالثورات تبدأ بشعور متزايد بأن الأنظمة القائمة أصبحت عاجزة عن مواجهة المشاكل التي تواجهها، والهزيمة تخلق فرصة يمكن فيها الكشف عن معنى جديد في الوضع التاريخي، والإمساك باحتمالات جديدة ينطوي عليها.

عندما يكون النظام السياسي في المرحلة الديناميكية من مجراه العام يشعر الجميع ، حتى ضحاياه، بهيبته ويرهبون جانبه. ولكن عندما يزول هذا الدور، وتتضح نواحي الضعف فيه عن طريق هزائم وتحديات خارجية أو أزمات داخلية يعجز عن تطويعها ، تنكشف آنذاك التناقضات الملازمة له . فيعجز النظام بعد ذلك عن الإيحاء بالرهبة . وفرض الولاء له أو الالتزام به، فيخسرتدريجيا على الأقل، الشرعية التي يجب أن تكون قاعدة له. هذه الوضعية تعني ، من ناحية أخرى، دلائل ومؤشرات نظام جديد ينمو في قلب التناقضات التي تمزقه. وبما أن التجزئة تشكل أهم هذه التناقضات التي يعانيها المجتمع المجزأ في

مواجهة الخطر الخارجي، فإن أية محاولة جدية في معالجة الوضع والعمل مع الميول والقوى التي تدفع نحونظام جديد تفرض تجاوز التجزئة بدولة جديدة .

٦- عند تفسير أثر المخاطر الخارجية، يجب أن نشيرأيضاً إلى ميل الإنسان الأساسي إلى التقليد، وهوميل يعمل بوضوح بين الشعوب والأمم المتحاربة، خصوصاً التي تهزم في هذه الحروب. فالمهزوم يقلد، كما تكشف تجارب التاريخ، العدو الذي تغلب عليه. بما أن العدو يكون قد حقق عادة درجة أعلى من الوحدة الداخلية ، فإن المهزوم يحاول تقليد هذه الوحدة. بما أن الجيوش غير الموحدة كانت تنهزم أمام الجيوش الموحدة ، والدول والأمم المنقسمة على ذاتها كانت ذات حياة قصيرة بالنسبة إلى تلك التي حققت وحدتها ، فإن المهزوم يحاول معالجة النقص بخلق وحدة مماثلة. " الصراع هو، في الواقع ، من أهم الحوافز على التقليد، وذلك بسبب الحاجة الملحة إلى تحقيق نوع من التكافؤ مع العدو " .

عندما خلقت فرنسا، مثلا، في ثورتها الكبرى، جيشا من المواطنين تستخدمه ضد أعدائها وتهزمهم به، وجد هؤلاء أنهم لا يستطيعون تجاهل هذا التحول الجذري، وأن عليهم تقليده إن هم أرادوا الدفاع عن استقلالهم أو استرجاع حريتهم . لهذا فرضت جيوش الثورة تعبئة مماثلة في البلدان الأخرى. وعندما أصبحت جيوش المانيا وإسبانيا، الخ .. جيوش مواطنين أصبح من الممكن لهذه البلدان التغلب على فرنسا.

لقد ادى النزاع بين النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي الغربي، كما رأى الكثيرمن المفكرين، إلى تأثر الواحد بالآخر. وفي هذا الموضوع يكتب المفكر الماركسي، دويتشر، " ألم يُبطل الامتصاص المتبادل للنظام الاجتماعي المناقض التحليل الماركسي للمجتمع ، ومطامح الثورة الروسية الإنسانية ؟.. وجود درجة من الامتصاص واقع لا يُنكر، وهو يعود الى منطق كل مجابهة كبرى، الذي يفرض أساليب عمل مماثلة على المتنافسين" .

في بداية صراعهما الديني كانت الكنيسة الكاثوليكية والحركة البروتستانتية تتطلع إلى نصر كامل، ولكن عندما استحال ذلك اضطرتا الى البحث عن تكيف متبادل، وتعايش سلمي ، على أن يكتفي كل طرف بمناطق نفوذ خاصة في العالم المسيحي الغربي . أثناء ذلك كان التناقض الايديولوجي الأول قد خف حدة وضعف بسبب الاقتباس المتبادل . فالكنيسة الكاثوليكية دعمت قوتها بامتصاص بعض عناصر البروتستانتية التي تطورت بدورها وخسرت الكثيرمن جاذبيتها الأولى وأصبحت تشبه عدوها .

سياسة " الترويس " ، " التتريك " ، " الألمنة " الخ ... كانت تؤدي إلى عكس النتائج المقصودة ، وبدلاً من الامتصاص، كانت تغذي المقاومة الشرسة التي كانت تعتمد بالضبط المشاعر القومية التي دفعت إليها. " الحقيقة القديمة القائلة بأنه يجب التعلم من العدو كانت تؤكد ذاتها عادة بين المهزومين والمغلوبين، الذين كانت تحفزهم الهزيمة إلى تبني ما يبدو مميزاً لقوة الفاتح والعدو" .

لقد برزت الدولة القومية في مقاومة الكنيسة الكاثوليكية، ولكن هذه الاخيرة بقدر كبير ودون قصد تطور هذه الدولة، لأنها قدمت لها انموذجاً عن السلطة المركزة يمكن تقليده .

واستطاعت الثورة الشيوعية " ان تضيء منارة أمل للجماهير المسحوقة في كل مكان ، وفي هذا المعنى حولت، وأنسنت اعداءها انفسهم، لأن تحدي الشيوعية كان مسؤولا الى حد كبيرعن إصلاح الرأسمالية لذاتها " .

٧- تولد المخاطر الخارجية الحقد على العدو، والحقد يوحد ويصهر المجتمعات أكثر من روابط المحبة. كل الحركات الثورية الكبرى تعبر بقوة عن وتجد وحدتها أولاً في مشاعرسلبية كالخوف والقلق والحقد، الخ.. يرى كثير من المفكرين - وخصوصا من علماء النفس- أن هذه المشاعر هي التي تولد، في الواقع، قوة هذه الصراعات والحركات، وحدّة الوحدة الداخلية التي تميزها.

في حديثه عن روابط الحب التي توحد الأتباع مع القائد يكتب فرويد ان هذه الروابط تصبح أقوى عن طريق الحقد على الغير، أوعلى الذين يقفون خارج هذه العلاقة . وجود عدوخارجي يجذب إليه غريزة العدوانية التي تكلم عنها فرويد فتجد منفذاً لها في العداء الموجه إلى الخارج، وبذلك تدعم وتدفع إلى وحدة الجماعة أو المجتمع من الداخل . بدءاً من فرويد، نجد ان الكثيرمن علماء النفس والاجتماع، يرى أن مشاعر الألم والبؤس والمأساة تعبر عن الخيبة (Frustration)، وأن الخيبة تقود إلى العدوانية ضد المسؤولين عنها مباشرة أو غيرمباشرة هذا يعني توحيد مشاعر الجماعات التي تكون فريسة لها . ان فرويد الذي رأى أن الميل إلى اللذة وتجنب الألم يشكل القوة الأساسية في الطبيعة الانسانية، وجد الخيبة في كل عمل يمنع اللذة أو تجنب الألم . العدوانية تعني بالتالي الرد الرئيسي على كل خيبة والم . لهذا فإن العدوانية الموجهة إلى الخارج والتي تنقل إليه مشاعر من هذا النوع تقوي بشكل غيرمباشر الوحدة الداخلية وتدفع نحوها.

هذا ما كان، على الأرجح، في ذهن هاينه عندما كتب بأن ما عجزت المسيحية عن كسبه بالمحبة ربحته بالحقد.

الحقد، وليس الاعتدال والمحبة، هو الذي يشكل ميزة الاشتراكية كما أدركها ماركس وانجلز. هذا التوكيد على دور الحقد كان واضحاً جداً في كتاباتهما. إن أنجلز يكتب ،مثلاً ، في " ثورة دوهرينغ في العلم " " بأن الحقد وليس المحبة هوما نحتاج إليه في بلادنا - على الأقل في المستقبل القريب- كما نحتاج أيضاً أكثر من أي شيء آخر إلى إسقاط بقايا المثالية الالمانية ". هنا نجد أحد الأسباب في تشدد ماركس وأنجلز على استثناء " الاشتراكيين الأخلاقيين "، من حركتهما، لخوفهما من أن يقود دخولهم حركة العمال إلى إجهاضها .

٨- يحول حجم المجتمعات الكبيرة، دون قدرتها على فرض صورتها بشكل حي على خيال الفرد، ولهذا فهو يحتاج إلى رموز حسية يستطيع بها أن يعانيها . العدو الخارجي يوفر له بوجوده الحسي رمزا يحولها من مجرد إلى صورة عينية، ويجعلها بالتالي جزءاً من المناخ النفسي والفكري الذي يحياه . تجارب التاريخ السياسية والدينية والايديولوجية من أي نوع كانت تدل بوضوح على أن الخيال أو الوعي الانساني يستطيع تقديم الولاء أو أهم أشكال هذا الولاء عندما يتوفق إلى رموز حسية تبلور بشكل عيني المجردات

التي يؤمن بها . ينظر الفرد عادة إلى مجتمعه الكبيرعن طريق وسطه المحلى الصغير، او علاقاته المحلية المحدودة. الصورة الحسية التي يوفرها العدو الخارجي كرمز مادي يمثل النقيض لوجوده السياسي او القومي، تساعده على تجاوز هذا " العالم " المحلي . لهذا نرى أن الانطباعات والأحاسيس والتصورات التي يحملها الفرد عن مجتمعه الكبير في الأوقات العادية تكون ضعيفة وجانبية، وأنها تتحول إلى أشكال قوية وحادة أثناء المخاطر الخارجية التي تهدد هذا المجتمع .

٩ - عندما يحيا مجتمع ما في أوضاع عادية دون أزمات وتحديات كبيرة فإنه يستمر في معاناة الوضع الراهن الذي تعود عليه ، فيكون مستقبله استمراراً لحاضره . الضغوط الخارجية هي التي، في وضع كهذا، تحرض على التغيير وتدعو إلى التحول. يكشف الإنسان عن إنسانيته بشكل خاص عندما يجد أن هناك ما يعترض طريقه .. فأكثر أشكال خلقه وإبداعه اهمية تنتج عن توترنفسي يتولد فيه بسبب موانع تقف بينه و بين مقاصد يبتغيها. وتطالعنا الظاهرة نفسها على الصعيد الاجتماعي السياسي . فعندما تتعثر الحياة العامة ويعجز النظام القائم عن توكيد ذاته أمام قوى خارجية تتحداه وتهدده ، يتساءل الناس عندئذ عن معناه وشرعيته ، وبالتالي يحدث تحول عن الهوية التي تميزه . " المراحل الخلاقة في التاريخ لا تكون إلا في القليل النادر مراحل مستقرة " . عندما يحدث تساؤل من هذا النوع ، لا يعود بإمكان النظام القائم أن يكون بداهة يومية في حياتنا ، وعندئذ نستطيع أن ننظر إلى وجودنا من الخارج، وأن نعين ما ينطوي عليه من نقص . وبما ان التجزئة تشكل أحد جوانب هذا النقص الأساسية التي سمحت بانتصار العدو، أو تحدياته وضغوطه، فإن الوعي الجديد الذي نحققه يدفع آنذاك إلى معالجتها ، أي تجاوزها في وحدة تجمع الأجزاء المختلفة في دولة واحدة . ان معظم النظريات التي تحاول تفسيرظواهر الخلق والابداع " ترجعها إلى هزة تاريخية تُصيب مجتمعا ما، تتحدى الشعب وتدعوه الى الكشف عن أحسن ما يميزه من إمكانات الخلق . تلك الهزة تحدث إثر هزيمة أو مجاعة أوقساوة هجرة كبيرة " .

في وضع من هذا النوع فقط (هزيمة، مخاطر، وتحديات خارجية) تتاح للوعي السياسي البواعث التي تدفعه إلى الانفصال عن السلطات السائدة . إننا لا نستطيع أن نعي وجودنا الواحد دون انسلاخ عن الوضع القائم ، وهو أمر لا يتوفر لنا دون تحديات وضغوط خارجية تهدد هذا الوضع ككل. إننا نكتشف أنفسنا في اكتشاف أعدائنا ، نعي وحدتنا ونعانيها في صراعنا ضدهم. " كل شيء جديد ينتج " كما يكتب ماو تسي تونغ ، "عن مطرقة الصراع الصعب والمرير". لهذا نرى أن المخاطر الخارجية كانت السبب الأساسي في خلق وتوسيع نطاق الوحدات السياسية التاريخية. وهذا واضح جداً في ولادة وظهور أول وحدات سياسية وامبراطوريات كبيرة تشكلت منها الدول القبلية الأولى في العراق ومصر.

كانت الجماعات الإنسانية الأولى التي استقرت في هذه المناطق، في وادي الفرات ووادي النيل، تشكل في موقعها الجغرافي الاستراتيجي المهم معبراً ونقطة تقاطع للقافلات والطرق التجارية ، للجيوش الغازية والممالك الطامعة في الفتوحات، وللهجرات التي تفتش عن أرزاق جديدة . وقد جعلها هذا، ليس فقط على احتكاك دائم مع ثقافات ومفاهيم وعادات أخرى مناقضة، بل عرضة لضغوط وتحديات، مخاطر وفتوحات

مستمرة . هذا الموقع الجغرافي الاستراتيجي في قلب العالم المعروف آنذاك الذي كان يعني مخاطر عسكرية وسياسية خارجية دائمة كان العنصر الأساسي في ظهور تلك الوحدات السياسية الكبيرة الأولى .

في رده على النظريات الحضارية التاريخية حول بداية الحضارات الأولى التي ترى أنها تعود إلى توفر وديان يمكن ريها كتلك التي تحيط بأنهاركنهر الفرات أو النيل؛ يكتب المؤرخ تيجارت بأن هذه النظريات غيرصحيحة لأن هناك وديان من هذا النوع لم تظهر فيها تلك الحضارات، كما أن هناك حضارات ظهرت في أوضاع جغرافية تختلف عنها. ثم يستنتج من مقارنة عامة لنشوء الحضارات والوحدات السياسية الكبرى الأولى، بأنها كانت تعود الى ضغوط خارجية تنتج عن كون المناطق التي تظهر فيها تشكل نهاية طرق تجارية كبيرة ، مما كان يولد ضغطاً خارجياً مستمراً على سكانها . وكان موقع هذه المناطق الجغرافي الاستراتيجي الكبير، يتميز ليس فقط بضغوط خارجية تعود إلى كونه يشكل نهاية طرق تجارية كبيرة، بل بكونه نقطة لقاء، وعبور ونهاية لفتوحات عسكرية كبيرة كانت تدمج شعوباً وجماعات عديدة في وحدة سياسية كبيرة، أوتدفع هذه الأخيرة، كنتيجة الضغوط والمخاطر التي تترتب عليها، إلى الاتحاد في دولة كبيرة.

في وضع كهذا تجد الشعوب نفسها مضطرة باستمرار إلى التكيف مع الوسط الخارجي المتحرك والمتغير، أي على تجديد تنظيم علاقاتها مع هذا الوسط ، وخلق التغييرات التي يفرضها الاحتكاك بثقافات أخرى كضرورة حضارية، وبالمخاطر الخارجية كضرورة بقائية . لهذا اصبحت المنطقة التي تحيط بسوريا المكان الأساسي ليس فقط لظهور الأديان العليا بل لظهور الممالك والامبراطوريات أو الوحدات السياسية الكبرى الأولى في التاريخ .

١٠- تلغي المخاطر الخارجية العزلة السياسية والثقافية ، وبذلك تلغي انغلاق العقل وجمود الفكر، وتفرض عليهما درجة كبيرة نسبيا من الانفتاح والمرونة والقدرة على النقد . هذا يوفر بدورة أرضيه فكرية ونفسية ضرورية لكل تجديد اوتنظيم جديد لحياتنا الثقافية والسياسية وعلاقتها مع الخارج .

وقد اشار عدد من مفكري الاجتماع والتاريخ الى أن التحولات الثقافية والتاريخية الجذرية كانت تبرز في مناطق تلتقي فيها ثقافتان أو اكثر، أو حيث تغزو جماعات من " البرابرة " ثقافة مستقرة وتسودها. في أوضاع كهذه من الممكن أن تسود درجة من التحرر والمرونة التاريخية لا يمكن أن تتوفر أبداً في أوضاع عادية ، فتؤدي مع الوقت إلى أشكال سلوك سياسية وثقافية جديدة. لهذا رأى هيجل أن التاريخ يبدأ عندما يستيقظ الانسان في عالم عدائي ويرى أنه يتنكر لحاجاته ورغباته. يدفعه هذا خارج ذاته في هجوم على الوسط الذي يقاوم هذه الرغبات والحاجات.

المهم في إدراك التحولات السياسية والثقافية أو الحضارية ليس حدثا او أو تناقضا معينا، بل اصطدام نمط حياة أو نظام معين بنقيضه، أي التدخل الذي تمارسه قوى خارجية في هذا النمط أو النظام . الاستقرار الفريد الذي ميز دائما الجماعات ، وحتى الحضارات المنعزلة كحضارة " الموهينجو- دارو " ، يعود إلى ويجد تفسيره في غياب هذا الاحتكاك الخارجي أو التفاعل الديالكتيكي مع ثقافات وانظمة

وحضارات مختلفة ، وما يحمله ذلك من تحديات وضغوط ومخاطر. لهذا كتب المؤرخ المعروف ، هربرت موللر ، بأن " الفتوحات " .. كانت مع الوقت.. تؤدي إلى مجتمع تقدمي لأنها كانت تمزق التقاليد المغلقة ، وتضيف من ثم شيئاً إليها بعد أن تقتبس الأساليب الحضارية. الفتوحات ليست الطريقة المثلى، كما أنها ليست الطريقة الأكيدة في الحيلولة دون الركود، و في تغذية الخلق . ولكن منذ ظهور الحضارة في سامراء ومصركانت تشكل عادة تمهيدا لنمو جديد " .

العزلة الثقافية والسياسية- نوع العزلة التى تكشف عنها عادة الثقافات البدائية ، الحياة الريفية المستقرة، بعض الفرق الدينية، الجيوب الثقافية التي نجدها حتى في مجتمعات حضارية حديثة أو مجتمعات تتميز بالدينامية التاريخية ، الخ ..- كانت تعني الركود . العزلة تكثف وترسخ قوى التقليد والسكون، والاحتكاك الثقافي والحضاري، وخصوصا عندما يقترن بالضغوط العسكرية والمخاطر السياسية الخارجية، يؤدي إلى خلق الأوضاع التي تدفع إلى التحول الاجتماعي السياسي . العزلة تأتي، في الواقع، في طليعة جميع الأوضاع التي تقترن بالجمود السياسي والثقافي . هذا يفسر المطابقة الكبيرة التي نجدها في التاريخ بين مراحل التحول الاجتماعي والحضاري وبين موجات الهجرة، الطرق التجارية الجديدة، طرق المواصلات الجديدة، الاحتكاكات الثقافية، الخ .. وليس فقط الحروب، الفتوحات أو المخاطر والضغوط الخارجية. جميع هذه القوى تضعف ، تخترق، وتنقض ما تعود عليه الانسان وما يمارسه من سلوك رتيب، وتساعد على كسرما أسماه والتربيجا هو" قشرة التقليد الصلبة " .

المفكرون الذين قالوا بالتقدم " الطبيعي " بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر رأوا في الحرب العدو الرئيسي لتقدم المعرفة الطبيعي، ولكن كان هناك آخرون، من أمثال تورجو، ودافيد هيوم، نظروا إلى هذه الظاهرة من زاوية أخرى، وأشاروا إلى جانب آخر " ايجابي " فيها. فقد وجدوا، وذلك دون تبرير الحرب أو الدعوة اليها، أن الاحتكاك الثقافي، الاجتماعي والسيكولوجي الذي يقترن بالحرب يشكل عنصراً من أهم العناصر التاريخية التي يمكن لها تمزيق الجمود، والتحرير من قبضة التقليد القاسية، اي تحقيق الأوضاع التي وجدوا فيها شرطاً ضرورياً أساسياً للخروج من العلاقات الرتيبة التقليدية الذي يسمح بتقدم المعرفة الصحيح. الاتجاهات السائدة الآن في السوسيولوجيا، والانتروبولوجيا حول التحول الاجتماعي التاريخي هي الاتجاهات التي تقول أو بالأحرى تؤكد أولاً ، على عكس سابقتها في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والتي مثلها مفكرون كبار من أمثال ماركس ، وكونت، وسبنسر، ومورغن، وتايلور، وفرايزر، الخ .. بأن القوى الاساسية المحركة لذلك التطور هي الاحتكاك الثقافي، وما ينطوي من انتشار أفكار وعناصر حضارية مختلفة من مكان إلى آخر الضغوط والتحديات والمخاطر الخارجية هي من أهم القوى في تحقيق ذلك. كشفت الحفريات الأثرية ان مستوى الثقافة كان يرتفع مع الطرق التجارية ومحاذاتها. ولكن اذا كانت الحياة التجارية تعني، كما اشار كثيرون، درجة أكثر حيوية وحدّة من الذكاء، فذلك يعود الى ماتنطوي عليه من احتكاك دائم بين تناقضات عديدة . " قليلة جداً هي البلدان التي يمكن فيها إرجاع عملية تسريع التطور إلى أسباب محلية " .

ويرى عدد كبيرمن علماء الانثروبولوجيا أن الفكرة التي كانت شائعة حول حالة سكونية أو" استاتية " تميز حياة المجتمعات البدائية، تعود إلى نقص في المعلومات والوقائع التي كانت متوفرة حولها، أو تصورات مكونة سابقا ومتحيزة ضدها . فمن المجتمعات الهندية في القارة الأميركية إلى مثيلتها في القارة الإفريقية، كانت هذه المجتمعات في حالة تغير، تقلبات سياسية، واضطراب، الخ .. قبل مجيء الاستكشافات و الفتوحات الأوروبية. المهم هنا هو أن "هذه الدينامية كانت تعود بقدر كبير إلى الأثر الذي تمارسه هذه المجتمعات البدائية على بعضها البعض " ، وهو أثركان يعني مخاطر وتحديات تسود العلاقات التي تصل بينها . قدم تيجارت، في تصوير هذا الأثر الخارجي في إحداث التحول الاجتماعي السياسي التاريخي أو الحضاري قدم الصورة التالية : فقد كتب " كي نصل إلى إدراك الكيفية التي تتغيرفيها الأشياء في مجرى الوقت، يمكن لنا تصور وقائع التجربة التاريخية مرتبة مفاهيميا (Conceptually) في دائرات متحدة المركز . في الدائرة الأقصى نجد الكون النجمي . في داخلها نجد الدائرة الثانية أو الارض، وفي هذه الدائرة نجد دائرة عالم الحياة العضوية ، وفي هذه الأخيرة نجد دائرة عالم النشاطات الانسانية . بعد ذلك نجد دائرة الجماعة الكبرى أو الأمة . وداخل هذه الدائرة نجد دائرة الجماعة المحلية (Community) ، وأخيراً نجد دائرة الفرد في مجموعة كهذه من الواضح أن التغييرالذي يحدث في اية دائرة خارجية يؤثر في جميع ما يقع ضمنها. هكذا يمكن لنا تحديد " الحدث " (Event) كتدخل من دائرة خارجية في أية دائرة أو وضع قد يكون موضوع اهتمامنا " . هذا يعني بكلمة أخرى أن العوامل الخارجية هي المسؤولة أولاً عن التحولات الاجتماعية التاريخية.



هذه هي أهم الاتجاهات الوحدوية التي تترتب على وتتفرع من ضغوط وتحديات المخاطر الخارجية، والتي تفسرلماذا كانت هذه المخاطرتقترن بعملية التوحيد السياسي عبر التاريخ ، أي عبر التجارب السياسية التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة من حالة تجزئة إلى حالة وحدة.

هنا نود الإشارة ، زيادة في إيضاح وتوكيد هذه الصلة بين المخاطر الخارجية وعملية التوحيد السياسي ، إلى ممارسة السلطة داخل الدولة نفسها عندما تتعرض لمخاطر خارجية . لقد رأينا في شرح الأسباب التي تفسر المضمون الوحدوي الذي تنطوي عليه هذه الأخيرة أن ضرورة تعبئة الموارد والإمكانات الواحدة وتركيزها في وجهة واحدة، هي وجهة مقاومة العدو أو الخطر الخارجي، كانت من أهم هذه الأسباب . هنا نجد ان هذا الاتجاه نفسه يؤكد ذاته داخل الدولة، التي تعمل على تعبئة مواردها وطاقاتها، تقوية وتعميق وحدتها الداخلية في مجابهة هذه المخاطر.

ليس هناك على الصعيد السياسي ظاهرة أكثر وضوحاً وثباتاً من ظاهرة تركيز السلطة السياسية، وتركيزها بشكل شديد في كثيرمن الأحيان، عندما يواجه شعب ما مخاطر خارجية كبيرة أو حتى أزمات داخلية اساسية.

وكان الرد الأول على المخاطر الخارجية، بشكل مستمرتقريباً ، هوتركيز السلطة الى درجة ما، وهي درجة كانت، من ناحية عامة، تتراوح شدة وحدّة مع شدة وحدّة هذه المخاطر. الأجهزة التي يُفترض فيها عادة التغلب على او مجابهة حالات طارئة كالجيوش ، السفن ، الفرق الاطفائية. الخ .. وليس فقط جهاز الدولة، تنظم نفسها منذ البداية في سلطة مركزة، وتخضع لارادة واحدة. ولكن الجماعات أو المؤسسات التي لا تحتاج إلى عمل سريع مركز وحازم، كالمجالس البلدية، الشركات التجارية، الجامعات، النوادي، الخ .. تخضع عادة لسلطة موزعة تتمثل عادة في لجان عديدة. المخاطر الخارجية تمثل حالة طارئة تتطلب قرارات سريعة، وتنسيقا فعالا للجهود والموارد اكثر من أي عمل أو حالة طارئة أخرى . لهذا كانت تقترن باستمرار بتركيز السلطة وتوحيدها في إرادة واحدة . حتى القبائل البدائية التي لا تعرف رئيسا في أوقات السلم تخلقه في أوقات الحرب. كما تدل التجارب التاريخية من ناحية اخرى، أنه كلما ازدادات حدة الحروب أو كانت متكررة، ازدادات أوتوقراطية الدولة التي تتعرض لها . " ظهور الحرب على نطاق واسع يقدم أحد الأمثلة الأكثر وضوحاً على النشاطات الجديدة التي تتطلب درجة عليا من التنسيق المركزي .. الأوضاع التي تدفع إلى ظهور الأنظمة الكلية (Totalitarian) تتكرر بشكل متقطع عبر التاريخ . وعند مراجعتها نرى أن العنصر المشترك بينها هو ظهور خطرما على المجتمع أوعلى قسم هام منه " .

لقد كانت ثقافات ما قبل التاريخ الأولى، كما يبدو، سلمية لا تعرف الحرب ، لأن التحصينات والأسلحة المتقنة كانت مفقودة فيها أو غيرموجودة بين بقاياها . ولكنها من ناحية أخرى، لم تترك أيضاً أي اثر يدل على وجود رؤساء أقوياء في شكل مساكن وقبور ترمز إليهم . أما حيث نجد أسلحة وتحصينات معقدة فإننا نجد أيضاً بقايا قصور ومقابر ملكية . وقد لاحظ علماء الانثروبولوجيا في دراستهم للمجتمعات البدائية ، أن المجتمعات التي لا تعرف رؤساء هي تلك التي تميل إلى السلام أو تحيا أوضاعا سلمية .

وكان نشوء الدولة الحديثة في أوروبا، بدءا من القرن السادس عشرحتى القرن التاسع عشر، يعتمد على تركيز السلطة . فالأمراء الأتوقراطيون هزموا الأمراء غير الاوتوقراطيين، وبذلك استطاعوا إنشاء الدولة القومية . " اعطت المخاطر والصراعات الخارجية الانظمة الملكية المطلقة في أوروبا القرن السابع عشر الباعث الأساسي على الابتكار وعلى تركيز السلطة " .

كان الرومان، اثناء الجمهورية، يرتابون بالسلطة الشخصية إلى درجة دفعتهم الى توزيع قيادة الجيش بين قائدين يقودانه بالتناوب . ولكن في أوقات الخطر، عندما يكون من الضروري صنع كل شيء ممكن من اجل تأمين النصر، كان الرومان يجمدون هذا الترتيب ويعطون سلطة غيرمحدودة لرجل واحد إلى أن تنتهي حالة الخطر.

في حضارة سومر، أولى حضارات العراق القديم، نجد ظاهرة مماثلة للظاهرة الرومانية ، وهي تركيز السلطة في دكتاتور عندما يبرز خطر ما . وكان يُدعى " لوجال " وهي كلمة تعني الرجل الكبير

وتترجم عادة كـ " ملك " . هذه السلطة الدكتاتورية كانت ذات مدة محدودة، وكانت تُعاد إلى مجلس تمثيلي عند نهاية الوضع الطارىء الذي دعا إليها .

" هدف السلطة المركزة في مجتمعات ما قبل الصناعية، وكذلك في الازمنة الحديثة ، كان التنسيق إلى أبعد حد ممكن لأعمال المجتمع، وذلك بغية تحقيق قصد واحد كالفتح ، الدفاع ضد عدو، الحيلولة دون أوتحقيق تحول اجتماعي " . ليس من قبيل الصدفة أن نرى مثلاً ، بأن عهد السلام الفريد الذي ساد أوروبا من نهاية الحروب النابليونية حتى الحرب العالمية الأولى، شاهد في الوقت نفسه انتشار الايديولوجيات والأنظمة السياسية التي أكدت على الحريات والحقوق الفردية. من ناحية أخرى، نجد ارتباطاً وثيقاً بين التعبئة التامة للموارد والرجال التي وضعت موضع التنفيذ أثناء الحرب العالمية الأولى، وبين ظهور الأنظمة الكلية التي تتميز بتنظيم جامع للسكان وطاقاتهم .

ان علاقة التنظيم الاجتماعي السياسي الفعال أو السلطة القوية الموحدة بالمخاطر والصراعات التي تحدث بين المجتمعات الإنسانية، هي علاقة مطلقة تقريبا . فالحرب الناجحة ترتبط بالإجماع والعمل الجماعي الموحد، وكلاهما يتطلب نظاماً موحداً وقيادة مركزة . ليس الحرب فقط، بل خطر الحرب، أو خطر وجود عدو خارجي، يدفع المجتمعات إلى تحقيق أكبر درجة ممكنة من الوحدة الداخلية وإلى تنظيم ذاتها بشكل يوفر لها سلطة مركزة وإرادة واحدة، لأن الإعداد لها يعني تنظيم المجتمع بشكل يحقق تعبئة قواه وإمكاناته وتركيزها ضد الخطر دون تأخير أو تبعثر، تفترض حاجات وضرورات الحرب أو الدفاع ضد خطر خارجي، وتخلق عادات تنظيم وطاعة وانضباط تستمر في أيام السلم إلى حد ما . لهذا إن كانت الحروب أو المخاطر الخارجية متكررة ، مستمرة ، والسلام قصيراً، فإن الأنظمة السياسية في وقت السلم تصبح شبيهة بتلك التي تكون ضرورية لقيادة الحرب أو الاحتياط ضد خطرها .

يدل تاريخ الديمقراطيات القديمة والحديثة بوضوح على هذا الارتباط الوثيق بين المخاطر الخارجية وتركيز السلطة السياسية. كل حرب من الحروب الحديثة ، من عام ١٧٨٩ حتى الحرب العالمية الثانية كانت تضاعف باستمرارمطالب وحاجات الدولة الى الرجال، الأسلحة، الموارد المختلفة، الإنتاج، الضرائب، الخ .. وبذلك كانت توسع وتضخم وتركز السلطة التي تمارسها. الحرب العالمية الأولى، مثلا، " صنعت أشياء كثيرة- ولكن شيئاً واحداً كان مدهشا، فلقد فرضت السيطرة على الاقتصاد على حكومات جميع المتحاربين، بريطانيا، فرنسا، المانيا، وإلى حد كبير المتحدة " .

" الجمهوريات التي لا تستطيع في أوقات الخطر "، كما كتب ميكافيلي ، " أن تلجأ إلى الدكتاتورية، تتعرض للخراب عندما تواجه اوضاعا خطرة ". لهذا ليس من المستغرب أن تشكل المخاطر والضغوط الخارجية التي كشف عنها العصر الحديث قوة تدفع الديمقراطيات الحديثة والعريقة نحو أشكال عليا من تركيز السلطة . والخوف من المخاطر الخارجية والاحتياط ضدها كانا يدفعان الناس في كل مكان إلى التضحية بقدر كبير من الحريات والحقوق الفردية للسلطة التي تمارسها الدولة.

لقد ظهر النظام التمثيلي في انكلترا لأنها لم تكن تحتاج، كجزيرة، الى جيوش كبيرة للدفاع عنها. أما الأسطول، الذي كانت تعتمد عليه في أمنها، فلا يمكن استخدامه في الاستيلاء على السلطة أوكبت السكان المدنيين . وانتقل هذا النظام بنجاح إلى خارجها ، وكان من الممكن ممارسته فقط في البلدان التي كانت، كإنكلترا، لا تحتاج إلى الاعتماد على جيوش كبيرة. هنا نجد المستعمرات الإنكليزية السابقة، كندا، الولايات المتحدة ، نيوزيلندا، اوستراليا. ولكن حتى في هذه البلدان التي تميز فيها النظام البرلماني بتقاليد قوية نجد أن السلطة بلغت درجة عليا من التركيز- وهوتركيز استمر الى حد كبير في وقت السلم - كنتيجة للحربين العالميتين الأخيرتين .

" حتى في الديمقراطيات، كما نجد في الولايات المتحدة، سويسرا، أو اسكندينافيا، يقدم القادة الأقوياء شعوراً بالطمأنينة النفسية لا يستطيعه القادة الضعفاء " ، ولهذا تظهر في أوقات الأزمات والتوترات مطالبة بممارسة سلطة قوية " . في التاريخ الأميركي " كان الرؤساء يعلنون أن حالات الطوارىء تتطلب منهم العمل خارج ، وحتى ضد الدستور. لينكولن، وروزفلت الثاني، وجدا دعما لمزاعمهما " . وحتى الماضي القريب، لم تكن سلطة الحكومة قد امتدت بعد إلى الكثير من مستويات الحياة الأميركية. ولكن انتهى هذا عام ١٩٣٣، منذ ذلك التاريخ صارت السلطة الحكومية، وبشكل خاص السلطة الاتحادية، تمتد بثبات من صعيد إلى آخر إلى أن أصبحت مهيمنة على الحياة بشكل عام واضح . ويذهب البعض الى ابعد من هذا، ويرون أن الديمقراطيات الغربية العريقة هي التي عرفت قبل غيرها النظام الكلي . " إنني اعتقد دون مبالغة بأن تجربة الغرب الحقيقية الأولى في ممارسة النظام الكلي- السلطة السياسية المطلقة التي تمتد إلى كل صعيد ممكن من الثقافة والمجتمع، التعليم ، الدين ، الصناعة، الفنون، الوحدات الاجتماعية المحلية ومنها العائلة ، مع الارهاب الذي يقف دائما بالمرصاد- جاءت مع حالة الحرب الأميركية خلال رئاسة ويلسن " .

في كل دولة فيدرالية تقريبا نرى أن التوترات والضغوط الخارجية، الضرورات الاقتصادية والاجتماعية والتقنية والعلمية الحديثة تعمل على توسيع سلطة الحكومة المركزية ، تركيز السلطة بشكل مطرد فيها، وتحويلها من الشكل الفيدرالي الى الشكل الدمجي (Unitary). قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بمدة وجيزة، وكان ذلك عام١٩٣٩، كتب هارولد لاسكي . " بأن عصر الشكل الفيدرالي قد انتهى، وذلك لأنه لا ينطوي على إيجابية كافية، لا يسمح بعمل سريع كاف ، يحول دون ظهور مقاييس ضرورية عامة، يعتمد على تسويات وتعاقدات لا تعطي وزنا كافيا لعنصر الزمان، يترك القطاعات والمناطق المتخلفة تمارس تقييداً طفيليا على تلك التي تريد التقدم إلى الأمام ، وأخيراً وليس آخراً ، يضعف الديمقراطية التي تحتاج إلى دراما المنجزات الفعالة كي تحفظ بالايمان بها " .

لقد دفعت هذه التطورات بالبعض إلى الاستنتاج بأن نوع السلطة المطلقة التي ارادها هوبز للدولة كبديل وحيد لحالة الطبيعة أصبحت، في الواقع، واقعة تاريخية ، وذلك في الديمقراطيات الغربية والأنظمة الكلية دون تمييز. الأنظمة الكلية تحاول تعبئة جميع طاقات وقوى الشعب المادية والنفسية لأجل

قصد واحد اعلى . وهذا يوازي ما يحدث في ديمقراطية حديثة في زمن الحرب " . ويعترف المفكرون الاجتماعيون والسياسيون بأن اعتماد " نظام سياسي يمارس درجة عليا من تركيز السلطة ويضع حدوداً ضيقة على الحرية السياسية ، وخصوصا في التعبيرعن المعارضة، يشكل تقريباً شرطاً للوحدة السياسية في أوضاع يسودها الخطر والتحول الاجتماعي " .

هنا تجدرالإشارة أيضاً الى أن بلدان العالم الثالث توفر، من زاوية اخرى مثلاً إضافياً عن هذه الصلة الوثيقة بين المخاطر الخارجية وتركيز الدولة. فالضغوط الداخلية الهائلة التي تجابهها، والتحديات الخارجية الكبيرة التي تحيط بها، تدفع كلها نحو وحدة سياسية داخلية شديدة، وسلطة مركزة كل التركيز. لهذا نرى في هذه البلدان أن الدولة هي التي تمارس الدور الرئيسي في عملية التحديث والتحول الاجتماعي الاقتصادي . تدل تجربة هذه البلدان " أن الضرورة الأولى للبلدان النامية هي سلطة سياسية مركزة وقوية) . وأن المشكلة الأولى التي يجب عليها معالجتها وحلها هي إقامة سلطة من هذا النوع تواجه فيها هذه التحديات والضغوط . النظام الليبرالي الغربي مثلا مر بمرحلة سابقة مماثلة كانت تفرض سلطة مركزة من هذا النوع قبل الانتهاء في أجهزته وقواعده البرلمانية . " الانظمة الليبرالية تطورت من أنظمة اوتوقراطية سابقة أقامت السلطة السياسية الجديدة وثبتتها. في هذا المعنى يمكن الاستنتاج أنه يجب على كل نظام سياسي أن يحل أولاً قضية السلطة السياسية ويقررها، وبعد ذلك، في طور لاحق، يهتم بمسألة العدالة والمساواة والحرية .

في حديثه عن الوحدة السياسية التي حققتها الأمم الأوروبية يكتب ميردال بأن " الاختلافات القائمة (أي بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية) تعني حلقات مفرغة يمكن تحطيمها فقط عن طريق تخطيط وتدخل كبيري الحجم من قبل الدولة. لقد لعبت الدولة دوراً أكثر أهمية مما هو معترف به عادة في مراحل التنمية الأولى للبلدان المتقدمة حالياً ، كما انها كانت منذ البداية دولة أكثر فاعلية مما يتوفر حاليا للبلدان النامية " .

ان ماكورد الذي حاول تعيين الأسباب والقوى التي يمكن لها أن تجعل عملية التصنيع والتنمية في العالم الثالث ممكنة في إطار الديمقراطية البرلمانية التمثيلية، يضطر الى الاعتراف ، مثلا، أن " القوة الدافعة للتاريخ توجه، كما يبدو، جميع البلدان النامية في اتجاه دكتاتوري " .

عندما تكون الضغوط الداخلية- وليس فقط الخارجية- التي تدفع نحو التنمية الاقتصادية الفعالة شديدة (الفقر، زيادة عدد السكان، الخ..) والعثرات التي تعترضها كبيرة، فان ديالكتيك الطريق إليها يدفع إلى سلطة سياسية موحدة، مركزة وشديدة التركيز. (ثمن التنمية الاقتصادية يميل بأن يكون ممارسة سلطة سياسية واقتصادية أوتوقراطية.. فالضغوط التي تنطوي عليها ستقود على الارجح إلى سلطة مركزة ، هذا أن أريد لها أن تتحقق بأي شكل" . إن " التاريخ لا يقدم لنا مثلاً واحداً عن بلد يسوده تخلف كبير (اقتصادي واجتماعي) استطاع أن يقيم ديمقراطية سياسية ثابتة وفعالة . وتوفر لنا المقارنة التاريخية صورة واضحة عن حدة هذه الضغوط التي تدفع نحو سلطة سياسية شديدة التركيز. " إننا

نستطيع إدراك الطابع القاهر لهذه المشكلة في البلدان النامية.. عند مقارنتها مع عدد من الأحداث المهمة في التاريخ الأميركي . فالبلدان النامية تجابه في نقطة واحدة من تاريخها نماذج المشاكل الاجتماعية والصراعات التي لازمت الثورة الأميركية، صنع الدستور، عصر جاكسون، الحرب الأهلية ، الثورة الصناعية، تعميم الاقتراع العام، أزمة الثلاثينات الاقتصادية وثورة السود الحالية . ان القضايا التي انطوت عليها هذه الحركات التاريخية ظهرت في مجرى مائة وتسعين سنة ، ولكنها حتى الآن لم تجد حلاً يرضي قطاعات مهمة في المجتمع الأميركي .

رأينا فيما تقدم أن المخاطر الخارجية تدفع المجتمعات المجزأة الى تحقيق درجة عليا من الوعي الذاتي، تكتشف بها هويتها الواحدة، أو تتبلور بهوية واحدة تعانيها تحت وطأة الضغوط والتحديات الواحدة التي تتعرض لها في مجابهة هذه المخاطر. كما رأينا أن القانون نفسه يمتد، من زوايا مختلفة، إلى الهوية الطبقية وإلى السلطة التي تمارسها الدولة . فالطبقة تصل الى الوعي الذاتي لهوية واحدة والسلطة السياسية تبلغ درجة عليا من التركيز، عند مواجهة مخاطر وتحديات خارجية. كلاهما يحتاج إلى هذه الاخيرة في تحقيق وحدة داخلية قوية. وينطبق الشيء نفسه على الذات الفردية فهذه الذات تنمو وتتبلور كوحدة- كالهوية القومية أو الطبقية، او السلطة السياسية - عن طريق التحديات، الصعوبات والتناقضات الخارجية، وهي تحتاج إلى هذه الأخيرة كي تحقق أي تطور ترغب فيه. " إن تطور الذات يعني تطور عملية التمييز، التي تلاحظ الاختلافات والانسجامات. ولكن الاختلافات وليس الانسجامات هي التي تكون أساسية في تمييز الذات " . الذات نتاج اجتماعي، والفرد يستطيع أن يعي ذاته فقط عندما يضطر إلى التفكيرحول ذاته، عندما يستطيع الخروج من ذاته فينظر إليها من الخارج ويتحول إلى موضوع لذاته. هذا ما يحدث له عندما يلتقي بالآخر في علاقة تناقض . الإنسان يعي ذاته بشكل عام بسبب الحدود والقيود والصعوبات التي تجابهه. هكذا يبرز الوعي الذاتي كنتيجة لعملية (Process) التناقض والتمييز. لهذا كتب بول لانجيفين " إن عقلنا والعلم الذي يخلقه في تكيفنا أكثرفاكثر مع الواقع، يخضع كجميع المخلوقات الحية والكون نفسه ، إلى قانون التطور، وهذا الأخير يصنع نفسه عبر سلسلة من الأزمات ، حيث يتحول كل تناقض يتم التغلب عليه إلى إخصاب جديد " . ان أحد المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها المعالجة النفسية الحديثة هو، " الهزة التي تأخذ صفة الهزة الكهربائية ، الهزة النفسية، او الهزة التي تنتج عن بعض الأدوية. ويظهر أن الذين يتألمون من بعض الأمراض النفسية يحتاجون إلى ما يهزهم بعنف كي يتغلبوا على ما يشكون منه .

إن إبداع فخته الأول، كما رأى الفيلسوف الماركسي البولندي كولاكوسكي، كان الملاحظة البسيطة بأن الفكر الإنساني لا يستطيع التحرك دون صعوبات وموانع، تماماً كالسيارة التي لا تستطيع الانطلاق من الجليد أو الطائرة التي لاتستطيع الاقلاع في فراغ. الفلسفة التي تكون تأملا محضا أوتعبيراً عن عالم العقل المقفل، تكون للسبب نفسه وهما محضا . " الشخصية الانسانية تنمو وتجد ذاتها عندما تكون متعارضة أو متناقضة مع العالم ، أي في علاقتها مع العالم .. " . السيكولوجيا من ناحية عامة دلت على أن الصراع يشكل عاملا مهما في فصل الذات عن العالم الخارجي، استقلالها ونموها. يونغ ، مثلا ، كان

يعبر عن شتى مدارسها ونظرياتها، عندما نبه بان كل نظرية سيكولوجية في الشخصية يجب أن تقوم في مبدأ التناقض. فدون التوتر الذي ينتج عن هذا التناقض لا يكون هناك نشاط ، وبالتالي لا تكون هناك شخصية. وكان فرويد مهتما، أكثر من ماركس نفسه، بالصراع والتناقض في العلاقات الإنسانية. فحيث كان آخرون يتطلعون إلى الانسجام، كان فرويد يبحث باستمرار عن التناقض والصراع، وحيث كان الغير يبحث عن بنية الذات (Structure) كان فرويد يبحث عن قلق التحقق الذاتي والصيرورة، وصراع النفس في تحقيق امكاناتها عن طريق تجاوزها لذاتها. ولقد وجد أن نمو الذات يتحقق نتيجة تفاعل مع أو رد على أشكال الصراع والمخاطر وأنواع الكبت المختلفة التي يتعرض لها الفرد. لهذا كتب ويليام جايمس، من جهته، بأن المصدر الأول للتبرم هو الاكتفاء، أن الحاجة والصراع يحركاننا ويلهماننا، والفراغ يأتينا في ساعة انتصارنا .

" إنني أحتاج إلى عدوي... إنه يحفظ لي نشاطي وحيويتي، إنني أحتاج إلى نقده . قد يكون ذلك غريبا ولكنني أحتاجه كي أحدد نفسي ضده.. ولكن بالاضافة إلى ذلك ، إننا نتعلم بشكل خاص من أعدائنا، ونحتاج إليهم شعوريا. ان اقتصادنا النفسي لا يستطيع العمل دونهم.. الناس يشعرون بفراغ فريد عندما يموت عدوهم أو يصبح عاجزاً. كل هذا يدل أن عدونا ضروري كأصدقاءنا " . ويؤكد سان-اكزوبيري موقفا كهذا في قصصه ، ويقول بأن الأرض تعلمنا أكثرمن جميع الكتب لأنها تقاومنا – فالإنسان يكشف عن ذاته عندما يقيسها بالعثرات. ومالرو أراد هو الآخر أن يدل في قصصه بأن الإنسان يستطيع أن يعي ذاته ويحددها، ان يعي العالم ويعيد التفكير فيه في التمرد فقط وفيما يولده ذلك من تناقض ومقاومة. هذا الدور الذي تمارسه التناقضات والصراعات في الكشف عن الذات وامكاناتها، عن وحدتها وتطورها، دفع الكثيرين من المفكرين الى نقض وشجب مراحل السكينة والاستقرار والأفكار التي تدعو اليها .

إن التوكيد على كون الحرية تتطلب وجود ظلم كي يمكن أن تنمو بشكل قوي ، ينطوي على أكثر من إخراج لفظي . هنا نجد على الأرجح مأساة، وكذلك أيضاً عظمة الحرية. فعندما. يتحقق مثال الحرية أو يصبح قريبا من التحقق، فان القوة الدافعة للتذمر تزول، ويستقر المجتمع لمدة ما في قبول عام للأشياء كما هي . لهذا كتب سارتر مرة " إننا لم نكن أبداً اكثر حرية مما كنا عليه تحت الاحتلال النازي " . واشار ماركس إلى أنه حيث تكون الطبيعة سخية في عطائها فإنها تعامل الإنسان كطفل، ولا تفرض عليه أن يطور ذاته . ولكن حيث تكون شحيحة في توزيع مواردها فإنها تحفز الإنسان، تطلب منه ممارسة إمكاناته بشكل مستمر، وتفرض عليه التوفير، التخطيط ، والقيام بشتى أنواع المشاريع . " ... قبول التحدي هو نمط الإنسان في الحياة. فنحن حيوانات الطقس السيء وأفضل أبناء الكوارث. يظهر الإنسان في افضل أشكاله عندما يمر في أسوأ أوقاته ، وذلك يشكل أفضل الأسباب التطورية " . وتدل حياة الكثيرين من أكبر المصلحين الاخلاقيين بوضوح، على هذه الظاهرة. فهي حياة تنقسم الى قسمين، لأننا نجد فيها نقطة تحول جذري نشطرها إلى مرحلتين منفصلتين، يمكن تسميتهما مرحلة الغيرية الاخلاقية ، ومرحلة ما قبل الغيرية. هذا التحول الجذري كان عادة نتيجة نكبة، مأساة واجهت صاحبه. قبل هذا الاهتداء

(Conversion) الأخلاقي، كان هؤلاء لا يكشفون عن أية غيرية أو قدرة كبيرة على العطاء، وبعضهم كان يتميز بأنانية بارزة. " الأنا " التي اقتبسوها بعد التحول كانت، بما أصبحت تتسم به من وعي وقيم وولاءات، تتميزكليا عما كانت عليه سابقا، وكأنها ولدت من جديد. مرحلة التغييرالتي نتجت عن تلك النكبة أو المأساة كانت تعني تفسيراً جديداً جذرياً لأبعاد الذات كلها . في حياة الفنانين والأدباء الكبار نجد أيضاً الظاهرة نفسها، فالصعوبات والتحديات والمآسي التي عاناها عدد كبيرمن هؤلاء دفعتهم إلى أعمالهم الأدبية والفنية الخالدة.

" ان سيرة فلاسفة الماضي الكبار تكشف دون استثناء تقريباً عن مآسي شخصية حادة " لقد عانى الكثيرمن العلماء والمفكرين والمخترعين تحديات كبيرة واجهتهم أثناء أو قبل ما أنتجوه من أعمال خلاقة . " عندما تكون الأوضاع سهلة وسلسة دون حواجز تقف في طريق نشاط الإنسان، فإن طاقاته تبقى كامنة فيه أوتكشف عن جزء يسير منها فقط ... إن التحقق من هذه الظاهرة الانتظامية المتكررة يدل عليه تاريخ مصر القديمة ، ، بابل، العالم اليوناني- الروماني، الصين، الهند، وأوروبا، ويكشف ان جميع الخطوات المهمة في تقدمهم .. حدثت بالضبط في مراحل من النكبات القصيرة والطويلة، اومباشرة بعد أن تصل هذه النكبات الى قمتها" .

الملاحظات السابقة كافية في التدليل على دور التحديات والضغوط الخارجية في الكشف عن امكانات الخلق في الذات، في تحقيق وحدتها وتطوير هويتها . فالهوية الفردية تنمو وتتبلور كالهوية القومية عن طريق هذه التحديات والضغوط . " الدعوة القومية "، كما يكتب ميردال، " تكون اكثر نجاحاً عندما تتخذ شكلاً سلبياً ... لأن إثارتنا ضد شيء تكون أكثرسهولة من إثارتنا في سبيل شيء) . وحدة الذات وقدرتها على الخلق والتطور تتوفران لها ايضاً وتكونان أكثر فاعلية عند مجابهة الضغوط والتحديات الكبيرة التي تتناقض معها.

القسم الثالث

دور شخصنة السلطة في تجارب التاريخ الوحدوية

تمهيد

اشرت في مقدمة الكتاب الى ان العطل الأساسي في الفكر الوحدوي العربي يكمن في مسألة تحديد الطريق إلى الوحدة ، ليس فقط دون دراسة الظاهرة الوحدوية، بل دون أي وعي واضح لضرورة ذلك، أو حتى لوجود هذه الظاهرة نفسها، وهو يتميز بالتالي من هذه الناحية، بتخلف علمي هائل . لذلك لايمكن في الواقع ان نجد في الفكرالحديث من فكر أكثر تخلفا من هذا الفكر. كما ان دراسة ظاهرة القيادة الثورية دراسة علمية كانت ، هي الأخرى، غريبة تماماً عن هذا الفكر. فهذا الفكر كان عاجزاً كل العجز عن دراستها كجزء من ظاهرة عامة تتميز بأية موضوعية مستقلة . وتكشف عن ذاتها في قوانين مستقلة . لهذا كان ما كتبه هذا الفكر حولها يتميز بطبيعة اخلاقية وتبشيرية ، يدور على " ما هو اصلح " ، " ما يجب أن

يكون " وليس على " ما كان " ، " ما يمكن أن يكون " او ضبط " ما يمكن أن يكون " في ضوء وعي موضوعي لديالكتيك " ما كان ".

إن هذه الدراسة تعود إلى التجارب الوحدوية الثورية تكشف فيها ذاتها ، في موضوعيتها المستقلة، في الاتجاهات الواحدة المتكررة التي تعيد ذاتها فيها ، طبيعة هذه الظاهرة والأسباب التي تدعو إليها وتفسرها. أما التجارب التي تعود إليها فهي التي كانت تنكر من حيث المنطلقات والمفاهيم ، الاوتوقراطية ، السلطة الفردية، الدكتاتورية ، الخ .. وتدعو إلى مبادىء مناقضة تؤكد الديمقراطية ، القيادة الجماعية ، الإرادة الشعبية ، المساواة ، الحرية ، وقدرة الفرد أو الشعب على سيادة مصيره، وعلى اتخاذ المبادرات العقلانية الضرورية في ذلك .

عند الرجوع إلى هذا النوع من التجارب نرى أنها كلها كانت تنتهي في ممارسة سياسية تنقض تماماً ومن الجذور تلك المنطلقات والمفاهيم . هذا التناقض بين الممارسة و بين هذه المنطلقات والمفاهيم لا يجد طبعاً تفسيراً له في " مؤامرة " ، او" نوايا سيئة " من قبل القادة والقيادات، لأن تكرر ظاهرة سياسية بهذا الشكل يفرض الرجوع إلى طبيعة الأوضاع التي تحيط بها ، في تفسيرها، وليس إلى مقاصد مبطنة أوضمنية لهؤلاء . لهذا تستثني هذه الدراسة التجارب الوحدوية والثورية التي كانت تنطلق من مبادىء تنسجم مع ممارسة كهذه ، أي مبادىء تدعو إلى وتعترف بدور القائد، بأهمية عمله الكبرى في صنع التاريخ، تنكر المساواة، الحريات والحقوق الفردية، والقيادة الجماعية ، الخ .. العلاقة هنا منطقية بين المنطلقات والممارسة. ولكن عندما يكرن هناك تناقض متكرر كالذي أشرنا إليه بين المنطلقات والممارسة ، لا يصح استنتاج كهذا ويصبح من الضروري تفسيره بالرجوع إلى الأوضاع التي تحيط به.

تدل هذه الدراسة الى أن طبيعة هذه الأوضاع هي التي تفرض هذا التناقض ، وهي التي تقود إلى شخصنة السلطة ، اي تجسيدها وتركيزها في شخص القائد . أما درجة التركيز والتجسيد فتختلف باختلاف جذرية الحركات التي تعبر عن هذه الأوضاع ، أو حدة الضغوط والتحديات والأزمات التي تواجهها . فبقدر ما تزيد هذه الجذرية أو الحدّة، بقدر ما تتزايد درجة هذه الشخصنة.

الشرط الأول للمعرفة العلمية هو أن تتخذ شكل مفهوم عام لعلاقة عامة تربط بين الظواهر التي تدرسها. الفكر العلمي هو الذي يحول التعدد إلى الوحدة ، ويكشف في تنوع وتراكم الظواهر التركيب العام الذي يدل على ترابطها. " العلم يبني أو ينظم من جديد لأن قصده هرشق طريقه عبر الظواهركي يكشف عن حقيقة غير ظاهرية تقف وراءها " .

يتميز الالتزام الوحدوي الايماني أو الأخلاقي بكونه ينقاد فقط للقصد الوحدوي دون أي اعتبارأو وعي للوسائل الموضوعية العلمية التي يمكن ان تقود الى القصد. فهو يلتزم عندما يصح- بهذا القصد ويلتصق به التصاقاًص شعورياً عفوياً غير مشروط بالأوضاع التي تحيط به أو العملية التي يمكن لها تحقيقه. إن سلوكاً من هذا النوع يمكن أن يوحي بسمة عقلانية لأنه يعبر عن انسجام باطني . ولكنه، في الواقع، سلوك لا عقلاني لأنه لا ينطلق من وعي موضوعي علمي لديالكتيك العملية الوحدوية أو من

العلاقات الانتظامية الواحدة المتكررة (Regularities, Patterns) التي تسودها. الفكر الوحدوي العربي كان ، من هذه الزاوية العلمية ، فكراً لا عقلانياً .

العمل الوحدوي العقلاني هو فقط العمل الذي يستخدم وسائل ترتبط ارتباطاً صحيحاً موضوعيا بالقصد الذي يسعى إليه ، والذي يستطيع ان يميز بين الطريق التي يمكنها أن تقود إلى أوتدفع نحوهذا القصد وبين تلك التي تكون عاجزة عن هذا، فيتبنى الأولى وكانت تعني التضحية بمصالح ونجاحات مباشرة. ولكن كي يمكن لهذا العمل أن يكون من هذا النوع وجب أن يكون مسلحاً بنظرية وحدوية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية.

من اجل الوصول إلى هذه النتيجة العلمية في تحديد ظاهرة شخصنة السلطة كقانون وحدوي عام، ترجع الدراسة- كما أشرنا سابقا- الى الحركات " الديمقراطية " التي ظهرت في الغرب منذ الف عام، وتصنفها كلها في النماذج التالية : التجربة الديمقراطية الشيوعية، التجربة الديمقراطية الليبرالية، التجربة الديمقراطية اليعقوبية، التجربة الديمقراطية الاشتراكية، والتجربة الديمقراطية الدينية. تستنزف هذه النماذج، من ناحية عامة ، الحركات الديمقراطية او بالاحرى الحركات التي ظهرت باسم الديمقراطية في تلك المرحلة لأنه من الممكن تصنيفها كلها في هذه النماذج.

هذه النماذج ليست كلها نماذج أو بالأحرى تجارب وحدوية. فمن الصعب اعتبار التجربة الاشتراكية الديمقراطية او التجربة الديمقراطية الدينية كتجربة وحدوية ، وإن كان من الممكن من زاوية معينة ضيقة ان نعطيها هذه السمة. ولكن الرجوع إليها كان ضروريا لأسباب أخرى . فهي تقدم تجارب مهمة في إيضاح وإدراك طبيعة قانون شخصنة السلطة لأنها كانت التجارب الأخرى في قيم ومفاهيم مماثلة، وتصورات متشابهة حول المجتمع الجديد الذي تبغيه . وهي ثانيا، ضرورية لتكامل البحث لأنها كانت تجارب " ثورية " من حيث رفضها للمجتمع القائم وتصورها لمجتمع جديد تدعو إليه. هذا ينطبق بشكل خاص على التجربة الديمقراطية الدينية لأنها كانت تدعو إلى وتعتمد على العنف الثوري كاداة في إلغاء النظام القائم وإقامة النظام الجديد. بما ان الحركات أو التجارب الوحدوية الحديثة كانت، ويفترض فيها، ان تكون تجارب ثورية، فإن ما ينطبق على هذه الاخيرة ينطبق على ويساعدنا في إدراك الأخرى . وأخيراً، كان من الضروري دراسة هذه الظاهرة بهذا الشكل الجامع والمفصل بعض الشيء، لأنها ظاهرة تفرض ذاتها، كما يبدو، ليس في مراحل ثورية كالتي تمر فيها بلدان العالم الثالث، بل في بلدان المجتمع الغربي الصناعي المتقدم ذي النظام التمثيلي . لهذا فإن ادراكها ضروري لادراك الدينامية السياسية للتاريخ الذي نعيش .

التجارب الأخرى لا تحتاج إلى أي إيضاح أوتدليل على مضمونها الوحدوي . فهدف التوحيد السياسي كان بارزاً وأساسياً فيها . ولكن ما نغفله في بعض الأحيان هو أن التجربة الشيوعية التي ترجع إليها الدراسة في روسيا والصين كانت هي الأخرى وحدوية.

تشير أعمال ماوتسي تونغ المختارة باستمرار إلى أوضاع ثورة الصين الخاصة. وبين هذه الأوضاع نجد تمزق وحدة البلاد بين زمرات عسكرية مترسخة في مناطق مختلفة تتقاتل باستمرار وتعتمد على دول استعمارية مختلفة تقف وراءها وتدعمها . بين الأسباب الأولى التي أدت الى نجاح الثورة الشيوعية في الصين كان عجز الكومينتينج عن توحيد البلاد ورغبة الشعب الكبيرة في هذا التوحيد . استمرار النظام الامبراطوري حتى عام ١٩١١ كان مجرد ظاهرة خارجية تحجب انتقالا فعليا للسلطة من الدولة إلى القادة الاقليميين . من عام ١٩١١ حتى استيلاء الشيوعيين على السلطة كانت سياسة القادة العسكريين المحليين (Warlords)تهدد استمرار الجمهورية، لأن النظام السياسي كان قد انهار مع انهيار النظام الاجتماعي . لم يؤد هذا الانهيار آنذاك الى ظهور أية حركة قادرة على توحيد البلاد ودمج مناطقها وعناصرها المختلفة. هذه التجزئة الداخلية كانت بين الاسباب الأولى التي حفزت قادة الصين في الربع الأول من القرن العشرين على أعتناق الشيوعية وتبني أسلوب لينين في التنظيم السياسي كأداة في التغلب على تلك التجزئة الداخلية المتزايدة .

ان ما ينطبق على الصين ينطبق أيضاً على روسيا التي أدى أنهيار النظام القيصري فيها إلى بعثرة وحدتها السياسية وظهور حركات محلية ترمى الى الانفصال والاستقلال . في البداية تكلم لينين في عبارات مشجعة للقوميات في روسيا، وعن احترام البولشفيك لحق تقرير المصير. ولكن ما أن نجحت الثورة حتى رأى لينين نفسه يواجه مطالب " مزعجة " من هذه القوميات في أمكنة عديدة من روسيا حيث حدثت محاولات لتشكيل جمهوريات مستقلة . عندئذ اسقط بسرعة شعار حق تقرير المصير، وارسل قوات مسلحة كي تضع نهاية لكل محاولة من هذا النوع . في عهد ستالين كان كل توكيد على هوية قومية خاصة يُوصف بأنه " قومية محلية " مضادة للثورة، كما ان مبدأ حق تقرير المصير واجه القمع في أية صورة جاء فيها ، سواءاً كانت لغوية، ثقافية، اقتصادية أوسياسية. الستالينية كانت تعني تركيزسلطة الدولة تركيزاً شديداً ومهما كان الثمن. ولهذا كان محض وجود لغات غير روسية يشكل خطراً يجب تجميده أو إزالته.

في عرض القانون الوحدوي الأول أو دور الاقليم- القاعدة في تجارب التاريخ الوحدوية، رأينا أن نشوء الدولة وانتقالها من مرحلة إلى أخرى كان يقترن بقائد (ملك، امبراطور) يرمز إليها، يجسد فكرتها ويعبر عن إرادتها في سلطة مطلقة أو غير محدودة . هنا سوف نرى أن التجارب الوحدوية الثورية الحديثة نفسها تعبر عن نفس الشخصنة في أشكال مختلفة.

الفصل الاول

التجربة الشيوعية

على الرغم من أن المادية التاريخية تنكر أن يكون للفرد أي مكان أو دور أساسي في تطور الأحداث، وعلى الرغم من أن الشيوعية جعلت من أهدافها الأولى مقاومة دور الأفراد و " عبادة" القائد والبطولة ، أو ما درج الفكر على تسميته حديثا " بعبادة الشخصية " ، فإن هذه الظاهرة أكدت ذاتها بشكل بارز متكامل فيها واتخذت أبعاداً هائلة لا تعادلها أية تجربة أخرى . في التمثيل على ذلك نرجع فيما يلي إلى الثورة الروسية والثورة الصينية لأنهما أهم اشكال هذه التجربة .

التجربة الروسية السوفياتية

لم يكن لينين محاطاً بأية " عبادة شخصية " بارزة أثناء حياته . ففي تواضعه واتزانه ، وإخلاصه الرصين، لم يسمح بأن يُحاط بأية هالة أسطورية . ولكن هذه " العبادة " ابتدأت مباشرة بعد وفاته. جسده المحنط في مدفن ضخم وفخم ، ومئات الألوف الذين يزورونه كل عام ويقفون امامه بهيبة وخشوع، وتحويل الأماكن التي زارها أو عاش فيها الى اماكن " مقدسة " يقصدها " الحجاج " من كل ناحية ، والاحتفالات السنوية بذكراه ، واعتماد أقواله وكتبه كأحكام نهائية في كل مشكلة، الخ .. كل هذه تعبر ببلاغة واضحة عن هذه الظاهرة . تحنيط جسد لينين كان ضد إرادته نفسها، وضد إرادة زوجته التي كانت تعمل حسب رغبته. لكن هذا التحيط لجسد لينين، ومن ثم عرضه في ضريح عام في الميدان الأحمر أعطى قوة حقيقية لشخصنة السلطة البولشيفيكية . ولم تبدأ اسطورة لينين الا انطلاقا من هذا الواقع .

اما كلمة " اللينينية " فقد استخدمت للمرة الأولى بعد وفاة لينين، في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٢٤، اثناء الصراع لأجل السلطة. صاغ المتنافسون على السلطة ،انذاك، هذه الكلمة في وصف تفاسيرهم الخاصة لتراث لينين السياسي بغية إضفاء الشرعية على مواقفهم . في معالجة المشاكل السياسية التي كانت تواجههم، كان خلفاؤه يسألون أنفسهم عما كان يمكن للينين صنعه في حل هذه المشكلة، اوتلك، ويعملون بموجبه. يقدم مثل لينين صورة واضحة عن القانون الاجتماعي النفسي الذي يقود الى شخصنة السلطة الثورية بشكل مستقل عن إرادة الأفراد والمبادىء التي ينطلقون منها. لقد اعتمد لينين دون شك، على مكانته الكبيرة، ونفوذه العميق كي يؤكد وجهة نظره في لقضايا التي كان يحدث حولها تناقض في الرأي . ولكنه قاوم صادقاً نمو عبادة حول شخصه. على الرغم من هذا نجد هذه العبادة تنمو وتتطور بشكل خاص وسرعة بعد وفاته، حول جسده المحنط ، تعاليمه، ذكراه، الأماكن التي عاش فيها، الخ.. وكأن الناس يريدون القول، إن لم نمارس " العبادة " حول شخصك الحي بسبب حياتك القصيرة التي لم تعطنا مجالا وبسبب مقاومتك لذلك، فليس هناك ما يمنعنا من هذه " العبادة " بعد مماتك !..

المفاهيم الالديولوجية التي سادت الجماهير أخذت طابعا دينيا بعد وفاة لينين فقط ، وكأن " الألوهية " لا تتفق مع القدرة على معارضة أو نقد " الإله " ، وهي قدرة كان يمارسها الشيوعيون تجاه لينين أثناء حياته . العبادة لا تؤكد ذاتها إن كان من الممكن القول " للمعبود " بأنه على خطأ، أوتقديم أفكار تعارض أفكاره جهراً وعلانية. عبادة الاله لا تفرض نفسها إذا كان صاحب الرأي المعارض أو المنحرف لا يُرغم على الاعتراف العلني بأنه على خطأ ، ان هو أراد أن يبقى عضواً في المجتمع " المقدس " فلا

يُعتبر كافراً أو في خدمة " الشيطان" . بعد الإشارة إلى هذه الظواهر الدينية التي كانت تلازم الاديان ، يكتب مارتينيه، المفكر الماركسي الفرنسي، بأنها " برزت حول شخص لينين بعد وفاته ، فأصبحت أقواله وكتبه من النوع الديني، التي يجب الرجوع إليها دون معارضة ، نقد أو رفض " . عبادة الشخصية التي أحاطت به آنذاك أصبحت رمز الشرعية السياسية ووحدة الحزب، والعامل الموحد لمختلف الفئات والاتجاهات التي كانت في مماحكاتها وخصوماتها تستحضر اسمه وتستشهد بأقواله وكتاباته.

تبلورت هذه الشخصنة وضربت جذورها عميقاً بعد وفاته، ولكن تباشيرها وطلائعها كانت واضحة أثناء حياته. ماجدلين ماركس، وهي شيوعية فرنسية، وصفت في كتابها " هذا هو الصراع النهائي " ، ظهور لينين في اجتماع عام ، فكتبت " السكوت يرقبه، سكوت الكاتدرائية!.. آه!.. هذه المرة، هذا هو!... هل هو حقا ؟ ..إنه هو !.. وآنذاك الفرح، الحمى، النشوة، الأيدي التي تصفق " . ثم تضيف ، و عندما تستمع إلى أي خطاب " ومهما كان الموضوع، فان الوقت يأتي عندما ينفجر اسمه ، فيمتد فجأة كالنار ".

بوتريزوف، وهوماركسي روسي رافق لينين في منفاه وعمل معه في صحيفة أسكرا كتب في مذكراته بأن لينين كان يشعر دائما، وإن لم يعبر عن ذلك قولاً او كتابة ، " أن الحزب هو أنا "، بأن ارادة الحركة كانت في إراداته ، تتمثل في رجل واحد، وكان يعمل بوحي ذلك .

سوفارين، الشيوعي الماركسي ، وصف ما أسماه بالمجرى الكهربائي الذي كان يهز القاعة، والتصفيق الذي كان يتخذ شكل الانفجارات عند ظهور لينين في أحد المؤتمرات .

في تعليق حول وفاة لينين، كتب دورانته " لقد شاهدت لينين يتكلم إلى أتباعه.. ويقابل بالتصفيق الهادركالصاعقة . تطلعت حوالي فرأيت الوجوه تضيء وكأنها تتطلع إلى إله . لينين كان من هذا النوع، سواء نظرنا إليه كقوة ضد القدرة الإلهية ، أوكنبي لا يظهر إلا مرة كل ألف عام ... " .

وبعد محاولة دورا كافلين اغتيال لينين، كتب تروتسكي ، عندما نفكر بأن لينين قد يموت، تصبح حياتنا كلها دون معنى، ونخسر الرغبة في الحياة " .

وقد عبر الشاعر مايكوفسكي، عند وفاة لينين، عن هذا الشعور العام آنذاك ، بقوله ، إننا عندما نقول لينين نعني الحزب ، وعندما نقول الحزب نعني لينين " .

كما نجد، من ناحية أخرى، اعترافا عاما تاماً بقيادته وسلطته شبه المطلقة ، على الرغم من أنه كان، من ناحية قانونية ، رئيسا فقط ، ذا سلطة محدودة ، للسوفناركوم، او لجنة قوميساري الشعب، التي كانت ترأس مؤتمر السوفيات العام . ولكن على الرغم من القواعد الجماعية التي وضعها الحزب للقيادة، فإن لينين جمع في يده، بدءا من عام ١٩١٧، السلطات الأساسية، وكان يتخذ جميع القرارات. كان يُنتقد، وكان يجد نفسه في صف الأقلية، ولكن كان من الواضح، منذ الشهور الأولى لعام ١٩١٨، انه كان المالك الحقيقي للسلطة. واكد تروتسكي ذلك في كتابه " ستالين " ، وذكر أن لينين كان يستشيرشخصين

آخرين قبل أن يتخذ قراراته. كما اشار تروتسكي ايضا الى أن " لينين تجنب تعريف " اليمين " و" اليسار" ، لأن موقفه كان يصبح عادة الموقف الرسمي . والحزب كان دائما من حيث التحديد على حق " ...



تتسم عبارة " عبادة الشخصية " بسمة دينية، وتوحى بشعور شبه ديني ، لأنها تشير إلى " تقديس " لا يعرف النقد الصريح على الاقل، لقائد يوضع في مرتبة غيرطبيعية . ❖ أنها تعني أيضاً وضعا سياسيا تسود فيه إرادة فرد واحد .

اختار خروشوف هذه العبارة كي يصف ستالين أو المرحلة الستالينية. فقد استهل تقريره المشهور في ٢٥ شباط/ فبراير، عام ١٩٥٦، بقوله " بعد وفاة ستالين بدأت اللجنة المركزية للحزب في تطبيق سياسة تعلن بدقة واستمرار أنه من غير الجائز، ومن الغريب عن روح الماركسية- اللينينية، أن ترفع شخصا واحداً وتحوله إلى سوبرمان يملك صفات غير طبيعية مماثلة لصفات إله يعرف كل شيء ، يرى كل شيء ، يستطيع أن يصنع كل شيء ، يفكرعن الجميع، ويكون معصوما في سلوكه " .

هذا المعتقد حول فرد، أي بشكل خاص حول ستالين، كان يشجع بيننا لمدة سنين طويلة . هكذا وصف خروشوف أبعاد الشخصنة الفريدة التي احطات بستالين . ويصف التقرير بوضوح وصراحة ما ترتب على هذه الشخصنة من أشكال قتل وتطهير، نفي وسجن وتعذيب جماعية امتدت إلى الملايين العديدة، ومن اشكال أذلال وامتهان كان يمارسها ستالين على اكبر قادة الحزب الشيوعي وأقرب المقربين إليه.

أول من أشار الى هذه الشخصنة في الغرب كان سيدني وبياتريس واب. وكان ذلك في أواسط الثلاثينات. فقد أعلنا إثر رجوعهما من زيارة للاتحاد السوفياتي " أن هناك استغلالاً منظماً من قبل الطبقة الحاكمة لشعور عبادة البطل " . كما اشار أندريه جيد هو الآخر، في كتابه " رجوع من الاتحاد السوفياتي" إلى هذه الظاهرة .

فاتحة هذه الشخصنة كانت مقالاً ظهر في أول عدد من البرافدا، عام ١٩٣٤ ، أعلن فيه راديك أن ستالين هو " أنموذج الحزب اللينيني وأنه يجسد تجربة الحزب التاريخية كلها".

بعد هذا المقال ابتدأت أشكال هذه الشخصنة تكشف عن ذاتها وتزداد مبالغة وحدّة مع الوقت إلى أن بلغت الدرجة التي أشار إليها خروشوف. بعد ذلك أصبح ستالين ، كما يكتب المؤرخ الماركسى ميدفيديف ، " عبقريا و أكثر من عبقري، عظيما وأعظم العظماء ، حكيما و أكثرحكمة بين الحكماء، يعرف كل شيء، يرى كل شيء... هذه كانت بعض الصفات التي كانت ترافق تقريبا كل إشارة إلى ستالين .. المندوبون إلى مؤتمر الحزب السادس عشر، عام ١٩٣٠، لم يضمنوا خطاباتهم أي مديح لستالين ، وفي كلامهم عن إنجازات الحزب، لم يذكر معظمهم حتى اسمه. ولكن المؤتمر السابع عشر، عام ١٩٣٤، كان يختلف تماماً . كل خطيب تقريباً توقف عند عظمة ستالين وعبقريته ، وفي بعض الأحيان، كان يبدو وكأن المؤتمر عُقد للاحتفال بستالين وأن. تدين بجميع إنجازاتها له وحده . ولم يتخذ المؤتمر، ولأول مرة في

تاريخ الحزب، قراراً مفصلا حول تقرير اللجنة المركزية، بل وجه بدلاً من ذلك جميع مؤسسات الحزب بأن تنقاد في عملها للأطروحات والمضامين التي تضمنها خطاب الرفيق ستالين " .

واصبح ستالين " أعظم فيلولوجي ، أعظم اقتصادي، أعظم فيلسوف، وأعظم مؤرخ " . فهو " قائد الإنسانية العبقري " ، " أعظم قائد عسكري في جميع الأزمنة والأمم " ، " قائد الطبقة العمالية في كل مكان "، " قائد الإنسانية التقدمية " ، " الزعيم المعصوم "، " اكبر عبقرية عرفتها الإنسانية " .

حتى عام ١٩٥٣ أي حتى وفاته ، كان ستالين وحده يقرر التفسير الصحيح للماركسية . لقد افرغت الماركسية ، في الواقع ، من أي مضمون محدد ، وأصبحت الاشتراكية هي ما يقوله ستالين نفسه أوما يريدها أن تكون . لقد كان من المستحيل تقييم ونقد التحولات والاتجاهات السياسية والاقتصادية ، الخ .. أو الاختيار بينها بشكل مستقل، لأن ستالين هو الذي كان يقرر نهائيا التفسير الصحيح للماركسية. رفض هذا التفسيركان يعني تهمة " الكفر " وما يجر ذلك من اضطهاد. إرادة ستالين كانت، في الواقع ، جزءاً لا يتجزأ من العمل اليومي لكل فرد يعمل في مصنع أومكتب. ففي كل قطاع ، في كل صعيد من أصعدة النشاط الإنساني كان هناك رجوع دائم إلى ستالين.

في العلوم الاجتماعية كان لستالين وحده الحق في صنع الاكتشافات والوصول إلى نتائج مهمة. اما دور كل مفكر آخر فكان التبسيط أو التعليق . بين عامي ١٩٤٦، و ١٩٥٢ فقط ظهر ما لا يقل عن ستمائة كتاب ونشرة، طبع منها عشرون مليون نسخة خصصت كلها لخطب ستالين ومقالاته. تأليه ستالين خلق قصصاً حول عصمته وقدرته الكلية ، أفرزت نوعاً من التصور الديني للواقع في الأوساط العلمية. الحقيقة لم تكن ما يطابق الوقائع أو البحث العلمي، بل ما يعلنه ستالين على أنه حقيقة .

ماحدث في العلوم الاجتماعية حدث أيضاً في العلوم الطبيعية نفسها .

اما تاريخ الحزب، فقد تمت كتابته من جديد، ومن ثم تاريخ روسيا بشكل ينسجم مع أسطورة ستالين، صيغت الانسكلوبيديا، والقواميس، والكتب المدرسية، بشكل يخدم (عبادته)، وقام بحركة تطهيرللمكتبات لأجل الغاية نفسها. وكان ستالين يعطى عصمة مطلقة في كل شيء إلى أن أصبح، في الواقع، تجسيداً لكل معرفة، لكل فضيلة لكل حكمة ، لكل عدالة ، والعبقري الجامع لكل شيء.

وكان قادة الحزب ينشرون المقالات التي يعترفون فيها أنهم غالبا ما كانوا يخطئون بينما " القائد الكبير للكادحين في العالم كله ، الرفيق ستالين، كان دائما على حق ".

كان وجود ستالين يفرض نفسه في كل جانب من جوانب الحياة السوفياتية.. فصوره وتماثيله النصفية وأنصابه التذكارية ظهرت في كل مكان . صورته لم تكن في كل مدرسة فقط ، بل في كل غرفة فيها. الشوارع والمدن والمصانع كانت تُسمى باسمه.

النشيد السوفياتي لم يذكر كلمة عن الحزب الشيوعي ولكنه تضمن أنشودة شكر لستالين . " إن ستالين دربنا على الإيمان بالشعب ، على العمل، على الأعمال الكبيرة ، وكان يلهمنا ".

ايليا إهرنبرغ يذكر أن الناس كانوا، في تلك المرحلة، ينظرون إلى ستالين كأحد الآلهة في التوراة، ويقص علينا أن باسترناك نفسه، وكان ذلك إبان حركة التطهير والمحاكمات، تأوه قائلا " لو أن ستالين عرف بما حدث!.." تماماً كما كان المؤمنون " بألوهية " لويس السادس عشر والقيصر يتأوهون قائلين : " لوعلم الملك!.. " " لوعلم القيصر! ".. بما نعانيه !

كان الوعي العام يعبر عن ذاته بعناصر من السيكولوجيا الدينية ، أوهام، ايحاءات ذاتية، عجز عن التفكير الانتقادي، عدم الاعتدال مع الآخرين، التعصب وتصورات مشوهة للواقع . كل خيركان يُنسب إلى ستالين، وكل شر إلى قوى شريرة يحاربها ، تماماً كالمؤمنين الذين يعزون كل خير إلى الله، وكل شر للشيطان . إن ستالين " عمل على خلق دين اشتراكي ذي إله ، أما إله الدين الجديد، الكلي القدرة، الكلي المعرفة، الكلي القداسة، فكان ستالين نفسه " .

لم تتأثر هذه " العبادة " المضخمة سلبياً بازدياد حدة واتساع الارهاب ، بل كانت ، على العكس ، تزداد حدة واتساعاً معه. " تأليه ستالين كان يبررمقدماً كل شيء يصنعه ، كل شيء يتصل باسمه، ومن ذلك الجرائم وإساءة استخدام السلطة . كل منجزات وفضائل الاشتراكية كانت تتجسد فيه. نشاط القادة الآخرين أصيب بشلل نتيجة لذلك .. إنها عبادة مالت ككل عبادة أخرى، إلى تحويل الحزب الشيوعي إلى تنظيم ديني ، يميز تمييزاً حاداً بين الناس العاديين وبين القادة- الكهنة الذين يرأسهم بابا معصوم " .



هذه هي الملامح العامة الأساسية التي ميزت شخصنة السلطة الشيوعية في ستالين. أما التمثيل على هذه الملامح بالرجوع إلى مصادرها أو إلى أدوات التعبيرعنها، أي ما كان يكتبه المفكرون والعلماء والأدباء والشعراء والفنانون، الخ.. وما كان يصدر عن المجلات والصحف والمنظمات والمؤسسات المختلفة ، فأمر يحتاج الى مجلدات. هنا تكفي الاشارة إلى الامثلة التالية :

في عيد ميلاده السبعين، كتب أحد المفكرين السوفيات الكبار بأن المستقبل سيصف عهد ستالين " بعصر العدالة " ، وقد يختار الناس ميلاده لبداية تقويم جديد تُسمى " يوم الشكر"، للسنة الأولى . مفكر آخر كتب عام ١٩٥٠ " إذا واجهت الصعاب في عملك أوتشككت فجأة في إمكاناتك، فكر به، بستالين ، فتجد الثقة التي تحتاج إليها . إذا شعرت بالتعب في ساعة لا يجب أن تشعر به ، فكر به ، بستالين ، فيسير عملك جيداً . إذا كنت تفكر بقرار صحيح ، فكر به ، بستالين، فتجد هذا القرار... (ستالين قال)، يعني ان الشعب يفكر هكذا. (الشعب قال)، يعني أن ستالين فكر هكذا " .

في بداية ظهور هذه الشخصنة، أعلن الكاتب السوفياتي أفدينكو، في مؤتمر السوفيات السابع، في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٥ " إنني قوي، تنمو في ذاتي أحسن المشاعر الإنسانية : الحب، الإخلاص، الشرف ، نكران الذات ، البطولة ، النزاهة - وكل هذا بفضلك يا ستالين، أيها البروفسور الكبير، إنني أؤلف كتباً... إنني سعيد.. سأعيش مائة عام .. كل هذا بفضلك يا ستالين، أيها البروفسور الكبير" .

مكسيم غوركي نفسه كتب مرة ، " إن الارادة الحديدية التي تميز ستالين، مرشد الحزب، تصحح بشكل ممتاز الانحرافات" . دجيلاس أيضاً ساهم في هذه الشخصنة وكان صوتا لها. فقد كتب مرة عن " الوضوح الشفاف الذي يميز أسلوبه ، عمق منطقه ، توافق تعليقاته وكأنها تعابير أعلى للحكمة " ، ثم يضيف " بأنه كان تجسيد فكرة ، تحولت في الأذهان الشيوعية.. الى شيء معصوم ودون خطيئة. ستالين كان معركة الحاضر الظافرة، وأخوة الانسان في المستقبل ". وذكرت المجلة الادبية (زناميا)، في العدد العاشر بأن " أهم خصيصة في الشعر السوفياتي هي موضوعه الرئيسي : شخصية القائد . فمن يتجاهل هذا الموضوع لا يستطيع أن يُدرك جوهر فننا الحقيقي. إن مفهوم القائد بالنسبة لفنان معاصر هو التجسيد المثالي لمفهوم الشعب الفلسفي " .

دجابيف، وكان من أهم شعراء الاتحاد السوفياتي، كتب مرة :

" لكنت قارنته بالجبل الأبيض، ولكن للجبل قمة،

لكنت قارنته بأعماق البحر، ولكن للبحر قاع ،

لكنت قارنته بالقمرالوضاء، ولكن القمر يضيء في نصف الليل،

وليس عند الظهيرة،

لكنت قارنته بالشمس البراقة، ولكن الشمس ترسل اشعتها عند الظهيرة وليس منتصف الليل ".

ووصف احد النقاد هذه القصيدة على انها " أكثر الشعر دقة في اعطاء صورة عن ستالين لأن الناظم يتميز بما ينقصنا جميعا، نعومة ستالين " .

كمثل آخريمكن الإشارة الى قصيدة اخرى نشرت في البرافدا، ٢٨ آب / أغسطس ١٩٣٦ ، ففيها نجد صورة أخرى واضحة لما كان يقوله الشعراء والأدباء في ستالين . إننا نقرأ فيها : إن ستالين هو قائد الشعوب، سبب ولادة الإنسان، مصحح التاريخ، من يجعل الربيع يزهر، سبب الانغام الموسيقية، الشمس التي تعكس ملايين القلوب...

هذا " التقديس " لم يقتصرطبعا على الشعراء، بل كان يسود، كما أشرنا سابقا، جميع الأوساط الفكرية والعلمية. فافليوف وكان رئيس الاكاديمية العلمية السوفياتية، يجد ستالين " كجبار علمي "، ليس فقط " كأعظم رجل في زماننا "، بل " كالنور القائد للعلم " ، على الرغم من أن ذلك النور كان قد

أرسل أخ فافيلوف، العالم الروسي المشهور في علم الوراثة، الى المعتقلات السياسية لأنه ناقض نظرية ليسينكو .



كان هذا التقديس الفريد لستالين شائعا وعاما بين الشيوعيين في جميع أرجاء العالم ، وليس في الاتحاد السوفياتي فقط ، وفي مراحل الستالينية المختلفة ومنها محاكمات وحركات التطهير في الثلاثينات. هذا يدل بوضوح على أن هذه الشخصنة لا تعود إلى " تآمر " أو " تخطيط " من قبل ستالين أو الحكومة السوفياتية، وأن أسبابها لا ترجع إلى ضغوط وتهديدات تفرضها على الشعب الروسي، كما يحلو للبعض التفكير، بل إلى حوافز وبواعث أبعد من ذلك بكثير. هنا نكتفي بالإشارة الى موقف بعض المفكرين الفرنسيين في التدليل على ذلك .

كونيو رأى أن الحزب الشيوعي السوفياتي هو، في الواقع ، حزب ستالين، وفي عيد ميلاده السبعين مجده كالقائد الذي تعتبره الانسانية المتحضرة دليلا لها .

بلوخ نفسه كتب في كتابه " إنسان الشيوعية : صورة ستالين " بأن ستالين " لم يرتكب منذ استلام السلطة خطأً أساسياً واحداً)، وحاول أن يبرهن على أنه كان في آن واحد ، عبقرياً، حكيماً ، وفاضلاً :

فرنسيس جوردان رأى انه لا يمكن مقارنته بأي إنسان كبير بين وجوه الماضي الكبيرة ، وذلك لأنه يمثل " أنموذج الانسان الجديد، الإنسان الشيوعي ".

هنري والان تساءل فيما اذا وجد في التاريخ كله إنسان واحد جمع في شخصة جميع اشكال العبقرية التي ميزت ستالين .

اندريه ستيل كتب "إن كل فرد منا ينطوي على جزء من ستالين في قرارة نفسه ، ينظر إلينا من الداخل، مبتسما ورزينا، ويوحي الينا بالثقة. هذا الحضور الباطني لستالين هو، بالنسبة لنا نحن الشيوعيين، ضميرنا جميعا " .

اراغون لم يشك ابدأ بأن " فرنسا تدين له بوجودها كأمة " . ثم يقول لنا، في صورة يرسمها عن والدته في نزعها الأخير، بأن كل ما كانت تستطيع التلفظ به كان فقط : " ستالين، ماذا يقول ستالين؟... ".

مارسال ويلارد، رأى في ستالين " أكبر محسن للانسانية المتقدمة ".

باربوس يوحي للقارىء بأن ستالين كسب الحرب الأهلية بمفرده .

ثم هناك " عبادة " ستالين العبقري في جميع مجالات العلم .

جورج تيسيه ، العالم البيولوجي ، وجد أن ستالين كان دليل العلماء.

جون ديزانتي حيّاه كعالم من نوع جديد.

جول كوري، الحائز على جائزة نوبل العلمية أشاد به ك " عبقرية علمية كبيرة " .

فرنسيس كوهين، أعلن بمناسبة الخلاف حول نظرية ليسينكوأن ستالين هو ، بالنسبة للشيوعي، أعظم سلطة علمية في العالم .

الشاعر آليوار نظم قصيدة عبر فيها عن تمنيات اللجنة المركزية بمناسبة عيد ميلاد ستالين السبعين، وقدجاء فيها :

بالنسبة لنا ستالين موجود

في الغد

إنه اليوم يبعثر الشقاء

الثقة هي نتاج دماغ الحب فيه

بفضله نعيش دون أن نعرف الخريف

أفق ستالين هو دائما أفق متجدد

لأن الحياة والناس اختاروا ستالين

ليرسموا على الأرض أملهم غير المحدود .

والشاعر هنري باسيسى كتب:

" أيها الرفيق ستالين،

اسمك هوخبز الحياة لنا،

أيها الرفيق ستالين،

اسمك الذي يعطي الحياة!.. يساعدعلى الموت !" .

من اواخر الأربعينات حتى وفاة ستالين، بشكل خاص، نرى المفكرين الفرنسيين الشيوعيين- ومن غير الشيوعيين - ، وكأنهم سُحروا بستالين، فخسروا كل اتزان في التعبيرعن مشاعرهم نحوه.

هذه الشخصنة الحادة استمرت حتى بعد أن قدم خروشوف تقريره المشهور عن مساوىء وجرائم عبادة الشخصية التي أحاطت بستالين.

مفكرو الحزب الشيوعي الفرنسي لم يقصروا هذا التمجيد الفريد على ستالين فقط أثناء تلك المرحلة، بل توجهوا به أيضاً في شكله الأساسي ، إلى موريس توريز، سكرتير الحزب آنذاك. بطاقات العضوية الخاصة التي وزعها الحزب بمناسبة عيد ميلاده الخمسين تعطي صورة واضحة عن أبعاد شخصنة السلطة في هذا الحزب . هذه البطاقات أعلنت ببساطة أن الانتماء هوللقائد وليس للحزب. في أعلى البطاقة نقرأ الكلمات التالية : " إنني أعلن انتمائي لحزب موريس توريز " . مفكرو الحزب كانوا يجمعون في الواقع أن أنداده قليلون جداً في التاريخ .

هذه الأشكال في التعبير عن هذه " العبادة " لستالين كانت عادية عامة في البلدان والأحزاب الأخرى . ماوتسى تونغ نفسه اعلن، مثلا، في العيد الستين لميلاد ستالين " أن ستالين هو قائد الثورة العالمية.. إنه لحدث كبير أن يُنعم على العالم بستالين . ماركس مات، وكذلك أنجلز ولينين. لو لم يكن هناك ستالين، من الذي كان يُعطي التوجيهات " .

وكانت هذه الشخصنة تبرز حول قادة آخرين في الحزب الشيوعي السوفياتي ، وإن كان بشكل مصغر. إن خروشوف، مثلا، يشير في تقريره كيف أن الكثيرمن المدن والبلدان، والقرى، والتعاونيات، والمصانع، والمؤسسات الصناعية والثقافية السوفياتية كانت تسمى بأسماء قادة الحزب وكأنها ملكهم الخاص، وأن أهمية وسلطة ذاك أو هذا القائد كانتا ترتبطان وتقاسان بعدد ما يُسمى باسمه.



السلطة التي كان يمارسها ستالين كانت غير محدودة ومطلقة. فقد كان يقرر بمفرده سياسة الاتحاد السوفياتي خارجيا وداخليا، يزرع الخوف الرهيب ليس فقط في قلوب الأعداء، بل في قلوب الاصدقاء أيضاً . فرد واحد فقط كان سيد الموت والحياة بالنسبة للجميع . فرد واحد فقط كان يقسم الأتباع بين أمناء يرفعهم وخونة يذلهم .

في المرحلة الستالينية لم يُعقد أي مؤتمرحزبي بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٥٢، و أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها صار اجتماع اللجنة المركزية نادرا .

" الدكتاتورية غير المحدودة التي أقامها بعد ١٩٣٦- ١٩٣٨، كانت دون أية سابقة تاريخية"، كما يكتب ميدفيديف . " ففي الخمس عشرة سنة الأخيرة من سيرته الدامية ، مارس ستالين سلطة لم يملكها أبداً أي قيصر روسي - أو بالأحرى أي دكتاتور في الألف عام الأخيرة . أثناء سنوات العبادة كان ستالين لا يُمسك فقط بالسياسة كلها، بل كان سيد السياسة الاقتصادية والعسكرية والخارجية. حتى في الأدب والفنون والعلم ، كان الحكم الأعلى، وأحكامه الذاتية كانت المقاييس الحاسمة " .

دور الأحزاب الشيوعية نفسها مات في عهد ستالين، لأنها أصبحت ملحقاً من ملحقات دكتاتورية فرد واحد بدلا من أن تكون قاعدة السلطة. ليس هناك ، في الواقع ، من قائد في القرن العشرين استطاع أن يمارس السلطة غير المحدودة التي كان بإمكان ستالين ممارستها. حتى هتلر كان محدود السلطة عند المقارنة. ففي عام ١٩٣٨ وجد هتلر، مثلا، صعوبة كبيرة في تنحية أعلى قائدين في الجيش، وبعد ذلك رفض الجيش من اختاره كقائد أعلى لأنه كان ملتزما كثيراً بالنازية. ولكن ستالين كان يستطيع بدرجة كبيرة من الحرية أن يُقيل، يسجن، ينفي، ويأمر بقتل كثيرين من قادة القوات العسكرية.

يذكر ميدفيديف أن السجون لم تتسع للمساجين الجدد، وأن الأديرة والفنادق والكنائس ، وحتى الحمامات العامة ، والاسطبلات، حُوّلت بالتالي إلى سجون . ولكن هذه لم تكن كافية، فتم بناء سجون ومعتقلات جديدة في جميع أنحاء البلاد. وبعد أن يذكر أسماء بعض طغاة التاريخ الذين عُرف عنهم ممارسة أشد أشكال القسوة والقتل الجماعي، يخلص المؤلف الى القول: " بأن نطاق الارهاب الستاليني كان أكبر بكثير ولا يمكن قياسه. فبين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ فقط ، وبموجب أكثر التقديرات تحفظا، خضع عدد يتراوح بين أربعة وخمسة ملايين من الناس للقمع السياسي. هناك على الأقل بين اربعمائة وخمسمائة ألف منهم- الموظفون الكبار بشكل خاص- أعدموا رميا بالرصاص. أما الباقون فكان نصيبهم السجن الطويل . في عام ١٩٣٧- ١٩٣٨، كان هناك بعض الأيام التي كان يعدم فيها حوالي الف شخص في موسكو وحدها. هذه لم تكن جداول بل أنهار من الدم، دم الشعب السوفياتي الشريف. الحقيقة البسيطة يجب أن تقال . ليس هناك بين طغاة ومستبدي الماضي من اضطهد ودمر عدداً كهذا العدد من مواطنيه " .



يجب التنبيه هنا الى ان تقرير خروشوف ضد شخصنة السلطة المنحرفة التي تركزت على ستالين وجد شرعية له بالرجوع إلى وإحياء شخصنة أو " عبادة " أخرى كانت تتركز على لينين. وضع نهاية لعبادة ستالين لم يحدث في فراغ ، لأن الحملة ضدها كانت تبرر نفسها وتدعو إلى سد الفراغ بتجديد " عبادة " لينين وتوكيدها كقاعدة لشرعية القيادة.

هذا كان واضحاً بشكل خاص في توكيد تقريرخروشوف على صفاء القاعدة اللينينية للحزب، على أن هذه القاعدة لم تفشل أوتخطىء، على أن شرعية لينين استمرت في نواة الحزب اللينينية، على ان جميع الشر كان يرجع إلى انحرافات ستالين الخاصة التي برزت منذ عام ١٩٣٠، وعلى أن كلا من ستالين والنواة اللينينية يمثل وحدة تختلف كل الاختلاف عن الأخرى . اخرجت الخروشوفية ستالين من " مدفن الابطال " في الميدان الأحمر ، ولكن المدفن بقي يمجد إنساناً آخر.

عندما تعرضت ظواهر عديدة من النظام السوفياتي للنقد وحتى للهجوم في المرحلة الجديدة، نجد أن عبادة لينين وفرت مصدر قوة ووحدة لهذا النظام ، لأن التيارات الجديدة كانت تمارس نقدها باسم اللينينية وليس ضدها. وعلى الرغم من زوال مشاعر الحماسة الأولى، فاننا نجد حاليا وبشكل يومي صفوفاً طويلة من الناس أمام ضريح لينين تنتظر دورها كي تمر بسكون وخشوع أمام رفاة القائد . " إن عبادة

ستالين ماتت، ولكن عبادة لينين، وإن كانت أكثر عقلانية من حيث المضمون والشكل، بقيت تعثر الفكر السياسي .

لقد برز المؤتمر العشرون تحت شعار الرجوع إلى " القيم اللينينية في الديمقراطية الحزبية الداخلية " ، وكان يُفترض فيه إحياء هذه القيم . ولكن الواقع لم ينطبق مع هذا القصد . فالمؤتمر تبنى جميع قراراته بالإجماع ، وكان بذلك منسجما مع أحسن التقاليد الستالينية . لم يكن هناك أي تصادم في الأراء، وأية مناظرة مفتوحة ، وبين المائة الذين تكلموا فيه لم يتجاسرأحد على انتقاد خروشوف أو أي قائد آخر حول أية نقطة .

كما أن المؤتمر لم يطرح ، من ناحية اخرى، اية قضية وطنية أو عالمية مهمة للمناقشة . التغيير الذي حدث كان يقتصر فقط على عمل اللجنة المركزية التي تتشكل من ١٢٥ عضوا (أو ٢٢٥ عضوا إن شملت الأعضاء الاحتياطيين) . هنا ظهرت مناقشة حرة وكانت الأختلافات تقرر بتصويت الأكثرية . كان خروشوف مقلداً لستالين، وخصوصاً في توكيده على الطابع الكلي الذي يجب أن يميز الحزب والدولة . إن سياسته في عدم الانفتاح على أية معارضة ، نقد أونقاش حر، قادت نهائيا إلى شخصنة جديدة للسلطة تركزت على شخصه وقيادته التي أرادت إقامة سلطتها الأوتوقراطية الخاصة . بعد وقت قصير جداً أصبحت فكرة القيادة الجماعية التي أعلنها خروشوف ذكرى من الماضي ، والخروشوفية أمست مبدأً إيديولوجيا جديداً يربط الدولة السوفياتية بشخص وقيادة خروشوف.

وكان ستالين قد وجد انه من الضروري إعلان قيادة جماعية ، ووصف دوره كصوت لها. ولكن الذي يستلفت النظر في القيادة الجماعية التي أعلنها خروشوف هو السرعة التي ميزت التحول عنها. فبعد مرور عامين فقط ، انتهت مشاركة بيريا (الذي أعدم بعد شهرين فقط)، ومالنكوف، ومولوتوف، وحلت محلها قيادة مشخصنة جديدة تتركز على خروشوف . فكرة هذه القيادة الجماعية خدعت لأول وهلة الكثير من المراقبين الأجانب ، كما أنها خدعت الكثير من الروس أنفسهم، وبين القادة ذاتهم . بعد وقت قصيرمن وصول خروشوف الى السلطة تشكل " حزب " خروشوفي لمقاومة الرجالات الكبار في الحزب ، وللحلول محل الستالينية التي اعلن خروشوف مساوءها وإفلاسها . في توكيد سلطته كان خروشوف يظهر في بعض المناسبات في لباس عسكري رسمي، وذلك كتقليد واضح لستالين ، الذي كان يربط بين سلطته وبين مركزه كجنراليسيمو أثناء الحرب . الكتب المدرسية أخذت تكشف عن تغييرات أوتعديلات كان القصد منها دعم القيادة الجديدة المشخصنة. فقد أصبحت، مثلا، تؤكد على دور خروشوف في كسب معركة روسيا في ستالينغراد. الدلائل أخذت تشير بسرعة، ومن جميع الجهات، على أن هناك في الواقع، " عبادة شخصية " جديدة تصنع نفسها.

بدءا من المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي انتهت عادة الرجوع إلى ستالين وأقواله وأفعاله، ولكن ظهرت مكانها بسرعة عادة الرجوع إلى خروشوف وأقواله . في المؤتمر الثاني والعشرين كان الرجوع إلى اسم خروشوف يتم بنفس الكلمات والأوصاف التي كان يُرجع فيها إلى اسم ستالين . وبنفس

التصفيق الذي كان يميز مؤتمرات المرحلة الستالينية . هنا تجدر الإشارة إلى أن هذا المؤتمركان قد عُقد لمناقشة البرنامج الجديد . ولكن المناقشات اتجهت في اتجاه لم يكن ينتظره المؤتمرون ، وذلك لأن خروشوف غيّر رأيه . لقد جاؤوا بخطابات وتعليقات حول الموضوع الذي قيل لهم بأنه سيكون موضوع المؤتمر، أي مناقشة البرنامج ، ولكن خروشوف جعل المؤتمر يدور حول موضوع البانيا ومولوتوف ، أو بالاحرى الهجوم عليهما، مما لم يكن يمثل أية ضرورة مستعجلة. أما البرنامج فقد صادق عليه المؤتمر دون مناقشة.

عندما أرسل الاتحاد السوفياتي المركب الفضائي الأول أرجع الفضل في ذلك إلى " قيادة خروشوف الحكيمة " وإلى قدرة بعض الطيارين ، دون أي اعتراف يُذكر بجهود وأعمال جماهير المخترعين والعمال والمهندسين والأطباء وعلماء الفيزياء والبيولوجيا الذين جعلوا ذلك ممكنا. بعد المؤتمر العشرين والمؤتمر الثاني والعشرين زالت عبادة ستالين " ولكن نظام السلطة الشخصية استمر مع بداية عبادة شخصية جديدة " . الأوضاع السوفياتية الحالية ، الداخلية والخارجية، هي غيرما كانت عليه في عهد ستالين . ولذلك فهي لا تسمح بقيام " عبادة شخصية " مماثلة للعبادة التي أحاطت به، ولكنها لاتستطيع تجنب هذه الظاهرة في أشكال أقل حدة وبروزاً من التي ميزت المرحلة السابقة . هذا ما كشفت عنه قيادة خروشوف ، ومن ثم قيادة بريجنيف، أو بالأحرى نوع الشخصنة التي ميزت القيادتين . الانفتاح الذي حدث بعد وفاة ستالين حدث بعد إزاحة خروشوف ، ولكن الوضع لم يلبث أن تبلور في شخصنة جديدة تركزت في قيادة بريجنيف . و لكن بما أن الأوضاع الداخلية تتجاوز باستمرار الأزمات والتناقضات الهائلة التي ميزت المرحلة الستالينية، والأوضاع الخارجية تتحرر من الضغوط والمخاطر الكبيرة التي كانت تهدد باستمرار بقاء النظام السوفياتى ذاته ، فإن الاتجاه التاريخي العام هو ولا شك نحو الحد المتزايد من أبعاد شخصنة السلطة .

بعد المرحلة الستالينية خسرت الحركة الشيوعية العالمية تنظيمها العالمي الواحد، ووحدتها الايديولوجية. (عبادة الشخصية) التي أحاطت بستالين كانت أداة مهمة جداً وسببا رئيسيا في تحقيق ذلك التنظيم وتلك الوحدة . إنه لشيء غريب حقاً أن نرى ذلك الدور الشخصي الضخم في توجيه وتوحيد العالم الشيوعي ، وفي التأثير بذلك الشكل البارز في نظمه السياسية والاقتصادية طيلة ربع قرن، وهو العالم الذي يعتمد " ايديولوجية " تؤمن أن الفرد لا يلعب أي دور له شأن في التاريخ . انه لمن المستحيل ، كما لاحظ كثيرمن الباحثين، إدراك العلاقات التي ربطت بين أجزاء العالم الشيوعي دون الرجوع إلى ستالين ودوره. شخصنة السلطة في قيادة ستالين وفرت لتلك العلاقات بعداً معنوياً غيرحسي ، ولكنه بُعد سيكولوجي كان أساسياً للوحدة التى تفاعلت فيها هذه العلاقات . الولاء الحماسي لستالين كان ، بالنسبة للشيوعي عبر العالم، عنصراً أساسياً في تركيبه السياسي .



التجربة الشيوعية الصينية

شخصنة السلطة التي تركزت في ماوتسى تونغ ابتدأت، في الواقع، عام ١٩٢٩، بعد أن أقام ماو، وشوتيه، رفيقه في النضال، القاعدة السوفياتية في إقليم كيانجسي، في آب/ اغسطس من ذلك العام. ولكن نمو هذه الشخصنة بدأ بشكل جدي بعد إقامة القواعد الشيوعية في يانان، في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٣٦. ضرورات الحرب الأهلية ، التحولات الثورية الجذرية التي كان على الحزب تحقيقها، الحاجة إلى الوحدة والنظام ، حرب التحرير، والإعجاب الكبير بستالين، كل هذه الأسباب عملت على توحيد الحزب والثورة حول ماو كرمز، وعلى إبراز قيادته كمصدر للحكمة والإبداع .

بعد أن ترسخ مركز ماوتسى تونغ القيادي في اجتماع المكتب السياسي عام ١٩٣٥، في تسون- يه ، كان لاستمرار قيادته الأثر الكبير في الحزب وفي تبلور عبادة الشخصية التي أحاطت به. الذين آمنوا به، بقيادته وأفكاره، هم الذين نفذوا إلى الحزب من البداية وحولوه من تنظيم محلي يتشكل من اربعين ألف فقط عام ١٩٣٧، الى تنظيم بلغ عدده سبعة عشر مليونا في أوائل الستينات. الطليعة الماوية التي قادت الحزب لم تسمح بظهور الانشقاقات الحزبية، الولاءات المحلية أو المتناقضة ، وكانت قادرة على قمعها واخمادها عندما كانت تُنذر بالظهور. كانت شخصية ماو هي الرمز الوحيد للحزب والثورة ، للوحدة الحزبية واستمراريتها. والماوية كانت التفسير الصحيح الوحيد للماركسية، وقد تكاملت في دورها هذا قبل استلام الحزب للسلطة، فوفرت الاستمرار الايديولوجي بين ثورة يانان وممارسة السلطة في بكين . هذا الاستمرار في القيادة والايديولوجية أفرز قواعد راسخة لولاءات سياسية ثابتة تنظم الحزب وعلاقاته داخليا وخارجيا.

بعد عام ١٩٤٩، حلّق ماوعاليا فوق جميع زملائه، وكان هذا التحليق يزداد بروزاً وحدة مع الزمن . صورته ابتدأت منذ ذلك التاريخ تزين الشاحنات والسيارات في الجيش ، وتحتل مكان الصدارة في الأبنية العامة والشوارع والمنازل .

ولم تلبث الثورة أن أعلنت أن افكار ماوتسى تونغ تشكل ذروة الماركسية – اللينينية في زماننا، وأن دعم ماو يشكل الخط الفاصل بينها وبين الانحرافية ، بين الثورة والثورة المضادة. وماو نفسه أخذ يصدر، كستالين، الأحكام والتفاسير النهائية ليس في السياسة والممارسة الثورية والتنظيم الحزبي فقط ، بل في الفن والأدب والفلسفة وغيرها من الموضوعات .

منذ عام ١٩٤٩، نرى جهداً مستمراً في " تقديس " كتابات ماو وأفكاره وتحويلها إلى طريقة في الحياة. تدريس فكره حل محل مواد أخرى وأصبح ضرورة أولى في المدارس والجامعات والحلقات والندوات، وظاهرة عامة في الحياة الفكرية . كل برنامج كل تخطيط جديد يقوم به النظام كان يرتبط باسمه، وكل نجاح كان يعود إلى حكمته . بعد بضع سنوات فقط ، أي في أواسط الخمسينات، تحول ماو، في الواقع، الى صورة ذات أبعاد إلهية.

في البداية كان المرجع القياسي " حزب الصين الشيوعي بقيادة ماوتسي تونغ " ، ولكنه أصبح بعد ذلك التاريخ " الحزب الشيوعي الصيني وماوتسي تونغ " ، وقبل نهاية عام ١٩٥٩ أخذ الاثنان طابعا متساويا. وبدءا من الستينات، اصبح فكر ماو هو المرجع القياسي الأساسي .

منذ عام ١٩٥٨ أخذ كثيرون من رفاقه الأولين والسابقين يكتبون حول حياته وأعماله السابقة الجبارة والفريدة، وبذلك أضافوا أبعادا بطولية جديدة هائلة لقيادته.

إرشادات ماو أصبحت تحل جميع المشاكل والقضايا المستعصية ، من الزراعة إلى الهندسة ، ومن الطب إلى الصحة العامة. عندما كانت المؤسسات أو المناطق المختلفة في البلاد تتغلب على بعض صعوبات تواجهها، أو كانت تسجل اي تقدم أو انتصار في بعض المجالات ، فالسبب كان يعود إلى كتابات ماو، إلى إلهام أو ايحاء بعض الأفكار التي أشارت اليها هذه الكتابات . في أجهزة الحزب، المصانع، المزارع، المستشفيات، المدارس، الجامعات، الهندسة والطب، الخ... نرى ان المنجزات والنجاحات كثيراً ما كانت تعود إلى قراءة هذه الكتابات ، وأن ما تكشف عنه من خلق وإبداع يعود إلى تطبيق خلّاق لها. في المقالات التي كانت تصدر عن العلاقة بماو وكتاباته أو تشير إلى هذه العلاقة، نقرأ باستمرار كيف ان التحولات الكبيرة التي كانت تطرأ على حياة الأفراد، أو النجاحات التي كان يحققها هؤلاء، كانت تعود كلها إلى دراسة فكر ماوتسي تونغ، والالتزام بتعاليمه. الإشارة إلى دور هذا الفكر وتعاليمه كانت تمثل ظاهرة عامة يومية في الحياة الصينية. فكر ماو أصبح ، في الواقع ، مصدراً لكل شيء وضروريا لكل شيء تقريباً " حتى في لعب كرة الطاولة بشكل صحيح " . لهذا لم يكن غريباً أن يؤكد الشيوعيون الصينيون أن فكر ماو هو " ميكروسكوب وتيليسكوب " قضيتهم الثورية ، الأداة في تحليل مشاكل الحاضر، وفي تعيين الطريق إلى المستقبل الكبير.

وقد عين دستور الحزب الشيوعي الصيني الذي تبناه الحزب عام ١٩٦٩، لين بياو خليفة لماوتسي تونغ " لأنه رفع عاليا وبثبات راية فكر ماوتسي تونغ الحمراء الكبيرة ، ودافع عن ونفذ بكل ولاء وتصميم خط الرفيق ماوتسي تونغ البروليتاري الثوري " . هكذا يُعين بياو خليفة لماو ويجد شرعيته ليس في أمانته للماركسية- اللينينية أو الحزب ، بل في أمانته لفكر ماو. في عام ١٩٦٣، قامت، في الواقع، عملية إيديولوجية كبيرة قادها الجيش، " تدعو كل البلاد الى تقليد الجيش " في دراسة فكرماوتسى تونغ وفي إعطاء هذا الفكر مكان الصدارة في الثورة . في ذلك العام وجه لين بياو رسائل تهنئة الى عدد من المؤسسات الصناعية التي ابتدأت منذ عام ١٩٦١" في إعطاء المكان الأول لدراسة أفكار ماوتسي تونغ ، وتطبيق حي لها " .

قبل الثورة الثقافية كان يوجد مفهومان للحزب، في المفهوم الأول نجد أن الحزب هو أساسا حركة شعبية، موحدة الأفكار والمشاعر، ذات علاقة شخصية، إن لم نقل " صوفية " بالقائد الذي يرمز إلى وحدته، يعبر عنها ويؤمن نضالها كوحدة، أما المفهوم الثاني، وهومفهوم ليوشاوشي ، فكان يؤكد على الحزب كتنظيم ، وعلى أن هذا التركيب التنظيمي الذي يميزه هو الذي يعطيه قوته وشخصيته. غني عن القول أن الثورة الثقاية كانت انتصاراً للمفهوم الأول .

في " نداء الرفيق لين بياو إلى جيش التحرير الشعبي " — بياو كان يمثل المفهوم الأول حول الحزب- نقرأ " إن قواتنا المسلحة اعتمدت دائما على وعي الأفراد السياسي ، على شجاعتهم، على العامل السياسي ، على التربية السياسية، على التربية في فكرماوتسي تونغ . الشعب المسلح بفكر ماوتسي تونغ يحقق أعلى درجة ممكنة من الشجاعة ، من الذكاء ، ومن الثورة . الجيش المجهز بفكر ماوتسي تونغ يتميز

بأكبر قوة قتالية ، ويكون جيشا منتصراً دائماً لا يغلبه شيء في العالم . يجب أن نجهز ونربي القوات المسلحة بفكرماوتسي تونغ " .

اما هدف الثورة الثقافية فكان، في الواقع، " تحويل البلاد كلها إلى مدرسة ضخمة لفكرماوتسي تونغ " . هذه الثورة كانت " عملية أدت إلى تركيز سياسي أكبر للسلطة في يد ديراكتور من اثنين أوثلاثة باسم عبادة هستيرية لشخص ماو " . الأنشودة التي تمجد ماو (الشرق الأحمر) حلت محل النشيد الوطني .

في الانتقادات التي كان يوجهها الاتحاد السوفياتي لجمهورية الصين، نرى منذ أوائل الستينات تركيزا على " الانحراف " الذي يتمثل في " عبادة ماو " التي " كانت تمتد الى جميع نواحي الحياة ، من الأدب والفن، الى السياسة والاقتصاد، الخ.. وتقدم ماو كإله ومخلص من جميع المخاطر والمحن " . هذا، في الواقع، ما حدث . فالثورة الثقافية كشفت أن عبادة الشخصية المركزة على ماو كانت عبادة دينية لعصمته. كانت تُبعد عن شخصه كل استفهام وتساؤل، كل اشارة من إشارات الريبة أو التشكك في هذه العصمة. كل نقد كان يُتهم رأساً كهرطقة وكفر. العناصرالبورجوازية والإجرامية فقط تخاصم ماو وتعاليمه.

في المساكن حلّت صورة ماو محل صور الآلهة الماضية وأخذ الشعب يمارس صلاة شكر قبل بداية الطعام تقول ، " شكراً للرئيس ماو لهذا الغذاء الجيد " . الاجتماعات العامة كانت تبدأ بانحناءات امام صورته. في عام ١٩٥٠، أي قبل اكثر من عشر سنوات على الثورة الثقافية، أعلن مجلس السوفيات البلدي في بكين ما يلي :

" في السابق عبدنا كوان لينج الذي قيل فيه أنه كلي القدرة. أين قدرته الآن؟.. من يجب أن نعبد؟... يجب أن نعبد الرئيس ماو" .

" الشرق الأحمر "، النشيد الذي حل تقريبا محل النشيد الوطني الشيوعي، كان يدور حول ماوتسي تونغ :

الشرق يلمع باللون الأحمر

الشمس تطلع من الشرق

الشمس خلقت ماوتسي تونغ

أنه يعطي البركات للشعب

إنه المخلص الكبيرللشعب.

تأدية هذا النشيد في الاحتفالات والمناسبات العامة، كذكرى الثورة السنوية، مثلا، وما يرافقها من خطابات تؤكد على قيادة ماو الكاملة والولاء التام لها، صفاته الفريدة غير الطبيعية، حكمته اللانهائية،

منجزاته النادرة في التاريخ، الخ .. والطقوس الأخرى كالمسيرات والألحان المختلفة التى تقدم لها وتتبعها، كانت تعطى صورة حية حسية عن الأبعاد غير الطبيعية التي بلغتها عبادة الشخصية التي احاطت بماو، والتي قل مثيلها في التاريخ كله.



تؤكد هذه الملاحظات على جانب خاص في شخصنة السلطة التي تركزت على ماو ، لأنه جانب لا نجده في الشخصنة التي تركزت في ستالين، وبذلك تكون الفائدة أكبر في إعطاء صورة موضوعية عامة عن شخصنة السلطة في التجربة الشيوعية . الجوانب الأخرى كانت تُعيد ذاتها. الأقوال والكتابات التي كان يعبر بها الشعب عن هذه الشخصنة كانت من النوع الذي أحاط بستالين ، ولكن من يراجعها يشعر ليس فقط بأنها أكثر حدة ، بل أكثرعفوية . الأمثلة القليلة التالية كافية في الإشارة الى ذلك.

في إحدى وثائق الثورة الثقافية بعنوان " خط سين ياه - فانج في معارضة فكر ماوتسي تونغ " نقرأ، " ماو هو الشمس الحمراء في قلوبنا، فكرماوتسي تونغ هو قوام حياتنا . كل عبارة من عباراته هي الحقيقة. إن حبنا لفكر ماوتسي تونغ هو دون حدود، ايماننا به وإجلالنا له هما دون قيد. يجب دائما وأبداً أن ندرس، ننشر، نحقق، وندافع عن فكر ماوتسي تونغ الكبير " . في مكان آخر نقرأ أيضاً ، " عبور البحار يعتمد على القبطان ، والرئيس ماو هو القبطان الكبير للثورة الصينية والعالمية . نموكل شيء يعتمد على الشمس والرئيس ماوتسي تونغ هو الشمس الأكثر احمراراً في قلوبنا . إن فكر ماو يوفر جذور الحياة للثورة " .

كما نقرأ أيضاً " الرئيس ماو، آه الرئيس ماو!. أنت الذي حررتنا، أعطيتنا الوعي السياسي ووجهتنا في الاتجاه الصحيح .. إنك أعطيتنا قوة غير محدودة وبينت طريق النصر لشعوب العالم الثورية . الرئيس ماو، آه الرئيس ماو!.. إنك أعز علينا من أهلنا ، ولطفك أعمق من البحر " .

" الرئيس ماو، ألوف الأناشيد غير كافية لتغني حبنا لك. ألوف الكلمات لا تستطيع التعبيرعن ولائنا لك "...

" من يتبع تعليمات ماوتسي تونغ لا يستطيع أن يخطىء "..

في أحد الأناشيد نقرأ :

أهلنا أعزاء علينا ،

ولكن الرئيس ماو أعز منهم .

في مكان آخرنقرأ: " أيها الرئيس ماو... إنا نحبك بشكل لا متناه ، إننا أمناء لك بشكل غير محدود. إننا نعبدك بشكل لا نهائي . أيها الرئيس ماو الأعظم !. مئات الملايين من العيون ترفع بصرها إليك، مئات الملايين من القلوب الحمراء تكرس نفسها لك ".

ثم نقرأ : " البحار قد تجف، والجبال قد تبلى . ولكن القلوب المخلصة لك في مئات الملايين من الميليشيا لن تتغير ابداً ، في الدفاع عنك، نحن مستعدون لأن نتسلق جبالا من الخناجر، أن ننزل في بحور من النار، وأن ندع رؤوسنا تتدحرج ، دماءنا الحارة تجري "..

" من الممكن استنزاف جميع كلمات المدح في العالم، ولكن هذه الكلمات لا تستطيع التعبير عن حكمتك وعظمتك . يمكن استنزاف جميع أناشيد العالم، ولكن هذه الأناشيد لا تستطيع التعبيرعن صفاتك ومنجزاتك الكبيرة " ..

" إن فكر ماوتسي تونغ هو الحقيقة المطلقة التي تطبق في كل مكان، والتي تمثل التوجيه الأعلى لأعمالنا.. السمك لا يستطيع ترك الماء، والأطفال لا يستطيعون ترك أمهاتهم ، والثوريون لا يستطيعون ترك فكر ماوتسي تونغ " .

".. عندما يلتقي الناس بماوتسي تونغ فإن قلوبهم تخفق بشدة من الفرح والدموع تسيل من عيونهم"..

" عند مشاهدة الرئيس ماو أصبح كل رفيق ثملاً بالسعادة، ومغموراً بغبطة لا تدعه يهدأ ".

هذه هي بعض النماذج مما كان يقال ويكتب في التعبيرعن العبادة التي أحاطت بماوتسي تونغ . تجميع جزء منها فقط يتطلب ، في الواقع، مجلدات. القصد هنا كان الاشارة إلى أبعادها الضخمة فقط .

لم تقتصر هذه العبادة على الصين الشعبية، بل تجاوزتها الى اعداد كبيرة في مختلف أرجاء العالم كانوا يعبرون عن مشاعرهم بعبارات وأقوال وكتابات تجعل، هي الأخرى ، من ماوتسي تونغ إنسانا غير طبيعي ، وتدل على طبيعة دينية تميزها.

" عبادة " ماو تحولت في الستينات إلى أداة هجوم على الحكومة والحزب، انتصرت على الاثنين، وضعت ماو فوقهما ورفعت فكره الى مستوى المقاييس الأخلاقية الأعلى .

واصبح هذا الفكرآنذاك أعلى من فكرماركس وأنجلز ولينين، وبالتالي أعلى من الحزب أو النظرية التي يمكن للحزب أن يبرر بها شرعية مناقضة لماوتسي تونغ.

عبادة الشخصية التي أحاطت بماوتسى تونغ كانت من النوع الذي يحيط بالآلهة . هذه السمة استوقفت، في الواقع، انتباه كثيرمن المفكرين والمعلقين . " الدين هوما يربط بين الإنسان والألهة، ولكن الآلهة لا توجد في السماء فقط " . كما لاحظ مارتينيه في التعليق على هذه العبادة.

لقد بلغت هذه العبادة أبعادا لم تتجاوزها أية حركة شعبية وثورية في التاريخ . عبادة الشخصية التي أحاطت بستالين نفسه لا تضارعها حدة واتساعاً وعمقاً . حتى عندما بلغت هذه الاخيرة قمتها، كان هناك اعترافه بتابعية ستالين للينين وتلمذته في التقليد اللينيني ، وكان يُسمح بذكر أسماء ماركس،

وأنجلز، وبلاخنوف في الكتابات والأعمال المكرسة له. ولكن عبادة ماو اتخذت شكلاً مستقلاً في أرضية خاصة بها، وفي مراحلها الأخيرة ، في الثورة الثقافية ، لا نجد اعترافاً بمعلمين لماوتسي تونغ أو ذكراً لأسلافه له ، من أمثال ماركس وأنجلز ولينين . فمن الفيزياء النووية الى كرة الطاولة يقوم فكر ماو بدور إلهام وتوجيه شعب الصين وحتى العالم كله .

تشير هذه الصفحات الى تماثل كبير، يبلغ درجة المطابقة الحرفية في كثيرمن الأحيان بين الشخصنة التي تركزت في ستالين وتلك التي أحاطت بماوتسي تونغ . وهذا التماثل ليس من قبيل الصدفة، لا يرجع الى " مؤامرة " أو إلى تدبيرمنظم خطط له القادة مقد ما . إنه ظاهرة " طبيعية " تتفرع من أوضاع متماثلة ، ويفرضها ديالكتيك المرحلة الثورية التي عبرت عنها الثورتان الروسية والصينية.

كما رافقت هذه الظاهرة بشكل متماثل جميع الثورات والأنظمة والأحزاب الشيوعية . وقد تتخذ لنفسها اشكالا مختلفة من حيث الحدة والعمق ، غير انها تلتقي كلها من حيث الملامح الأساسية. إنها تبلغ في " عبادة " كيم إل سونج ، مثلا، أبعادا تتجاوز حتى عبادة ماو تسي تونغ ، اوكما في عبادة قادة الانظمة الشيوعية في اوروبا، تتخذ مستوى أقل بكثير من هذا . ولكنها كلها تلتقي في أرضية متشابهة ومن حيث الاتجاه العام .

تكشف التجربة الشيوعية بوضوح عن تناقض أساسي حاد بين المنطلقات الايديولوجية التي تنطلق منها، والممارسة التي انتهت اليها، وتدل على أنه من الممكن القول أن هذه التجربة كانت، بالنسبة للحركات الشيوعية، تعني أولاً من حيث الممارسة الولاء لقائد معين، لينين، ستالين، ماوتسي تونغ، كاسترو، تيتو، الخ ... وأن الولاء للمذهب كان يخضع لهذا الولاء الأول، يتمحور حوله ويجد هويته فيه.

الفصل الثاني

التجربة الليبرالية الاميركية

تمهيد:

تقدم التجربة الاميركية، بين التجارب الديمقراطية الليبرالية، صورة واضحة عن هذا القانون الوحدوي العام الذي يدفع إلى شخصنة السلطة في التجارب الوحدوية والثورية. وهي صورة تتميز بمعنى خاص لأن ليس هناك من تجربة ديمقراطية ليبرالية أخرى أكدت أكثر منها فرضيات هذه الديمقراطية ، من فردية وحرية ومساواة ، و طبيعة إنسانية فاضلة، وقدرة الفرد العقلانية على الامساك بمصيره بشكل مستقل عن أية سلطة سياسية. وقد كتب المفكر الاميركي التقدمي سيدني هوك بعد قراءة تمجيد خاص بستالين ، " لا يمكن تصور أي شخص يتكلم على رئيس الولايات المتحدة بهذا الشكل ! ... هذه هي ، في الواقع ، لغة نستخدمها فقط في الكلام عن الآلهة " . ولكن سنرى في هذا البحث أن الرئيس الاميركي كان، في

الواقع، في بعض الحالات (واشنطن ولينكولن بشكل خاص) موضوع مديح أو تمجيد مماثل . المضمون واحد ، وإن كانت الصور التي اتخذها هذا التمجيد مختلفة .

كتب دي توكفيل في دراسته الكلاسيكية " الديمقراطية الاميركية "، عام ١٨٢٥، أن الديمقراطية تستثني بطبيعتها إعطاء أي دور رئيسي للفرد، وتنفي فكرة " القائد " و" البطولة "، ولهذا فإن (مؤرخي المراحل الديمقراطية لا يعطون أية أفضلية لأثر الفرد عند مقابلته مع قدر الأمة ، أو لدور المواطنين على دور الشعب، بل يعطون، على العكس، أسبابا جامعة كبيرة لكل نوع من الأحداث الصغيرة التافهة " . ولكن في الأنظمة الأرستقراطية نجد، كما يتابع، " بضعة أفراد كبار يحتلون المكان الأول في مسرح التاريخ، يستوقفون النظر ويركزونه عليهم .... في الديمقراطيات يكون المواطنون مستقلين، الواحد عن الآخر، وكل واحد منهم ضعيف بمفرده، ولذلك لا يُرجعون إلى أي فرد منهم أي أثركبير أودائم على المجتمع " .

لكن التجارب الديمقراطية تقدم نقضاً واضحاً لهذا المفهوم . المفكرون الاجتماعيون وكثيرمن المؤرخين يفسرون عادة التاريخ على الطريقة " الديمقراطية " التي أشار إليها دي توكفيل، فيحاولون تعيين القوى والأسباب الكبرى التي كان الأفراد، مهما بلغت درجة عظمتهم ، نتائج لها أو اصواتا تعبر عنها. ولكن هذا المفهوم العلمي لا يصور أبداً طبيعة الخيال القومي، التصورات الثورية أو النفسية الشعبية العامة في تفسير التاريخ وتحولاته. تكشف التجربة الاميركية هذا بوضوح بارز، وتدل على التنافض الأساسي بين المفهوم العلمي في تفسير التاريخ ، وبين النوازع والرغبات السياسية ، والميول الأخلاقية والنفسية . يكتب المؤرخ الاميركي بيترسون، بعد أن يذكركيف أن المفهوم الديمقراطي الليبرالي الذي قامت عليه الجمهورية الاميركية ينفي الدور الذي يُعطى عادة للقائد الكبير في صنع التاريخ، بأن هذا المفهوم كان من حيث الممارسة يرى، على العكس، أن هذا الماضي هو ماض يسوده بضعة من القادة الكبار الأقوياء، ويعتقد أن هؤلاء صنعوا الأحداث وكانوا سبب القدر الذي ساد الشعب . التفسير الذي أشار اليه توكفيل كان تفسيراً عقلانياً منطقياً ، ولكن معاناة الناس للتاريخ لا تعمل حسب هذه التفسيرات المنطقية. فالصلة بين المفاهيم الفكرية والعلمية والتصورات الايديولوجية، من ناحية ، وبين الممارسة السياسية من ناحية أخرى، تمر بقوى اجتماعية ونفسية ، أي بطريق تتشكل من مصالح وميول تحاول أن تعبر عن وتؤكد ذاتها وتعقلنها، فتعتمد أقرب تلك المفاهيم والتصورات الى قصدها وتحورها في خدمة هذا القصد. قد يكتب ساندبرغ، مثلاً افضل دراسة موضوعية حول حياة لينكولن الخاصة، وقد يكتب شارنود افضل دراسة موضوعية حول حياته العامة، ولكن لينكولن الذي يعيش في مشاعر الشعب، في الخيال القومي العام ، هو إنسان خارج هذه الدراسات، لأنه يتخذ شكل الأسطورة. ينطبق على كل قائد وحدوي أوثوري يعبر عن مرحلة وحدوية أوثورية كبيرة في التاريخ . لهذا كانت التجارب الديمقراطية تعبر عن ذاتها في صور حادة من شخصنة السلطة على الرغم من طبيعتها الفكرية أو الايديولوجية التي تتناقض معها. التجربة الاميركية كانت صورة حية لهذا التناقض .

المؤرخ ديكسن ويكتر يكتب ، " بأن اميركا تستمد رموز حكمها وأفكارها حول شخصيتها من بضعة قادة كبار كواشنطن وفرانكلين وجافرسون، وجاكسون ، ولينكولن، ولي، وثيودور روزفلت.... تشكل أصوات هؤلاء والنماذج التي يقدمونها، قوة أساسية حية في بناء الولايات المتحدة وإعطائها طابعها العام ... إن عبادة البطولة تلبي حاجة أميركية ملحة " . ثم يضيف في مكان آخر، " قد يرى البعض أن كلمة تقديس أوتأليه تشكل مبالغة في وصف عبادة البطولة الاميركية، لأننا نحب أن نفكر بأننا شعب من الواقعيين والعمليين، ولكن موقفنا الشعبي تجاه أبطال تاريخنا يماثل الموقف الديني . فنحن نؤكد على كمال نقي متكامل في الأشخاص الذين نعبدهم من أمثال واشنطن ولينكولن ولي ... وتشكل الطوطمية مظهراً آخر من مظاهر هذا الشعور الديني . فبالنسبة لنا، تقوم التذكارات حولهم مقام الأماكن المقدسة والايقونات في العصور الوسطى . فالأسّرة التي نام فيها أبطالنا، والثياب التي لبسوها، والبيوت التي سكنوا فيها تجذب إليها مئات الآلاف من الحجاج كل عام .

الشعب الاميركي يرجع، في الواقع ،- (أو كان يرجع؟)- إلى الدستور و وثيقة إعلان الاستقلال بحماس ديني قل نظيره . فهذا الشعب يقبل بإيمان عفوي صانعي ذلك الدستور، ومؤسسي جمهوريته وكأنهم ، بعبارة جافرسون نفسه، " أنصاف آلهة لا يعرف عملهم أي نقص " . ويستنتج ريتشارد هيلدريت، مؤلف افضل دراسة تاريخية في النصف الأول من القرن الماضي حول تاريخ الجمهورية الاميركية، بأن تاريخ الجمهورية في طورها الأول هو " أساسيا تاريخ بضع شخصيات قيادية بارزة " .

وقد اشاركثيرمن المؤرخين الاميركيين إلى الدور الهائل الذي تلعبه صورة القائد في خيال الشعب الاميركي، وكيف أن هذا الشعب يشعر دائما بأن القائد، كمجرد وكرمز متكامل، هو أهم بكثير من القائد كفرد أوكإنسان . لا يصدق هذا القول فقط على الشعب الاميركي، بل على جميع شعوب العالم، وخصوصاً عندما تعانى من أزمات جذرية ضخمة. فالقائد الكبير يُجرد عادة من الصفات الأنسانية العادية ويُحول إلى رمز عام تُصبغ عليه صورة مجردة، تنطوي على ما ينزع إليه الخيال الشعبي من كمال وآمال .



- جورج واشنطن :

مرت تجربة الولايات المتحدة في مرحلتين ثوريتين أساسيتين، وهما مرحلة الثورة والتوحيد ضد بريطانيا، ومرحلة الحرب الأهلية في سبيل الدفاع عن والمحافظة على الدولة الاتحادية . واذا صحّ القانون الوحدوي الذي نقدمه ، وجب أولا أن تعبر هاتان المرحلتان عنه بشكل بارزحاسم ؛ وثانياً ، أن يكون الشكل الذي يتخذه هنا أكثر حدة من أي شكل آخرنجده في أية مرحلة أخرى، أو حول أي قائد آخر في تاريخ الولايات المتحدة .

وهذا ما حدث في الواقع ، فتاريخ الولايات المتحدة يتميز بأشكال عديدة ومتنوعة من عبادة الشخصية ، ولكن ليس بين هذه الأشكال ما يستطيع منافسة تلك التي تركزت على واشنطن ولينكولن .

هنا سنعرض صورة عامة مختصرة عن هذه الاخيرة، ولكنها كافية من اجل اعطاء فكرة واضحة عنها، وفي التدليل على هذا القانون الوحدوي وسيادته للديمقراطية الليبرالية في أهم تجربة لها وهي التجربة الاميركية.

في حفل ازاحة الستار عن تمثال واشنطن عام ١٨٥٨، في ريشموند، فرجينيا، كان الخطباء يرون في واشنطن " المسيح " ، " المخلص " ، وفي مكان التمثال " مكانا مقدساً يقوم مقام مذبح مقدس " . أما الزوار فكان يُرحب بهم إلى " بيت لحم " حيث " وُلد مخلص البلاد " . خطاب الحاكم وايز، وكان الخطيب الرئيسي في تلك المناسبة ، يُعطي فكرة عامة عن التقديس الهائل الذي أحاط بواشنطن . فقد اعلن ان " اسمه سحري تسكت عند التلفظ به الاختلافات المدنية في سكوت رهيب... وتزول الانقسامات والتناقضات... لأن في تسمية الاسم فقط نجد قوة تفرض النظام والحرية والقانون، قوة وجمال الاتحاد الوطني " . آخرون قدموا واشنطن " كالعنصر الأساسي في تنظيم وتوجيه حركة جديدة كبيرة في العالم : الحكومة الشعبية الاميركية ". يستنتج المؤرخ مايو، الذي درس الخطابات التي ألقيت في تلك المناسبة ، " بأن الرجل لم يكن من لحم ودم، بل مجرداً إلهياً نُزعت عنه الحياة، كما نزعت عن التمثال " .

وكانت الدعوات التي تتجه باسمه إلى الناس وتحثهم على الوحدة القومية ، ظاهرة مستمرة في القرن التاسع عشر. فهي كانت تدعو إلى مقاومة الولاءات والانتماءات المحلية وتجاوزها بتذكير الاميركيين باحترامهم ومحبتهم المشتركة لواشنطن . في بعض الأحيان كانت هذه الدعوات تذكر الناس برسالة جافرسون لواشنطن عندما أراد إقناعه بقبول تجديد رئاسته والتي جاء فيها " إن الشمال والجنوب يستمران متماسكين متحدين طالما استمرا في التمسك بك ". في أحيان أخرى، كانت تشير بأنه إن لم يعد بالامكان الارتباط به كالأسلاف، أي بشكله الحي، فإنه من الممكن التمسك بذكراه والاتحاد فيها.

هذه الظاهرة، ظاهرة تقديس واشنطن، استلفتت نظر المراقبين الأجانب في القرن التاسع عشر. كثيرون منهم رأوا، في عبارة ديبلوماسي روسي ، " أن كل أميركي يعتقد أنه مدين باستقلاله وسعادته وثروته لهذا البطل، ويعتبر أن واجبه المقدس هو أن يضع في بيته صورة له تماما كما نصنع نحن الروس في بيوتنا التي نضع فيها إيقونات أو صوراً للقديسين " .

كما أن الكتب التي ظهرت حول حياة واشنطن عبرت عن هذا الميل العام الى تقديسه، فتصفه ليس كإنسان بل ككائن إلهي . أحدها، مثلاً ، للمؤلف والد ، يعبر عن ذلك بالعبارة الافتتاحية التالية ، " إن أول كلمة من كلمات الطفولة يجب أن تكون الأم ، والثانية الأب ، والثالثة واشنطن " . في كتاب لجون مارشال، ويقع في بضعة أجزاء، نرى هذه الصورة واضحة. المؤرخ جورج بانكرفت رأى أن يد الله تمتد في التاريخ الاميركي عبر هذه الصورة، وأن واشنطن كان أداة هذه اليد. وبيفريدج يعلق " أن واشنطن كان الدولة، أن واشنطن كان الثورة ". وسباركو، الأستاذ في هارفارد، يشير في كتاب من اثني عشر جزءاً ، إلى عبادة ترى

الكمال في واشنطن، معبودها. كما اتخذت مجموعة من المؤرخين في هارفارد الموقف نفسه في دراساتها. إننا نجد صورة موجزة عن هذا في الكلمات التي اختتم بها المؤرخ ألبرت هارث دراسته، والتي تعلن أن واشنطن

" كان أشجع من اسكندر، أشد دهاء من هنيبعل، اكثرحكمة من قيصر، أكثر وعياً ودراية من غوستافس أدولفوس، أوسع خيالاً من فريدريك، أكثر جرأة من نابليون، أكثرنجاحاً من سيبيو، ونجمه لا ينكسف أمام نجومهم جميعها " .

وكانت هذه العبادة قد بدأت أثناء حرب التحرير والتوحيد . فبعد معركتي ليكسينغتون، والكونكورد، أصبح واشنطن " كبرياء ومجد أميركا "، وابتدأ أتباعه " يؤمنون أنه إنسان معصوم ".

وكان الكتاب والخطباء، عبر التاريخ الاميركي- وخصوصاً قبل عام ١٨٦٥، أي عندما أخذت عبادة لينكولن تحل محل عبادة واشنطن- يدعون الاميركيين باستمرار إلى اتخاذ واشنطن انموذجاً عاماً لحياتهم . امرسون نفسه عبر عن هذا الاتجاه العام عندما قال عام ١٨٣٨، " أنه عندما يرى وجهاً عظيماً كواشنطن، فإن نفسه تمتلىء بجمال يثير المشاعر " . كانوا من ناحية عامة يؤمنون أنه كان إنساناً كاملاً ، وإن اختلفوا في تحديد الكمال. ففي كلمة هنري لي، كان واشنطن " الأول في السلام ، الأول في الحرب، والأول في قلوب مواطنيه ".

صحيفة" المورنينغ كرونيكل "كتبت آنذاك، " إن التاريخ كله لايقدم لنا شخصية نستطيع أن نقف أمامها بذلك الإعجاب النقي الكامل الذي نشعر به أمام شخصية واشنطن . فحياته الطويلة لا تجد نقطة سوداء واحدة تشوهها... وشهرته التي لا يحدها بلد واحد ستمتد إلى كل عصر ". كوينسي آدمز عبّر أيضاً عن هذه الفكرة فكتب " إن شخصيته ستبقى في جميع العصور أنموذجا للفضيلة الانسانية التي لا تلوثها أية رذيلة " . هذا الموقف كان عاماً . فالناس كانوا يدعون إلى اتخاذ شخصية واشنطن قياساً يقيسون به كل فضيلة ، يقيسون به حتى تقدم الانسانية نفسها " إن مقياس الإنسانية سيكون درجة تقديرها لشخصية واشنطن ".

بعد أن يدرس المؤرخ كونليف في دراسة قيمة ما قيل حول واشنطن من عبارات تقديس، يخلص إلى القول بأنه " من المؤكد أن ليس هناك من شخص آخر لقي ذلك التقديس وحُول إلى أسطورة بهذا الشكل " . وقد نشرت هذه الدراسة عام ١٩٥٧!.. المؤرخ فاي أيضاً ، الذي درس هذه الناحية بعناية، خلص إلى القول " بأن الناس كانوا ينظرون إليه كما ينظرون إلى إله " .

لم يقتصر هذا التقديس على الشعب الاميركي . فواشنطن أصبح رمزاً مقدساً ، من أوروبا إلى أميركا اللاتينية، في جميع البلدان التي انتجت حركات ثورية. وكتب غلادستون حول واشنطن ما يلي : " لو رأيت جميع المنابر التي اعطاها التاريخ لجميع الشخصيات التي تتميز بنبل ونقاء فريدين، منبراً أعلى من جميع المنابر الأخرى ، وإن طلب مني أن أسمي مباشرة ومع اللحظة نفسها الأنسان الذي يستحق ذلك المنبر أكثر من غيره لوقع اختياري على جورج واشنطن " .

أما كمية الخطابات في تمجيده، فقد بلغت درجة مذهلة. " فليس هناك في التاريخ ، ما عدا نابليون على الأرجح ، من رجل أثار هذا القدر منها في أواخر سني حياته ، وطيلة نصف قرن بعد مماته " . ففي جميع المناسبات، وخصوصاً في الثاني والعشرين من شباط/ فبراير، والرابع من تموز/ يوليو، كان رجال الدين والتربية وأعضاء الكونغرس، والمفكرون، والصحافيون، وكبار رجالات الدولة، والشعراء الخ ... يجدون في " أب البلاد " موضوعاً ممتازاً للخطابة، فيمجدونه كأعظم قائد في التاريخ ويفاخرون به جميع الشعوب . لقد حول هؤلاء الخطباء واشنطن الى مجموعة من الفضائل الفريدة المجردة وتناسوا تماماً أنه كائن من لحم ودم " فساهموا مساهمة فعالة في احاطته بهالة من القداسة والتقديس الفريدة ، وكنتيجة لذلك كان الشعب ينكر على أي فرد أن يذكر واشنطن أو ان يتكلم عنه بشكل إنساني، لأن واشنطن لم يكن إنساناً بل أصبح نصف إله " .

وكان الشعب يرفض أية إشارة الى واشنطن تحط من قدره أوتنتقده بأي شكل مهما كان النقد تافهاً أو محدوداً . اذ كان، في الواقع، " يغتاظ من أية محاولة في أنسنة قائده ، تشير إليه مثلاً كعاشق شاب ينظم الشعر، إلى مزاجه الحاد الذي كان ينفجر في بعض الأحيان، أوتصف حياته كملاك في فيرجينيا يحب الرقص أو صيد الثعالب " . وكان المؤرخون أنفسهم يتلاعبون بالوقائع كي يمكنهم ذلك من تقديم واشنطن بصورة نقية جليلة. هذه الصورة المجردة كانت الصورة التي هيمنت على الخيال الاميركي . " عندما كان يتجاسر أحد على رؤية بعض المشاعر والمواقف الإنسانية العادية فيه.... كان يتهم وكأنه زنديق ... فواشنطن لم يكن كالناس، وأي وصف لشخصيته على صعيد مشاعر الحياة العادية كان يعني، في الواقع، تكذيباً ورفضاً لأعظم فصل في تاريخ الإنسانية " . واصبح ما " عاناه " أثناء حياته من مفاسد الناس، دليل قداسته . " ما تحمله بصبر من شرور الشعب والسياسيين يعطيه قداسة فريدة بين كبار العسكريين وخالقي الأمم " . وقد وجد اكثرية الذين كتبوا أو خطبوا في تمجيد واشنطن وجدوا أن " أعظم مرحلة في التاريخ بدأت به وأن الإنسانية تستطيع في جيل واحد، إن وُفقت إلى بطل مثله، أن تحقق أعظم مقاصد الدولة، وأن تدوس على أشكال الاستبداد " .

وكانوا يشاركون آنذاك القاضي ريتشارد بيترز في قوله " فيما يتعلق بالجنرال، إنني أحبه إلى درجة العبادة ... السماء أرسلت واشنطن كي يحمل الصلاح لجميع الناس " .

لينكولن نفسه أعلن مرة في إحدى خطبه بأن اسم واشنطن " أقوى اسم في الأرض... وأن الاسم لا يحتاج إلى مديح . فذلك غيرمعقول ... لأن إضافة نور إلى الشمس، أو إضافة مجد إلى اسم واشنطن أمران مستحيلان ... " .

كانت عبادة واشنطن، قبل عبادة ستالين، وماوتسي تونغ، الخ ... ترى أنه يمثل العبقرية او العظمة في كل شيء، من السياسة إلى الزراعة، ومن الجندية إلى التجارة والهندسة، الخ ... حول هذه العظمة المتعددة الوجوه يوجد في الكونغرس الاميركي ألف ومائتي كتاب ونشرة، وهي مجموعة غيركاملة .

إن أميركا، في عبارة دانيال وبستر، " قدمت للعالم شخصية واشنطن، وان لم يكن بقدرة الأنظمة الأميركية ان تصنع اكثر من ذلك، فهذا كافٍ وحده كي يفرض احترام أميركا على العالم ... إن عصره وبلده مليئان بالأعاجيب ، وهو سيد الاثنين " . ثم أضاف في مناسبة أخرى ، " أية فضيلة تنقصه؟... أية نقيصة يمكن إلصاقها به ؟ .

مئات وآلاف الخطب التي ظهرت تأبيناً له عند وفاته جمعت، في عبارة أحد المراقبين الأجانب آنذاك ، " جميع الصور والتصورات الممكنة حوله ، حشدت جميع السياسيين والعسكريين الكبار في التاريخ ، وجعلتهم جميعاً يقدمون الزهور على أقدام تمثاله ".

إحدى الميزات الأساسية لهذه الخطب كانت ذكر الاسماء الكبيرة التي برزت في عصور أخرى، ولكن كي يُقدم عليها واشنطن عند المقارنة وكان أحد أعضاء الكونغرس في فرجينيا قد أعلن عام ١٧٩٩:

" اليونان تستطيع أن تعلن عن شارعيها ، وروما عن أبطالها، ولكن أي عصر أو بلد يستطيع أن يعلن عن واشنطن.... الرجل المعروف في السلم والحرب؟.... إن ليونيداس كان وطنياً، وأريستيديس عادلاً ، وهانيبال صبوراً ، وفابيوس حكيماً ، و سيبيو معتدلاً ، وقيصر رحيماً، وماسيليوس شجاعاً، وكاتو شريفاً ... ولكن كل هذه الفضائل التي ميزت بشكل منفرد عظماء العالم القديم، اجتمعت كلها في شخصية هذا الرجل العظيم، ورفعته فوق مستوى الناس، إنه عظيم إلى درجة لا يتجاسر فيها الحسد أن يرفع بنظره الخبيث إلى القمة التي تقوم فيها فضائله " . إن براين الذي اهتم بشكل بهذا الجانب من عبادة واشنطن في دراسته القيمة عنه، يعلق بقوله " إن هذا النوع من التمجيد كان النوع الذي يحدث في الكونغرس كلما ذُكر اسم واشنطن بين عام ١٨٠٠ وعام ١٨٦٥.... هذا النوع من الخطابة كان، في الوقت نفسه، أنموذجاً عن الخطابة الاميركية في تلك المرحلة " .

جون تايلور، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة، ذهب إلى أبعد من ذلك في هذا النوع من المقارنة التاريخية، فلم يكتف بأن يجعل واشنطن أعظم من جميع أبطال التاريخ، مميزاً عنهم، بل نادى هؤلاء قائلاً " يا ذوي الطموح في الأرض. كم تثيرون الاشمئزاز، وكم تصبحون محتقرين عند مقارنتكم بواشنطن !..." .

في كتاب رفعه مجلس الشيوخ إلى رئيس الولايات المتحدة معزياً بوفاة واشنطن يذكر المجلس أنه يشعر بكبرياء عند مقارنة حياته بحياة عظماء رجال التاريخ، لأن هؤلاء يخسرون من عظمتهم عند المقارنة، ولأن العظمة كانت تتحالف مع الشر، ولكنها كانت نقية في واشنطن... في مكان آخر نقرأ " يا واشنطن الخالد !.... قاعدة ولايات أميركا المتحدة !. الذي يجله الأعداء، والمحبوب كأب من قبل الذين يسيرون وراءك نحو المجد- أين نجد شبيها لك ؟.. بين جميع الأبطال الذين وصلت أسماؤهم لنا دون أن يخف طعانها، من استطاع أن يحقق المآثر الهامة والمجيدة التي حققتها؟ " .

وقد بلغت هذه الأشكال من " العبادة " والتقديس درجة من الانتشار جعلت عدداً كبيراً من رجالات الدين يحذرون من الأمر وينبهون الشعب الى ان ذلك يعني عبادة واشنطن بدلاً من الله، الذي أرسله كي يخلص شعبه من العبودية .

ولم يقتصر هذا الحذر على رجالات الدين، بل تجاوزهم الى بعض قادة الفكر والدولة ، الذين شاركوهم في تنبيه الناس إلى مخاطر تلك الأشكال . جون آدمز نفسه وقف مرة في الكونغرس وأعلن : " لقد آلمني أن أرى بعض اعضاء هذا المجلس يعبدون صورة من صنع أيديهم . إنني أتكلم هنا عن التقديس الأسطوري الذي يوجه في بعض الأحيان الى جورج واشنطن ". ثم كتب، في مناسبة أخرى، معلقاً على الألقاب التي تعطى له : " أب البلاد "، " مؤسس الجمهورية "، " المخلص" ، الخ... " بأن هذه الأوصاف لا تصح أن تُعطى لفرد، ولا إلى عشرين فرداً، ولا إلى مائة فرد، ولا إلى ألف فرد ". ما أراده آدمز كان في الواقع تصحيح الموقف فقط وذلك بتقديم أميركا على جورج واشنطن، ولهذا نبه " الى أن فضائل واشنطن ليست سبباً ومصدراً لفضائل أميركا، بل أن فضائل أميركا هي سبب لفضائل واشنطن، وأن عظمة الاخير الفريدة تعود، في الواقع ، الى قدرة التعبيرعن فضائل أميركا وتمثيلها ولكن ليس إلى خلقها وصنعها " .

ولكن جون آدمز نفسه ساهم، من ناحية أخرى، في بناء هذه " العبادة " . ففي خطبة يرثيه فيها في مجلس الشيوخ ، قال " حياة واشنطن تتفوق دائما عند المقارنة مع آخرين في بلدان أخرى، من ذوي الشهرة الذين احتفل الناس باسمهم ومجدوه ... القدر السيء كان يمكن ان يسيء إلى اسمه فقط عند ذوي العقول السطحية ... الخبث لا يستطيع أبداً أن يشوه شرفه ، والحسد جعل منه شذوذاً فريداً خارج سيادته المطلقة ... لوكان من الممكن الاستجابة لصلوات المواطنين، لاصبح واشنطن خالداً ... إن مثله سيعلم الحكمة والفضيلة للقضاة ، للمواطنين، والناس، ليس في هذا العصرفقط ، بل للأجيال المقبلة ، وطالما بقي هناك من يقرأ تاريخا .. " .

يشيرهذا بوضوح الى أن جون أدمز كان يريد فقط التخفيف من غلواء هذه العباة وليس نقضها. وتصحيح أبعادها الأسطورية التي حولت واشنطن إلى إله أو شبه إله . وكان بذلك يدافع عنها، ولكن من زاوية أخرى . فواشنطن يشتق عظمته من عظمة الشعب وليس العكس . فقد كتب عام ١٧٩٥، " بدلاً من عبادة واشنطن يجب على الإنسانية التهليل للأمة التي ثقفته... إنني أفاخر بشخصية، واشنطن لأنني أعرف تجسيد للشخصية الاميركية ... " اضطرار رجل كجون آدمز إلى تنبيه من هذا النوع يعطي بوضوح صورة عن الأبعاد الهائلة التي بلغتها هذه " العبادة". وينطبق الأمر نفسه على موقف رجال الدين الذين اعترضوا على الشكل الذي اتخذته هذه العبادة. فاعتراضهم لم يكن على " العبادة " نفسها بل لأنها ابتدأت تأخذ مكان عبادة الله نفسه الذي أرسل واشنطن ، كما كان يقول كثيرون منهم " كي يخلص شعبه من العبودية " . في هذا الاعتراض نفسه نرى صورة واضحة للأبعاد الأسطورية التي بلغتها هذه العبادة، وذلك لأن الاعتراض يعترف أن الله نفسه أرسل واشنطن .

ولكن هذا النوع من التحذير، من آدمز وغيره، كان عبثاً . فالمنطق كان دائما عاجزاً أمام الخيال الشعبي، والحجة العقلية كانت دائما ضعيفة أمام الرغبات والميول النفسية والأخلاقية. ولهذا استمرت الأسطورة، أسطورة واشنطن تنمو و تؤكد ذاتها في إطار من التقديس وهالة كبيرة من العبادة. " فهو أعظم وافضل رجل عرفه العالم ... ولو أنه عاش في أيام الوثنية لكان الناس عبدوه كما يعبدون الله " . أما بالنسبة لأميركا " فكان مؤسسها وحاميها، القديس الذي يرعاها والذي يدافع عن إيمانها، تماماً كما لو كان شارلمان، جان دارك، ونابليون في شخص واحد " . وقد وجد هذا التقديس الذي أحاط بواشنطن تعبيراً نهائياً، ورمزياً بسيطاً في رسم كبيرجداً داخل الكونغرس الاميركي ، يحتوي على صور ملائكة اسمه " تأله واشنطن" .

في كتابه " جورج واشنطن، الرجل والبناء " يستنتج كونليف بأنه يستحيل الآن الفصل بين الرجل والأسطورة، لأن الرجل أصبح البناء، والبناء هو أميركا. لا تزال مشكلة المؤرخ الأساسية، في النصف الثاني من هذا القرن، في كيفية الوصول الى واشنطن الإنسان الذي يقف وراء الأسطورة الضخمة السميكة الجدران التي تحيط به. فقد اغلق عليه في هذه الأسطورة وأصبح من الصعب الكشف عنه كرجل . ويكتب " مايو" الذي درس كتابات المؤرخين حوله في الستينات، أنه حتى في هذا العقد نرى بعض المؤرخين يكتبون بأن من يحاول أنسنته يزوّره" .

كتبت مجلة " هاربر الأسبوعية " (Harper,s Weekly) بعد أن قامت بدراسة ما كُتب حول واشنطن في أواسط القرن الماضي ما يلي : " عندنا دراسات كلاسيكية حول واشنطن المثال، ولكن ليس عندنا صورة حية عن الرجل كما عاش، وعمل، وفكر، و سلك في حياته الخاصة " . لم تكن هذه النتيجة غريبة، لأن المؤرخين أنفسهم نظروا إلى واشنطن، في عبارة أحدهم، كما نظر اليونانيون القدماء إلى إكيليس، واعتبروه نصف إله، أحد هؤلاء، وكان أستاذاً في جامعة " بال " كتب مرة " واشنطن!... كم أحب اسمك !... كم مرة عبدت وباركت إلهك، لأنه خلقك وجعل منك زينة للإنسانية ! .. عند ذكر اسمك يقف رصاص الأعداء، ويتحول هؤلاء عن أكاذيبهم وكأن الله نفسه وبخهم بقوله : لا تلمسوا من اصطفيته ولا تؤذوا بطلي " . ثم نقرأ في مكان آخر: " إن شهرتك حلوة أكثر من الطيوب العربية ، والملائكة ستمسك براحتها، تنقلها إلى السماء، وتعطر بها الكون " .

لم ينجب واشنطن . وقد رأى الناس في ذلك علامة إلهية ، دليلاً بأن الله نفسه أراد ذلك كي يمكن له أن يكون أباً للأمة بكاملها، وكي يمكن للشعب أن يناديه " يا أبتاه!... " .

ولم ينس الخطباء والكتاب والدة واشنطن، ولذلك نراهم ينظرون إليها كما ينظرون إلى مريم . " أما ماري، أم واشنطن، فإننا ندين لها بالدين الجبار الذي يتوجب على الانسانية لابنها الخالد " . فهومسيح اميركا، وفرجينيا التي وُلد فيها هي بيت لحم . وقد وجد هذا التقديس صورة حية له في فريدريكسبورغ حيث وُضعت إعلانات تقول ، هذه هي الطريق إلى بيت مريم، أم واشنطن" .

هذا التقليد، تقليد تقديس واشنطن، اعتباره فوق البشر، نصف إله و احاطته بشيء من العبادة، استمر حتى القرن العشرين .

أما الجانب الآخر من شخصنة السلطة (في تجارب التاريخ الوحدوية والثورية) وهو تركيزها في يد قائد- رمز، فإن واشنطن " كان دكتاتور الولايات المتحدة المدني مدة ثماني سنوات، الرجل الوحيد الذي كانت الحكومة تعتمد عليه، الذي كان بمفرده يسير الأمور، الوحيد الذي عرف، بسكون وهدوء، كيف يقيم النظام وينجز الأمور بينما كان الكونغرس يناقش ويصوت وينتظر " لقد كان من المعترف به ، في الواقع، أن واشنطن " كان يمارس سلطة غير محدودة كبطل أميركا القومي " . و" أنه مارس دكتاتورية فعلية " . هذا " على الرغم من الدستور الاميركي والمبادىء التي اقترنت به.



لم يفهم النقد الذي تركزعلى عبادة جورج واشنطن، طبيعة المرحلة التي صنعته ، أو القانون النفسي الذي يفرض هذه الظاهرة في مراحل من هذا النوع ، ولذلك فشلوا في موقفهم، أي في نقدهم وفي معارضتهم له. لم يدركوا أن الفكر المجرد يعجز، مهما كان عقلانياً ومنطقياً، أمام المشاعر والحاجات والميول والمصالح التي يولدها التاريخ في تحولاته، ومنعطفاته الأساسية. فالولايات المتحدة كانت تحتاج الى رمز يجسد اتحادها الجديد إلى أن يتم ترسيخ وإقامة الأنظمة الجديدة التي تحققه، إلى رمز يعبر عن آمالها ومطامحها وتطلعاتها في تلك المرحلة الانتقالية التي كانت تعافيها. وكان واشنطن هو ذلك الرمز الذي التقت فيه الولايات المختلفة في ارضية مشتركة، والذي اعتمدته في تجاوز الانتماءات المحلية في إرادة عامة واحدة. وكانت الأوضاع التي تحيط بهذه الولايات تفرض عليها إرادة عمل واحدة ، فكان واشنطن طريقها إلى معاناة هذه الإرادة بشكل حسي وإنمائها. دور واشنطن كرمز لم يكن تجسيد هذه الإرادة فقط ، بل العمل بوجوده ذاته على تطويرها وتثبيتها. الخطابات والكتابات التي كانت تظهر حول قيادته كانت تعبر بوضوح عن هذه الناحية . وقد عبر أحد حكام ولاية فرجينيا، مثلاً ، عن ذلك ببساطة أثناء احتفال عام بذكرى واشنطن حضره جميع حكام الولايات وعدد كبيرمن رجالاتها. فقد قال في خطبته، " واشنطن !... أيها الاسم السحري!... إن لم يكن هناك من أحد يستطيع تحت السماء أن يوحد بيننا، فهذا الطلسم وحده يستطيع أن يحرك أوتار الوحدة فينا ، أن يجعل أيدينا متماسكه، وأن يربط بين قلوبنا في علاقة واحدة نتوارثها بالارتباط بأب واحد !... فأمام هذا الاسم المجيد تزود التناقضات والأحقاد، تسكت الانقسامات، تخضع الاختلافات المحلية وعوامل التجزئة وتزول، لأن التلفظ بذلك الاسم يوفر لنا قوة وجمال الاتحاد القومي " .

لقد حالت الشخصنة القوية التي تركزت في واشنطن دون التفكك ، أو بالأحرى كانت عاملاً أساسياً حال دون هذا التفكك الذي كانت تنطوي عليه الخصومات ، الانقسامات، الولاءات والمصالح المحلية المتناقضة التي كانت تعبر عن ذاتها في النظام السياسي . هذه الشخصنة وفرت أداة أستطاعت ان تكسب، بالإضافة الى ولاء الشعب، ولاء قادة الاتجاهات والأحزاب المختلفة. لهذا نرى ان الإجماع العام الذي

كان سائداً انهار سريعاً بعد أن ترك واشنطن الرئاسة. الأحداث التي نتجت عن ذلك إلى درجة من التوتر جعلت استمرار الاتحاد بعد انتخابات ١٨٠٠ أمراً مشكوكاً فيه . الرجوع إلى اسم واشنطن وذكراه وتراثه كان في هذه المرحلة وعبر النصف الأول من القرن التاسع عشرعاملاً أساسياً في التغلب على هذه الضغوط التي كانت تهدد هذا الاتحاد . هذا الدور، كرمز للاتحاد واستمراره، كمحور تلتقى فيه المشاعر والأفكار، كان يدل على ذاته في عودة الاتجاهات السياسية المختلفة إلى أقواله وأفعاله، يحاول كل منها أن يجد فيها ما يبرر موقفه من الاتجاهات الاخرى .



ابراهام لينكولن :

كان ظهور لينكولن هو أول منافسة جدية ناجحة لاسم واشنطن في سيادة الخيال الشعبي العام سيادة أسطورية . هنا أيضاً نجد الملامح الأساسية نفسها التي رأيناها تقترن بشخصنة السلطة في الأمثلة السابقة .

تركزت شخصنة السلطة في لينكولن بسرعة ليس فقط على تقديس لينكولن، بل على إعلانه مخلصاً ، مسيحاً جديداً أو شبه إله . إننا نجد توكيداً على هذه الناحية أشد بكثير مما رأيناه في " عبادة " واشنطن . وتشكل هذه الناحية، في الواقع ، محور الشخصنة التي تبلورت حوله. بما أن الجوانب الأخرى تُعيد ما رأيناه في " عبادة " واشنطن، فإن اهتمامنا سيتركز هنا على هذه الناحية، صار لينكولن، في هذه الشخصنة، الرجل الكامل ، والإنسان أو الانموذج الإنساني الأعلى الذي لم يلبث أن تحول إلى (مسيح) جديد ، ولم تلبث هذه النظرة، كما رأينا حول واشنطن، أن نزعت عنه جميع الصفات الإنسانية وحولته إلى مجرد مثالي . الخيال الشعبي العام كان يريد أن يعرف كيف تعذب وصلى، وكيف أحب الإنسانية، ولكنه كان يرفض أن ينظر إليه كإنسان يمكن أن يعاني حالة من اليأس، الشك، الحسد، الخداع، الخ ... كغيره من الناس . " هناك رجال فضلاء مثله ولكنهم يصنعون الشر، وهناك رجال أذكياء مثله، ولكنهم يقومون بأعمال حمقاء. ولكن في لينكولن اتحدت الفضيلة بالذكاء، ومن هذا الاتحاد ظهر افضل ما يمكن ان يتحقق من حكمة " ، هذا الاتحاد الذي كان يقول به كثيرون في البداية كان الخطوة الأولى في تحويله إلى كائن " إلهي " . في كتابه، " رجل الشعب " ، وصف ديكسن تطور هذه الصورة حوله، فكشف أن تقديسه بدأ، في الواقع، قبل اغتياله. ولكن هذا الاغتيال كان، ولا شك، الحادثة التي اسرعت في تعميق هذا الاتجاه وبلورته في اشكاله النهائية.

لم يجد الخيال الشعبي الاميركي، في ميله العميق إلى الشخصنة " المقدسة " ، من يحقق ذلك أكثر من لينكولن . " فالمرشحون " الآخرون لم يحققوا الشروط المتكاملة التي يجب ان تتوفر لهذه الصورة

كما تحققت للينكولن . فواشنطن، وقد قام بهذا الدور، وكان أقرب الآخرين إليه، لم يكن قادراً على تجسيده بعفوية أوأن يستمر به طويلاً ، لأنه كان بعيداً عن الشعب، صارم السلوك، ساكناً وهادىء المشاعر . أما جافرسون، المرشح الثاني ، فكان كائناً فكرياً ، ونتاج العقل، يعيش في دنيا فكرية بعيدة عن دنيا العواطف والأساطيرالتي يحياها الشعب. وجاكسون كان– رغم صورة البطولة التي رافقت اسمه ، ورغم تبنيه، كجافرسون، لقضية الشعب،– بعيداً عن تلك الصورة لسرعة غضبه. ثم أن الثلاثة عاشوا طويلاً، ولم يكن موتهم ينطوي على أية مفاجأة يمكن لها أن تجعل من ذلك الموت " لغزاً " ، أوذا معنى خاص، مما كان يشكل شرطاً لتحول القائد إلى " إله " .

ولكن لينكولن كان ذا مشاعر حارّة تؤكد ذاتها ويتلمسها الشعب في علاقته. ثم انه عاش حياة عرفت الفقر، والتشرد والاضطهاد، ومات قتلاً، شهيد رسالة إنسانية أراد تحقيقها. أسطورة " الإله الذي يموت " هي، في الواقع، من أهم وأكثر الاساطير الانسانية انتشاراً .

يوما بعد يوم إثر اغتياله " كان الشعور ينمو بأن لينكولن كان مرسلاً من الله ، والذين عرفوه كانوا ينقلون عنه كل شيء ينسجم مع ذكرى الشهيد " . وقد سارت أسطورته كمحرر جنباً الى جنب مع أسطورته " كنبي " ، وهي أسطورة أثرت في كتابة التاريخ إلى درجة لم يستطع ان يتحررمنها حتى الآن .

عندما اغتيل لينكولن رأى الناس ان الله أخذه كما كان يأخذ أبطال وأنبياء التوراة ، في دراما صوفية ومقدسة. المشاعر التي عبر عنها الشعب في جنازته، في مواكبة جثمانه ، لم تكن مشاعر حزن عادية بل كانت مشاعر دينية بكل ما تنطوي عليه هذه من معنى . بعض الناس أصبحوا مرضى من الحزن، وآخرون فقدوا عقولهم " .

وكان تشييع جثمانه، في رأي بعض المراقبين، نوعاً من الظواهر العاطفية التي يعجز تاريخ الأديان والمشاعر الدينية ذاتها عن إبراز مثيل لها. سبعة ملايين أميركي كانوا طيلة أسبوعين يتزاحمون ويبكون ويصرخون ويُغمى عليهم . " اليوم التذكاري " للأموات في أميركا وُلد، في الواقع، من الهستيريا الجماعية التي رافقت جنازة لينكولن التي أعدت ، في عبارة أحد المؤرخين، طيلة أسبوعين من الاهتياج المسعور "عطلة الموت السنوية " . " لم تعرف الولايات المتحدة أبداً شيئاً يقارب ذلك الجنون المثير الذي ساد الجماهير وراء جثمان لينكولن . والملايين الذين رافقوه رأوا يد الله في جميع الأحداث التي رافقت تلك المرحلة، ولاح لهم أن الله نفسه أطلق عقال قوى الطبيعة نفسها " .

في كتابه القيم " أساطير حول لينكولن " يجد المؤرخ، لويد لويس، الذي أهتم اهتماماً خاصاً بهذه الناحية أن جميع الصور التي نسجها الخيال والفكر حول لينكولن آنذاك زالت، ما عدا صورة واحدة هي صورته الروحية والصوفية (Mystic)، صورة النبي الذي جاء من الأعالي، صورة الذي التصق " باللانهائي " أكثر من جميع الناس.

بعد بضع سنوات لا نجد من يؤمن بأي شكل ملحوظ أن الجنوب هو الذي أعد قتله ، أو أن الله قتله حسداً منه ، أوكي يضع نهاية للوثنية التي تركزت عليه، فأخذت تعبده، أو كي يرسل مكانه رجلاً آخر أكثر قسوة وشدة يعاقب به الولايات الجنوبية المنحرفة ، وهي اسباب كانت تُذكر مباشرة بعد اغتياله... هذه الصور وغيرها زالت ، ولكن صورة واحدة بقيت وهي أن الله أرسل لينكولن إلى الأرض كممثل سري له ، كي يموت لأجل شعبه . انتشرت هذه الصورة كمعتقد، ونمت مع الوقت، ولم تلبث أن أصبحت جزءاً من ايمان أميركي عام بأن ذلك " القروي " كان، بأعجوبة، من الله ، المخلص لأميركا ووحدتها .

كان اغتيال لينكولن استشهاداً قدس حياته وأعماله، فأصبحت كلماته وخطاباته وكتاباته الإنجيل الاميركي . " ان الله سمح بموته كشهيد لأنه أراد تكريس أعماله، سياسته، وبياناته كإنجيل سياسي للبلاد وقد دُمغ بالدم ".

وأخذ معظم رجال الدين يتكلمون عن لينكولن كما كانوا يتكلمون عن المسيح وموسى ، وتقديس الشعب له كمخلص كان شديداً الى درجة كان أعداؤه أنفسهم لا يتجاسرون على انتقاد هذه الظاهرة، ويضطرون إلى الاعتراف، على الأقل، بأنه أكثر من إنسان، بأنه كائن غريب فوق الناس أرسله الله نفسه الى الأرض .

لقد أصبح من الكفرحتى الإشارة الى أن الكآبة التي كانت تلازمه قد ترجع إلى اسباب طبيعية. وكان معروفاً لدى كثيرين من مساعديه، أنه سئم، اثناء رئاسته ، صراعات وتضحيات الحرب، وما كان ينتج عنها من قتل ودمار، وأنه أصبح كئيباً بسبب الألم الذي كان يعانيه الشعب الذي يحبه بصدق. ولكن عندما مات " أصبح التقليد الوطني العام هو الايمان بأن القائد الكبير في عليائه كان كئيباً بسبب الالهامات السرية التي كانت تُرسل إليه من السماء.

... لهذا عندما اعاد هيرندون أسباب كآبة لينكون إلى العالم الطبيعي بدلاً من عالم الفوق-طبيعي، حدث احتجاج عنيف. فمن جميع أرجاء الجمهورية ظهرت صيحة غريبة ومزعجة تعبر عن خيبتها معلنة : أيها الملحد!... أيها الملحد!... هيرندون ملحد " .

أما الزنوج فلم ينتظروا وفاته كي يُصبح نبياً أو إلها بالنسبة اليهم، بل اعتبروه إلهاً ونظروا إليه كإله وهو حي . فعندما دخل ريتشموند، عام ١٨٦٥، كانت جموع وحشود كبيرة منهم تمتد طوال كيلومترات عديدة، تبكي وتهلل له. وكانت الأمهات يحملن أطفالهن عالياً كي يلقوا نظرة على " المخلص" ، على " المسيح الجديد "، كما كان المرضى يأتون إليه يريدون بركته للشفاء من أمراضهم .



وصار الناس يشبهون لينكولن باستمرار بالمسيح وموسى ، ويتكلمون في الكنائس وخارجها، عن أخوة روحية بين الثلاثة ، عن ثالوث مقدس بينهم .

ولإيضاح ذلك، كانوا يقارنون بين أوضاعهم للتدليل على تماثل بينها، وراح الخيال الشعبي العام يعتمد، في حياة لينكولن، كل ما يمكن أن يساعد على بناء أسطورته كمسيح أوكمخلص جديد. لينكولن كان، كالمسيح، ابن " نجار " والأوضاع التي ولد ونشأ فيها كانت كمياً وكيفياً مماثلة لأوضاعه، ونشأته كانت غامضة كنشأته ، ورسالته لم تبدأ إلا بعد أن تقدم في السن، واسمه كان ابراهام ، الخ .

اسمه نفسه خلق الانطباع بأنه رجل من عند الله. إنها ظاهرة هامشية تافهة، ولكن النفسية العامة أعطتها معنى كبيراً . معاصرون معروفون من أمثال إمرسون، هلمز ، لويل، هاريات ستاو، الخ .. كانوا يشيرون إليه ك " الأب ابراهام " . العبادة بلغت ، في الواقع، أبعاداً هائلة. لقد جعل الاغتيال من كل ظاهرة من ظواهر حياة لينكولن مليئة بالمعاني العميقة المقدسة.

هذه الاوضاع لم تخلق أسطورة لينكولن، ولكنها ساعدت الخيال الشعبي الذي كان يتشوق إلى تلك الأسطورة، على تبريرها. لهذا كانت تُهمل، في هذه المقارنة ، جميع الظواهر والأوضاع التي لا تدعم ما ترغب في الوصول إليه من تماثل أومطابقة .

وقد وجد الناس في حدوث الاغتيال يوم الجمعة الحزينة، أي يوم مقتل المسيح، رمزاً يدل على ألوهية لينكولن . كان الخيال الشعبي يحاول اعتماد أية حادثة شاذة كي يبرر رفع لينكولن الى صعيد غيرطبيعي، أوكما يكتب بريان، " لتأليهه وتحويله إلى إله أميركي " . يمكن الإشارة، هنا على سبيل المثال، إلى قصة الحلم الذي ذكره لينكولن يوم اغتياله. ففي ذلك اليوم أظهر الجنرال غرانت، وكان يرافقه، أنه مشغول الفكر من جهة شيرمان في كارولينا الشمالية، فطمأنه لينكولن وقال له بأن لا يشغل فكره. فكل شيىء سينتهي على خير، وذلك لأنه في الليل السابق رأى نفس الحلم الذي كان يراه قبل أحداث الحرب الكبيرة، حيث يرى نفسه فيه، في باخرة تشق عباب اليم نحوشاطىء مظلم مجهول .

رئيس الولايات المتحدة يرى حلما من هذا النوع أثناء الحرب، وهى حرب أهلية هائلة ، أو في أي ظرف آخر، أمر عادي تافه. ثم إن لينكولن قال ان ذلك الحلم يعني أن كل شىء سينتهي إلى خير. ولكن اغتياله حدث في اليوم نفسه. الخطباء، والكتاب، ورجال الصحافة والسياسة، لم ينظروا إليه من هذه الناحية بل رأوا فيه دليلاً " غريباً " على قرب لينكولن من الله، على طبيعته الإلهية. هذه الحادثة البسيطة التافهة كانت أحد الأسباب التي اعتمدها الشعب في تأليه لينكولن. إنها كانت بداية الطريق نحو أقاصيص أخرى تحاول كلها أن تدل على أن لينكولن كان يرقب موته وينبىء به. كل ذلك كي يمكن القول بأنه " مخلص" مرسل من الله . هذا يدل بوضوح على أن ما يدفع إلى عبادة الشخصية ليس، في الواقع ، صفات القائد " الفريدة " ، بل نزوع شعبي عام إلى رمز يجسد آمال ورغبات وتطلعات الشعب ، التي تعكس أوضاع مرحلة تاريخية معينة.

كانت المقارنة بين لينكولن والمسيح تتقدم باستمرارنحوالتكامل والمطابقة. بعد مرورمدة على اغتياله، انتشرت في الولايات المتحدة اسطورة تقول بأن قبره كان خالياً كقبر المسيح، وأن جسده غير موجود فيه. لا يعرف أحد كيف ابتدأت هذه الأسطورة، ولكنها ظلت حية لمدة لا تقل عن خمسين سنة. بين

الملايين الذين زاروا قبره عبر السنين كان كثيرون يتساءلون باستمرار عن جسده، وإن كان موجوداً في القبر !... هذه الأسطورة سادت الزوار إلى درجة دفعت مدير المقبرة إلى التركيز على مقاومتها، فكان يحاول دائما ان يشرح الموضوع ويعمل على إقناع الناس بالصور والشهادات التاريخية وغيرها، بأن جسد لينكولن موجود في القبر . أميركا لم تر أبداً ، كما لاحظ بعض المؤرخين، أسطورة أخرى غريبة كهذه الأسطورة التي تنطوي على الشك، الخوف، أو بالأحرى، على الأمل بأن يكون قبر " البطل " فارغاً ....

إنها قصة أسطورية ، ولكن المفكر الاجتماعي لا يستطيع تجاهلها بل عليه أن يفسرها، وخصوصاً عندما لا يكون ظهورها أمراً شاذاً أو تجربة فريدة ، بل جزءاً من ظاهرة عامة كانت تعيد ذاتها باستمرار في التاريخ، فالمجتمعات الإنسانية كانت تجد صعوبة كبرى عند موت " أبطالها " وترفض أن تعترف أنهم ماتوا كغيرهم من الناس . هذا التقليد استمر، مع الأسف، حتى في المجتمع الحديث، أي بعد ظهور الثورة العلمية التي غيرت معالم التاريخ . فالديدان تتجاسر على جسد الفرد العادي ولكن ليس على جسد القائد الكبير، " البطل " الذي يولد ويحيا ويموت على صعيد يرفعه فوق الناس أجمعين . لهذا كان يجب ان تحيط الأسطورة او الأعجوبة بذلك الموت .

شارلمال ، الملك أرثور، هوليجر دانسك ، فون بيرن، بارباروسا، نابليون ، المهدي، الخ.. لم يموتوا بل كانوا ينتظرون أو ينامون، وسوف يرجعون . قصة " الإله " الذي يموت ويقوم من الموت، كأدونيس، أوزيريس، المسيح، الخ .. تملأ سجلات التاريخ، وتشكل أحد المعتقدات الشعبية التاريخية الأقدم والأكثر انتشاراً . وكان جيمس فرايزر قد كشف، في دراسته الكلاسيكية، " الغصن الذهبي" الانتشار الواسع لهذه الأسطورة، الأشكال المتعددة التي اتخذتها في مجراها كانت متماثلة.

عشرات الألوف كانت تأتي إلى قبر لينكولن كل عام ، ليس للزيارة بل للحج .الذين تابعوا هذه الظاهرة رأوا " أن تاريخ المسيحية لم يشهد أبداً حجاً كهذا " . حراس القبر يذكرون أن الناس كانوا يأتون دائما في سكون الليل فيركعون ويصلون أمامه، يقدم رالف غبريال في فصل ممتع من كتابه " مجاري الفكر الديمقراطي في أميركا " ، صورة عن هذه الظاهرة، وكيف أن الناس كانوا فعلاً يصلون للينكولن كإله .

كي تكتمل الأسطورة " الإلهية " التي نسجها الخيال الشعبي العام حول لينكولن ، كان يجب ايضاً أن يأخذ معه، إلى دنيا الخلود، قاتله نفسه، ويلكيس بوس . هذا العنصر يشكل أيضاً جزءاً من الأسطورة التي كانت ترفع القائد إلى مرتبة الآلهة.. فأكثر الآلهة الذين ماتوا في التاريخ لأجل الإنسان، أخذوا معهم أسماء خونتهم وقاتليهم إلى دنيا الاسطورة . المجتمعات الإنسانية المتعبدة كانت تعطي الخلود لمن ذبح الآلهة كما تعطيه للألهة أنفسهم . إن أوزيريس ، وأدونيس، وبالدار، وديونيس، وأرثور، والمسيح، الخ ... أخذوا كلهم قتلتهم الى الخلود. إن بوس ، بصرف النظر عما كان أو عما صنع في حياته، قام بعمل واحد كان ذا أبعاد شيطانية. إنه قتل " المخلص" الذي يرعى مصير و قدر أميركا، وبذلك أصبح قايين أو يهوذا آخر للشعب الاميركي.

هنا يجب التنبيه الى أن عمل القتل ذاته لا يخلد القاتل في هذا التقليد الأسطوري ، وأن خلوده يرجع فقط الى معنى وقيمة " الشهيد ". فليس من أحد تقريباً يذكر قتلة الرئيس الاميركي غارفيلد، أو الرئيس ماكينلي، مثلاً، ولكن الجميع تقريباً يذكرون اسم قاتل لينكولن. نحن العرب نعرف اسم من قتل عمر بن الخطاب أوعلي بن أبي طالب، ولكن لا نعرف أسماء الذين قتلوا الخلفاء العباسيين .



هذا من حيث الأوضاع التي رافقت الوفاة وما أحاط بها من اسطورة جعلتها " غير عادية " تميز صاحبها وتجعله في مصاف الآلهة. ولكن وفاة غير عادية تفرض ولادة غير عادية ترفع هي الأخرى صاحبها إلى مصاف الآلهة. هكذا رأى الناس في ولادة لينكولن ظاهرة تدفع به إلى هذا الصعيد. فما أن مات لينكولن وابتدأت أسطورته كإنسان غير طبيعي في التبلور، حتى ابتدأ عدد من الخطباء والكتاب والصحفيين، الخ.. بتقديس والدته، نانسى هانكس، والمقارنة بينها وبين مريم، والدة المسيح .

اخذ الناس يتساءلون ويعجبون كيف يمكن لرجل عظيم غيرطبيعي كلينكولن بأن يولد من والد كوالده !. كيف يمكن لمخلص كهذا أن يولد بالطريقة العادية التي وُلد بها !... هنا أخذ كثيرون يرون أن توم لينكولن، الحطاب، لا يمكن أن يكون والد إنسان فوق الناس كابراهام لينكولن، وأن والده يجب أن يكون، بالتالي، رجلاً عظيماً آخر . فكما كان لا يمكن أن يكون النجار يوسف والد المسيح ، كذلك لا يمكن لذلك الحطاب البليد أن يكون والد ابراهام .

هذه الناحية كانت أيضاً جزءاً من ظاهرة تاريخية نراها باستمرار ترافق تعبد الناس أمام قادتهم عبر التاريخ . فالأساطير التي كانت تُنسج حول كبار القادة والمخلصين كانت ترى أن ولادتهم كانت غير عادية فالناس كانوا يرفضون الاعتقاد أن هؤلاء كانوا يولدون كباقي الناس . زيوس حل مرات عديدة محل الأزواج الشرعيين في بلدان البحر الأبيض المتوسط كي يمكن لقادة من أمثال هرقل، كاستور، بولولوكس، الخ.. أن يولدوا ولادة تميزهم كآلهة، وقديسين ومخلصين. أعظم الآلهة حلّت محل الملك فيليب كي يمكن للاسكندر الكبير أن يأتي إلى العالم بطريقة تتناسب مع مكانته. والد بروميسيو كان أيضاً إلهاً كبيراً اعطي له كي يأتي ويضحى به كمخلص للانسانية. كثيرون من اباطرة روما كانوا يولدون من الآلهة كي يتميزوا بولادتهم كما تميزوا في حياتهم . إنها قصة طويلة هي هذه القصة البائسة، قصة قوى إلهية تزور امرأة فتحبل المرأة وتلد ولداً غير طبيعي يلبي حاجة أو رغبة الناس الى " مخلص " ..

وليس لينكولن هو اول من استدعى أوأثار تقليداً من هذا النوع . فالشعب الاميركي حاول اكثرمن مرة ان يعطي لبعض قادته ولادة غيرعادية . في نزوعهم إلى إعطاء هذا النوع من الولادة لليكولن، كان الناس ينقلون، في الواقع، شرف الأبوة من عظيم إلى آخر حتى وصلوا بها إلى باتريك هنري، أحد قادة الثورة الاميركية الكبار. ولكن الخيال القومي لم يقف عند ذلك، ولم يلبث أن رأى يداً إلهية- في الولادة. هكذا نجد عدداً من القصص والكتابات تدور حول هذه الناحية فتحاول أن تؤكد " الظواهر الغيرعادية " التي رافقت حبل الأم وولادتها للتدليل على أن الولادة كانت تنطوي على ارادة إلهية.

ويرى المؤرخ باسلر، الذي درس هذه الناحية، أن " ليس في تاريخ العالم من مؤامرة أوضاع وظروف أكبر من تلك التي قادت إلى اعتبار لينكولن من أصل إلهي " . وبعد أن يعرض تلك الأوضاع والظروف، يخلص إلى القول بأنها جعلت تأليه لينكولن الشعبي أمراً محتوماً ، وأنه كان من المستحيل، كنتيجة لذلك، على أي مؤرخ بأن يكتب عن حياة لينكولن دون تمييزه بشكل ما كنبي ومخلص " .

هنا نرى أيضاً، كما رأينا في الحديث عن عبادة واشنطن، أن عدداً من رجالات الدين حاولوا تنبيه الشعب بأن عبادتهم للينكولن أصبحت وثنية جديدة لأنها حلّت محل عبادة الله نفسه . عند اغتياله أخذ هؤلاء ينبهون بأن " تحول الناس إلى عبادة وثنية، عبادة البطولة في عبادتهم للينكولن، كان السبب الذي جعل الله يسمح بقتله. فعندما رأى الله أن الشعب يميل إلى عبادة لينكولن بشكل يتجاوزتلك الأشكال التي تتركز عادة على أبطال القدر ، سمح بقتله، كي يروا أن المسيح وحده هو رئيسهم وملكهم ومخلصهم " .

هؤلاء رأوا أن الله قتله كي ينبه الناس بأنه هو وحده الله . " ليس هناك من رجل كبير أو فاضل إلى درجة كافية تسمح بأن يشارك في الإجلال الذي نقدمه لله... ولكن هذا بالضبط ما صنعناه كأمة، إذ جعلنا لينكولن بيننا وبين الله . فقبل الانتخابات كنا نصلي لله ونشعر باعتمادنا عليه، ولكن بعد انتخابه وضعنا ثقتنا به بدلاً من الله " .



أما من حيث السلطة التي كان يمارسها، فيمكن القول أنه كان " يمارس سلطات واسعة، بشكل مستقل عن الكونغرس... تمتد الى قطاعات كانت من اختصاص العمل التشريعي " ، ولهذا رأى البعض أنه أقام " استبدادية عسكرية "، بأنه " مستبد غير محدود السلطة " ، أو أنه " يمارس سلطة أكبر من أية سلطة مارسها أي حاكم انكليزي منذ أوليفر كرامويل " .

كان لينكولن يؤمن بالدستور وبتوزيع السلطات واستقلالها، ولكنه اضطر، أمام الأزمة الكبيرة التي انتابت اميركا في عهده، الى ممارسة ضغوط لا دستورية على ولايات الحدود بين الجنوب والشمال، اتخذ جميع القرارات العسكرية الأساسية كقائد أعلى للجيش ، جمد حقوق الفرد الدستورية على الرغم من احتجاجات المحكمة العليا، خلق الجيش دون سلطة قانونية، بدأ الحرب دون أن يدعو الكونغرس، وأصدر " بيانات التحرير " في عام ١٨٦٢ وعام ١٨٦٣ دون مصادقة تشريعية سابقة ، وحتى دون استشارة وزرائه . لم يكن في تاريخ أميركا كله، حتى ذلك العهد على الأقل، تركيزاً للسلطة يماثل السلطة التي كان يمارسها لينكولن .

وكانت دكتاتوريته الفعلية تعود إلى خوفه على الاتحاد، وإلى التزامه الوحدوي التام بالدولة الاتحادية، ولهذا ما أن بدأت بممارسة نشاطها حتى وجدت نفسها مندفعة لا تقف عند شيء. لهذا قال عنه الكسندر ستيفن، خصمه، " إن الاتحاد تحول في شعوره إلى نقاء الصوفية الدينية" .

لقد تجاوز لينكولن جميع السلطات التي تسمح بها حتى حالة الطوارىء، ومارس دكتاتورية فعلية تقوم في أساس مثالي . هذه السلطة أقامت ، في الواقع، سابقة كان يمكن لأي قائد قوي في المستقبل أن يرجع إليها في تبرير أية سلطة غير محدودة يمارسها أو أية وسائل غيرشرعية يستخدمها في الوصول إلى مقاصد معينة . إن أكبر تغيير في النظام الأميركي أثناء الحرب الأهلية كان، في الواقع، الامتداد غير العادي لسلطات الرئيس . " إن قصة حكومة الأزمة في الحرب الأهلية هي قصة ابراهام لينكولن.... الواقعة البسيطة هي أن رجلاً واحداً كان يعني حكومة الولايات المتحدة، وذلك في أخطر مرحلة عرفتها طيلة ١٦٥ عاماً ، وبأنه كان يعمل دون سابقة، ودون قيد، ويخلق في ذلك نموذجاً لكل دكتاتورية دستورية ديمقراطية" . لينكولن آمن بالديمقراطية، بعقلانية الفرد والشعب وطبيعتهما الفاضلة ، كما آمن بالحريات والحقوق الفردية. ولكن طبيعة الأزمة الداخلية الجامعة الخانقة فرضت عليه اقامة هذه الدكتاتورية وممارستها .

الشخصنة التي أحاطت بواشنطن ولينكولن كانت أكثر حدة، وبروزاً، وتكاملاً واستمراراً من أية شخصنة أخرى أحاطت بأي رئيس اميركي آخر. السبب يعود الى كون التاريخ الأميركي لم يعرف أو يفرز في أية مرحلة أخرى الأزمات والتناقضات الداخلية الحادة الشاملة التي رافقت قيادة لينكولن وواشنطن . لهذا فإن الرجوع إلى هذه الأخيرة في التدليل على القانون الوحدوي الذي يفرض الشخصنة كافٍ ولا يحتاج في دراسة كهذه إلى أمثلة اضافية. ولكن من الممكن الإشارة هنا الى أن تاريخ الرئاسة الأميركية يكشف بأشكال إضافية عن صحة هذا القانون المستمرة. فدرجة الشخصنة في هذه الرئاسة كانت ترتبط بحدّة وشمولية هذه الأزمات التي كان يتعرض لها المجتمع الاميركي . عند مراجعة هذا التاريخ نجد، مثلاً ، أن المرتبة الثانية في أهم أشكال هذه الشخصنة تعود إلى قيادة جافرسون ومن ثم قيادة فرانكلين روزفلت، وذلك لأن الأولى ترتبط بالحرب الثورية في سبيل الاستقلال والاتحاد السياسي، ومن ثم بدخول الجماهير الى ودمجها بالديمقراطية الاميركية ، مما كان يعني أزمة داخلية واضحة في القرن التاسع عشر. أما قيادة روزفلت فقد اقترنت بأكبر أزمتين حلتا بالمجتمع الاميركي بعد الحرب الأهلية وحرب التحرير، وهما الأزمة الاقتصادية في بداية الثلاثينات، والحرب العالمية الثانية، لهذا ليس من الغريب بأن نكشف أن درجة الشخصنة التي أحاطت بهما كانت أشد مما نجده حول أي رئيس آخر .

الفصل الثالث

التجربة الديمقراطية اليعقوبية

تنطلق الديمقراطية ، على خلاف الليبرالية، من مفهوم جماعي ، الشعب ، وتعني سيادة الشعب. التوكيد على الحرية الفردية والانطلاق منها موقف ليبرالي . تنطلق الليبرالية من الفرد وترى في التطور العضوي لكافة إمكاناته وقواه الطبيعية جوهر الحرية ، وتعمل في سبيل وضع لا يعثر مجراه الطبيعي ويترك له أكبر قدرممكن من الحرية . أما الديمقراطية فتنطلق من مبدأ المساواة بين أفراد الشعب . ولكن على الرغم من أن المفهوم الديمقراطي ينطوي، ضمناً على الأقل ، على احتمالات قوية في نقض فردية الفرد

والحقوق الفردية ، فإن إحاطته بمبدأ آخر يؤكد على الحرية، يستطيع في الواقع ، أن يوازن هذه الاحتمالات أو يجمدها.

الثورة الفرنسية وما أفرزته من ديمقراطية يعقوبية ومن ثم بونابرتية ، تقدم لنا صورة بارزة عن نوع ودرجة الشخصنة التي يمكن لها أن ترافق هذه الديمقراطية .

شهد القرن الثامن عشر الفرنسي عشرات من المفكرين الثوريين وعانى فكرهم الثوري، ولكن الكشف عن عمق وهوية المزاج الثوري آنذاك يفرض الرجوع إلى روسو، لأنه وجد في هذا الأخير أبا فكريا للثورة ، وتجسيداً حيالها. شخصيته الفكرية هيأت للثورة ووسمتها بطابعها، فاعتبرته الثورة " نبياً " لها ، وأحاطته بأشكال القداسة والاجلال التي تحيط بالانبياء. وقد لاحظ كثيرمن المؤرخين كيف أن الثورة كانت تنظر إليه كإله ، وكيف كان يُعبد. جول ليماتر، مثلاً، درس مجموعة كبيرة من النشرات التي ظهرت حول روسو بين عامي ١٧٨٧ و ١٨٩٣، فرأى انها لا تكشف عن تلك العبادة فقط ، بل تدل أيضاً على أن الإنسان كائن ديني ، أو يجب أن يكون كائناً دينياً ، كي يعبر عن ذاته بمشاعر من ذلك النوع الذي ركزه على روسو . تبرز تلك النشرات بوضوح ، كيف أن الناس آنذاك نظروا إليه كمخلص، وتعبدوا أمامه كفادٍ للإنسانية. المؤلف يقف ، في الواقع ، مشدوهاً أمام ذلك الأثر ويصفه على انه لغز .

واصبح كتاب " العقد الاجتماعي " انجيل الثورة المقدس، الذي يرجع اليه الثوار، يستنيرون به ، يحتكمون إليه ويرجعون إلى أحكامه كحقائق مقدسة مطلقة . مارا، مثلاً ، كان يحمل الكتاب عام ١٧٨٨، ينتقل به من شارع إلى آخر في باريس وهو يبشر به . هذا التقديس بدأ، في الواقع، أثناء حياته، إذ كان الناس يتجمهرون وينتظرون في الشوارع كي يتبركوا برؤيته عندما كانوا يعلمون أنه سيمر بأحدها.

وكان مدفنه في جزيرة البوبلار مزاراً مقدساً يحج إليه الناس بالآلاف كل عام ، ومن جميع أنحاء أوروبا. وقد تكاثر عددهم بشكل دفع الحكومة إلى تحديد أوقات ومواعيد الزيارة . ولكن ذلك لم يكن يثني بعض المؤمنين به ، الذين كانوا يحاولون الوصول الى الجزيرة سباحة، فيغرق بعضهم في الطريق إليها. أما ظواهر التقديس التي كان يعبر عنها الزوار فكانت عديدة ، تمتد من الصلاة والبكاء، الى تغطيه جذوع الأشجار بقصائد وعبارات المحبة والإجلال والإيمان .

وكان تولستوي نفسه قد أعلن مرة ، " لقد قرأت روسو من أول إلى آخر ما كتب . لقد قرأت العشرين كتاباً التي كتبها وأعجبت به بشعور هو أكثر من الحماس . إنني عبدته .. " . إذا كان هذا أثره على تولستوي، فإن القارىء يستطيع أن يتصور آنذاك الأبعاد الهائلة التي مارسها هذا الأثر على خيال عادي أو على حركة ثورية ترجع في تبريرها إليه وهي تصنع ثورة كبرى !..

هذا من الناحية الفكرية أما من الناحية السياسية، فإن هذه الظاهرة أكدت ذاتها حول عدد من قادة الثورة كدانتون، ومارا، وسان جوست، ودي مولان، ولكن ، بشكل خاص ، حول روبسبير .

من ناحية قانونية كان روبسبير رئيس لجنة الأمن العام فقط ، وهي لجنة تتألف من اثني عشر عضواً متساوين . لقد كان هناك تشديد بارز على هذا التساوي ، أو على ما يُسمى حالياً بالقيادة الجماعية ، ولهذا رفضت اللجنة إعطاءه أي تمييز، واكتفت بتسميته كرئيس فقط ، ولكن دون أي تفويض خطي، وحتى دون تحويل ذلك إلى قانون . ولكن رغم ذلك نرى أن ديالكتيك المرحلة الثورية جعل من روبيسبيير صاحب سلطة مطلقة طيلة حكمه ، ورمزاً مقدساً تتركز عليه مشاعر العبادة بين الأتباع والمؤمنين . " إنه ارتفع " مثل الإله " فوق الآخرين على الرغم من أنه كان عضواً فقط من أعضاء لجنة الأمن العام " . كان ماكسيميليان روبسبيير مجهولاً عام ١٧٨٩، ولكن بعد مرور عامين فقط أصبح بطل الثورة والدستور، وأخذت تماثيله تسود الأمكنة العامة.

في ٢٧ ايلول/ سبتمبر ، عام ١٧٩١، كتبت له مدام رولان تقول بأنها ترى فيه الشخص الذي كان نشاطه الد ائم يقدم " المقاومة العليا لمزاعم ومناورات الاستبداد " وأنها " تعتمد على جهوده في انتصار العدالة " . هذا الشعور من التقدير العام تطور سريعاً إلى أن أصبح ماكسيميليان موضوع عبادة حادة . وكانت الجمعيات الشعبية ترى فيه الرمز الذي يمثل وحدتها . في ٧ اذار/ مارس، ١٧٩٢، كتبت له، مثلاً، الجمعية الشعبية في كان، " روبسبيير، الاسم الذي يصنع مجدك، الاسم الذي يزرع الخوف في أنفس المستبدين ، هو كلمة المرور التي توحد بيننا في قتالنا ضدهم " . إنه كان " المخلص " بالنسبة للشعب، وكان يُدرك ذلك . وكان مقتنعا تماماً بأن المستقبل سيبرهن على صحة سياسته .

في الرسائل التي كانت توجه إليه باستمرار نقرأ، مثلاً ، " روبسبيير المجيد ، شعلة، عمود وأساس الجمهورية " .. " حارس الوطنيين "، " العبقرية التي لا تعرف الفساد " ، " المونتينيار (Montagnard) المنوّر الذي يرى كل شيء، ينبىء بكل شيء ، ويُربك جميع المكائد" الخ.. "التجار الصغار والحرفيون، الذين لم يتأثروا ببواعث فاسدة، وكانوا يهتمون بالقضايا السياسية، كانوا يؤلهون روبسبيير " .

ألف وخمسمائة كانوا يجلسون كل يوم يستمعون بهدوء- وهم يقررون مصير فرنسا- لخطابات روبسبيير، ساعة بعد ساعة ، في انشداه وكأنهم ينتظرون كلمة الحياة . " كان، كتجسيد للفضيلة، يُمسك بالحقيقة ، وهذا أضفى عليه نوعاً من الصفاء الوقور : صفاء كاهن كان ، بدءا من عام ١٧٩٢، يسحرجميع الذين يقتربون منه.... روبسبير كان بابا معصوما، ونبياً تقريباً) ... اعلنت الثورة دينا طبيعياً جديداً ، وجعلت من روبسبيير " الكاهن الأعلى" له. أما الناس فكانوا يحملون صورته في أعناقهم بدلاً من صور القديسين، يتباركون برؤياه ولمس ثيابه، ويحاولون معالجة مرضاهم عن طريقه . المشاعر التي كان يُحاط بها حيث توجه ، والرسائل التي كانت توجه إليه، كانت من النوع الذي يوجه فقط ، كما لاحظ كثيرون، إلى الأنبياء والرسل .

في المرحلة الأخيرة من قيادته تشكلت حوله حركة " من المتحمسين الذين أخذوا يصلون له كرسول للعقل ، وكأنه المخلص نفسه وقد رجع إلى الحياة... كاترين ثيو ... التي آمنت أنها حبلى بالمسيح راحت تترجم تصوراتها بأنها تعني أن المسيح تجسد ثانية في روبسبير ، وهي دعوة قبلها عدد من الناس

كحقيقة " . الرسالة التالية التي كتبها له أحد الأتباع تعطي صورة لهذا الولاء الديني . إنها تعلن " إنني أريد أن يمتلىء نظري وقلبي حتى التخمة بسيمائك . عندئذ يستطيع فكري المشتعل بفضائلك الجمهورية أن يحمل إلى بيتي النار التي تضرمها في جميع الجمهوريين الحقيقيين ".

مع نبذ شكوكية فولتير وتأليه روسو، رُفع روبسبيير إلى مكانة " موسى جديد " يجسد في شخصه كل المنجزات الايجابية لمرحلة بطولية امتدت بعده لمدة ربع قرن تقريباً ، في القرن التاسع عشر، نرى، في الواقع، عدداً كبيراً مدهشاً من الاشتراكيين والجمهوريين الذين ساهموا في إحياء عبادة روبسبيير في الثلاثينات والأربعينات

" كمخلص جديد " للإنسانية . وكان اقتران اسمه باسم المسيح، أمراً مألوفاً في كتابات ذلك الوقت.

لكن " عبادة " روبسبيير لم تتمكن من التكامل في أبعادها، كما رأينا، مثلاً ، في " عبادة " لينكولن ، ستالين .. الخ .. وذلك لأن قيادة روبسبيير راجت فترة قصيرة جداً ، ولم تتمكن بالتالي من خلق أنظمة جديدة ثابتة تقترن بها . لم تقتصر هذه الشخصنة على روبسبيير بل كانت تعبر عن ذاتها في جميع الاتجاهات والأجنحة في الثورة الفرنسية ، التي كانت تقترن وتُسمى بأسماء قادتها. فهناك مثلاً الدانتونيون ، والهيبيرتيون، والبريسوتيون ، الخ ... وهناك أيضاً لافايات الذي كان يعبر عن الثورة في المرحلة الأولى، وبريسو في مرحلة ثانية ، ودانتون في ثالثة ، وروبسبيير في رابعة ، ونابليون بونابرت في المرحلة الاخيرة .



الوقت الذي لم يتوفر لشخصنة السلطة التى أحاطت بروبسبييرتوفر لها في الاحاطة بنابليون بونابرت.

ظواهر التقديس والعبادة التي تركزت على بونابرت معروفة ، ولكن ما نحتاج إليه هو التذكير بأن هذه الظواهر كانت تتركز عليه باسم مبادىء الثورة الفرنسية ، باسم الديمقراطية الجديدة، وأن نابليون كان يعتبر نفسه ابن هذه الثورة ويبرر قيادته وسلطته بها . فعلى الرغم مما قد يُقال في نابليون وسياسته، فإنه كان آنذاك رمزاً لهذه الثورة كما كان روبسبيير في المرحلة السابقة وكان يصف نفسه باستمرار بانه " الجندي الأول للثورة " ، هدفه الأول والأوحد هوتحقيق نظام عالمي للمساواة . الشعب الفرنسي والشعوب الأخرى التي تأثرت بالثورة قدمت له ولاءها كبطل كبير يعمل على تحقيق سيادة الحرية في العالم .

عندما أصبح امبراطوراً أعلن أنه يريد أن يكون فقط قوميسير الشعب، وليس حاكماً بنعمة الله، وأنه أصبح امبراطوراً ليس بفضل الزيت المقدس، بل باسم إرادة الشعب الثورية . إنه على نقيض الملوك الآخرين الذين كانوا يرون في ممالكهم ملكاً شخصياً أنعم الله به عليهم ، والذين كانوا يلقبون كملوك لأنكلترا، بروسيا، إسبانيا، فرنسا ، الخ ... في التعبيرعن ذلك، نرى أن نابليون أخذ لقب امبراطور الفرنسيين

معلناً بذلك أنه يحكم باسم الشعب. واذا كان لويس الرابع عشرقد أعلن " أنا الدولة " ، فإن نابليون كان يعلن : " أنا الثورة "... " إن إرادتي هي إرادة الشعب، وحقوقي هي حقوقهم " . وأعلن في إحدى المناسبات " انني قلبياً من جمعية العهد، لأن عملي ابتدأ هناك ... ولأنني خرجت من قلب الشعب .... إنني لن أسمح بأن اهاجم مثل لويس السادس عشر.. لأنني جندي ابن الثورة ". وكتب مرة، وهو يشيرإلى مبادىء الثورة " هذه الحقائق يجب أن تصبح دين كل أمة . مهما قيل، فإن هذا العصر سيقترن دائماً بإسمي لأنني أنا الذي أشعلت الضوء وجعلت بدايته لامعة ، وقد حولني الآن الذين يضطهدونني إلى مسيح هذا العصر بشكل دائم " .

وطالب نابليون بأن يُمنح لقب " الممثل الأول للشعب " ، كان يرى أن رسالته هي نشر مبادىء الثورة في زوايا الأرض الأربع ، من إسبانيا إلى روسيا، ومن المانيا إلى مصر والهند. وفي جميع أطوار سيرته الباهرة، كقنصل أول، امبراطور، ومن ثم في المنفى، كان يتحدث باستمرار عن " مبادىء الثورة السامية "، " عن حقائق الثورة العظيمة والمجيدة " . " حيث كان يظهر كان يبدأ بتدمير البنية التقليدية للمراتب والامتيازات الاجتماعية ، الحواجز العرقية ، السياسية والدينية ، ويضع مكانها شريعته القانونية الجديدة التي أعلنت كمصدر لسلطتها مبادىء العقل والمساواة الانسانية " . ولكن المهم هنا هو أن الشعب نفسه كان يتطلع إليه كصوت ، كإبن الثورة. ولم تتحول فرنسا أبداً عن اعتباره كمنفذ لهذه الثورة . " يعيش طويلاً الامبراطور!.. تعيش طويلاً الثورة !. كانت صرخة الفلاحين المسلحين بالفؤوس، بالمذرات، بالحراب، والمشاعل، الذين رحبوا به عند رجوعه من جزيرة ألبا ، وهم ينشدون المارسياز " .

قد يقال أن نابليون لم يكن يعني مايقول عندما أعلن نفسه كمحررعام ، " ابن " أو " جندي " الثورة، الخ... وأنه كان يستخدم شعارات الثورة ومبادئها كي يخدم مصلحته ، وفي تبرير الحروب التي كان يقوم بها . وحتى إن افترضنا جدلاً أن هذا صحيح ، فإنه لا يغيرشيئاً أبداً من معنى علاقة نابليون بالثورة والشعب أو من دوره في تلك المرحلة الثورية . المعجبون به أنفسهم لم يزعموا، في الواقع، إلا قليلاً بأنه كان يعمل بسبب حماس ثوري أو التزام بمبادىء الثورة فقط. السؤال الذي يجب أن يطرح هو، على العكس ، هل آمن الشعب به كجندي، كابن الثورة، يمثل حقائقها ومبادئها العظيمة والسامية ، الخ...؟... هذا هو السؤال الذي يتيمز بقيمة تاريخية وسياسية. حتى وإن كان نابليون لا يؤمن أبداً بدوره هذا، وكان يستخدمه فقط بسبب رغباته ومقاصده الشخصية، فإن ذلك لا يسيء أبداً وبأي شكل إلى قوة الحاجة الشعبية أو حاجة المرحلة الانتقالية التي كان يعانيها أي قائد - رمز من هذا النوع . على العكس ، إن ذلك يدلل بشدة ووضوح أكبر على هذه الحاجة ، إذ يجب أن لا ننسى أن الشعب أولاه باستمرار حباً فريداً ، وأن " عبادته " كقائد كبير يمثل مرحلة معينة ، اتسعت بعد وفاته ، واستمرت حتى يومنا هذا، وإلى درجة جعلت فرنسا تحتفل به احتفالاً شعبياً و رسمياً كبيراً بمناسبة مرور قرنين على ولادته .

كان نابليون شعبياً إلى درجة هائلة ليس فقط بسبب انتصاراته ، إصلاحاته المدنية ، شخصيته الخ.... بل لأن الفرنسيين آمنوا أيضاً أنه يمثلهم . نابليون اعتقد وجعل الشعب يعتقد بأن قصده هو

قصدهم . واشار كثيرمن المؤرخين والباحثين إلى ذلك . " في سيرته المدهشة ... كان نابليون يجسد المبادىء القومية الثورية " ، مؤكدين على أن " ما يريده هو ربط سلطات الدولة الكبيرة بجماهير الأمة التي تشتق منها بالضرورة كل سلطة قومية " . إنه كان لا يشك بأنه وحده يمثل الأكثرية لأنه المثل المنتخب من الشعب ولهذا أراد حكمه " أن يكون دكتاتورية إقناع تقوم على إرادة شعبية " . وحمل نابليون معه حيثما توجه تقدماً إدارياً لاصلاحات عقلانية تقدمية .

لقد كان نابليون دون شك ".. يحب فرنسا بحماس كبير، وكان خياله يضطرم ويتوهج بفكرة واحدة وهي أن يراها عظيمة، سعيدة، قوية، الأولى بين الأمم، تملي قوانينها على الآخرين . وكان يرى اسمه متحداً بشكل لا ينفصم باسم فرنسا الجميلة .. أما الشعب فقد بقي على إخلاصه الفريد له حتى النهاية ، وكان مستعداً أن يتبعه حتى بعد واترلو. في طريقه من مالمازون إلى روشيفور، إلى سانت- هيلانة ، كانت الجماهيرتركض وراءه، تنادي وهي تبكي : يعيش الامبراطور!.. ابق، ابق معنا !... حب شعبي نادر كهذا كان ممكناً لأن الشعب وجد أن قضية نابليون هي قضيته ، وقضية الثورة . إن نابليون كتب " إن المساواة ، ولا شيء سوى المساواة، هي الشعار الذي يوحدنا بالثورة " ، وفي مكان آخر أعلن " إن قاعدتي الأساسية كانت تشجيع جميع الذين يتميزون بالكفاءة ، بصرف النظر عن الأصل والمركز الاجتماعي . هذا النظام الذي يقوم على المساواة هو الذي أثار عليّ حقد الأوليغاركيا البريطانية " الكثيرون من الذين اعترفوا أنه كان مستبداً ، نبهوا في الوقت نفسه ، بأنه هو الذي ركز وبلور الثورة .

تدل هذه الملاحظات أن الشعب الفرنسي آمن بنابليون كرمزللثورة ، يقترن اسمه بها، وكجندي كرس حياته وعبقريته لخدمتها ، فأعطاه بالتالي محبته النادرة وولاءه الفريد الذي أحاطه " بعبادة " قل مثيلها في التاريخ .

هرب نابليون من جزيرة ألبا على رأس ثلاثمائة رجل فقط ، وقرر الهجوم على بلد يتألف من ثلاثين مليون من الناس، تحميه جيوش أوروبا المتحالفة معه . ويسوده اعتراض عام على رجوع " الطاغية " الذي تجاسر على النزول في أراضيه غيرمسلح بشيء " سوى مزاعمه الامبراطورية " التي تقوم في أمجاد فائتة . ولكن ما أن وطأت قدماه أرض فرنسا وابتدأ بالتقدم نحو باريس حتى أخذ هذا التقدم شكل أعجوبة .

نابليون يرجع من منفاه وينزل على شواطىء فرنسا وحيداً ومعزولاً ، ولكنه لايلبث أن يسودها في بضعة أسابيع فقط وبسرعة البرق دون هدر أي دم . وجابه وحيداً تقريباً القوى العسكرية والسياسية المنظمة الضخمة في دولة قوية ، وشعباً عظيماً كان يمكن القول آنذاك " أنه أصبح تعباً من قيادته ، ومن التضحيات التي تتطلبها " . ولكن ما أن تطأ قدماه الأرض الفرنسية حتى تنهار الأنظمة وشرعيتها، ويسرع الشعب بعشرات الآلآف الى لقائه والتهليل له. أما القادة العسكريون الذين ارسلوا لمقاومة تقدمه والذين أقسموا بأن يقوموا بواجبهم ، فكان يكفي أن يلتقوا به أو أن يلقي نظرة واحدة عليهم كي ينضموا إلى صفوفه ويلتحقوا به ، " المائة يوم " كانت في الواقع " غزو رجل واحد لبلد بكامله " .

رغم هزيمة واترلو، فإن الشعب بقي أميناً أكثر من أي وقت آخر لذكرى الذي حافظ على أهم منجزات الثورة : إلغاء الامتيازات، والمساواة أمام القانون . نسي جميع مساوىء المرحلة النابليونية " وعبادة الامبراطور أخذت بالامتداد بحماس ، وأمل صوفي جديد ... ومن بعيد أحيطت صورة الامبراطور بهالة من الفضيلة والنعومة " .

وكان الأجانب الذين يزورون فرنسا بعد هزيمة نابليون في واترلو يصابون بالدهشة من قوة واستمرار الولاء له في أوساط الشعب الذي كان يبرئه من الهزيمة ويرجعها إلى الخيانة. وكان نابليون أكبر وأعلى من كل شيء في التاريخ وإلى درجة كان لا يمكن أمامها لأحد أن يتجاسر على التلفظ باسمه دون احترام .

الحس الشعبي الصحيح أصدر حكمه كما كتب أحد المعلقين على ذلك . فنابليون لم يكن امبراطور عهد معين فقط أو نصف إله في هيكل وثني ، بل رجل العصر، وكالثورة الفرنسية في روحها. إن نابليون الذي اقترنت به هذه الثورة كان هو أيضاً " الانسان الشامل " (Universel)، " الكلمة الإلهية الجديدة " ، الكلمة " الاجتماعية الجديدة " . فلوبار، الكاتب الكبير، رأى أن الشيء الجميل في الامبراطورية ليس فكرة مجردة أو مفاهيم عامة في الواجب. " الشيء الجميل ... كان عبادة الامبراطور نفسها ، الحب الاستثنائي له ، الحب اللاعقلاني ، السامي والإنساني حقاً " .

كتب أحد المعلقين آنذاك ، " إن نابليون قدم قضية الحرية بإلغاء الأشكال القانونية الإعتباطية والبائدة التي تعثرها . بما أنه صنع كل شيء للشعب ، فإن الشعب كان، بدوره، يصنع كل شيء لنابليون " في هذا التفسير للأسباب الكامنة وراء عبادة نابليون ، نقرأ، مثلاً ، " إننا نمجد الرجل الذي يمثل فرنسا الفتية ضد أوروبا العجوز، لأن الشعب الفرنسي هو الذي انتصر وأُهين في شخصه، وهو الذي، في احتفاله به، يحتفل بنفسه، يكرم نفسه ويعيد الاعتبار لنفسه " . وكان غوته نفسه قد وصف نابليون مرة بأنه " الكائن الذي لا يمكن الوصول اليه. فإذا كان التاريخ يلتصق به باستمرار ويحاول أن يبقيه على الأرض كي يعرفه بشكل أحسن، ويكشف عن سره، فإنه في خيال الشعب يزداد ارتفاعاً في الأفق ويضيع في هالة من المجد " . وكما أن جامعة لايبزغ أعطت ، عام ١٨٠٧ ، اسمه لمجموعة من النجوم ، حتى " الذين نهضوا في المانيا عام ١٨١٣ لاسترجاع استقلالهم منه، لا يحلمون إلا به ، لأنه ساد خيال الشعب " .

فكتور هوغو الذي راح يحتفل، بعد عداء سابق، بعبادة الامبراطور، أعلن أن مشاعر الشعب تضطرم وتتحد في اسمه ، لأن هذا الاسم " يمثل الكتاب الخالد لتاريخه ".

وكتب هاينه إن هذا الاسم أصبح إله الشعب ، عبادته ، ودينه .

بالزاك كان أحد الذين عبروا عن ونشروا هذه العبادة . إنه يكتب، مثلاُ، في وصفه لصداقته مع امرأة، بأن هذه الصداقة تعود إلى صلتها بنابليون، لأنها رأته طفلاً وشاباً وفي نموه ، إلى أن أصبح اسمه يغطي الأرض . ولهذا فهي " كأحد الأبرار تأتي فتجلس إلى جانبي بعد أن عاشت في السماء قريبة من الله".

شاتوبريان، الذي كان ضد التقليد الامبراطوري ، قارن بين عهد نابليون، والمرحلة التي تبعت سقوطه ، فكتب بأن السقوط من الامبراطورية الى ما جاء بعدها هو كالسقوط من الحقيقة الى العدم، ومن قمة الجبل الى لجّة عميقة . " إن الروح تركت العالم سريعاً عندما لفظ نابليون نفسه الاخير... العالم ملك بونابرت، وما عجز عن سيادته خضع لشهرته . في حياته لم يستطع أن يسود العالم ، ولكن في مماته أصبح العالم ملكاً له " .

أحد أساتذة كوليج دي فرانس رأى في نابليون " قديس العصر، المنجز الكبير الذي يجب أن تسود عبادته جميع الرجال الذين يتميزون بالفاعلية " .

في الجمعية الوطنية، في أيار/ مايو، عام ١٨٤٠، دارت مناقشة حول انتشار عبادة نابليون . في هذه المناقشة، أعلن أحد النواب " أن الله نفسه دُهش من ظهور عبقرية نابليون غير الطبيعية " .

وذكر ستاندال " أنه أحب سيماروسا ... واحترم رجلاً واحداً : نابليون " .

في المانيا نفسها كان كثيرون يرفعونه فوق كل شيء في التاريخ ، ومن ذلك المسيح نفسه، ويحولونه تقريباً إلى إله جديد . ورأى فيه هيجل " روح العالم " ، ونيتشه رأى فيه الصعود الأخير لإله الشمس أبولون . أحد الالمان أعلن في انكلترا عبادته " لنابليون الأسمى". بروميسيوس الثاني ، الجبار الذي قتله مليون من الأقزام بسبب تعاستهم ، ميتيرنيخ نفسه رأى أن وفاته تعني سقوط الحركة الليبرالية في أوروبا .

روسيا نفسها أيضاً لم تستطع تجنب هذه العبادة. فالمخازن والصالونات كانت ملأى بصوره، وفي البيوت كانت تحل محل صور الأجداد.

في بعض الأمكنة من أوروبا كانوا، في الواقع، يرددون الصلاة التالية ، " أبانا نابليون " امبراطور الفرنسيين، الذي في باريس ، ليكن اسمك مقدساً في بلادنا " .

في معظم القرن التاسع عشر كانت البونابرتية تتمتع بولاء الشعب إلى درجة جعلت النظام الملكي الذي قام عام ١٨٣٠- أو الملكية البورجوازية - يحاول الاقتران بها، ويعمل على تغذيتها أكثرمن البونابرتيين أنفسهم . كثيرون من مفكري وأدباء القرن التاسع عشر حولوا نابليون إلى " مخلص " إلى " بروميسيوس " ، إلى " نصف إله " أو " إله " كامل .

وكان نفوذ نابليون يزداد مع الوقت إلى أن أصبح في مرتبة إلهية في نظر الاتباع المخلصين : عشرات المسرحيات كانت باستمرار تدور حوله وتحاول تخليد أعماله ، وقد تطور الأمر إلى درجة أصبحت فيها المسرحية الهزلية التي ترمي فقط إلى التسلية ، ناقصة إن لم يجد فيها الجمهور تحية لطيفة الى الامبراطور . في عهد لويس فيليب كانت بطولة السيادة الامبراطورية الشيء الوحيد الذي كان يحرك مشاعر الفرنسيين ، ونابليون البطل الوحيد الذي كانوا يؤمنون به. واشار المؤرخ أوغسطين ثياري الى أن

ثورة ١٨٣٠ أرجعت للجمهورية الأولى وللامبراطورية المكانة التي تعود إليهما بين الأحداث الشرعية الكبيرة . ولكن الملكية البورجوازية التي نتجت عن هذه الثورة لم تستطع تكريس او تثبيت ذاتها ، لأنها لم تكن قادرة أن تجد شرعيتها في رجوع إلى الإرادة الشعبية ، أو إلى الحق الإلهي . لهذا لم تستطع أن تمارس وزنا يُذكر عند المقارنة مع عبادة نابليون " الذي كان قد أصبح في أنفس الجماهيرجندياً للحرية وتجسيداً للديمقراطية " .

وبدأ الناس يحولون هزيمة واترلو إلى مغزى كبير ويرون فيها رمزاً لقصد أعلى . إن لويس بلان نفسه كتب " إن سقوط نابليون كان عميقاً وهائلاً ، وبذلك برهن على عبقريته أكثر من انتصاراته " . أما وجوده في المنفى، في جزيرة سانت- هيلانة فكان تكفيراً عن الإنسانية وفداءاً لها . " إن حياتي كلها ملك له ، ويجب علينا أن نتألم جيداً كي نستحق هذا الذي يتألم كثيراً ، لأجل الانسانية، في جزيرة سانت- هيلانة " .... " من هو هذا المبعد الذي ، وإن كان لا يزال شاباً ، يكفر عنا في المنفى الأكثر بربرية ؟... إنه مخلص ومشّرع فرنسا " ... بأقوال كهذه كان الناس يعبرون عما يشعرون به تجاه نفيه إلى سانت- هيلانة.

عندما توفي نابليون لم يصدق الشعب، وخصوصاً بين الفلاحين والمزارعين، أنه مات حقاً . وهو اعتقاد استمر لمدة طويلة. أما المفكرون فأخذوا يوحدون بين نابليون والحرية و يرون في الواحد مرادفاً للآخر . إنهم ، في الواقع ، قلّدوا بذلك ولكن بشكل متأخر الشعب الذي كان يؤمن بهذا الارتباط بين الاثنين منذ مدة طويلة ودون أية صعوبة.

وكتب إدغاركينا " لقد احدث موت نابليون من جديد انفجاراً في عقلي ... ورجع يلاحق فكري ليس فقط كامبراطوري وسيدي المطلق، بل كشبح حوّله الموت بشكل تام ، تقريباً ..." .

و كان الناس يستقبلون خبر الوفاة بمشاعر عبر عنها أحدهم بقوله " كل شيء انتهى بالنسبة لي، وفقدت كل مايشكل قوتي ، كل شيء يعطي قيمة لوجودي ... لقد وجدت فيه النار المقدسة " . رأى الناس في كثير من الأحيان " أن نابليون كان يتعذب لأجلنا ؛ نعم أنه مات لأجلنا " .

عند حدوث الوفاة عام ١٨٢١ رأى كثيرون أن ذلك خلق وضعاً جديداً يضفي على البوربون الشرعية التي لم يكونوا يتمتعون بها ، لأن هذه الوفاة تقطع رأس الحركة البونابرتية . ولكن الأحداث فيما بعد دلّت بوضوح على خطأ هذا القول الفادح .. فقد تبين أن الوفاة لم تهدم البونابرتية الشعبية بل دعمتها وغذتها، وأن معنى وعبادة نابليون ككائن غيرطبيعي تكاملاً، في الواقع، فيها أو نتيجة لها .

هذا العمل أو بالأحرى الشعور الشعبي الذي يحول القائد، عند وفاته، إلى كائن غير طبيعي، فوق الطبيعة ، لم يكن شيئاً جديداً بالنسبة للشعب الفرنسي . ففي حياته نفسها كان نابليون يبدو ليس فقط لهذا الشعب بل لأعدائه أنفسهم ، ككائن خارج الطبيعة . لهذا كان الكثيرمن الناس يرسمون إشارة الصليب عند ذكر اسمه . وكان التأليه الذي حدث في أعقاب وفاته امتداداً للتمجيد الفريد الذي كان

يدور حوله أثناء حياته . هذا التمجيد كان يعبر عن ذاته بأقوال وتعابيرمن النوع التالي : " إن الله خلق نابليون واستراح بعد ذلك " ... " ان كان البابا نائباً للمسيح فإن نابليون يمثل الله " .. " إنه لشرف لله أن يُسبح اسمه بهذا الشكل الكبيرعن طريق عبقرية جبارة كهذا العبقري " .. " لتخرس الأرض، وتصغي بسكوت إلى صوت نابليون "، الخ ...

وكتب هاينه عندما سمع بخبر وفاته " إعلان قداسة الامبراطور في مماته يعبر عن جميع القلوب النبيلة. جميع القلوب النبيلة في أوروبا، وطننا العزيز، تحتقر الجلادين الصغار... وإن سكت الناس يوماً ، فإن الحجارة تتكلم ، وصخرة شهيد سانت - هيلانة ستقف وسط البحار وتقص على العصور القادمة أسطورته الامبراطورية " .

وفي لندن نفسها، احدثت وفاته مشاعر حزن وصفها البعض بأنها لا تقل عمقاً ، عن مشاعر الحزن التي سادت باريس . وحولته هذه الوفاة إلى بطل شعبي هناك .

استعادة رفاة نابليون لدفنها على ضفاف السين كما أوصى هو نفسه ، أعادت له كما قال البعض آنذاك الشرعية الشعبية التي كانت تمثل قوته وحقه . عندما قدم جوانفيل هذه الرفاة للويس فيليب قائلاً : " سيدي إنني أقدم لكم جسم نابليون " ، أجاب الأخير" إنني أقبله باسم فرنسا " .

في الاحتفاء الذي رافق هذا الاحتفال كان كثيرون يبكون " وكأن الله نفسه نزل عن الصليب وبُعث حياً " . وفي بعض المناسبات والمآدب التي رافقته كان الحضور يشربون نخب نابليون وهم راكعون .

وقد ظن قادة النظام الملكي ان استرجاع رفاة نابليون ودفنها يضع نهاية للحركة البونابرتية ونفوذ نابليون . ولكنهم أخطأوا جداً . رجوع هذه الرفاة أخذ يعني ، على العكس، " وجود ملكين في فرنسا، واحد في الانفاليد، والاخر في التويليري " .



هذه البونابرتية الشعبية الكاسحة التى استمرت حية في القرن التاسع عشر هي التي خلقت نابليون الثالث وجعلت منه امبراطوراً . إن نفوذ اسمه الذي يتفرع من " عبادة " نابليون الأول هو الذي جعله سيد فرنسا ومعبود الجماهير.

ففي العاشر من كانون الاول / ديسمبر عام ١٨٤٨ انتخب لويس نابليون، المفلس، المثقل بالديون، والذي لم يكن يتميز بشخصية تُثير درجة كبيرة من الاحترام أو التقدير، رئيساً للجمهورية . فقد نال أكثر من خمسة ملايين صوت ضد الجنرال كافينياك " مخلص فرنسا " ، ضد ليدرو- رولان، وراسباي، بطلي الديمقراطية الراديكالية ، وضد لامارتين، الشاعر الكبير الذي كان محبوب النظام الجديد . لم يكن هناك أي شك في نزاهة الانتخابات ، وان كان حدث أي ضغط ، فإن الضغط كان لمصلحة الجنرال كافينياك الذي كان يمارس السلطة التنفيذية . هذا الانتصار الكامل المدهش كان يعود إلى سحر أسمه

وليس إلى شخصيته . نابليون الثالث انتصر وكان بسبب اسمه فقط قادراً على الوصول الى السلطة ، لأن قطاعات ضخمة من الشعب فضلت رمزاً نابليونياً على أي قائد آخرمهما تميز بالاصالة الجمهورية .

هذه هي الأبعاد الهائلة التي ميزت عبادة الشعب لنابليون الأول .

وقد دللت الاحداث باستمرار أن لويس نابليون كان على حق عندما رأى أن فرنسا تريد البونابرتية . ففي عام ١٨٥١ نال مرة ثانية وبقوة اسمه وحده أكثر من سبعة ملايين صوت، وفي عام ١٨٥٢ نال مرة أخرى، ثمانية ملايين تقريباً . في العاشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٨، أصبح رئيسا للجمهورية ؛ في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٥٨١، أصبح دكتاتورا، وفي عام ١٨٥٢ تحول إلى امبراطور. عبادة نابليون الأول سحرت الشعب إلى درجة استطاعت بها أن تجعل، بعد ثلاثين عاما على وفاته ، حفيداً له امبراطورا على فرنسا وذلك لأنه يحمل اسمه فقط.

لقد عاد نابليون الثالث بوضوح ، إلى اسم نابليون الأول، وفي هذا الاسم وجد شرعيته. هذا كان واضحاً في أول بيانين أعلنهما. فقد كتب في الأول " إنني أتقدم اليكم واثقاً من قداسة قضيتي، في يد أحمل وصية الامبراطور، وفي الأخرى سيف أوسترليتز ". وفي الثاني ، الذي توجه به إلى الجنود، أعلن " من أعالي السماء سيقوي نابليون الكبير أذرعنا ، وفي رضاه عن جهودنا، سيصرخ لقد كانوا يستحقون أباءهم " .

عندما قدم فودري نابليون الثالث ، حفيد الامبراطور، إلى الجيش، لوّح بالعنصر الامبراطوري، وقال " أيها الجنود إنني أقدم لكم رمز المجد الفرنسي " . أحد الحضورذكر أنه لا يمكن وصف حماس الجنود آنذاك ، وان مشاهدة هذا الحماس فقط " تستطيع أن تعطي صورة عن اسم نابليون الساحر الذي يمكن له ان يوقظ كل تلك المشاعر الحماسية النبيلة " . وكتب لويس نابليون مرة الى والدته " إن القضية النابليونية هي قضية مصالح الشعب . إنها أوروبية ، وسوف تنتصر عاجلاً أو آجلاً . الشعب الفرنسي دلّ أنه على حق ".

وارجع نابليون الثالث كنابليون الأول ، سلطته إلى إرادة الشعب . فقد أعلن أنه مواطن فقط ، يدين بسلطته للارادة الجماعية التي أعلنت عن طريق الملايين الكثيرة ولاءها له ، وأنه يمارس هذه السلطة باسم هذه الإرادة وبالرجوع إليها .

هي أشكال الشخصنة الحادة المتكاملة التي انتهت فيها ديمقراطية الثورة الفرنسية التي سحقت التجزئة الداخلية ، والنظام الإقطاعي الارستقراطي القديم في فرنسا وأوروبا باسم كرامة وحقوق الفرد، باسم الحرية والآخاء والمساواة ، والتي كانت في طليعة الثورات توكيداً على هذه المبادىء. هذه الشخصنة فرضت نفسها ليس فقط رغم هذه المبادىء بل دون إرادة القائد، وفي بعض الأحيان رغما عنها . نابليون نفسه، وليس فقط روبسبيير، رأى في بعض المناسبات ان اشكال التعبد التي كان يحيطه بها القادة والحكام كانت أشكالاً مهينة. لهذا نراه يكتب مرة إلى الوزير ديكريس بالتوقف عن ذلك ويقول " إنني أعفيك من مقارنتي بالله " . ولكن شاءا أم أبيا، فإن العالم رفعهما- وخصوصاً نابليون- إلى دنيا الآلهة ، أو أدخلهما

في بعض الأحيان دنيا الشياطين. ولكن في كلا الحالتين كان يعترف بأنهما لا يخضعان لعالم الكائنات الأخرى الفانية.

الفصل الرابع

التجربة الديمقراطية الاشتراكية

لقد ذكرنا في المقدمة أن الديمقراطية الاشتراكية والديمقراطية الدينية اللتين أشرنا إليهما كنموذجين من النماذج الديمقراطية العامة ، لا تشكلان جزءاً من التجارب الوحدوية . ولكن بما أن الموضوع الأساسي الذي نعالجه هنا هو التناقض القائم بين منطلقات إيديولوجية معينة وبين سلطة سياسية تتفرع منها ولكن لا تنسجم معها، وبما أن على البحث العلمي، متابعة هذا التناقض في تجارب أخرى وليس الاقتصار على نموذج واحد من التجارب السياسية ، وبما أن التجارب الوحدوية التي ذكرناها كانت ترمي أساسياً الكشف عن هذا التناقض، فإن الرجوع إلى تجارب ديمقراطية، كالديمقراطية الاشتراكية والديمقراطية الدينية ، يكشف فيها، وإن كانت غير وحدوية ، عن التناقض نفسه يشكل ، في الواقع ، خطوة ضرورية في تكامل التمثيل على هذا التناقض وفي التدليل الإضافي على هيمنة القانون الوحدوي العام الذي يدور عليه البحث، والذي يفرض شخصنة السلطة على كل عملية (Process) وحدوية بصرف النظر عن المنطلقات الإيديولوجية التي ينطلق منها .

لقد انتهت الاشتراكية الديمقراطية، التي كانت في جميع اتجاهاتها، تنكر الشخصنة، كغيرها من التجارب الديمقراطية ، الى الشيء نفسه وأقامت لذاتها قيادات تتميز بأشكال بارزة من هذه الشخصنة . طرحت نفسها كرفض لعبادة الشخصية ، ولكنها انتهت الى الظاهرة التي أرادت تجنبها.

الأحزاب الاشتراكية قامت بجهد كبير في تنظيم القيادة بشكل يؤكد أولوية وأهمية المركز وليس الشخص أو القائد الذي يمارسه ويمثله ، ولكن ما أن نشأت هذه الأحزاب حتى اقترنت بقادتها . في كل مكان كانت هذه الأحزاب ترى ذاتها في صورة قادتها وتعطي ولاء شخصيا لهم . في كل مكان كان يبرز تناقض ساطع بين الإيديولوجية والممارسة ، ووراء ستار كثيف من التنظيم، كانت القيادة تتخذ أشكالا واضحة ، وفي كثير من الأحيان حادة ، من الشخصنة .

دور قادة من أمثال شتونينغ، برانتينغ، جول جاد ، جوريه، فاندرفيلد، بلوم ، الخ ... كان يزيد عن ويتجاوز بكثير الدور الرسمي الذي كان يُعطى لهم في اجهزة وتنظيمات الحزب. هذه الظاهرة أصبحت أمراً معترفاً به " إن العمال في الأحزاب والنقابات الاشتركية كانوا يقدسون قادتهم في بعض الأحيان الى درجة الصلاة .

أما من الناحية النظرية فلم يكن في تلك الأحزاب قادة، أو زعماء، بل لجان وأجهزة وسكرتاريات ، وقد حاولت بشكل جدي عند ظهورها أن تبتعد عن أشكال السلطة المشخصنة ، ولكنها فشلت. لذلك لم يكن غريباً أن نرى دوفيرجيه يخلص الى القول، في دراسته الكلاسيكية حول " الأحزاب السياسية " ، " بأن هناك واقعتين أساسيتين سادتا تطور الأحزاب السياسية منذ بداية العصر، زيادة في سلطة القادة ، واتجاه نحو أشكال شخصية من السلطة " . ثم نراه يضيف بأن " هذه الزيادة وهذه الأشكال تشكلان ظاهرتين من الممكن ملاحظتهما اليوم في كثير من التجمعات الإنسانية وليس في الأحزاب السياسية فقط " .

ليس من شيء يكشف ، كما أشار كثيرون ، عن قوة وسيطرة شخصنة السلطة في الأحزاب الاشتراكية أكثر من خضوعها لتهديدات قادتها بالاستقالة والانسحاب إلى حياة خاصة إن لم يقبل الحزب مطاليبهم ، أو إذا عارض سياستهم . وكانت تهديدات كهذه تضع عادة نهاية للنقد، وتترك القادة يمارسون سياستهم كما يريدون .

بعد دراسة تاريخ الحركة الاشتراكية في بريطانيا ، يخلص ميشالز إلى القول " لقد اعلن الاشتراكيون الإنكليز، من جميع الاتجاهات ، أنه إذا أرادت الديمقراطية أن تكون فعّالة، يجب عليها أن تتخذ شكل أوتقراطية صالحة ... وبالتالي فإن الاشتراكيين الانكليز يأتمنون بشكل تام إرادة وتبصر القادة في خلاص الديمقراطية " .

الاشتراكية الديمقراطية لم تكن تعني فقط قادة بل " رسلاً " ، و " أنبياء " ، و" قديسين " ، و " شهداء " تتشخصن بهم ، وهذا يعود، كما يعود في الأديان نفسها ، " إلى الاستعداد النفسي نفسه الذي ينتج عن السيكولوجيا الشعبية " . بين الامثلة التي تجدر الاشارة اليها هنا هي أن الاشتراكيين الفرنسيين ، الذين أكدوا بشكل خاص على اتجاه مضاد للروح العسكرية وعلى مقاومتها، كانوا في مرحلة سابقة يدعون قائدهم غوستاف هيرفيه ، " جنرالنا ". إن كان، مثلاً، أدوار هيريو، " بابا الحركة الراديكالية " في فرنسا ، والحزب الشيوعي الفرنسي " حزب موريس توريز " ، الحزب الاشتراكي الفرنسي كان " حزب ليون بلوم " الذي كان تجسيداً له في المرحلة الواقعة بين الحربين العالميتين .

وكانت الأحزاب الاشتراكية تقترن عادة باسم القائد وتتسمى باسمه. ففي فرنسا ، مثلا كانت الحركة الاشتراكية تنقسم الى " برويست "، " أليمانيست " ، " جوريست " ، "بلانكيست "، " جاديست "، " برودونيين " ، الخ .. نسبة للقادة والمؤسسين .

في الثورة الفرنسية رأينا الظاهرة نفسها. فقد قيل مراراً حولها أنه لم يكن هناك أحزاب بل أتباع لهذا القائد أو ذاك ، يأخذون اسمه كتسمية لهم . وكان هؤلاء الاتباع لا يجدون صعوبة كبيرة في نقل ولائهم لقائد آخر بارز عند موت قائدهم .

قصة هذه التسميات في الأحزاب والاتجاهات الشيوعية لا تحتاج إلى إيضاح لأنها لاتزال حية أمامنا. بعد وفاة لينين ، مزقت الانقسامات الحزب البولشفيكي إلى ثلاثة اتجاهات اتخذ كل منها اسم

قائده وهي، التروتسكية ، الستالينية ، والبوخارينية . كان هناك أيضاً اللوكسمبورغية . ثم توالت هذه الاسماء بعد ذلك وباستمرار: لينينية ، ستالينية ، ما وية ، تيتوية ، خروشوفية، كاسترويه ، الخ ...

سيادة هذه التسميات أو بالأحرى الشخصيات التي ترجع إليها هي التي تستوقف نظر المؤرخ وليس البرامج الحزبية أو التفسيرات النظرية. في اشتقاق اسمائها من أسماء قادتها ومؤسسيها كانت هذه الأحزاب تبدو وكأنها تعلن أن وجود الحزب هو، في الواقع ، من وجود القائد، أو أن الحزب يدين بوجوده للقائد .

كتب هنري دي مان، كنتيجة لتجربة شخصية، بأن الاشتراكية تفرز أيضاً رسلها ، وقديسيها، وأنبياءها. في هذا الصدد يصف دي مان اجتماعاً اشتراكياً ديمقراطياً شعبياً خطب فيه بيبيل، القائد الاشتراكي الالماني :

" بيبيل يتكلم !... إنني لا أعلم ما يقول... هذا ينطبق على أكثرية الحضور في الاجتماع . كنا كلنا في حالة شبه مغنيطية. لم نكن نرى سوى شعر الخطيب الأبيض وحركات ذراعية. كنا نسمع تفجرات الغضب والسخرية... ونلاحظ العينين الملتهبتين البراقتين ... لو أن بيبيل أكد أن ٢+٢= ٥ ، لكان كل واحد من الحضور صدق ما يقول، وترك نفسه يُضرب في الدفاع عن هذا التوكيد... كل منا كان يعاني في كيانه الداخلي الانحناء الساكت لهذا الشعر الأبيض ، الخضوع لنظرة هاتين العينين " . هذا انموذج عن العلاقة التي كانت تربط بين القادة وبين الأتباع في هذه الأحزاب الاشتراكية ، على الأقل عند ظهورها ، في طورها الديناميكي الأول . الكيفية التى كانت تعبر فيها هذه العلاقة عن نفسها كانت، في الواقع، قريبة مما رأيناه في التجارب الأخرى التي عرضناها فيما تقدم . ولهذا ليس من الضروري التمثيل عليها مرة أخرى .

لا شك أن الكثيرين من مؤسسي وقادة هذه الأحزاب كانوا ذوي ميول أوتوقراطية ، ولكن السبب في توكيد تلك السلطة المشخصنة لا يعود إلى ذلك ، بل إلى أسباب نفسية خارجة عن إرادة الأفراد، منطلقات هذه الأحزاب الإيديولوجية التى تتعارض مع هذه الظاهرة ونوايا القادة التي قد تكون بعيدة عنها لا تستطيع أن تتحكم بسيكولوجيا شعبية عامة تتفرع من موضوعية أوضاع معينة تحيط بها . التجربة الديمقراطية الاشتراكية تدل ، كالتجارب الاخرى، على أن القادة الذين يكونون في البداية من صنع الحركات والأحزاب السياسية يصبحون فيما بعد " أسيادا " لها وذلك كنتيجة للتفاعل الديالكتيكي الذي يقوم بينها وبين تحديات وأزمات وتناقضات المرحلة التي نعانيها. فكلما اشتدت هذه الأخيرة اشتدت درجة الشخصنة.

هنا تجدر الاشارة، زيادة في الايضاح، الى ان ظاهرة التسمي باسم القائد لا تقتصر على الحركات الدينية والأحزاب السياسية بل تتعداها إلى الصعيد الفكري ذاته . ففي تاريخ الفكر أيضاً نرى أن مختلف التيارات والمدارس تتركز على وترجع إلى مفكر معين كقاعدة أو سلطة عليا لها.

المفترض في مدرسة علمية أو فكرية هو التمحور على بعض الفرضيات والنظريات الأساسية، ولكن من ناحية نفسية نرى أنها تتشكل حول هيمنة صورة فردية كالفرويدية ، والداروينية ، والديكارتية ، والكنتية ، والهيجيلية ، والأفلاطونية ، الخ ... المفكرون والفلاسفة أنفسهم يحتاجون، كما يبدو، إلى الضرورة ذاتها ، أي إلى سلطة تتمثل في مؤسس- رمز ويكون دورها أن تكون المرجع الثابت الذي يوفر أساساً للوحدة والانضباط .

الفرويدية، مثلاً ، كانت ، كما كتب أريك فروم " حركة تعتمد جهازاً عالمياً يقوم في تركيب هياراركي دقيق ، وقواعد صارمة في تحديد الإنتماء إليها ، كما أنها كانت تخضع أثناء سنين عديدة للجنة سرية تتشكل من فرويد وستة أعضاء آخرين . هذه الحركة كانت تعبّر في بعض الأحيان وفي بعض ممثليها، عن تعصب نجده عادة في البيروقراطيات الدينية والسياسية فقط ". وكون يكتب في دراسة قيمة حول طبيعة الثورات العلمية بأن " العلوم تحتاج كالمؤسسات المهنية الأخرى إلى أبطالها وهي تحافظ عليهم" .

في بعض الأحيان لا تقف العلاقة بالمؤسس عند الولاء الفكري الذي يرجع إليه كسلطة فكرية عليا، بل تتحول إلى رابطة مقدسة وولاء ديني . بيتاغوروس كان ، مثلاً ، بالنسبة إلى تلاميذه في مركز المسيح بالنسبة إلى البروتستانتية الليبرالية. وأتباع ابقراط أحاطوه بشيء من العبادة. وأتباع كونت وسان سيمون في القرن التاسع عشر. حولوا علاقتهم بهما إلى علاقة دينية تعبر عن ذاتها في كنيسة جديدة .

كذلك فإن ما يُسمى عادة " بالاشتراكية المثالية " أو " الطوباوية " تكشف عن الظاهرة نفسها . فعلى الرغم من منطلقاتها الايديولوجية التي تقول بعقلانية الفرد والتاريخ ، وعلى الرغم من دعوتها إلى مذاهب أرادتها أن تكون علمية ، فإنها انتهت في حركات تحولت في بعضها إلى أديان جديدة تضم أتباع يقدسون المؤسس أو القائد كما يقدس أي دين أنبياءه وقديسيه وآلهته. في التمثيل على هذه الاشتراكية سنشير أولاً إلى أهم حركاتها : السان سيمونية.

" سان سيمون "، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ، أصبح عشيّة وفاته " النبي " و " المؤسس " لهذه الحركة الدينية التي برزت في النصف الأول من القرن التاسع عشر والتي تميزت، كما وصفها كثيرمن المؤرخين، بجسارة فكرية مثالية لا نجد لها مثيلاً في ذلك الوقت ، وفي قدرتها على جذب عدد من أكبر المفكرين في أوروبا .

بعد دفن سان سيمون اجتمع " تلامذته " في بيت أحدهم ، وفي ذلك الاجتماع أعلنوا الحركة السان سيمونية للعالم ، التي قدمتهم كجماعة " رسولية "، كنموذج جديد عن الجماعة التي ظهرت في اورشليم منذ ثمانية عشر قرناً ، تتميز بالرسالة نفسها، ويرقبها نفس المستقبل . فقد خرجوا من هذا الاجتماع إلى العالم باعلان يقول " كان العالم يرقب مخلصاً فظهر سان سيمون. إن موسى، وأورفيوس، ونوما، نظموا الجهود المادية ، والمسيح نظم الجهود الروحية، وسان سيمون نظم الجهود الدينية، إذن فقد خلق سان سيمون

وحدة من موسى والمسيح . أما في المستقبل، فإن موسى سيكون رئيس العبادة ، والمسيح رئيس المذهب ، أما سان سيمون فيكون رئيس الدين ، البابا " .

من هم الذين آمنوا بسان سيمون هذا الايمان الغريب؟... من هم الذين أعلنوا هذا الدين الجديد؟... لم يكونوا من الفلاحين أو الاميين، بل مجموعة من المفكرين الكبار، المثقفين، المهندسين، الرياضيين، المحامين، الأطباء، الأدباء ، الاقتصاديين، الفنانين ، الخ... نسبة خريجي " معهد البوليتكنيك " كانت عالية بينهم . وعلى الرغم من السمات الدينية الغريبة التي ميزتها، فان نفوذها امتد بعيداً في أوروبا ومارس أثراً كبيراً على عدد كبير من أبرز وجوه أوروبا الفكرية ، من أمثال كارليل، دي فيني، جورج ساند، ميشاليه، بيرليوز، ليست، مازيني، هاينه ، وحتى ماركس وانجلز، الخ...

بعد وقت قصيرعلى ولادتها أصبح للحركة فروع في جميع أنحاء فرنسا ، وفي بلجيكا ، والمانيا، وانكلترا، ولم تلبث أن خلقت لنفسها طقوساً دينية جديدة لجميع المناسبات . واتجه " الرسل " من المركز في باريس الى جميع أنحاء اوروبا ، يبشرون بالمذهب الجديد ويحاولون إقامة " الحكومة الجديدة " .

كتاب " عرض مذهب سان سيمون " ، وهو كتاب يقدم مذهب الحركة الاجتماعي ، يمثل، في الواقع، " الجهد الأكثر متعة وتمييزاً وفرادة في الفكر الاجتماعي الفرنسي .. إنه دائم الفائدة كاعتراف لعصر بكامله ، كأفضل شهادة اجتماعية لمرحلة معينة غنية بالأعمال العلمية والأدبية ... إنه كتاب لا يزال حياً إلى درجة لا نستطيع قراءته اليوم دون معاناة أكثر أشكال المشاركة الوجدانية أو التعاطف حيوية مع مؤلفيه الشباب الرائعين " .

أونفانتان، وبازار، تنافسا حول قيادة الحركة ، وفي النهاية كان على هذا الصراع أن يصبح علنياً وأن يُطرح أمام الجمعية كلها . كارنو، الذي كان أحد المشاركين ، قارن المناقشات التي حدثت إلى المجالس الدينية الشهيرة التي رافقت العصر المسيحي في بدايته ، " ففي مجرى هذه المناقشات أصبح هؤلاء الرجال ، علماء المنطق الصارمون، وذوو الديالكتيك القاسي ، فريسة نشوات ، يهتزون كأكثر الاحيائيين (Revivalists) بدائية . بعضهم أصيب بنوبات إغماء وآخرون بغشية " .

عندما انتهى الأمر بفوز أونفانتان، آمن هذا الأخير حرفياً أنه رسول الله وأن الله تجسد فيه ويعبر عن ذاته في كلماته. واعتبر نفسه نبي المستقبل، وأن سان سيمون رجع إلى الحياة فيه . كتب " إنني أريد أن أعبد "، وأطلق على نفسه لقب " أورشليم الجديدة " . عندما نقرأ أسماء الذين تبعوه في هذا الدور، من أمثال تلبوت كلابيرون، فلاشا، جيرولت، فورنيل، د وفيريه، ميشال- شيفاليه، وكلهم من كبار العلماء والكتاب والمهندسين، يصاب القارىء بشيء من الدهشة.

عندما وقع الانشقاق في الحركة نتيجة الخصام بين أونفانتان وبازار حول الرئاسة ، أعلن شيفاليه، وكان أحد علماء الاقتصاد، وأستاذا في " الكوليج دي فرانس" فيما بعد ، انسحابه بهذه الكلمات، " نعم انني

أشك، أشك حتى في سان سيمون . إنني مليء بالشكوك حول خلفائه. إنني أشك في كل شيء الآن . إنني فيلسوف مرة أخرى . إنني مرة ثانية ، وحيد في العالم" .

تدل هذه الكلمات على أن الفراغ الإيديولوجي النفسي هو، في الواقع ، الدافع إلى هذا النوع من الإيمان أو الالتزام، أن الفرد الذي يعانيه قد ينوء به ويتشوق إلى مخرج منه ، وأن المشاعر التي يولدها تساوي في كثيرمن الأحيان بين المفكر والفرد العادي، بين العالم والجاهل .

أما شارتون فقد أعلن : " كم أتألم من رؤية مستقبلي الجميل، سمائي الجميلة ، ممزقين ومشوهين بهذا الشكل !.. "

واعلن ترانسون : " لست فيلسوفاً بل إنساناً دينيا. واذا لم يكن باستطاعتي أن أرفع رايتكم من الآن فصاعداً، واذا كنت لا أستطيع الايمان بها بعد الآن، فإنني سأختفي... سأذهب للتفتيش عن دين آخر " .

تشير هذه الأقوال بوضوح الى البواعث التى كانت تدفع بأصحابها إلى الايمان بسان سيمون " كنبي " أو " كإله " ، وبمبادئه كدين جديد. ولم يكن المؤسس أو المبادىء التي يُعلن عنها هي التي تصنع ذلك بل الحاجة النفسية الفكرية الملحة إلى الإيمان بمذهب جديد، وهي حاجة تتفرع من طبيعة المراحل الانتقالية في التاريخ، التي تموت فيها التقاليد والتصورات الايديولوجية الأساسية حول الحياة والتاريخ وعلاقة الإنسان بهما ، كما نرى مثلاً في القرن التاسع عشرالذي ظهرت فيه هذه الحركات.

في دراسته حول " أنبياء باريس " ، والتي تشمل تورغو، كوندروسيه ، سان سيمون ، فوريه، كونت، الخ.. يكتب فرانك مانويل " إن الجماعات التي كانت تتبع الأنبياء الكبار كانت جماعات متحركة . في البحث عن نظام مطلق كان أفرادها ينتقلون من واحد إلى آخر، ولم يكن من النادر أن يجرب هؤلاء الباحثون عن الحقيقة نظامين أوثلاثة في مجرى حياتهم . إننا نجد أيضاً الاتهامات العادية بالغدر، ونفس صرير الأسنان المرير الذي سُمع منذ خمسة عشرقرناً بين الفرق المسيحية الأولى، والذي كان مقدراً له أن يتكرر بين الشيوعيين والاشتراكيين في العقد الثالث والعقد الرابع من القرن العشرين " .

تدل اعترافات كاعترافات شيفاليه ، شارتون، وترانسون، كيف كان كبار العلماء والمفكرين الذين شكلوا قاعدة الحركة السان سيمونية يأبون مجابهة الحياة ، ليس فقط دون مذهب، بل دون قائد يجسده ويركزون عليه كل ولائهم ومشاعرهم . بعض الذين تركوا الحركة انضموا إلى حركة أخرى، الحركة الفوريرية، مما يدل مرة أخرى على الحاجة العميقة الملحة إلى " مذهب " ، إلى " بابا " يمثله . ولكن أكثرية الأعضاء . بقوا مع أونفانتان، " مسيح الأمم " . هؤلاء لم يتشككوا بإخلاص ومثالية المنشقين، بل أعلنوا أنهم دون شعور ديني حقيقي، وانهم بالتالي يمتنعون عن محبة الله المجسد في الانسان ، في أونفانتان ! ...

في الجلسة التي تم فيها انتخاب اونفانتان تعرضت سلطته غير المحدودة لبعض النقد ، فردّ على ذلك بقوله : " إنني قلت لكم بأنني لست بالنسبة لكم رئيس جمعية، أو حتى مرشداً، مدرساً أو كاهناً . أنا أبو الإنسانية كلها ". ولكن رغم صراحة أونفانتان أو على الأرجح، بسبب هذه الصراحة في تحديد دوره، تم

انتخابه في هذه الجلسة (عام ١٨٣١) "كأب للعائلة السان سيمونية" الذي ينتظر مجيء المرأة التي تجلس معه في " الكرسي البابوية ". وقد ادى هذا الى انسحاب بعض الأعضاء بقيادة رودريغ من الحركة . و لكن ما تجدر ملاحظته هو أن الانسحاب كان احتجاجاً على نظرية أونفانتان حول المرأة ، وليس على سلطته غير المحدودة او على الطبيعة والأوصاف الإلهية التي ميزتها !.. أما الذين بقوا في الحركة فقد اندفعوا إلى مستويات جديدة من الحماس والولاء له، وأعلنوا أنه تجسيد جديد للمسيح، واستمروا في عبادة الأب . آمنوا أن روح الله التي تجسدت في سان سيمون سابقاً تجسدت فيما بعد في أونفانتان . وطلب بعضهم، باسم الحركة، من الملك لويس فيليب التنازل عن العرش لمصلحة أونفانتان الذي سيحول بأحد أصابعه الجبال والوديان، ويجمعها في وحدة عامة كي لا يبقى هناك سوى حياة واحدة، إيمان واحد، رئيس واحد لجميع الأرض والناس . أما أونفانتان فقد أعلن ايضاً " إنني السليل المباشرللقديس بولس، أي انني كنت فيه كما أنه تجسد اليوم بي . فعن طريقي أنا يسير سان سيمون إلى الله ، لأنني ، في الحقيقة ، ما أراد الله لسان سيمون أن يكون بشكل خالد : ابو الناس " . عندما انضم ريتواريه الى الحركة توجه إلى أونفانتان وأعلن : " أيها الأب، لقد قلت لك مرة أنني رأيت فيك هيبة امبراطور وطيبة مسيح . لقد كنت جباراً بالنسبة لي، ولكن اليوم أشعر كم أنت عميق اللطف والحنو . أيها الأب، إنني اصبحت على استعداد".

في عقد واحد من السنين فقط انتشرت تعاليم الحركة السان سيمونية عبر أوروبا فآمن بها أو تمثلها عدد كبير من المفكرين والعلماء والفنانين والشعراء. آخرون تأثروا بأفكارها ونظرياتها الاجتماعية ولكن دون أن يقيموا علاقات رسمية بها. الحماس الكبير والواسع الانتشار الذي كان يوحي به أونفانتان لأعداد كبيرة من الناس يدل على ذاته في الملفات الكبيرة من الرسائل المحفوظة في " المكتبة الوطنية " ، و" مكتبة الأرسينال " في باريس .



يمكن الاشارة أيضاً - كمثل آخر على هذه " الاشتراكية الطوباوية "- إلى فورييه أو الحركة التي ترجع إليه وتتسمى باسمه. كان فورييه أحد كبار المفكرين الاجتماعيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكن أفكاره تحولت إلى حركة دينية، إلى كنيسة جديدة جعلت منه " نبياً " لها. فاعطاه الله ، كما كان يقول " البوصلة الاجتماعية " وكشف له عن السرالكبيرالذي سيضع، في برهة وجيزة، نهاية لجميع مآسى الانسانية . وأعلن في أحد النداءات التي كان يتوجه بها إلى هذه الانسانية :

" تنفسوا بحرية ، وانسوا التعاسة السابقة ، اعطوا أنفسكم للسعادة... فأنا وحدي سوف أنهي عشرين قرناً من الحماقات السياسية ، ولي وحدي ستدين الأجيال الحاضرة والمستقبلة بسعادة غير محدودة . فقبل مجيئي خسرت الانسانية عدة آلاف من السنين، وهي تكافح بجنون ضد الطبيعة. إنني أول إنسان تكرمت الطبيعة بالابتسام له. إنها أعطتني كل أسرارها. لقد جئت من اجل أن الغي كل ظلام سياسي وأخلاقي وكي أبني على بقايا العلوم المزورة نظرية الانسجام العام " . وكان فورييه يلمح في بعض الأحيان إلى ألوهيته . فهو الفيلسوف المخلص الذي كان الله يحتفظ به و كانت الإنسانية المعذبة ترقب مجيئه .

وقال فوربيه أن نظريته علمية وتعتمد منهجاً علمياً . دراساته في تحليل التطور الاجتماعي التاريخي والكشف عن متناقضات الحضارة الحديثة، وخصوصاً في صعيدها الرأسمالي الصناعي كانت، في الواقع، من أقوى ما كُتب في القرن الماضي . ثم اننا نجد فيها بذور جميع ما قدمته المدارس الفكرية الاشتراكية في الموضوع، وفي طليعتها المدرسة الماركسية .

كتب جون ستيوارت ميل في " مبادىء الاقتصاد السياسي " أن النظرية الفوريرية هي ، بين جميع أشكال الاشتراكية ، أكثر امتناعاً على جميع الاعتراضات الممكنة . وجوريه اعتبر فوربيه " إنساناً يتميز بعبقرية تثير الإعجاب وأنه هو وحده تميز بالقوة على تصور إمكان نظام جديد" .

ولكن على الرغم من ذلك، يزعم فوربيه لنفسه ذلك الدور الاسطوري، ونرى أتباعه يحولون أفكاره إلى تعاليم وحركة دينية ، وينظرون إليه ك " نبي " ، و " مخلص " كما نظر السان سيمونيون إلى سان سيمون ومن ثم الى اونفانتان . بين هؤلاء نجد أيضاً مجموعة كبيرة من المفكرين بينها مفكرون من أمثال فكتور كونسيداران . أما علاق هؤلاء الأتباع به فكانت من نوع العلاقة التي ربطت الحركة السان سيمونية بسان سيمون ومن ثم باونفانتان ، وإن كان بشكل محدود.



لقد فرضت شخصنة السلطة ذاتها بأشكال واضحة وحادة على هذه الاشتراكية رغم تبشيرها بالمحبة الأخوية والمساواة ، وإيمانها بعقلانية الفرد والتاريخ، وإمكان سياسة علمية أو تحويل السياسة إلى علم .

لقد ارادت هذه الاشتراكية دون شك خلق مجتمع جديد يخضع لتنظيم جامع يشمل حتى تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة، ولكنه كان يقترن، من ناحية أخرى، بدرجة عليا من الحرية الفردية. كان المجتمع الجديد في نظر سان سيمون والسان سيمونيين، فوربيه، والفوريين، أوين وأتباعه... مجتمعاً منظماً بطريقة ديمقراطية، تعاونية، إرادية، وفي بعض الأحيان لا يعرف الدولة أو السلطة السياسية المركزية . كانت غاية هذه الاشتراكية تحرير الفرد من جميع أشكال العسف والقهر والعنف ، وليس الأشكال السياسية فقط ، وتطوير إمكاناته المختلفة بغية تطوير حريته.

لم تكن هذه المقاصد في نظر هذه الاشتراكية مقاصد تنتج عن الارادة الانسانية لأنها إرادة عقلانية فقط ، بل تتجاوز ذلك إلى حركة التاريخ نفسها التي تتميز بعقلانية عامة تدفع نحو مجتمع كهذا المجتمع .

" الحامل الأساسي للعقل لم يكن الفرد العقلاني بل، بالأحرى، المجتمع أو الطبقة الاجتماعية. فالفرد وعقله كانا فقط أداة العملية التاريخية. القصد النهائي لهذه العملية التاريخية... هو ظهور مجتمع منظم بشكل عقلاني... تاريخ العالم يعني الظهور التدريجي للانسجام الاجتماعي . هذا الانسجام او الوحدة لم تكن نتيجة جهود واعية إرادية يقوم بها أفراد عقلانيون، بل نتيجة ضرورة تاريخية داخلية " .

غير أن هذه الاشتراكية الديمقراطية كانت ، من حيث الممارسة ، نقضاً لتلك العقلانية والمبادىء التي رافقتها. وكانت التجارب التي حدثت في القرن التاسع عشر، في إقامة مستوطنات اشتراكية (أو شيوعية) في أميركا، تفرز هي الأخرى سلطة شخصية غيرمحدودة تسودها، هذا على الرغم من المفاهيم التي كانت تنطلق منها وتتعارض جذرياً مع سلطة من هذا النوع . هذا التناقض (الذي ينطوي، في الواقع، في الصعيد الفكري والايديولوجي المحض على جانب آخر يتناقض مع المنطلقات الديمقراطية التي تسود هذا الصعيد، وهوجانب يزدري الجماهير ولا يؤمن بقدرتها على سيادة مصيرها)- يخترق جميع الأشكال الاشتراكية الغربية (والشيوعية أيضاً) التي عجزت عن تجاوزه أو ايجاد حل له.

الإشارة السريعة التالية إلى هذا التناقض في تجارب أخرى من النوع نفسه توفر للقارىء صورة أكثر وضوحاً وشمولاً عما نعنيه بهذا التناقض .

قدمت حركة بايوف في نهاية القرن الثامن عشر في منطلقاتها الايديولوجية شكلاً بارزاً للديمقراطية ، حرياتها وحقوقها الفردية ، ذا مضمون اجتماعي ثوري جعل ماركس وانجلز يريان فيها منعطفاً تاريخياً يشير إلى قدوم الشيوعية . ولكن بايوف رأى، من ناحية أخرى، أن الدكتاتورية تتفرع من عجز الجماهير السياسي . وكان يريد، في الواقع ، إقامة سلطة ثورية قوية تحمي الشعب ضد نفوذ " أعداء المساواة الطبيعيين " . بونا المساعد الرئيسي للبايوف، الذي كان فيما بعد رمزاً للحركات الثورية الأوروبية طيلة ما يزيد على ربع قرن، كتب، في الدفاع عن الدكتاتورية الفردية الثورية " بأنها تعود إلى الاحترام الحقيقي لسيادة الشعب " .

كما أن يتلينج، أحد مؤسسى الشيوعية اللاماركسية في القرن التاسع عشر، يحدد الانتقال من النظام القديم الى المجتمع الشيوعي الجديد الذي تسوده المساواة ، كدكتاتورية ثورية يمارسها " رجل واحد يخلص لمبدئنا بأكبر أشكال الحب ، ويحاول أن يرى في تحقيقه سعادته ، شرفه وحياته " . هذا الرجل سيكون مسيحاً جديداً ، أكبر من المسيح السابق" .

كابيه ، أحد أقطاب هذا الاتجاه في القرن التاسع عشر، يضجر القارىء ، في الواقع ، بنقضه المستمر لأشكال العنف في تحقيق الشيوعية ، وفي توكيده على الاقناع والمناقشة الحرة والحجة السلمية، كأدوات لا يمكن أن تفشل في تحقيق هذه الغاية . ولكنه في الوقت نفسه ينادي بدكتاتورية تكون مهمتها تثقيف الشعب بالمبادىء الجديدة . فالشيوعية هي العقل والطبيعة ، وليست الحرية سوى عمل ما لا يمنعه العقل، ولكن يجب ان تكون هناك دكتاتورية تُثبت ذلك!... الشعب يتميز بإرادة واحدة تتفرع من العقل والطبيعة ، ولكن ليس هناك أي سبب يمنع من تنظيم المجتمع كالجيش !...

وكان ديزامي، وهومفكرشيوعي آخرمن القرن التاسع عشر، يفضل خلق المجتمع الشيوعي ليس على صورة جيش فقط ، بل على صورة خلية من النحل. و كان هو الآخر يؤمن أن الشيوعية هي العقل والحرية، وأن الفرد كائن حر مستقل .

كـان المفكـرون الشـيوعيون والاشـتراكيون يواجهـون آنـذاك تحـدي المفهـوم الليبر الـي لأفكـارهم. بلانكـي، ديزامـي و كابيـه ، وغيرهـم ، كـانوا ينكـرون هـذا المفهـوم لأنـه أعـدم ؛ في رأيهـم، حريـة الفـرد ولم يؤكدها. فالفردية البورجوازية هي جحيم الأفـراد ؛ تقـوم بتـدميرهم بشـكل مـنظم . ولكـن مـن ناحيـة أخـرى نراهم يحددون الفردية الجديدة بأنها تخضع لإرادة جماعية تامة لا تسمح للفرد بأن يخرج عليها بأي شكل من الأشكال . وقد وجد بيو، أحد مفكري هذا الاتجاه آنذاك، أن الذين يخرجون على الارادة العامة يجب أن يعاملوا كما يُعامل مرضى المستشفيات العقلية.

الفوضـوية الـتي كانـت تنـافس الشيوعية وتناقضـها، وتؤكـد ارادة الفـرد المسـتقلة وحريتـه التامـة، عانت هي الأخرى التناقض نفسه . برودون، وهو المعروف بدعوته الفردية ، نقض في مناقشة مع لويس بلان الديمقراطية الليبرالية باسم ما اسماه الديمقراطية المتراصة، وأهـم خصائصها سلطة غير مجـزأة، تركيـز جامع للسلطة، إلغاء كل شكل من اشكال الفكر الفردي لأنه فكر يولد الانشقاق، أي، بكلمة أخـرى، نقـض الدولـة الـتي تقـوم في تعـدد الأحـزاب باسـم الدولـة الـتي تقـوم في الحـزب الواحـد. انـه في احـدى فـترات الخيبـة كتب أن الشعب حيوان يهتم فقط بالأكل والنوم والنكاح. وفي مناسبة أخـرى، كتـب مـن سجنه " النـوع الانساني يرغب بأن يُحكم، إنه سوف يحكم. إنني أخجل من هذا النوع " .

أما باكونين، صوت الفوضوية من روسيا إلى إسبانيا، فإنه لم يقل فقط بتنظيم سياسي واحـد ، بـل بضرورة وجود دكتاتور أو قائد واحد يشرف على هذا التنظيم .

هكذا نرى في الاشكال الاشتراكية والشيوعية الأولى التي برزت في القرن التاسع عشر أنه بالاضافة الى الجانـب الاول- ويجـب الاعـتراف انـه الجانـب الأساسـي – الـذي كـان يؤكـد علـى كرامـة الفـرد وعقلانيتـه، علـى الحقـوق والحريـات الفرديـة، وعلـى عقلانيـة التـاريخ ونظـام تـزول منـه أشـكال العسـف والضغوط السياسية، نجد جانباً آخر لا ينسجم معه . هـذا التناقض موجود، في الواقـع، في الفكـر السياسـى الغربي التقدمي والثوري ككل .

هنـا تجـدر الإشـارة، قبـل الانتهـاء مـن هـذا الموضـوع، إلى هـذا التنـاقض في فكـر " الأب الفكـري " الأول للثورة الفرنسية والديمقراطية اليعقوبية ، جان جاك روسو.

حـدد أفلاطـون المشـكلة السياسـية الأساسـية الأولى بالسـؤال التـالي : مـن يجـب أن يحكـم ؟... قبـل روسوكان الجواب : الأمير. ولكن روسو أعطى جوابا جديداً ثورياً . ليس الأمير بل الشعب هـو الـذي يجب أن يحكم . إرادة الشعب وليس إرادة الفرد هي التي يجب أن تحكم . اراد روسـو خلـق مجتمـع جديـد، صـهر الشـعب في وحدة أخلاقيـة ، اقـتلاع جـذور الأنظمـة التقليديـة الـتي تعثـر ذلـك، وإقامـة قـوانين وأنظمـة جديـدة تحـرر إمكانـات الفـرد الطبيعيـة وتـوفر لـه الحريـة . ولكنـه في مفهومـه الـديمقراطي حـول الإرادة العامـة يكتـب : " كيف يمكن لجمهور أعمى لا يعرف في الغالب ماذا يريد، لأنه في القليل النادر يعرف ما هـو خـير أو شـر لـه ، أن يمارس بنفسه عملاً كبيراً وصعباً كالنظام التشريعي؟ ". لهذا كانت أداته " المشرع الكبير ". الشعب ، في

ذاته، يريد الخير ولكنه لا يستطيع بذاته أن يراه دائما ، ولهذا فهو يحتاج إلى هذا المشرع الضروري، أي القائد الكبير. من هذا يخلص روسو الى القول ، اذا رفض الشعب الحرية يجب ان يُرغم عليها.



وأخيراً، كي يكتمل البحث في عرض هذا التناقض بين منطلقات ايديولوجية ديمقراطية وبين ممارسة سياسية تدور حول سلطة تنقض هذه المنطلقات أو لا تنسجم معها . نشير هنا في ملاحظة سريعة إلى تكرره في الحركة النقابية ذاتها، بذلك تكون الدراسة قد كشفت عن وجوده في اهم الأشكال التي عبرت عن هذه الديمقراطية الغربية الحديثة. هذه الحركة انطلقت، هي الأخرى، من المنطلقات الايديولوجية نفسها ، ولكنها انتهت الى ممارسة تتناقض معها.



تلتقي الدراسات التي ظهرت حول الموضوع في التدليل على أن قادة هذه النقابات لا يجسدون فقط وحدتها أو يرمزون إلى هويتها، بل يعملون بشكل مستقل تقريباً عن القواعد ويمارسون سلطة تزيد في كثير من الأحيان على سلطة الملوك والأمراء في النظام الاقطاعي . في كل مكان نرى أن هؤلاء القادة يتحولون- في النقابات البورجوازية والاشتراكية - إلى جماعة أوليغاركية تحكم وتقود كما يحلو لها. أما القواعد فانها تمارس عادة " امتياز " السير وراء قراراتهم وإعطائهم الدعم المادي والمعنوي الذي يحتاجون اليه .

القادة يستمرون في قيادتهم ومراكزهم دون منازع، والتغييرات التي تحدث في صفوفهم لا تعود عادة إلى انتخابات بل إلى الاستقالة، التقاعد، أو الموت. التجربة النقابية تدل أيضاً بوضوح الى أن معارضة لائحة القيادة الانتخابية أمر نادر جداً، وأن القادة يملأون عادة المراكز الشاغرة باختيار من يريدون .

بعد مراجعة عامة للدراسات التي ظهرت حول الموضوع في أميركا، خلص كي إلى القول بأن الحكم الذاتي في اتحادات العمال وهم ، وبأن ادارة شؤون الاتحاد هي في يد قيادة تعبد ذاتها ". درجة تسلط واستقرار القيادة " وما يقابلها من انهيار في المنافسة الديمقراطية تعبر عن ذاتها في الواقعة التالية وهي أنه بالكاد تجد اتحاداً بين اتحادات العمل الكبيرة أو فروعها يستبدل قادته أو يضطر إلى تغيير سياسته نتيجة تصويت أعضاء الاتحاد " ... في كتاب " الديمقراطية النقابية " وجد ليبسيت، مثلاً، أن هذه الديمقراطية تتوفر في نقابة واحدة فقط ، هي نقابة الطباعة.

إن احدى الدراسات المتوفرة حول موضوع المعارضة الديمقراطية في هذه النقابات، تكشف، مثلاً، أنه بين عام ١٩١٠ وعام ١٩٤١ نجح ٦٣٤ قائداً في الانتخابات دون معارضة وذلك في سبع نقابات من نقابات " اتحاد العمل الاميركي " ، ومن مجموع بلغ ٧٣٤، أي أن ٨٣٪ انتخبوا دون معارضة. في ٦٣ انتخاب رئاسي، كان ٨٦٪ دون معارضة . هكذا يدل قادة النقابات على " كفاءة " كبيرة في الاستمرار في مراكزهم .

ويستمر بعض هؤلاء القادة عشرات السنين، وبمعاشات ضخمة، دون أية معارضة ، في قيادتهم التي تسيطر سيطرة أوتوقراطية تامة على النقابة.

في بريطانيا نجد، حسب بعض الدراسات، أن بين ١٥٪ و ٢٥٪ فقط من أعضاء النقابات يقترعون على القضايا العامة التي تهتم بها. هذه النسبة المئوية هي أقل في النقابات الاميركية.

هناك أسباب وجيهة تدعو إلى التفكير بأن القيادة القوية، المركزة، التي تمارس سلطة غيرمقيدة، هي، في الواقع، ما يريده العمال أو الاعضاء- لأسباب براغما تية وبأن البواعث السيكولوجية في اتجاه الديمقراطية النقابية تشكل عاملاً ضعيفاً جداً . وقد أشار كثير من الباحثين الى حالة الركود السياسي والايديولوجي التي تميز العمال . قادت هذه الحالة هؤلاء، في الولايات المتحدة، إلى نفسية تعبر عن ذاتها في المثل القائل " دع جورج يقوم بالأمر "، أي دع الغير أو المسؤولين يصنعون ما يرونه . هذه اللامبالاة الايديولوجية والسياسية السائدة بين النقابات ، والعمال، أصبحت أمراً معترفاً به في الغرب.

كان هدف الحركات النقابية هو الدفاع عن الديمقراطية عندما تبينت أن الأحزاب التي أعلنتها لا تمارسها. تأسست كى تسمح للعمال بأن يمارسوا هذه الديمقراطية في تنظيمات خاصة بهم. وكانت تريد، من ناحية أخرى، تقديم نموذج ديمقراطي جديد في تنظيم العمل الاقتصادي يناقض، التركيب الأوليغاركي الذي يسود الشركات التي كانت تستبد بها، ولكنها رغم هذه المنطلقات، انتهت الى ممارسة تتناقض معها . وأهم الأسباب التي تفسرهذا التناقض هي :

١- عندما تنمو النقابة وتصبح كبيرة الحجم، فإن الاهتمام بها من قبل الأعضاء يخف، والميل إلى المشاركة الديمقراطية يضعف.

٢- نمو حجم النقابة يعني زيادة في المراكز والأعمال التي يمكن للقادة توزيعها ، مما يعطيهم أداة فعّالة في السيطرة على النقابة .

٣- الرابطة التي تربط الأعضاء بالنقابة ليست عادة ايديولوجية، بل تدور حول بعض المصالح المادية المباشرة .

٤- تعقد وصعوبة القضايا الاقتصادية التي تواجه النقابات في مجابهة الشركات او الدولة.

٥- التنظيم القوي المركز للسلطة يكون في كثير من الأحوال ضرورياً في تعامل النقابات مع الأجهزة الرأسمالية.

٦- الميل إلى تجنب المبادرات والمسؤوليات التي تتطلب تعبئة للجهود والطاقات الفكرية والنفسية.

التجربة الديمقراطية الدينية

شهدت القرون الوسطى حركات دينية ثورية عديدة تدعو الناس إلى التمرد على استبداد الكنيسة وجهازها وعلى الملوك والإقطاعيين، باسم الحرية والمساواة والأخوة المسيحية . فطيلة أربعة قرون ونيف كانت هذه الحركات تبرز داعية إلى تحرير الفرد من استبداد الاكليروس وسلطة البابا الأتوقراطية غير المحدودة ، ثم تمتد، في كثير من الأحيان ، إلى الصعيد الاجتماعي والسياسي فتنكر الملكية الخاصة ، وتدعو الى تدمير سلطة الأمراء، باسم ديمقراطية مسيحية جديدة تحقق بين الناس الأخوة الأولى التي عاشها المسيحيون الأولون .

كانت هذه الحركات جميعها دون استثناء تنتهي ، رغم تلك المنطلقات، الى أشكال من القيادة المشخصنة يتضاءل أمام سلطتها " وقداستها " ما كان يمارسه البابوات و الأباطرة والملوك من سلطة وما كان يحيط بهم من قداسة.

كان هؤلاء القادة يحيطون أنفسهم أيضاً بجميع ظواهر المُلك فيسلكون سلوك الملوك والأباطرة الذين دعوا إلى التمرد عليهم باسم المساواة والأخوة بين الناس . و كانوا ، بالإضافة إلى ذلك، يعلنون أيضاً أن " الروح المقدس " يعيش فيهم كما كان يعيش في المسيح وأنهم آلهة مثله .

كانوا يوزعون الماء " المقدس" ، الذي كانوا يغتسلون به ، على المؤمنين الذين يشربونه بديلاً عن دم المسيح ، أو يحتفظون به ذكرى مقدسة. وكانت الجماهير تمنع الزاد والغذاء عن نفسها وتتبرع بما تملك لهؤلاء " الآلهة "، والنساء كن يتنازلن عما يملكن من حلى لهم .

كان المؤمنون بهؤلاء القادة يأبون بعناد وتعصب أعمى أن يسمعوا أية كلمة نقد حول ما يقولونه ، ويقتلون بسرعة كل من يتجرأ على شيء من هذا. وكانوا، في بعض الأحيان ، يرون أن " القائد المخلص " يلبي حاجة كونية ، وأن العالم كله يتشوق إلى قائد من هذا النوع ، وأن ظهوره سيقضي على الشر والظلم ويقيم السلام والعدالة والاطمئنان على أسس راسخة لا تتزعزع . وكان القائد المخلص يتميز في هذه الحالات بقدرة على توحيد عناصر الكون مهما اختلفت، فيجمع بين الحرارة والبرودة، بين الجامد والسائل، وبين جميع التناقضات القائمة . فهو " مخلص " يُجمع الهواء والبحر والبر على عبادته ، ومجيئه مجيء إلهي . العالم كان يقارب نهايته عندما أنعم الله ، في رحمته الواسعة ، على الانسانية بفرصة أخرى ، فأرسل القائد المخلص كي يخلق عالماً من السلام والنظام والوحدة . بما أن البابا وبطارقة الكنيسة يشكلون مجموعة كافرة، وجب أن تتم الصلاة للقائد المخلص وليس لهم . وكانت الجماهير، في بعض الأحيان، تقذف بنفسها الى الأرض وتركع عند رؤية ، أو مرور، أحدهم . أحد المراقبين المعاصرين وصف إحدى هذه الحالات فقال " لو أن الله نفسه جاء إلى الأرض ، لا يستطيع أن يجد استقبالاً افضل من هذا" .

وكانت شروط القبول في بعض هذه الحركات تتطلب من العضو أن يُعطي قسم ولاء شخصي يعلن فيه طاعته المطلقة للقائد المخلّص ، وانطلاقاً من ذلك يصبح واجبه الوحيد أن يخضع خضوعاً تاماً

له . وكان هذا القائد يعلن لأتباعه أن خلاصهم يرتبط ارتباطاً تاماً بموقفهم منه . فاذا لم يكونوا، كما أعلن أحدهم، في مرونة الحرير بيده ، وإذا أظهروا أي ميل لأي استقلال فردي، فإنهم يصبحون فريسة للشيطان يعذبهم جسدياً وروحياً . فهو إله لهم ويجب عليهم أن يصلوا له وينادوه ، " أبانا " .

هذا كان، في الواقع ، الطابع العام الذي كان يهيمن على هذه الحركات التي كانت تؤكد ، في كثيرمن الأحوال ، حرية عامة دون قيد أو شرط ، حرية عفوية ترفض أي ضغط خارجي ، تدعو إلى تحرير الإنسان تحريراً مطلقاً ، ولا تعترف في منطلقاتها الايديولوجية بأية سلطة سوى سلطة التجربة الذاتية.

هذه الحركات الدينية الديمقراطية الثورية التي كانت تنتهي الى ذلك النوع من القيادة أو " القادة المخلّصين " ، كانت ، في كثير من الأحيان، تبشر بمبادىء تدعو الى الخلاص الفردي، إلى طريق فردي مستقل نحو الله والخلاص ، والى نوع من الفوضوية الروحية . كانت تؤكد على الحرية توكيداً عنيفاً يدفعها إلى نقض كل شكل من أشكال الضغط . هنا في هذه الحركات نجد، في الواقع، أسلاف باكونين، جيد ونيتشايف ، ونيتشه، وستيفن جورج، وبرودون، وماكس شتارنر، الخ..

ولكن التجارب التاريخية تدل على أنه من السهل جداً على فرديين متطرفين من هذا النوع أن يصبحوا ثوريين لا يترددون في إعطاء ولائهم لأنظمة مطلقة السلطة تعتمد درجة عليا من العنف في توكيد ذاتها عندما تتوفر لها الوضعية المناسبة . سوبرمان نيتشه كان قد سحرسابقاً ، وإن بشكل سطحي، عقول الكثيرين من" البوهيميين " الذين أصبحوا فيما بعد أعضاء في الحركة النازية. هيدغر فيلسوف الوجودية الالمانية الأول ، كان في الواقع، يقود طلابه إلى صناديق الاقتراع لانتخاب مرشحي هذه الحركة . كما يدين كثير من الشيوعيين بثورتهم لباكونين، أكثر مما يدينون لماركس وأنجلز. الدعوة إلى الحرية المطلقة تدفع ، كما أشار دوستويفسكي، إلى سلطة مطلقة. هنا نجد الجذور النفسية الحقيقية التي دفعت الكثيرمن " المفكرين المسلحين " إلى الانضمام للحركة الشيوعية ، أو نقيضها الحركة النازية.

إحدى هذه الحركات الدينية، أو حركة " الروح الحرة "، كانت تمثل هذا النموذج خيرتمثيل ولكنها انتهت الى اشكال مطلقة من السلطة المستبدة . محور عقيدتها كان نوعاً من التمجيد الذاتي تطور إلى تأليه ذاتي . الايمان وحده ضروري للخلاص ، وبه يستطيع المؤمن أن يحقق كمالاً مطلقاً إلى درجة تجعل الخطيئة مستحيلة. من مبادئها ، مثلاً " أن الانسان الحر حقاً هو ملك وسيد جميع المخلوقات. كل الأشياء تكون ملكه ، وله الحق التام في ان يستخدم ما يريده . فإذا أراد منعه احدهم عن ذلك ، فإن الرجل الحر يمارس حق قتله وأخذ ما يملك ". بعض مجموعات من هذه الحركة قررت ، في الواقع ، أن حالة الايمان والكمال لا تستطيع قبول نظام الملكية الخاصة ، وأن الأشياء أو الثروة يجب أن تكون ملك الجميع ، ثم خلصت إلى القول أن السرقة نفسها هي، بالتالي عمل شرعي . بما أن " الروح المقدس " يملأ أنفسهم ، فإنهم انقياء وأحرار من الخطيئة . آمنت هذه المجموعات أن هذه الحالة الباطنية من النقاء والحرية تعطيها حق ممارسة العلاقة الجنسية مع الأم ، والاخت، مع أي شخص، وبأي شكل . هذا التمجيد للحرية ، هذا المفهوم الذي ينادي بذاتانية (Subjecivity) غير محدودة ، لم يدفع إلى الحرية ، الفردية ، المساواة أو

التسامح ، بل، على العكس ، الى ممارسة تتنكر تماماً لمنطلقاتها . فالقائد كان رمزاً حسياً لله، وبالتالي كان يمارس سلطة غير محدودة ، ويُحاط بالتقديس والعبادة .

الذين أعطوا ولاءهم " لمخلص " كهذا كانوا ينظرون إلى أنفسهم كشعب مقدس تعود قداسته الى هذا الخضوع غيرالمشروط للمخلص، الى إخلاصهم غيرالمحدود للرسالة التي يحددها. كانوا أولاده الطيبين، وكمكافأة لذلك كانوا يشاركونه في قدرته الإلهية . وكان معظم القادة " المخلصين "، على الأقل، يؤمنون بصدق أنهم تجسيد للآلهة أوأدوات إلهية ، وأن مجيئهم سيجدد العالم. هذا الايمان برسالتهم كان يتسرب إلى الشعب الذي كانت تتجه رغبتته الأساسية بالضبط إلى مخلص من هذا النوع .

آمنت هذه الحركات، أن الذين لا ينتمون إليها هم من الكفرة المبغوضين من الله ، المحكوم عليهم باللعنة الأبدية. أتباعها وحدهم يملكون الإيمان الحقيقي ويشكلون صوت الله . ولهذا كان من المسموح لهم ، بله ، من الواجب عليهم اضطهاد، تعذيب ، سرقة ، أو قتل الذين يقفون خارجها.

كانت الأوضاع التي كانت تظهر فيها هذه الحركات مماثلة للأوضاع التي رافقت التجارب الثورية الأخرى . إنها مراحل سيطرت عليها الأزمات الخانقة وسادها قلق عام عميق . ففي المدن التي كانت تظهر فيها ، كان قسم كبيرمن السكان يعاني هذه الأزمات بشكل مزمن، ليس فقط بسبب الصعوبات الاقتصادية أو حالة الحرمان المادية التي كانت تحيط بهم ، بل لأنهم فقدوا تلك العلاقات العضوية التي تميز الحياة الاجتماعية بين الفلاحين . السمة المميزة لهذه الحركات الدينية الثورية كانت ، بكلمة أخرى ، التحول الاجتماعي السريع وليس الفقر الذي تتعرض له. لوكان الفقر سببها الأول لكانت ظهرت بشكل خاص بين الفلاحين وليس في الأوساط التجارية والصناعية المدينية . ولم تكن الحياة الريفية منفتحة لهذه الحركات لأنها كانت موحدة، منسجمة وذات جذور تقليدية عريقة .

الجماهير المتذررة في المدن، التي كانت، إلى جانب الفقر، فريسة القلق الخانق ، وليس الفلاحين الذين كانوا يستطيعون الاعتماد على علاقتهم العضوية مع الجماعات المحلية (Community)، هي التي كانت منفتحة لتصورات ذات قوة تفجيرثوري هائلة ، ومستعدة بغية الخروج من مأزقها أن تعطي ولاءها لحركات وقادة تميزهم بقوة أو معنى غير طبيعي .

العمال المهرة، والشغيلة العاديون، الفلاحون دون أرض أو الذين يملكون القليل من الأرض، المتسولون، المتشردون، العاطلون عن العمل والمهددون بالبطالة ، وكثيرون آخرون من الذين كانوا لا يجدون وضعاً مستقراً أو مكانة معترفاً بها ، كانوا يشكلون العناصر التي كانت تتشكل منها تلك الحركات الدينية الثورية في القرون الوسطى . كل اضطراب، كل حادث مثيرأو مخيف كطاعون أو مجاعة ، كل شيء كان ، بكلمة أخرى، يعطل روتين أو مجرى الحياة العادي كان يؤثر في هذه الجماعات بحدة خاصة ، ويعدّها للانضمام إلى أو تشكيل " حركة خلاص " بقيادة " مخلص " تعتبره ذا قداسة غيرعادية . الجماعات العائمة هي التي كانت توفر " للأنبياء " والقادة " المخلصين " الأتباع الثوريين . أما المجتمع الذي أنتجها فكان مجتمعاً ضل طريقه بسبب انهيار العلاقات والروابط التقليدية التي تمزقت تحت ضغط الاقتصاد

البورجوازي . لهذا كانت هذه الحركات محصورة في بعض المناطق أو فيما يُسمى بوادي الريف ، وهي المناطق التي كانت تعاني نمواً سريعاً للصناعة والتجارة ، وزيادة كثيفة في عدد السكان . تراكم التناقضات والتوترات التي تعود لأسباب اقتصادية واجتماعية كان يتقدم ظهور هذه الحركات ، كما أشار مؤرخون مختلفون كالمؤرخ الماركسي آرنست فرنر ، والمفكر الكاثوليكي ، فوالوب ميللر. مفكرون آخرون ، كنورمن كوهين ، أضافوا إلى ذلك خوف عام من كارثة شاملة تقع بسبب حياة البابوات الفاسدة أو الفساد الذي كان يسود الكنيسة والمجتمع .

تدل دراسة الأوضاع الاجتماعية التي ظهرت فيها هذه الحركات ليس فقط على أنها كانت أوضاعا متماثلة، بل انها كانت تماثل أيضاً الأوضاع التي ظهرت فيها الحركات الثورية الحديثة من الليبرالية الى الشيوعية .



وقد اعادت الحركات البروتستانتية التي ظهرت في القرن السادس عشر الظواهر نفسها . فهي تمردت على سلطة البابا والكنيسة، دعت إلى تحرير الفرد، بشرت باستقلال ضميره ، ولكنها انتهت جميعها الى النتائج ذاتها. جميع هذه الحركات من جنيف الى أنكلترا، ومن المانيا إلى أميركا، أشادت بناء ضخما للقيادة المتألهة، وأقامت أنظمة " بوليسية " ، وأشكالاً من السلطة التيوقراطية، القاسية التي كانت تضبط أنفاس الفرد، تنكر الحقوق والحريات الفردية وتخضع المجتمع لجو يسوده خوف رهيب من أشكال العقاب الشرس .

في جنيف كانوا عندما يتحدثون عن كالفين، يقولون " جلالته " ، وفي اسكتلندا، ولمدة طويلة بعد موت جون نوكس كان يطغى عليها جو من الرعب جرد الحياة من مسراتها . ستاندال الذي زار جنيف في القرن التاسع عشر لاحظ أن السكان لا يزالون عاجزين بعد ثلاثة قرون عن الضحك بسبب الآثار التي تركتها التيوقراطية القاسية التى اقامها كالفين في القرن السادس عشر.

اقامت هذه الحركات انظمة كلية (Totalitarian) حاولت فيها تحويل " مملكة الله " الى " جمهورية " الله ، وذلك بتطبيق شامل كلي لما تؤمن به كقانون إلهي . كل مظهر من مظاهر الحياة وليس فقط الحياة الروحية العامة ، كان يخضع لهذا القانون . في جنيف ، مثلاً ، كان التعذيب والتشهيرمن نصيب كل من يتجاسر على اللعب بالورق ، وإذا لبست عروس لباساً مبهرجاً وباهراً ، فإن التوقيف والسجن يكون من نصيبها، نصيب والدتها، الخياطة والاشبينة. في بداية الأمر تمرد سكان جنيف، وهم الذين كانوا قد تخلصوا حديثاً من نظام استبدادي، وطردوا كالفين من مدينتهم . ولكنهم ما لبثوا أن دعوه إلى العودة عام ١٥٤١. منذ ذلك التاريخ حتى مماته ركز كالفين جهده كله على إقامة التيوقراطية التي أثارت الإعجاب والاحتقار في آن واحد. اصبحت جنيف تحت رقابة يومية مستمرة تشمل كل ناحية من نواحي حياتها . كل عمل كان يراقب ، يسجل ، يؤنب أو يعاقب عند أي انحراف عن احكام الكنيسة مهما كان الانحراف طفيفاً . المواطن مثلاً ، كان ممنوعاً من الابتسام في الكنيسة ، النوم أثناء

موعظة ، لعب النرد ، الرقص أو غناء أغنية غير دينية يوم الأحد . وكان لا يستطيع حتى تسمية ابنه الاسم الذي يريد اذا اختارت الكنيسة اسماً آخر له . ومع الوقت كانت الكنيسة تضيف هرطقات جديدة الى الهرطقات القديمة، وتعاقب من تشتبه به بالتشهير، التعذيب ، السجن أو القتل . في أربع سنوات فقط - في بلدة صغيرة كجنيف- وذلك بين عامي ١٥٤٢ و ١٥٤٦ ، بلغ عدد الذين اعدموا بتهمة الهرطقة ٥٨ ضحية، بينهم طفل أعدم لأنه صفع والده (أو والدته) .

هذه التيوقراطية كانت تعيد ذاتها أساسياً في جميع الحركات الأخرى . في الولايات الأميركية أو المستوطنات والمستعمرات الأولى هناك كانت هذه البروتستانتية تُحصي أيضاً أنفاس الفرد وتضبط بشدة وقسوة خاصة كل ظاهرة من ظواهر حياته ، ومشاعره ذاتها .

اعلنت البروتستانتية منطلقات تؤكد حرية واستقلال الفرد، اكدت أنها تحمل لواء الاستقلال الروحي، وأنها " دين حرية الضمير". ولكنها لم تكن في قضايا الايمان أقل تعصباً من الكنيسة الكاثوليكية أو أقل ميلاً منها إلى اضطهاد المعارضين لها. كما انها ساعدت ، بالاضافة، الى ذلك، نقل مبدأ السلطة المطلقة الى الصعيد السياسي ، وبذلك كانت، في الواقع، اتوقراطية اكثر سوءا من الكنيسة الكاثوليكية . وكانت المرحلة الاجتماعية التاريخية التي برزت فيها هذه الحركات البروتستانتية مماثله لأوضاع سابقتها في القرون الوسطى . كانت ثمرة مرحلة من التحول الاجتماعي السريع أفرزت جماهير متذررة، تناقضات وصراعات جديدة. في وصف النفسية العامة التي كانت تنتج عادة عن هذا التحول ، يكتب فوالوب ميللر (شوق المخلوقات البشرية لمن يخلصهم من الخوف الروحي والجسدي بلغ درجة من الحدّة ونفاد الصبر كان يمكن فيها ظهور مخلص من جندي صرف من الخدمة ، وآخر من سائق مركبة سكير، وثالث من فلاح ، وآخر من ريفي أحمق وخامس من زنجي طباخ . لم تكن هناك أية قيمة للتناقض الذي كان تاماً بين مظهر ، استعداد ، وتعاليم هؤلاء الرجال ، وبين النبوءات وكلمات الكتاب المقدس " .

وكانت هذه الحركات تسمى أيضاً باسم مؤسسها. اللوثرية، الكالفينية، المانية، الهوتارية ، الهوسية ، الزونجلية، الباروبست ، الخ .. في الكنيسة الكاثوليكية نرى أيضاً الظاهرة نفسها . حركات الرهبنة مثلاً كانت تتسمى باسم مؤسسها، وكالفرنسيسكان، والبانيديكت، والدومينيك.... إنها ظاهرة تؤكد ذاتها في كثير من الأديان الكبرى أيضاً ، كالمسيحية، والبوذية، والكونفشية، والتاوية، والزرادشتية...

اعتماد المؤسس والرجوع إليه بهذا الشكل الصريح يدل بوضوح على الأسباب النفسية التي تدفع الى وتفرض ذلك ، كظاهرة تُعيد ذاتها باستمرار عبر التاريخ وفي حركات وتجارب متنوعة ومتناقضة. وكان الكثير من مؤسسى هذه الحركات الدينية والأديان يؤلهون دون قصد أو إشارة منهم . في الهند، مثلاً، جاء بوذا، وجينا، بدينين جديدين في القرن السادس قبل الميلاد وبعد مماتهما أخذ الأتباع في عبادتهما. فالبوذي مثلاً يصلى لبوذا الذي أراد إلغاء طقوس الصلاة. كذلك أيضاً في الصين، نرى أن كونفشيوس ولاوتسي أصبحا موضوع تأليه وعبادة ، الخ ...



في القسم الأول الذي تكلمنا فيه على دور الإقليم - القاعدة رأينا أن نشوء الدولة وانتقالها من طور إلى آخر كانا يقترنان بدرجة عليا من الشخصنة . والان رأينا مرة أخرى أن ظاهرة الشخصنة كانت تُعيد ذاتها بشكل انتظامي متكرر في تجارب التاريخ الوحدوية والثورية التى كانت تنطلق من منطلقات ديمقراطية تتناقض معها. هذه المراجعة المنظمة (Systemmatic) لتجارب التاريخ السياسية تكشف إذن عن قانون وحدوي وثوري أيضاً ، يفرض ذاته ولا يمكن تجنبه في التجارب الثورية والوحدوية، فعندما نجد أن حركات دينية وعلمانية مختلفة، حركات تؤمن بالفرد، الحرية الفردية والمساواة، بعقلانية الفرد والتاريخ ، ثم تنتهي مهما اختلفت في مضامينها الفلسفية والأخلاقية والسياسية الى الظاهرة نفسها، فذلك يعني أن هناك قوى موضوعية مستقلة عن إرادة الأفراد تفرض ذاتها بشكل مستقل، وأن هناك ديالكتيكاً موضوعياً يشتق من طبيعة الحركة الوحدوية والثورية ذاتها ويفرض تلك الظاهرة.

عندما تظهر حركات ليبرالية ، وديمقراطية، واشتراكية، وشيوعية، ونقابية وفوضوية ، باسم قداسة الفرد وكرامته، الحقوق والحريات الفردية ، وقدرة الانسان العقلانية على سيادة مصيره، ثم تنتهي كلها الى اشكال من القيادة المشخصنة التي تحيط هذه القيادة بالتقديس والإجلال وتعطيها سلطة غير محدودة. وعندما تظهر حركات تمرد ديني باسم الحرية والمساواة والأخوة المسيحية واستقلال ضمير الفرد، ثم ترفع قادتها إلى صعيد إلهي، تعطيهم سلطة مطلقة وترتبط بهم " كمخلصين "... عندما يحدث ذلك يجب على المفكر العلمي أن يجد في تكرر هذه الظاهرة واستمرارها، " قانوناً " موضوعياً يتجاوز إرادة الفرد فيحاول أن يكشف في الواقع الموضوعي عن الأسباب البعيدة التي تفسرها. تفسير ظاهرة عامة شاملة كهذه الظاهرة بإرجاعها إلى انحرافات ذاتية، انتهازية أو نوايا القادة الأوتوقراطية ، كما كان يصنع الفكر الوحدوي والثوري العربي عادة هو تفسير ساذج . فكي تكون جامعة بهذا الشكل وجب أن تكون وراءها قوى موضوعية مستقلة تفرضها ، وواجب المفكر العلمي يفرض الكشف عن هذه القوى وليس الاقتصار على تحديدها كقانون عام . هذا ما سنحاوله في البحث التالي . يجب ان ندرك أنه لا يمكن التحرر من ظاهرة موضوعية بالحديث عنها أو التبشيرضدها. الطريق الى ذلك هي ادراك طبيعتها والقوى المسؤولة عنها. قبل معالجتها يجب ان نعي وندرك وجودها أولاً كضرورة موضوعية. الحرية هي إدراك هذه الضرورة .

الفصل السادس

تفسير المضمون الوحدوي في شخصنة السلطة

يكشف هذا البحث ، الذي درس ظاهرة شخصنة السلطة في ضوء منظور يعتمد منهج المقارنة التاريخية، بوضوح عن علاقتها المباشرة الوثيقة بمراحل يسودها تحول اجتماعي تاريخي وتعكس حركة انتقال من نظام معين إلى نظام آخر ينفيه أو يتناقض معه إلى حد كبير . فإذا كانت هذه الشخصنة

متماثلة في سماتها ومقاوماتها تفرض ذاتها على حركات تختلف في مضمونها، فذلك يعود إلى تماثل القوى والاتجاهات الموضوعية التي تكشف عنها هذه المراحل . أهم هذه القوى والاتجاهات هي :

١- هذه المراحل تعني تبعثر وتمزق الوحدات والروابط الاجتماعية التقليدية العضوية بين قطاعات كبيرة من الناس، وخروج هؤلاء منها الى اوضاع جديدة مبهمة الحدود والمعالم . في وضع كهذا يدخل الفرد في فراغ يخسر فيه هويته السابقة ، ويصبح بحاجة ماسة إلى مخرج، إلى طريق يجد فيها أوتقوده الى هوية جديدة . انهيار العلاقات والأنظمة التي كانت تحدد، تقرر وتنظم علاقة الفرد مع الحياة والتاريخ والمجتمع يمهد الطريق أمام ظهور القيادة المشخصنة التي تمثل وترمز إلى هوية جديدة ترجع إليها في هوية الايديولوجية ، الأمة ، الطبقة ، الثورة، الخ.. التى تقف وراءها. تشكل المشاعر الكبيرة التي تستقطبها قيادة من هذا النوع قوة مضادة لقوى التبعثر والتشتت ، التي تبرز في كل مكان، وتعطي الفرد الذي يكون قد خسر شعوره بوحدة ذاته واستمرارها الشعور الضروري الذي يحتاجه بوجود ذات موحدة يدور وجوده حولها .

في مراحل التحول الاجتماعي التاريخي التي تشكل منعطفات واضحة ، تقوم السلطة المشخصنة بدور النموذج للسلوك السياسي والإيديولوجي الجديد الذي يكشف عادة عن نمط حياة جديد، وبذلك تدعم وتدفع إلى التغييرات الضرورية لبلورة هذا النمط . هذه المراحل تعني ميوعة عامة بسبب غياب المفاهيم والأنظمة الجديدة التي تحل محل المفاهيم والأنظمة التي تمزقت أو أخذت في التمزق، ولهذا فإن القيادة المشخصنة تسد الفراغ وتصبح شبه نظام في ذاتها، لأنها تشكل آنذاك أهم عنصر في توحيد القوى الجديدة ، بما أن هذه القيادة تبدو وكأنها السلطة الوحيدة الثابتة، فإن الولاء يتركز عليها .

بعد خلق الأنظمة والأسس والتصورات الجديدة وتثبيتها نسبياً ، تزول إمكانات أو أشكال القيادة الكبيرة أو القيادة التي تقترن بطور الخلق والتجديد، وتبرز قيادة من نوع آخر يقتصر دورها أو عملها على استخدام النظام الجديد، حمايته والتعبير عنه . وتكون قدرة " الخلق " فيها وفي الطريقة التي تمثل فيها هذا النظام أو الأنظمة الجديدة وليس في صنعها.

في هذه المراحل التي تتميز بالتبعثر تتجه السلطة ، بسبب هذا التمزق ذاته ، إلى التمركز في الوسط لأن الأنظمة والعلاقات والمفاهيم التي كانت تربط الأجزاء والأطراف في وحدة عامة تكون قد ضعفت أو انهارت ، وهذا يعني ضرورة قيادة مشخصنة تهيمن على وتستقطب هذه الأجزاء والأطراف إلى أن يتم إنشاء الروابط والأنظمة والقيم الجديدة الواحدة والموحدة . لهذا فإن هذه القيادة تمارس سيادتها وسلطتها لأنها في خلق ما تساعد على خلقه ، تُعيد شعوراً بالنظام والوحدة.

٢- يدل دور هذه الشخصنة في مراحل التحول الاجتماعي التاريخي، وخصوصاً عندما تكون جذرية على ضرورته وعلى الديالكتيك الموضوعي الذي يفرضه عند مقارنة هذه المراحل بالأنظمة التقليدية المستقرة . اذ لا تعرف هذه الأنظمة او المجتمعات اشكال القيادة الكبيرة، لأن هذا النوع من القيادة يعني حرية الإرادة الإنسانية في صنع ذاتها ، صنع مجتمعها وصنع التاريخ، وتلك المجتمعات تنفي هذه

الحرية لأنها مجتمعات منسجمة متناسقة تضبط السلوك والفكر والمشاعر بأنظمة وقيم وروابط مستقرة ثابتة توجه الإرادة وتحدد لها ما يجب وما لا يجب صنعه. لذلك كانت التحولات الاجتماعية التاريخية ، الأزمات والتناقضات الكبيرة شرطاً أساسياً في ظهور أشكال هذه القيادة .

البلد المستعمَر هو أيضاً ، وللسبب ذاته، بلد لا يعرف هذه الأشكال القيادية الكبيرة . الولايات المتحدة وبلدان أميركا الجنوبية لم تعرف هذه الأشكال عندما كانت تخضع لسيادة خارجية ، ولكنها تعرفت عليها عندما قطعت علاقتها مع تلك السيادة عن طريق الثورة . ففي تمردها على هذه السيادة أفرزت هذا النوع من القيادة . القيادات الكبيرة التي عرفتها الولايات المتحدة فيما بعد كانت، كما رأينا في فصل سابق، تلك التي رافقت ازمات وتحولات داخلية كبيرة . إن التمرد على السيادة الاستعمارية يسمح للشعب المستعمَر بأن يتنفس بحرّية ويُقدم على مجابهات وتحديات تفرض أعمال الخلق وبالتالي القيادة الكبيرة التي تعبر عنها. لهذا كان البلد المستعمَر بلداً دون قادة كبار يستقطبون الشعب ويثيرون خياله ومشاعره ، لأنه بلد " يعتمد " على إرادة الغير، والقيادة الكبيرة لا تستطيع أن تبرز في جو من هذا النوع لأن معناها هو إرادة عامة حرة تعبر عنها.

تعبر كندا عن هذه الظاهرة من زاوية أخرى . فهي بلد دون قادة كبار أو قائد كبير يحرك خيالها فتستوحي سلوكه وأعماله وكلماته ، وتحتفل بذكرى ولادته ومماته ، ولكن كندا انتجت سياسيين كبار. السبب هو أن كندا لم تقطع علاقتها مع بريطانيا ثورة وتمرداً ، ولم تحاول أن تبني بشكل مستقل قدراً خاصاً بها . وينطبق الوضع نفسه على اوستراليا ، ونيوزيلندا . وتقدم الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفياتي، من زاوية أخرى، مثلاً آخر بسبب خضوعها لموسكو وخصوصا في المرحلة الستالينية . القادة الذين بلغوا مرتبة القيادة الكبيرة كانوا فقط الذين مارسوا مبادرة حرة في حروب ومراحل انتقالية ثورية ، تيتو، كاسترو، ماوتسى تونغ ...

هنا نرى أيضاً سبباً يفسر غياب القيادة الكبيرة في الوطن العربي عبر قرون عديدة من الحياة التقليدية المستقرة التي كانت تخضع لسيادة اجنبية ، وكيف أن هذه القيادة ابتدأت تظهر عندما بدأ العرب بالتمرد على هذه السيادة ، معاناة تحولات اجتماعية تاريخية كبيرة ، والتطلع الى نظام جديد.

لهذا إذا كانت السلطة المشخصنة تمارس أثراً فعالاً كبيراً في الأفكار والمشاعر، فيعود ذلك إلى دورها كتعبيرعن تحول يفرضه التاريخ في هذه الأفكار والمشاعر، وقد ينتهي هذا الأثر أثناء حياة القائد، عند وفاته، أو قد يمتد إلى المستقبل . ويرتبط ذلك بجذرية التحول أو معنى التصور الإيديولوجي الذي يمثله، وقدرتهما على خلق علاقة حية بالقضايا والتحولات التي يكشف عنها التاريخ فيما بعد .

٣- مراحل التحول الاجتماعي التاريخي تعني، كما أشرنا سابقاً ، تمزق وتبعثر العلاقات والأنظمة التقليدية. هذا التشتت لقواعد وقيم السلوك التقليدي يؤدي إلى ظهور مواقف ومصالح وأفكار واتجاهات متضاربة متناقضة يحاول كل منها توكيد ذاته على حساب غيره ، وتقديم الحل الذي يراه مناسباً . في وضع كهذا يصبح من العبث التوفق بشكل تلقائي إلى موقف موحد يلتقي فيه المجتمع ككل

أو الثوريون أنفسهم . و لكن بما أن هذا التمزق لا يمكن أن يستمر لما في ذلك من هدر للطاقات والموارد المتوفرة، ومن ضعف في التغلب على المشاكل والتحديات التي تجابه المجتمع المتحول، وبما أن الحاجة إلى تجاوز هذا التشتت تزداد إلحاحاً مع ازدياد حدة تلك التناقضات وهذه التحديات و المشاكل واستمرارها ، فإن الوضع نفسه يفرض السلطة المشخصنة الكبيرة التي تستطيع بها قوى التحول الجديدة أن تفرض هذا التجاوز. توفر هذه السلطة للشعب صعيداً يعلو فوق هذه الانقسامات، وقاعدة يجد فيها وعبرها مخرجاً أوأداة للخروج من هذا التمزق . وبما أن خلق واستقرار الأنظمة والمفاهيم الجديدة ، التي يتجاوز فيها المجتمع المتحول هذه التناقضات، تحتاج الى وقت، فإن السلطة المشخصنة التي تمثل الإرادة العامة ، ارادة التحول إلى نظام جديد، تصبح " قدراً " مفروضاً كما رأينا في الفصول السابقة . رجوع الاتجاهات السياسية المختلفة فيما بعد إلى القائد- الرمز الذي عبر عن ورافق تلك المراحل في أطوارها الأولى- الأطوار التي تجاوزت فيها التناقضات والمشاكل التي واجهتها إلى درجة استطاعت بها إقامة أسس النظام الجديد- بغية الاستشهاد بأقواله وأعماله في توفير الشرعية لنفسها، يدل بوضوح على دور التوحيد الذي تمارسه السلطة المشخصنة .

لم يكن جافرسون مثلاً، من بين الذين شجعوا على عبادة واشنطن ، بل حاول التنبيه الى مخاطرها، كما أنه كان من أكبر مفكري القرن الثامن عشر المتحررين . ولكنه حاول، في رسالة إلى واشنطن عام ١٧٩٢، إقناعه بضرورة قبول الرئاسة مرة ثانية لأن استمرار الاتحاد يرتبط بذلك .

٤- تتم مراحل التحول الاجتماعي السياسي في مجتمع تتمزق فيه السلطات التقليدية ، ولهذا فهو يحتاج إلى سلطة مركزة ، تستطيع أن تضبط هذا التمزق وتخلق إرادة سياسية فعالة يمكن لها تعبئة موارد وطاقات المجتمع ودفعه نحومصيره الجديد . كتب جون ستيوارت ميل حول هذا الموضوع " بأنه ليس من المحتمل لشعب ... لم يعرف الطاعة المستقرة الثابتة لسلطة عليا، أن يحصل على هذه العادة في ظل حكومة جماعية تمثله . إن جمعية تمثيلية تمثل أجزاءه المختلفة، تعكس فقط تمرده المتقلب " . يعجز المجتمع الممزق عن تحقيق وحدته بطريقة ديمقراطية تمثيلية، حتى وإن كانت الأجزاء التي يتبعثر فيها ديمقراطية محلية فعالة . " إنني لا أعرف أي مثل تاريخي استطاعت فيه هذه الذرات أو الخلايا السياسية ان تتحد في كيان واحد، أو أن تتعلم بأن تكون شعباً واحداً، دون خضوع سابق لسلطة مركزة تشملها جميعها ". ثم يتابع وهو فيلسوف الليبرالية الغربية . فيصف أوضاع التخلف الاجتماعية والسياسية والفكرية التي تحول دون هذا النوع من الديمقراطية ، ثم يكتب " تقوم أفضل إمكانية لاصلاح حالة شعب في أوضاع كهذه على وجود سلطة غيرمحدودة دستورياً ، أوعلى الأقل متفوقة ، تتركز في يد قائد فرد . فقائد من هذا النوع يكون له وحده ، بسبب مركزه ، مصلحة في تحسين ورفع مستوى الجماهير التي لايحسدها، كقوة موازنة لشركائه والقادة الآخرين الذين يحسدهم " . عندما لا يتوفر قائد- رمز، من هذا النوع، الذي يتكلم عنه فيلسوف الليبرالية ميل، الذي يستطيع كسب ولاء الشعب دون غيره من القادة، الذي تلتف حوله الجماهير الجديدة التفافاً ديناميكياً فيعلو عن طريق ولائها له فوق القادة الآخرين، فإن هؤلاء يتنافسون حول

السلطة ، ويبعثرون طاقات وموارد الشعب في هذه المنافسة. وضع كهذا يحول البلاد إلى حالة مزمنة من الاضطرابات والانقلابات وعدم الاستقرار السياسي كما نرى في كثير من بلدان العالم الثالث .

يشير كثيرون الى الخطر الكامن في ممارسة سلطة قوية ، مركزة، أو غير محدودة دستورياً ، وكيف أن هذه السلطة تفسد الذين يمارسونها . ولكن في المراحل الانتقالية التي تجابه تحديات داخلية وخارجية كبيرة، أزمات وتناقضات جامعة ، لا يكون الخطر الحقيقي خطر سلطة من هذا النوع، بل سلطة لا تكون قوية أوكافية في مواجهة هذه التحديات والأزمات، سلطة لا تستطيع مجابهتها بفاعلية، لأنها محدودة ومقيدة . فقد يكون القائد الذي يمارس سلطة غيرمقيدة هو الذي يهيء الطريق لديمقراطية دستورية ، وذلك لأنه يكون قد مهد الطريق لها بالتغلب على تلك التحديات والأزمات. لهذا كانت هذه الأخيرة تقود إلى هذه السلطة وتفرضها . المسألة ليست إذن هل نريد أو لا نريد هذا النوع من السلطة ، بل أن ندرك طبيعة الأوضاع التي تظهر فيها، لأن هذا الادراك وحده يوفر لنا درجة من الحرية في الحد من امتدادها. عندما تبلغ التحديات والأزمات والتناقضات والضغوط درجة معينة من الاتساع والحدة، فإن هذه السلطة تفرض ذاتها، كل المراحل الانتقالية ، كل التحولات الاجتماعية التاريخية الجذرية تدفع دفعاً إلى هذا النوع من السلطة . الأزمات المستمرة وإن كانت محدودة تدفع هي الأخرى في هذه الطريق . نمو السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية في الديمقراطيات الغربية ، وامتدادها الى ابعاد واسعة تزداد اتساعاً مع الوقت واقعة تدل بوضوح على ذلك .

لم تحل الجمهورية الرابعة الأزمة التي عانتها إثر انهيار امبراطوريتها عن طريق حوار بين الأحزاب البرلمانية، بل باللجوء الى رجل عسكري يتمتع بدرجة عليا من شخصنة السلطة في أوساط الشعب، أرادت منه ليس فقط أن يحل الأزمة ، بل أن يعيد الى البلاد نظاماً حكومياً فعالاً يستطيع ممارسة مهماته الحكومية .

حالة الخطر التي أحاطت ببريطانيا عام ١٩٤٠ عندما كانت البلاد مهددة من الخارج كانت سبب قيادة تشرشل غير المقيدة، وأثارت دون شك التجاوب العميق الذي حققه الشعب معها. وقد تميزت هذه القيادة، بدرجة عليا من الشخصنة بسبب هذا الخطر ، ولأن تشرشل استطاع ، من ناحية أخرى، أن يجسد إرادة عدم الاستسلام والتصميم الحازم على القتال حتى النصر. ولكن تشرشل، كما تدل تجارب ما قبل الحرب وما بعدها، لم يكن بالقائد الذي يستطيع الهام الجماهير، إثارة مشاعرها واستقطابها .

الخطر الذي أحاط ببريطانيا في الحرب العالمية الأولى قاد أيضاً إلى " دكتاتوتورية " لويد جورج . كما قادت الحرب نفسها الى " دكتاتورية " كليمنصو في فرنسا .

وقيادة فرانكلين روزفلت التي بلغت درجة عليا من الشخصنة كانت تعود إلى الأزمة الاقتصادية الخانقة التي كادت أن تسحق النظام الاميركي في اوائل الثلاثينات. قيادته التي استطاعت إيحاء الأمل والثقة أدّت إلى ردود فعل كاريسمية عند جماهيرغفيرة. وهكذا دواليك ! ...

البلدان الغربية تستطيع حالياً أن تقدم نظاماً واسعاً من الحرية المدنية والسياسية بالضبط لأنها بلدان مطمئنة إلى سلامتها واستقرارها .

تجابه بلدان العالم الثالث حالياً أزمات وتحديات وتناقضات مرحلة انتقالية هائلة ، ولهذا نرى في كل مكان أن شخصنة السلطة تفرض ذاتها بدرجات عليا من التركيز . الحل الغربي الديمقراطي ليس بالحل الذي ينسجم مع طريقها ، مع ديناميك هذه المرحلة ، لأنه يعني حريات ومعارضة سياسية، وأحزاب عديدة متناقضة ومتخاصمة . ولكن الحاجة الاساسية في هذه البلدان ليست الى هذا النوع من الحريات، بل الى المزيد من الانضباط والنظام والعمل الصعب المتعب، إنها الحاجة إلى وحدة قومية جديدة وأساسية لمقاصدها الحديثة ، وهي حاجة لا تسمح " ببعثرة قواها، وطاقتها، وإرادتها في ثنائية سياسية " . وبدلاً من ذلك " فإن الحزب الواحد يمارس الدكتاتورية، دكتاتورية الشعب " .

تتسع المرحلة الانتقالية بتناقضاتها وانقساماتها للأحزاب المتعددة المتعارضة، بل تتطلب وحدة قومية جديدة تدمج كافة القوى والكفاءات والموارد والطاقات في اتجاه واحد ، إنها حاجة ملحة بشكل خاص في تلك البلدان التي تضم الكثيرمن الوحدات القبلية، الأثنية، الدينية، اللغوية، المتناقضة المتخاصمة التي تزيد من الانقسامات وبعثرة القوى التي تترتب على المرحلة الانتقالية. في مرحلة من هذا النوع يصبح من الصعب جداً ، إن لم يكن من المستحيل، عمل الديمقراطية المتعددة الأحزاب . " إن الدكتاتورية تقترن في التاريخ بمراحل التحولات السريعة".

تقوم الدكتاتوريات في المجتمعات القديمة أو الزراعية التقليدية عندما تتعرض لعملية التحول التقني، لأن آثار هذه العملية تعمل في وجهة واحدة ، وذلك خلافاً لما يحدث لها في مجتمع صناعي متقدم حيث تكون متناقضة . من ناحية ثانية ، هناك تحولات أخرى ، أي غير التي تحدث عن تقدم تقني صناعي ، كالأزمات الاقتصادية ، والحرب ، والمخاطر الخارجية، والاضطرابات الداخلية يمكن أن تؤدي إلى النتيجة نفسها . المرحلة الانتقالية في العالم الثالث تجابه جميع هذه المشاكل دفعة واحدة .

لا تشتق الطريق الى ديمقراطية سياسية تمثيلية من أنظمة تمثل هذه الديمقراطية وتنظمها، بل من تحولات اجتماعية اقتصادية وإيديولوجية تخلق الأوضاع المناسبة التي تجعلها ممكنة. من ناحية أخرى، لا تشتق السلطة المشخصنة القوية من فرضيات نظرية أو مفاهيم إيديولوجية تقول بها وتدعو إليها، بل من ضرورات موضوعية تعكس عادة مراحل تحول اجتماعي تاريخي سريع. فهذه الضرورات هي التي تفتح الطريق أمامها وتقود إليها. أما الفرضيات والمفاهيم فتأتي كي تقدم لها الشرعية وتعقلنها.

وكان جون ستيورات ميل قد كتب بأن قبول الاستبداد السياسي أمر له ما يبرره ، ولكن على شرط " أن يستخدم الدكتاتور جميع السلطة التي يمارسها في إزالة العقبات التي تمنع الأمة من التمتع بحريتها ". في حديثه عن شعوب لا يزال أمامها " بعض التجارب التي يجب أن تتلقنها أو بعض العادات التي يجب أن تمارسها "، يشيرميل الى بعض الأمثلة التاريخية التي لا تكشف فقط أن حكومة غير تمثيلية تكون واقعاً لا يمكن تفاديه ، بل على كونها تشكل أيضاً نظاماً أفضل من النظام التمثيلي . وفي معرض تحليله للأوضاع

التي تناقض الحياة الديمقراطية التمثيلية وتنفيها، نراه يكتب بأن عدداً كبيراً من الشعوب خرجت من هذه الأوضاع تدريجياً عن طريق سلطة فردية مركزة، خاصمت و فرضت نفسها في النهاية على المستبدين المحليين . قائد من هذا النوع " يضطر نتيجة ضرورات الواقع الى أن يمارس سلطته كحليف ، وليس كسيد، للطبقات التي يعتمدها و يساعدها في تحقيق تحررها. سلطة مركزة كهذه ، أوتوقراطية من حيث المبدأ، ولكن محدودة ، في الواقع، من ناحية عملية ، استطاعت أن تكون أداة في دفع الشعب عبر طور ضروري من الإصلاح والتصحيح ، تعجز السلطة التمثيلية عنه ، وتمنع ، في الواقع ،الشعب حتى من دخوله ، إذا كانت حقاً ذات تركيب تمثيلي " .

هذه الاوضاع هي التي تفسر ظهور الأشكال المختلفة من القيادة المشخصنة التي نراها في العالم الثالث. ان مشكلة حكومات بلدان هذا العالم أمام التحديات الكبيرة التى تكشف عنها المرحلة الانتقالية " ليس في كونها قوية جداً، بل في كونها ضعيفة جداً . إنها كانت محدودة النجاح في تحقيق التحولات التي تلتزم بها بالضبط لأن قوتها محدودة . من الواضح أن حكومات الدول الجديدة يجب أن تمارس سلطة أكبر، هذا اذا ارادت ان تحقق التحولات الضخمة التي تفرضها التعبئة الاجتماعية . ولكن لا يكفي أن تمتلك الحكومة سلطة كبيرة، بل يجب أن تكون هذه السلطة مركزة جداً . فدون هذا التركيز لا يمكن تعبئتها بسهولة ". وهذا ضروري في مجابهة صعوبات المرحلة الانتقالية، " لأن الحكومة التي تستطيع تعبئة قوتها بسهولة تزيد من قدرتها على الحركة، تعززكفاءتها في تطبيق الضغوط الضرورية في الأمكنة المناسبة ، في الوقت المناسب، مما يسمح لهذه الضغوط بأن تكون أكثر فاعلية . ثم انها تستطيع بذلك ، وقبل كل شيء، أن تعمل بسرعة أكبر في سيادة القوى المبعثرة " .

هذه المرحلة الانتقالية في العالم الثالث ليست الأولى من نوعها في العصر الحديث. فلقد عانت اوروبا مرحلة مماثلة عندما دخلت هذا العصر، وهي مرحلة عبرت عن ذاتها أيضاً في أشكال واضحة قوية من شخصنة السلطة . هذه المراحل في التاريخ كانت تفرض باستمرار هذا النوع من السلطة. وقد صاغ اتسبنجلر، كلمة " قيصرية " في وصف نوع القيادة التي تبرز عندما يكون نظام الدولة في مرحلة انتقال . ملوك النظام الاقطاعي مارسوا الدور الموحّد نفسه عندما كان هذا النظام في مرحلة مماثلة ، فعبروا بذلك عن أول " قيصرية " في العصر الحديث. إيفان الثالث، وفرديناند أوف آراغون كرسا جهودهما من اجل خلق مجموعة من الأتباع للاستخدام ضد الأرستقراطية السائدة . هنري السابع، ولويس الحادي عشر حققا الدور نفسه بالنسبة لانكلترا وفرنسا. كما قام ملوك آخرون بالدور نفسه في البلدان الأخرى .

في أواخر القرون الوسطى كان القانون في أوروبا يُعرف كقانون إلهي ، طبيعي ، عقلاني، عمومي، أوكتقليد، ولكن في جميع هذه المفاهيم كان القانون يُحدد كسلطة خارجية ثابتة تضبط السلوك الإنساني . فهو ثابت مستمر وأساسي، لا يقبل التغيير . الوجه الآخركان بالتالي رفض السيادة الانسانية (Sovereignty)، لأن السيادة النهائية هي سيادته وليس سيادة الملك ، النبلاء أو الشعب. وكان هذا يقود الى تعدد السلطات الإنسانية إذ ليس هناك من سلطة واحدة تشكل المصدر الوحيد للقانون . على

الانسان أن يطيع السلطة ، ولكن هذه الأخيرة كانت تعبر عن ذاتها في أنظمة عديدة ، الملك ، البرلمان، الكنيسة ، التقليد، البلاط ، الشعب .

هذا المفهوم وما ينطوي عليه من توزيع للسلطة كان يتعارض مع ديالكتيك التحديث السياسي الذي كان يحتاج إلى وحدة السلطة في إحداث ما يفرضه من تغييرات أساسية في السياسة والمجتمع، وهي سلطة كان يجب أن تتركز في فرد واحد أو جماعة واحدة محددة. عملية التحديث التي بدأت في القرن السادس عشر فرضت مفاهيم جديدة حول السلطة كان أهمها فكرة السيادة نفسها، الفكرة التي أصبحت تقول في عبارة بودين " بأن هناك سلطة عليا فوق المواطنين والرعايا، غير محدودة بالقانون ". وتبلورت هذه الفكرة في النظرية الجديدة التي برزت في ذلك القرن والقائلة بحق الملوك الالهي ، وبذلك استخدمت أشكالاً دينية سابقة في خدمة مقاصد حديثة. " إن حق الملوك الالهي " كان ، في الواقع ، في وجهه السياسي ، تعبيراً شعبياً لنظرية السيادة ". هذه النظرية التي ظهرت في فرنسا بعد عام ١٥٩٤، ودخلت بريطانيا عن طريق جايمس الأول، خدمت بشكل ممتاز مقاصد ملوك القرن السابع عشر في قيادة عملية التحديث لأنها اعطت مصادقة " الكلي القدرة " لمقاصد ذوي السلطة . " كانت طوراً انتقالياً ضرورياً بين سياسة القرون الوسطى والسياسة الحديثة " .

واعطى المفكرون السياسيون آنذاك ، من أمثال بودين ، وهوبز، بشكل خاص ، مفهوم السيادة المطلقة لشرعية سياسية جديدة تعبر عنها سلطة ملكية عليا مركزة تحافظ على النظام وتعلو فوق الأحزاب والشيع والجماعات المختلفة التي توجد بارادة منها . كتاب بودين " الجمهورية " صدر عام ١٥٧٦، وكتاب هوبز " ليفياسن " (Leviathan) بمفهومه الأكثر توكيداً على السلطة المطلقة صدر عام ١٦٥١ . في هذا المفهوم الجديد حول السيادة أصبحت الدولة تشكل وجوداً مستقلاً عن الفرد، العائلة، والملكية نفسها. وقد برر ملوك القرن السابع عشر أعمالهم وسلطتهم المطلقة باسم الدولة (Raison d,etat) التي كانوا يمثلون .

أهمية مفهوم السيادة في وجهيه ، الدينى والعلماني، على طريقة بوسيه وفيلمر، او على طريقة بودين وهوبز، كانت في تحديده اطاعة الملك كواجب مطلق للمواطن . ساعدت النظريتان التحلإيث السياسي في اضفاء الشرعية على تركيز السلطة ، وعلى انهيار نظام القرون الوسطى المتعدد .

لهذا أشار بعض المفكرين بأن النظام الملكي المطلق في القرن السابع عشر قام بدور يماثل الحزب الواحد في القرن العشرين . أما دور الملك فكان يماثل ويرادف دور القائد " الكاريسمي " في الحركات الثورية. توزيع السلطة الذي رافق القرون الوسطى أعطى مكانه لتركيزها في يد الملك في القرن السابع عشر . " في بداية ذلك القرن كان كل بلد في العالم الغربي ، من هنغاريا الى إرلندا، ومن البرتغال إلى فنلندا ، يملك جمعيات تمثيلية . ولكن في نهاية القرن كانت قد زالت أكثرية هذه الجمعيات أو انحسرت سلطتها ".

وادت الصراعات بين السلطات المحلية ، والاختلافات الدينية ، وظهور طبقات جديدة، والمنافسة بين الملك والمجالس التمثيلية ، الى حروب أهلية متواصلة . فرنسا وحدها عانت ثماني حروب في فترة لا تتجاوز ٣٦ عاماً ، بين عامي ١٥٦٢ و١٥٩٨. دفعت هذه الحروب والصراعات الداخلية الى المطالبة بسلطة مركزية قوية تستطيع أن تحافظ على النظام العام . وقد كشف انهيار وحدة المجتمع التقليدي عن قوى جديدة متناقضة كان لا يمكن استمرارها في هذا التناقض . الدولة كانت الأداة في خلق وحدة جديدة .

السلطة المركزة القوية والمعقلنة كانت آنذاك ، كما نرى الآن في المرحلة الانتقالية التي تعانيها بلدان العالم الثالث، واقعة تفرض ذاتها لأنها ضرورية ليس فقط للحفاظ على وحدة المجتمع وتجديدها بل لأجل تحقيق التقدم أيضاً . معارضة حركة التحديث كانت تصدر عن المصالح التقليدية، من دينية ، ارستقراطية ، ومحلية ؛ وتركيز السلطة كان ضرورياً في تدمير هذه المصالح ، هذه الامتيازات والقيود الإقطاعية، وفي تمهيد الطريق أمام ظهور طبقات ونشاطات اقتصادية جديدة. لهذا كان دعاة التحديث والقوميون في أوروبا يؤيدون عادة تركيز السلطة في يد ملك، تماماً كما نرى الآن دعاة التحديث ، الوحدة القومية والثورة على النظام التقليدي يؤيدون غالباً تركيز السلطة في حزب أو في يد قائد كاريسمي يقود الحزب .

ولكن بما أن حركة التحديث والتصنيع في العالم الثالث تعني ، خلافاً لما حدث في الغرب في تلك المرحلة المماثلة ، حلاً أكثر جذرية لتناقضات اجتماعية كبيرة ، فإن هذه الحركة تتطلب، في الواقع، درجة أعلى من تركيز السلطة . عملية التحديث والتصنيع في الغرب اتخذت، من ناحية أخرى، عدة قرون وكانت تسير ببطء منتقلة من صعيد إلى آخر. ولكن هذه العملية تتخذ في العالم الثالث دينامية اخرى لأنها ذات طابع شمولي يتسرب إلى جميع أبعاد ومستويات المجتمع، ويحدث دفعة واحدة دون تدرج .

وتواجه بلدان العالم الثالث جميع أزمات وتناقضات التحول من مجتمع زراعي إقطاعي ديني إلى مجتمع صناعي علماني ديناميكي حديث . التوحيد القومي ، علمنة الدولة والمجتمع ، سحق الطبقات التقليدية، إنشاء الدولة القومية، عقلنة الإدارة والنظام السياسي ، تعبئة الشعب في ولاءات وانتماءات جديدة ، تحريره من الايديولوجية الغيبية وتثقيفه بايديولوجية جديدة تنسجم مع وتعبر عن العصر الحديث ، التصنيع ونشر التعليم، التنمية الاقتصادية وتحسين مستوى المعيشة، تحرير المرأة، تحقيق المشاركة الشعبية السياسية، التنظيم والتعبئة الاجتماعية ، الخ ... هذه المشاكل متشابكة في زمن واحد، وهي تفرض تعبئة جميع القوى والموارد المتوفرة، ضبطها وتوجيهها في خدمة عملية التحديث. لهذا فإن هذه التعبئة تأخذ شكلاً أشد وأكثر عنفاً بكثيرمما حدث في المرحلة الانتقالية المماثلة في الغرب .

كل مرحلة اجتماعية تاريخية انتقالية تفرز نظاماً سياسياً عاماً ينظر إليه معاصروه كنموذج يجب تقليده في معالجة القضايا والحاجات التي يواجهونها. فقد افرزت أزمة الانتقال من مجتمع القرون الوسطى اولا الملكية المطلقة ، وكان نموذجها العام هو النظام الملكي الفرنسي البوربوني . كان هذا النظام نموذجاً لتلك المرحلة الأولى ، لأنه كان يقلد عن وعي وسابق تصميم في بلدان أوروبا التي رأت فيه أداة

فعالة في معالجة حاجات ومشاكل المرحلة. في الطور الثاني من المرحلة الانتقالية من مجتمع القرون الوسطى ، أو طور الانتقال من النظام الملكي إلى مجتمع بورجوازي ليبرالي، كانت الثورة الفرنسية النموذج العام الذي فجر في كل مكان من أوروبا الحركات الثورية التي تحاول تقليده. قبل ذلك ولمدة قرن بكامله كانت الحركات التقدمية في أوروبا تجد في " ويستمينيستر " النموذج السياسي العام الذي يدعو الى هذا التقليد .

المرحلة الانتقالية الحالية التي تمر فيها بلدان العالم الثالث تجد هي الأخرى نموذجاً لها تقلده وتستوحيه في ملامحه الكبرى . فالكرملين كان ولا يزال- وإن كان بشكل محدود أكثر - هذا النموذج العام لكثيرمن بلدان العالم الثالث التي تعاني هذه المرحلة بحدة ، لأن الحاجة الأساسية التي تواجهها هي تكثيف السلطة وتركيزها وليس توزيعها، سحق نظام اجتماعي تقليدي والطبقات التي تسوده ، وليس الاستمرار فيه أو المحافظة عليه ، ولهذا فهي تجد نموذجها العام في موسكو وبكين وليس واشنطن أو باريس . " الديمقراطية والرأسمالية لا تصلحان كوسائل دفع ثوري، لأن هناك بعض التحولات التي لا يمكن لهما السماح بها حتى وإن كانت ضرورية للتحديث " . ما يزيد أيضاً من حدّة الحاجة الى هذه السلطة المركزة والشديدة التركيز، هو أن الدولة القومية المركزة المستقلة التي تتميز بنظام حكومي فعال تقدمت على القومية وأن الاثنتين تقدمتا، بدورهما، على الديمقراطية ، وأن الاخيرة تقدمت على العلمانية التامة في التجربة الاوروبية، ولكن في المرحلة الانتقالية التي تسود العالم الثالث تأتي هذه التطورات كلها دفعة واحدة.

٥- لقد أشرنا مرات عديدة فيما سبق إلى شخصنة السلطة كأداة في خلق رمز يعبر عن اتجاهات ومفاهيم تحاول فيها التجربة الوحدوية والثورية ان تحقق ذاتها . يدل هذا النوع من التجارب على حاجة الناس ، في سبيل الكشف عن طاقاتهم الحماسية وتكريسها في خدمة قضية ثورية أو وحدوية الى الارتباط ببعض الرموز الحسية . القائد- الرمز هو أهم هذه الرموز التي ينجذب إليها الناس، في شخصنة المطامح والمقاصد والتطلعات التي ينشدونها. تلخص السلطة المشخصنة قيم واتجاهات التجربة الثورية أو المرحلة الانتقالية وتجعلها واضحة بشكل يستحيل على صعيد عام عن طريق العرض العقلاني أو النظري .

ويتحرك الناس بكل طاقاتهم وإمكاناتهم فقط عندما يوفقون الى رموز من هذا النوع تثير خيالهم وتستقطب مشاعرهم . قيادة جماهيركبيرة من الناس عن طريق الخيال لا تكون فقط أسهل بكثيرمن قيادتها عن طريق العقل، بل هي في الواقع الطريق الوحيدة الى قيادتها على نطاق واسع. من النادر أن تتمكن المبادىء السياسية والأخلاقية من العمل بقوة في العالم دون قدوة أو نماذج حسية. " عندما كان مجرى الأحداث يدعو الى تمجيد روح التقشف ، الروح الملكي ، أو الروح العسكري، كان يظهر دائما القديس ، الملك ، أو الجندي الكبير الذى يركز اتجاهات زمانه العمياء، يثير الحماس ، و يفتن خيال الشعب " . لولا الاتجاهات التاريخية الموضوعية التي تدفع نحو الوحدة أو الثورة لما كان باستطاعة السلطة المشخصنة أو القيادة الكاريسمية الظهور، ولكن لولا الأخيرة لما كان بإمكان الأولى أن تكشف عن هويتها بوضوح أو عن

كافة إمكانات الدفع والتحول فيها . هذا يعني أن طبيعة المرحلة الوحدوية أو الثورية تفرض القائد- الرمز او السلطة المشخصنة. فيما يلى نقدم عرضاً عاماً لأهم الأسباب التي تفسر هذه الظاهرة .

تفسر النظريات الاجتماعية العلمية الاحداث بالرجوع الى وقائع ، علاقات واتجاهات موضوعية وليس بالرجوع الى قوى إرادية . ولكن بما ان هذه الأخيرة أسهل منالاً وأقرب إلى إدراك الإنسان لأنها جزء من تجربته اليومية ، وتتخذ أشكالا حسية وعينية ، فإن الرجوع إلى القائد- الرمز في تفسير وضبط الأحداث يكون اكثر سهولة وقرباً من الانسان .

عندما نتطلع إلى ذاتنا، إلى أنفسنا، نشعر بدور المقاصد في تحديد سلوكنا ، وفي بعض الأحيان، وإلى حد ما، ننجح في تنفيذ بعض هذه المقاصد . هذا القدر من النجاح، وان كان محدوداً، يحدد نمط حياتنا. لهذا ليس من الغريب أن نجد الناس يربطون مجرى الأحداث بالارادة الفردية أو يجعلون حتى تحولات التاريخ ككل انعكاساً لهذه الارادة . هنا نجد بعض الجذور النفسية الأساسية " لعبادة البطولة " أو مفهوم " البطل " . بما أن الناس يجهلون عادة القوى الموضوعية العامة التي تؤثر في سلوكهم الفردي وتحدد إرادتهم، فإنهم يميلون في أكثريتهم الساحقة إلى الاعتقاد بأننا نتميز بإرادة حرة طليقة في تقرير أعمالنا، ونعزو بالتالي إرادة هائلة للقادة السياسيين .

يمنح الانسان في حياته اليومية، بشكل تلقائي " وغريزي" تقريباً ، الارادة لكل شيء يمارس تأثيراً قوياً عليه . يتآمر ضعف الوعي مع أسباب وعوامل أخرى في منعه من الارتفاع فوق تصورات تضفي صفات بشرية على المؤثرات الخارجية القوية التي يتعرض لها . هنا نجد مثلاً سبباً من أهم الأسباب لفكرة الله . فبدلاً من الرجوع الى اتجاهات وقوانين موضوعية عامة يعجز الوعي المحدود عن التوصل إليها واستيعابها ، أو حتى البحث عنها والانفتاح عليها، فإن هذه الفكرة توفر له تصوراً مجسماً (Onthropomorptic) يرى في إرادته السبب النهائي لما يجري من أحداث. هذا الضعف في الوعي الاناني يدفع الإنسان إلى تجسيم وتجسيد جميع الاتجاهات الفكرية والمجردات والتصورات السياسية والايديولوجية العامة في اشكال مادية حسية.

عندما يراقب الإنسان الحضاري سلوكه يرى بوضوح أن هذا القانون العام- أو الميل الى تجسيد المجردات في قوالب حسية - يسود هذا السلوك ليس فقط في المستويات الأخلاقية ، والسياسية والايديولوجية العليا، بل في الجوانب اليومية من حياته. فعندما يصطدم، مثلاً، بجدار، باب، أو حجر، الخ .. فإنه سيجد على الأرجح أن رده المباشر يكون كلمة أو إشارة غضب تتجه ضد الشيء الذي اصطدم به. ولكن العقل يتدخل ويضع حداً لذلك لأنه يعي أن الجدار، الباب، أو الحجر ليس مسؤولاً لأنه لا يتميز بأية إرادة أو وعي . ولكن هذا الرد التلقائي يكشف لنا في الوقت نفسه أن الفتشية (Fetichism) لا تزال " جزءاً " من العقل الإنساني .

كتب أرنولد توينبي مرة أن الكائنات الانسانية تبتسم عندما ترى كلباً يكسر أسنانه . على حجر يعضه لأن رجله ارتطمت به. إننا نفكر بأن الحيوان فقط يبلغ درجة لا عقلانية كهذه حيث يرى في شيء

غير حي كالحجر كائناً مسؤولاً يمكن إعطاؤه درساً أو فرض عقاب عليه . الامبراطور (Xertes) الذي أمر بجلد مياه الداردينيل كعقاب لها لأنها جرفت جسوره ، كسب لنفسه سخرية خالدة . إننا نشعر أن هذا العمل الصبياني لا يليق بكرامة إنسان راشد . الناس الناضجون لا يعضون الحجارة أو يجلدون الأمواج . و عندما تهاجمهم مخلوقات غير إنسانية فإنهم لا يشعرون بالغضب أو الاشمئزاز الذي ينتابهم عندما يهاجمهم إنسان . إنهم يحاولون فقط النجاة بحياتهم، تماماً كما يصنعون عندما يتعرضون لخطر النار، أو الفيضان . كذلك أيضاً لا يرى الناس أنه من العقلاني الامتعاض من أو إدانة سلوك إنسان خسر عقله أوأصبح خرفاً .

صحيح، كما يكتب توينبي، أن الناس الناضجون لا يعضون الحجارة !... يؤكد هذا " النضوج " ذاته لأن الإنسان يدرك موضوعياً أن الوعي ينقص الحيوانات ولذلك فهي غيرمسؤولة عما ينتج عن أعمالها من أذى . ولكن هذا النوع من النضج الموضوعي هو بالضبط ما ينقص سلوك الانسان السياسي والايديولوجي . فكي يتحقق له يجب عليه أن يُدرك " موضوعياً " العوامل والأسباب التي تؤثر في سلوكه وتسوده ، وهذا ما لا يكشف عنه عادة هذا السلوك في المستويات السياسية والأخلاقية والايديولوجية . لهذا نراه، مثلاً ، يشخصن السلطة ويرجع إلى " البطل " في تفسير الأحداث بدلاً من الرجوع إلى القوى والاتجاهات الموضوعية التي تقف وراءها.

عندما لا يكون الناس قادرين على الفكر الانتقادي، أو على تمثل المفاهيم والتصورات المجردة والانطلاق منها، عندما يكون العقل جاهلاً بوجود قوانين واتجاهات موضوعية عامة مستقلة عن إرادة الإنسان، فإن الايمان بقوى " غيبية " و " مشخصنة " يفرض ذاته . العقل العلمي الحديث، وخصوصاً في العلوم الطبيعية ، الذي كان كشفاً مستمراً عن سيادة قوانين وقوى موضوعية عامة مستقلة ألغى وجود عالم يسوده تدخل اعتباطي ، وضع نهاية للمعجزات ولدور القوى الغيبية. ولكن هذا العقل العلمي لم يهيمن بعد على السلوك الاجتماعي والسياسي ، فبقي الناس من ناحية عامة، يفسرون الظواهر السياسية بقوى إرادية وكأن القوانين والاتجاهات الموضوعية العامة هي التي تسود حركة التاريخ .

في تفسير الظواهر الاجتماعية التاريخية نرى أن الفكر الاجتماعي العلمي نفسه ينزلق باستمرار نحو معالجتها وكأنها " كائنات حية " بدلاً من اعتبارها، كما هي، علاقات انتظامية معقدة بين أعداد كبيرة من الناس، أي كأنظمة اجتماعية . هذا، كما يبدو، أمر يتجاوز قدرة الفكر الإنساني الحالي على الإدراك ، أو عجز أداة التعبير من لغة ومدركات وقدر كان .

.. إننا نتحدث عن أفكار، اعمال، مشاعر، انفعالات، مقاصد، مشاريع ، سياسة، الخ ... الدول، الحكومات، الشعوب، الأحزاب، النوادي ، الأديان، وأنظمة أخرى، وكأنها أشخاص.. هذا أسلوب اسطوري في التفكير لأنه يستخدم بشكل خاطىء قياس التمثيل (Analogy)، فيتكلم عن ظواهر غير إنسانية وكأنها، في الواقع، إنسانية، ولكنه في الوقت نفسه أسلوب يصعب ، كما يبدو، تجنبه. إننا نشخصن، في الواقع، هذه الظواهر لأن ذلك يشكل أقرب وسيلة في الكشف عما تنطوي عليه من حقائق عامة .

شخصنة السلطة هو من هذا النوع الذي لايمكن تجنبه وخصوصاً في المراحل الانتقالية التي تعني انهيار الانظمة السابقة . " العقل الانساني " كما يكتب هكسلي، " يعجز كما يظهرعن الهرب من غريزته العميقة في شخصنة مفاهيمه الفكرية " . تقدم السلطة المشخصنة صورة واضحة من السهل لكل فرد الاتصال بها والتجاوب معها لأنها حسية . الرمز هو في الواقع صورة تبسيطية أو دليل حسي على مجموعة كبيرة ومعقدة من التصورات، الأفكار، أو المفاهيم.

لا يستطيع الناس عادة رؤية المعاني، الأفكار، المبادىء، بشكلها المجرد أو الاكتفاء بصورتها المجردة، ولهذا فهم يعطونها الولاء في صور حسية . هذه السمة تسيطر على تاريخ الانسان في جميع مراحله . اما القول بأنها تقتصر على المجتمعات البدائية أو القديمة ، قول لا يتميز بأي قدر من الموضوعية لأن نظرة واحدة على العصر الحديث تكشف بوضوح أن ولاءات وانتماءات، تصورات وتطلعات المجتمعات الحديثة تتمحور باستمرار في صور ورموز حسية .

الدولة، مثلاً ، لاتستطيع ان توفر للفرد الاندماج السياسي المباشر الذي يحتاجه لأنها بعيدة عنه، علاقتها به علاقة معقدة ، غير مباشرة ، وذات طبيعة مجردة . كل ارتباط بوحدة اجتماعية، إيديولوجية، أو سياسية كبيرة، يحتاج الى رموز حسية، إذ دون هذه الرموز يصبح الارتباط فكرياً محضاً ومسألة مجردة ، وهذا ما يأباه الناس وبقدر " حجم الوحدة الاجتماعية السياسية التي ندرسها، بقدر ما تزيد، في الواقع أهمية دور الرموز الحسية في عملية التجاوب أو الدمج السياسي . توفر صورة السلطة المشخصنة الرمز الحسي الذي يحول المجردات السياسية إلى واقعة ملموسة ، إلى تجربة عينية . الانسان، كما كتب أحد المفكرين، كان يتميز بعينين طيلة أحقاب طويلة جداً ، قبل أن يتميز بالقدرة على الفكر أو الوعي المجرد. وفي العصر الحديث، عصر المطبعة والقراءة ، لا تزال الصور الحسية أقوى بكثيرمن الكتب في خلق ، وفي مجرى الحركات والتحولات الثورية .

تتحدد هوية الفرد، إلى حد كبير، بالرجوع إلى نماذج اجتماعية، إيديولوجية وسياسية مختلفة تقترن بها. هذا العامل يزداد أهمية في الاوضاع المعقدة والأزمات ومراحل التحول الاجتماعي السريع، حيث يحتاج الفرد الى هوية جديدة فيعمل على تقييم ذاته ، مركزه وموقفه بالإقتران بنماذج جديدة تساعده على اختيار قيمه وتحديد سلوكه.

تقوم الحركة الثورية بخلق شكل من أشكال الانضباط لا يمكن دونه لأي مجتمع البقاء او البقاء الفعال ، وهو انضباط يتحقق إما نتيجة ضوابط خارجية أو ضوابط ذاتية . ولكن المرحلة الانتقالية تعني بالضبط مرحلة تنهار فيها هذه الضوابط . في حالة كهذه تتوجب إقامة ضوابط جديدة. ولكن جميع الضوابط الذاتية كانت أولاً ضوابط خارجية ، وكي تنمو وتترسخ كانت تحتاج إلى فرضها من الخارج عن طريق الدولة ، التربية، التثقيف ، الخ .. هذا يعني سلطة خارجية تفرض ذاتها وتمارس في البداية ، على الأقل ، الضغط ، والقسر، والعنف الى ان يتم نمو الضوابط الذاتية ، او انشاء الانظمة والاطارات الايديولوجية الجديدة التي يُفترض بها أن تفرز مع الوقت هذه الضوابط . السلطة المشخصنة توفر،

وخصوصاً عندما تستطيع أن تستقطب وتكسب مشاعر الشعب- بشكل عفوي، أداة فعالة رئيسية يمكن ان توفر للناس طريقهم إلى هوية جديدة. وبما ان المراحل الانتقالية تعني انهيار الهوية التقليدية ، فإن الثورة لاتشكل فقط تحولاً جذرياً عن نظام سياسي اجتماعي سابق ، بل هوية جديدة تحل محل الهوية التقليدية وتعبر عن ذاتها في مفاهيم جديدة تحدد من جديد علاقة الفرد بالمجتمع والتاريخ والحياة نفسها . هذا التحول النفسي الفكري الجذري هو من أهم ما يمكن للمرحلة الانتقالية إفرازه من تحولات، وللثورة ان تحققه من إنجازات.

تشكل السلطة المشخصنة رأس جسر في هذا التحول، لأنها تشكل الرمز الحسي الذي تتبلور فيه وبالولاء له هذه الهوية. من الأسهل جداً على الإنسان الاتصال باسم أوصورة " المسيح، بوذا، ومحمد، " من الاتصال بتعاليمهم . من الأسهل جداً عليه رؤية أثينا بدلاً من عالم الأفكار الأفلاطونية ، مينيرفا بدلاً من العقل المجرد، ستالين بدلاً من النظرية الماركسية، روبسبير بدلاً من الإرادة العامة ، الخ ... الناس لا يغيرون هويتهم أو بالأحرى لا يقتبسون هوية جديدة عن طريق الكتب ودراسة النظريات المختلفة ، بل بسبب أوضاع اجتماعية ثورية تعدهم ، ونماذج عامة تدفعهم نحو ذلك .

في المرحلة الانتقالية، أو الوضعية الثورية ، حيث تكون الهوية الجديدة مبهمة ومائعة، تجسد أقوال وأعمال وتصريحات السلطة المشخصنة أو القائد- الرمز " الروح " العالي الجديد، وتعطي للسياسة الجاذبية الضرورية في استقطاب انتباه الشعب وتغذيته في وجهة جديدة . تدفع مراحل ووضعيات من هذا النوع الناس بأعداد كبيرة الى معاناة ما أسماه اريكسون، أحد علماء النفس المعروفين، بأنه " جوع- كاريسمي ".

يستطيع القليل من الافراد تحقيق مكانة عليا أونفوذاً كبيراً . ولكنهم يستطيعون ذلك بشكل بديلى (Vicariously) عن طريق قادتهم، لأنهم " يشاركون " في منجزاتهم ونجاحاتهم، فيشعرون بقيمة ذاتية عن طريق اقتران اسمهم باسم القائد أو الدور الذي قام به في التاريخ، فالثورة تعني، من ناحية أخرى ، موانع وصعوبات كبيرة هائلة ، ولهذا فإن نجاحها واستقرارها يضفيان على قائدها سلطة معنوية هائلة ، ويحولانه الى " صانع عجائب " في ذهن الشعب . ثم ان الاعتياد على سلطة القائد التي يكرسها نجاح الثورة ينمي الاعتقاد بأن القائد يعتمد شرعية تقليدية غيرطبيعية ، أو حتى إلهية .

ترجع شخصنة السلطة في جذورها الى الخيال الشعبي العام أو النفسية العامة التي تمارس عادة المبالغة في كل شيء ، ومن المبالغة تنتقل إلى تبسيط كل شيء . القائد- الرمز هو نتيجة هذا الميل الى المبالغة والتبسيط . هذه النفسية تنفر من الفروق الدقيقة ومن القضايا المعقدة . فالأحداث الكبيرة المتشعبة تصبح في يدها من صنع فرد أو بضعة أفراد .

كتب موريس توريز، الأمين العام الراحل للحزب الشيوعي الفرنسي ، بأن طبقة العمال لا تنفتح للشر الذي يسود الطبقات الوسطى الصغيرة وهو الامتناع عن الاعتراف بدور الأفراد . فواقعية العمال الطبيعية تلاحظ الفرد وراء العمل ، وتطيع الفرد وليس لقبه ، وتؤمن بالميزات الشخصية، لأن الإيمان

بالانظمة يعتمد على درجة معينة من الثقافة المجردة ، وهى صفة تميز الطبقات الوسطى . قبل ذلك فسّرلينين في " ما العمل ؟ " ان الوعي الاشتراكي الثوري يجب أن يأتي العمال من الخارج، وذلك لأن انشغال هؤلاء اليومي المستمر بعملهم وأوضاع هذا العمل أمر لا يسمح بنمو هذا الوعي عندهم . من ناحية أخرى ، نرى أن " ألان "، الفيلسوف الليبرالي الفرنسي، يكتب من جهته أن البورجوازي يعيش في دنيا الكلمات حيث تكون المشكلة مشكلة إقناع، بينما العامل يعيش في دنيا الأشياء التي تقاوم البيان والعبارات المنمقة ، وتخضع فقط للقوة.

هكذا نرى أن التطلع إلى الظاهرة نفسها من زاويتين إيديولوجيتين مختلفتين ، الزاوية الشيوعية والزاوية الليبرالية ، يصل الى نفس النتيجة وهي ان طبقة العمال لا تُعطي ولاءها لمجردات، وأنه كي يمكن كسب ولاءها أوتعبئة طاقاتها ، يجب شخصنة المجردات لها.

تكشف الفصول السابقة من هذه الدراسة عن خطأ مفهوم كهذا، وتدل بوضوح الى أن الميل الى شخصنة المجردات والأنظمة لا تقتصرعلى العمال بل تمتد إلى جميع قطاعات وطبقات الشعب. إن درجة الوعي الفكري والعلمي التى يمكن أن تتحقق من اجل أن يكون الارتباط بالمجردات والتصورات الايديولوجية ممكن دون الحاجة الى الرموز الحسية ، دون المرور بالشعارات والصور المبسطة، لا تنتج تلقائيا عن الموقع الطبقي الذي يميزه ، بل تتطلب تمرساً فكرياً وعلمياً طويلاً ، صعباً وقاسياً . لهذا كانت الحاجة الى الرموز والصور الحسية حاجة عامة تخترق جميع قطاعات المجتمع . ولهذا أيضاً كان توفر رموز وصور حسية واضحة ضرورة أساسية في كل تعبئة ثورية .

من بين أهم الأسباب التي حالت ، مثلاً ، دون الثورة الاشتراكية ضد النظام الرأسمالي في الغرب دون تعبئة ثورية للعمال ضده ، نجد تحول الطبقة الرأسمالية الى " تصور مجرد " ، الى صورة ذهنية !. التعقيد الذي اصاب تطور النظام الرأسمالي وتشعب هذا النظام الضخم حولا هذه الطبقة من واقعة مرئية ملموسة بشكل مباشر الى " مجرد " . فالشعب لا يتصل بالرأسماليين مباشرة، ولا يراهم . كما أن تطور المجتمع الرأسمالي جردهم من صورتهم الحية وحولهم الى فكرة. فكي يكتشف الفرد وجودهم يجب عليه ان يتحول الى باحث علمي تقريباً . هنا نجد احد الاسباب التي تفسر انحسار الصراع الطبقي مع الوقت ومع تطور النظام الرأسمالي . في حديثه عن الملكية في النظام الرأسمالي يكتب هارينغتون، المفكر الاشتراكي الاميركي المعروف. "... زوال ما يمكن تسميته بجوهر الملكية المادي ، كواقعة يمكن رؤيتها ولمسها، يؤثر ليس فقط في ميول من يملكها، بل في ميول العمال والشعب من ناحية عامة . الملكية الغائبة التي مُسخت طبيعتها وفقدت دورها لا تؤثر أو تستدعي الولاء الأخلاقي كما كان يصنع الشكل الحي للملكية".

في البلدان التي حدثت فيها الثورة الشيوعية، في روسيا، الصين وكوبا وفيتنام بشكل خاص، لم يكن العامل أو الفلاح بحاجة إلى البحث والدراسة أو حتى معرفة القراءة ، كي يتعرف على الإقطاعيين والرأسماليين الذين يستثمرونه ويسومونه العذاب . فهؤلاء كانوا واقعاً حياً يتعرف عليه في صوره المادية الحية المتحركة ، وغالباً ما يعرفهم باسمائهم ذاتها وفي حياتهم اليومية نفسها.

عندما يتساءل المفكر هايلبرونر لماذا بقي تركيب الامتيازات كما هو تقريباً في النظام الرأسمالي على الرغم من تعرضه للأفكار والمؤثرات الديمقراطية العامة التي تسود الشعب ، يجيب بأن ذلك يعود جزئياً الى كون هذه الامتيازات اصبحت محجوبة ، غير متطورة ، مما يجعل تحديدها أو تعيينها أمراً صعباً . وهذا يشل بطبيعة الحال إرادة الصراع ضدها .

كل منا يذكر، مثلاً، أسماء كولومبوس، ماركوبولو، فاسكودي غاما ، غاليلو ، كوبرنيكوس، نيوتن، أنشتاين ، الخ .. لا تزال هذه الاسماء حية في أذهاننا ، مثيرة لها ، ولكن معظم الناس، ومنهم المثقفون، لا يتذكرون أسماء الذين ذهبوا منذ بضع سنوات فقط إلى القمر، وهو الحادث الذي يشكل منعطفاً أساسياً في تاريخ العلم والعالم . السبب هو إن الوصول الى القمر كان عملاً جماعياً معقداً ، والطيارون الذين ذهبوا اليه كانوا جزءاً من عملية علمية كبيرة ومتشعبة. ولهذا فإن دورهم كان غامضاً ، وعملهم يتطلب، رغم اهميته الكبرى ، استيعاب طبيعته ذاتها كي نذكرهم . ولكن في أعمال نيوتن، غاليلو الخ .. كانت أساسياً اعمالاً فردية كبيرة .

تفسرهذه الجوانب العديدة التي اشرنا اليها الظاهرة التالية ، وهي انه في غياب القيادة المنظمة والمنظمة التي تستطيع ان تقدم ذاتها عن طريق قائد- رمز يعبر عنها و يجسدها ، لا يؤدي الاستياء الشعبي الى اكثر من انتفاضات قد تكون رهيبة الانفجار والقوة ، ولكنها مؤقتة وعابرة، يعبر فيها الشعب عن مشاعره المكبوتة دون ان تؤدي الى تغييرجذري للنظام الاجتماعي أو الى تحويل مهم فيه . قيادة من هذا النوع ضرورية لإعطاء الشعب المتمرد الوحدة، الاستمرارية والنفس الطويل . في دراسته لاسباب الدمج السياسي و التجزئة في افريقيا، يكتب هازلود: " الآن وقد أزيل أقوى دعاة العمل الراديكالي (نيكوروما، وبن بيلا) يكمل خطر زوال الحافز على التغيير الجذري " .

قادت الحملة ضد ستالين والستالينية الى نتائج هائلة في آثارها التاريخية. فقد دفعت بسبب ما تم تسميته آنذاك بأزمة السلطة السوفياتية الى التعجيل بظهور " الشيوعية القومية " ، و إلى أحزاب ترفض الاعتراف بالاتحاد السوفياتى كالنموذج الوحيد وبقيادته كدليل لها. كما ادت من ناحية اخرى، الى إعادة نظر في اللينينية نفسها وذلك عندما أخذ عدد من الماركسيين وقادة الحركة الشيوعية العالمية يشككون علانية ببعض المبادىء اللينينة كالحاجة الى حزب مركز وكلي السلطة يسود ويتحكم بالدولة . اهم مرحلتين في عملية انهيار وحدة العالم الشيوعي، وهما ازمة شرقي اوروبا عام ١٩٥٦، والأنشقاق السوفياتي- الصيني، نتجتا عن زوال القائد- الرمز لهذه الوحدة وتدمير اسطورته . وليس من قبيل المصادفة ان يكون العالم الشيوعي قد استطاع تحقيق وحدته فقط عندما توفر له قائد - رمز كان قادرا على ان يعلو فوق القادة الآخرين، ويستقطب مباشرة ولاء الشيوعيين في العالم .

هنا نجد أحد الأسباب التي كانت تدفع الحركات السياسية الثورية والدينية الى مضاعفة الجهد في توكيد دور القائد- الرمز بعد وفاته عندما تكون قيادته قد اقترنت بظهور الحركة ونجاحها . لقد رأينا ذلك واضحاً في التجارب الوحدوية التي قدمناها . هنا نشير ، على سبيل التمثيل، الى تجربة دينية

إضافية وهي التجربة المسيحية . يكتب توينبي : " ان المسيح لم يكن مسيحياً " . فقد كان يهودياً من حيث المعتقد والممارسة ، هذا على الرغم من أن كونه من الجليل قد يعني أنه كان من أصل غير يهودي . ليس هناك من دليل بأنه لم يكن يهودياً تقليدياً . مزاعم الألوهية التي ذكرت على لسانه في الاناجيل ليست برهاناً على هذا . إنها فقط برهان على أن الاتباع في الجيل اللاحق آمنوا بها " . فالمسيح ، لم يقدم نفسه ، إذن، في الصورة التي قُدم بها، والمسيحيون هم الذين رفعوا مكانته. بولس هو الذي أعلن ألوهيته ، والآخرون تبعوه فيها، لأنها كانت تحقق رغبة اساسية وهي إضفاء الشرعية على إيمانهم، وعلى تطلعاتهم العليا. الألوهية التى ميزوا بها المسيح تميزهم في الوقت نفسه عن غيرهم .

نخطىء كثيراً ونقع فريسة للوهم اذا افترضنا أن الأفكار والمفاهيم الخاطئة أو الاسطورية لا تؤثر في التاريخ . هذا مفهوم ساذج جداً . ما يؤمن الناس بأنه حدث أو يمكن أن يحدث قد لا يقل أهمية عما حدث ، وهو يزيد عليه أهمية في بعض الأحيان .

كان فولتير يرى أن " أبطال " الماضي كانوا يخلقون الأساطير التي تدور حولهم عن طريق الخداع والكذب ، وأن جان دارك نفسها، مثلاً ، كانت تزور الأعاجيب .

لا شك أننا نجد بين ابطال الماضي من كان يحاول عن طريق الكذب والخداع أن يخلق هذا النوع من الأساطير. ولكن تعميم ذلك خطأ فادح ، لأن السيادة التاريخية التي مارسها الكثيرون منهم، لا يمكن أن تجد تفسيراً لها في الكذب والخداع ، وهي، في سبيل أن تتغلب على الصعوبات الهائلة التي تعترضها، يجب أن تقترن بالصدق والأمانة للمبادىء التي يدعون لها. كون هذه المبادىء أسطورية من ناحية عقلانية أو موضوعية لا يعني أنها اسطورية في ذهن المؤمنين بها.

الناحية الأخرى المهمة التى يهملها تفسيركهذا هي السبب الذي كان يدعو هؤلاء إلى " اختلاق الأساطير" وإلى الكذب في ذلك . ما هي الحاجات التي كانت تسدها هذه الأساطير؟.. لماذا رأى هؤلاء الأبطال " حاجة إلى خلق هذه الاساطير و ليس الاقناع بأسلوب موضوعي عقلاني؟... ثم إننا عند مراجعة هذه الأساطير نرى عادة أنها كانت تتبلور وتشتد بعد موت " البطل " ، مما يدل بوضوح على كون أسبابها البعيدة تعود إلى التربة النفسية الاجتماعية التي تنشأ فيها، وليس إلى " أكاذيب البطل" .

هذا ما يفسر إلى حد كبيركيف أن من يعيش في ظل عبادة قائد معين، يرى لا عقلانية ومهانة عبادة كهذه في غيره ولكن ليس فيما يمارسه . لقد أشرنا في مكان سابق إلى تعليق سيدني هوك عندما قرأ مديحاً معيناً يتجه إلى ستالين، ورأينا أن عبادة من هذا النوع كانت، على الرغم من دهشة هوك، تشكل جزءاً من التاريخ الأميركي .

لقد رأينا أيضاً في مكان سابق كيف أن عبادة ستالين كانت طاغية ، مثلاً ، في أوساط المفكرين الشيوعيين في فرنسا. ولكن هؤلاء كانوا في نفس الوقت يعلنون أن عبادة القائد تشكل تقليداً فاشياً بورجوازياً ، امبريالياً ، الخ... غريباً عن الشيوعية . لم يتردد كونيو، مثلا، في الكتابة، وذلك اثناء موجة

من التمجيد الفريد لستالين كان يقوم بها مفكرين شيوعيين آخرين بمناسبة عيد ميلاده السبعين " بأن تمجيد القائد يمثل عنصراً من عناصر إيديولوجية الامبرياليين الرجعية ". والشاعر الكبير آراغون كان يكتب مفسراً كيف أنه ترك " السيريالية " واعتنق الشيوعية لأن " صوت توريز أعطانا القوة و على انتقاد أصنامنا السابقة والجديدة ". هذا في نفس الوقت الذي كان يكتب فيه مدائحه الفريدة في ستالين ، وفي موريس توريز نفسه ، سكرتير الحزب الشيوعي .. فقد كتب حول الاخيرمثلاً " إن الشعب الفرنسي العظيم وطليعته المناضلة، البروليتاريا، وجدا في موريس توريز التعبير البطولي والحقيقي عن قدرهم التاريخي " .

٦- توفر المراحل الانتقالية القواعد الشعبية العريضة ، لأنها تعني درجة عليا من التذرر الاجتماعي الذي يحرر الجماهير من قواعد السلوك وضوابطه التقنيدية ، فتجعلها بالتالي متوفرة للتعبئة الثورية الجديدة ، وتكشف عما تنطوي عليه من زخم عاطفي ، امكانات إيمان وتعصب ، تضحية واستشهاد. وتدل التجارب الثورية التاريخية بوضوح أنه كلما تزايدت القاعدة الشعبية اتساعاً ، تزايدت معها الحركة الثورية تبلوراً ثورياً ، زخماً وحدّة ، وإبرازاً للسلطة المشخصنة.

يتحرك الناس بشدة وقوة عن طريق المشاعر الكبيرة فقط ، ولهذا كانت القيادة الثورية تعبر عن هذا النوع من المشاعر . فإذا كانت الحركات الثورية بحاجة الى مفكرين يحددون هويتها الجديدة ويوفرون لها ما تحتاجه من أفكار، فإن هذه الهوية تتحول إلى واقعة حية عن طريق قادة يتميزون بعمق شعوري بعيد الجذور يعرفون كيف يتجهون الى " القلب " . الشعوب كانت تتحرك وتندفع بقوة صور وتصورات تستطيع أن تتجه إلى مشاعرها العميقة فتكشف عنها وتحفزها . هذه المشاعر العميقة الجارفة هي التى ترفع القائد – الرمز أو السلطة المشخصنة الى صعيد غير اعتيادي أو طبيعي . لهذا كانت هذه الشخصنة تتركز على النواحي الاخلاقية وليس النواحي الفكرية والعقلية ، كما أن القائد- الرمز الذي يعبر عنها كان يتميز بقدرة شعورية عميقة على توحيد الجماهير، وبإيمان قوي تستطيع تحريك مشاعرهم في وجهة معينة .

كان الفكر السياسي يرى لمدة طويلة أن مسألة الدعاية هى مسألة أفكار وآراء ، قصدها الأول نشر مفاهيم فكرية معينة . هذا المفهوم أصبح لاغياً وتجاوزته العلوم الاجتماعية والسيكولوجية الحديثة، وأظهرت خطله . فالدعاية لا تستطيع ان تكون فعالة و تحقق مقاصدها عن طريق النظريات والمفاهيم المجردة ، وهي إن أرادت ذلك وجب ان تتجه إلى المشاعر والرغبات.

تكشف تجارب التاريخ الثورية بوضوح، عن فشل المعتدلين عندما يتصدى هؤلاء لقيادة مراحل ثورية جذرية ويعود عجزهم الى فشلهم في التعبير عن المشاعر الشعبية العامة التي لا تعرف الاعتدال، وتقيس الأمور بمقاييس مطلقة في مراحل من هذا النوع . فهناك فضلاء وأشرار ولا مصالحة بين الطرفين . هذه المشاعر تحتاج، كي تعبر عن ذاتها، الى الصوت القوي الحازم المطلق .

لقد كان ميرابو قادراً ، مثلاً ، من ناحية نظرية محضة، أن يحول دون قيام المرحلة اليعقوبية في أول ثورة حديثة كبيرة، الثورة الفرنسية. ولكن ميرابو فشل لأنه لم يستطع مجاراة ديالكتيك المشاعر الشعبية. جميع قادة المرحلة الأولى من الثورة ، مرحلة " الاعتدال الجيروندي" مرحلة الملكية الدستورية ، من لافايات،

الى ميرابو ودي مولان ، الخ .. أظهروا عجزاً واضحاً في إدراك ذلك الديالكتيك ، وبالتالي فشلوا في قيادة الوضع . إن ما صنعوه ، مهم فقط كدليل على فشل الاعتدال في المراحل الانتقالية الجذرية . فالمشاعر العارمة التي تكشف عنها هذه المراحل لا تعرف التسويات الوسطى . ووجدت الثورة في الحركة اليعقوبية، القيادة التي تستطيع الالتحام بها والتعبير عن ديالكتيك هذه المشاعر ، والتي وصلت إلى السلطة لأن قادة المرحلة الأولى فشلوا في ذلك.

٧- الميول " الاتكالية " التي يكشف عنها السلوك الإنساني والتي أشار إليها كثير من المفكرين، تنحسر قواعدها في المراحل الانتقالية لأن الأنظمة والعلاقات العضوية التي كانت تعتمدها تكون قد انهارت، ولهذا فهي تفتش عن سلطة جديدة تعبر عنها . إن هذه الظواهر هي التي دفعت عدداً كبيراً من العلماء إلى الاستنتاج بأن أشكال السلطة المختلفة لا تعتمد أولاً على العنف أو احتكار وسائله، بل على ما يميز الناس بشكل عام من ميول اتكالية . فهذه الميول هي التي تدفع الناس الى منح ولائهم لقائد- رمز، وإلى إحاطته " بالعبادة " والتقديس في هذه المراحل الثورية.

يرى برغسون في الحاجة الى الخضوع والولاء لقائد أحد الأسباب الأولى التي أدت الى ظهور السلطة، فهذه الحاجة متأصلة في الانسان توجه سلوكه السياسي . إنه يتكلم " عن عادات الطاعة، سواء كنا نطيع شخصاً .. أو نظاماً غير شخصي . وحين نستطيع التملص منها نجد أنفسنا آنذاك منجذبين إليها ، منقادين لها ثانية كرقاص الساعة " . ثم نراه يضيف بأنه " يجب ان يكون هناك قائد إذ ليس هناك من مجتمع دون ذوي امتيازات يأخذون من القائد شيئاً من نفوذه " .

تارد فسر هذه الظاهرة بقوله إن " تفكير الفرد بشكل مستقل يكون دائما متعباً أكثر من تفكيره عبر عقول الآخرين " . دراسته المستفيضة للظاهرة القومية دفعت هايز بأن يتكلم " عن ميل الإنسان المتأصل فيه إلى عبادة البطل " .

إذا كان فرويد محقاً في تفسيرعلاقة الاتباع بالقائد، فإن قدرة الأخيرعلى ممارسة دور الأب هي التي تفسر سيادته عليهم . هذا يعني أن الناس يحتاجون إلى قائد يمارس سلطة غير محدودة تحل محل سلطة الأب أيام الطفولة. وفي كتاب " مستقبل وهم " كتب فرويد ان " الجماهيركسولة وغير ذكية.. وأنه فقط عن طريق التأثير الذي يمارسه بعض الأفراد الذين يستطيعون تقديم نموذج لها والذين تعترف بهم كقادة لها ، يمكن اقناعها بأن تقوم بما تحتاجه الحضارة من عمل وانضباط " . كان يجب على فرويد استخدام كلمة " الناس " بدلاً من " الجماهير " ، لأن ما يقوله يصدق على أكثرية الناس الساحقة ويخترق جميع القطاعات والمستويات، ولا يقتصر على واحد منها. ثم يضيف " ... بأن تنظيم الحضارة يصبح ممكنا فقط بدرجة معينة من الارغام لأن الناس لا يتميزون بمحبة عفوية للعمل ، ولأن الحجج غير نافعة ضد مشاعرها " . وجعل توينبي من الولاء للقيادة المشخصنة التي ترتبط بتصور عن المستقبل تتجاوز فيه الماضي ، الخط الفاصل بين الحضارة وبين مرحلة ما قبل - الحضارة . " إنني عندما تساءلت إذا كان من الممكن تحديد السمات التي تعبر عن الاختلاف القائم بين الحضارة وبين طور ما قبل - الحضارة....

استنتجت أن هذا الاختلاف ليس في وجود أو غياب الانظمة او التخصص في العمل ، أو ممارسة التقليد الاجتماعي . فهذه السمات كانت مشتركة في ثقافة المجتمع في جميع اطواره . الفرق هو أن التقليد في المجتمعات ما قبل- الحضارية التي بقيت حية حتى يومنا هذا كان يتجه نحو الأسلاف، بينما هو يتجه في المجتمعات الحضارية الحالية نحو شخصيات خلاقة تقوم بدور القادة نحو قصد في المستقبل " .

أما برتراند راسل ، فيذهب إلى أبعد من ذلك حين يكتب بأن " معظم الناس يشعرون أن السياسة قضية صعبة ، وأنه من الأفضل بالنسبة لهم أن يتبعوا قائداً، يشعرون بهذا غريزيا ودون وعي، كما تصنع الكلاب بالنسبة الى أسيادها . دون هذا يصبح العمل الجماعي صعباً ونادر الحدوث "، ثم يضيف بأن هذا يجعل " التعاون المتساويأصعب بكثير من السلطة الاستبدادية وأقل انسجاماً بكثير من الغريزة . عندما يحاول الأفراد التعاون بمساواة تامة ، يكون من الطبيعي لكل منهم بأن يعمل نحو سيادة تامة ، لأن غرائز الطاعة والخضوع تكون آنذاك مجمدة ، لهذا كان من الضروري تقريباً بأن تعترف جميع الأطراف المعنية بولاء واحد لسلطة خارجية " .

وقد استوقفت هذه الظاهرة الفيلسوف المؤرخ ، دافيد هيوم ، في القرن الثامن عشر ، فكتب " إن العقل الانساني يتميز بطبيعة تقليدية جداً " .

هذه الملاحظات كافية من اجل اعطاء فكرة عامة عن التفسير الذي يقدمه عدد كبير من المفكرين والفلاسفة لظاهرة القيادة والسلطة المشخصنة ، أو بالأحرى، السلطة في ذاتها . ولايتسع المجال هنا لمناقشة هذا التفسير، ولكن من الضروري الاشارة إلى أن ارجاع هذه الظاهرة (شخصنة السلطة، الولاء للقائد والاعتماد عليه) إلى الغريزة يشكل تفسيراً مغلوطاً تنكره العلوم الاجتماعية الحالية التي ترفض مفهوم الغريزة . أنها ظاهرة ترجع ، فيما ترجع اليه ، الى ميل نفسي اجتماعي ينشأ في الفرد والمجتمع نتيجة ديالكتيك الواقع الاجتماعي التاريخي ذاته ، أو نتيجة علاقة الفرد الديالكتيكية مع هذا الواقع . ولكنه ميل بين ميول أخرى بعضها ينسجم معه، وبعضها الآخر يتناقض معه . اما ما يتحقق منها وكيف يتحقق، ما يتقدم منها وما ينحسر وينكمش ، فأمورترتبط بطبيعة الوضع الاجتماعي القائم والتحولات الاجتماعية التاريخية التي تتفاعل معها هذه الميول ، أو بالأحرى التي يعانيها الفرد والمجتمع في مرحلة معينة . إننا نستطيع، في الواقع ، إذا تطلعنا إلى هذه العلاقة الديالكتيكية من جانب آخر، أن نحدد ميل الفرد الأساسي بأنه ميل إلى التمرد والثورة . كل ما يمكن قوله هنا هو أن ما أسميناه " بالاتكالية " يؤكد ذاته في المراحل الانتقالية ، ولكنه لا يستنزف الميول والرغبات التي تكشف عنها مراحل من هذا النوع. إنه فقط ميل واحد بين ميول عديدة .

ومن بين أهم التحولات التي أحدثتها السوسيولوجيا السياسية في المفاهيم الديمقراطية الغربية تبرز مسألة إعادة النظر في الصورة التقليدية حول الناخب ككائن عقلاني . فالاعتقاد كان سائداً حتى العقود الأولى من هذا القرن أن الناخب يمارس اختياراً مدروساً في انتخاباته ، وأن قراراته تأتي نتيجة تفكيرمتأن في القضايا التي يقترع حولها. ولكن هذه السوسيولوجيا كشفت بوضوح أن الناخبين يتجهون

إلى الانتخاب تبعاً لمواقف تبلورت فيهم قبل الحملة الانتخابية نفسها، وأن الانتخاب هو، في الواقع، تقليد يتبعه الناخب ، وليس قراراً حراً يقوم به .

لم تكشف هذه السوسيولوجيا فقط قلة الناخبين الذين يغيرون رأيهم نتيجة الحملة الانتخابية وما توفره من مناقشات ووقائع ، الخ .. أو حتى بين انتخاب وآخر، بل دلّت أيضاً على درجة عليا من اللامبالاة بين الناخبين، وإلى ان هؤلاء يجهلون القضايا والمشاكل التي يقترعون حولها.

أشرنا أكثرمن مرة بأن ظواهر هذه اللامبالاة الفكرية والسياسية لا تقتصرعلى قطاع من الناس دون آخر، بل هي ظاهرة اجتماعية عامة . هنا تجدر الاشارة الى ما خلص إليه اشبنجلر في هذا الصدد بعد دراسته للحضارات التاريخية . انه يكتب : " إن التلفظ ، بالكلمة الصحيحة (وفي الفيزياء، بالمدرك الصحيح) هو عبارة سحرية. فمفاهيم العلم الأساسية ، والآلهة ، تأتى أولاً كأسماء شفهية ترتبط بها فكرة معينة ، وتميل الى اتخاذ شكل حسى يزداد بروزاً مع الوقت. ان التلفظ المحض بـ " الشيء في ذاته "، " الذرة " ، " الطاقة " ، " الجاذبية " ، " العلّة "، " التطور " ، الخ.. يحمل بالنسبة لمعظم المثقفين نفس الشعور بالخلاص الذي كان يجده القروي اللاتيني القديم في كلمات سيريس ، " سينسوس، جانوس، وفيستا " .

٨- المراحل الانتقالية تعني- بسبب ما يميزها من تحولات أشرنا إليها سابقاً- حرية الفرد، مما يفرض عليه أن يختار بشكل مستمر بين مواقف مختلفة ، وأن يرجع دائما إلى مقاييس ذاتية في سلوكه. والفرد ينوء عادة بهذا النوع من الحرية .

المفكرون الذين، بدءاً من دوستوفسكى، ودي توكفيل، وبركهاردت، في القرن التاسع عشر، شرحوا كيف أن الانسان يتهرب من او ينوء بهذه الحرية كثيرون . هنا نشير فقط الى اثنين من مفكري القرن العشرين، آريك فروم، وهربرت ريد.

شرح فروم في كتابه " الهرب من الحرية " ان وراء اشكال الاستبداد والتسلط . يقف شوق الفرد الملح الى الخضوع لسلطة تريحه من أثقال ومتاعب ومسؤوليات الحرية الفردية . إنه يبدأ، أولاً، بشرح صراع الانسان التاريخي نحوكسب حريته من القيود السياسية والاقتصادية والروحية التي كانت تقيده عبر القرون الطويلة التي كان يسودها الظلم واليأس والظلام . ولكنه يفسر، من ناحية أخرى، أن الإنسان كان ، مرة بعد أخرى، يخاف من استخدام الحرية التي يكسبها، فيرجع عنها، يخضع لنظام استبدادي آخر، ويقدم يديه لقيد آخر، في دين جديد أوتوقراطي كالكالفينية أو لاستبدادية اقتصادية جديدة كالرأسمالية . من هذا يخلص الى القول بأن الفرد يخاف ، كما يبدو ، أن يبقى وحيداً وأن يعتمد على ذاته ويتحمل مسؤولية فردية . فشعور الفرد بوحدته وعزلته يقوده إلى الانحلال الفكري، تماماً كما يقود الجوع الى الموت . فالانسان يتشوق شوقاً ملحاً الى التجاوب والاتحاد مع الآخرين، ويرى أن الاعتماد على أسوأ أنواع التجاوب والاتحاد أفضل من البقاء في عزلته . فالأديان، والمذاهب القومية المتطرفة ، أي تقليد أو معتقد، ومهما كان سخيفاً، هوملجأ يفضله الفرد، إذا كان يصل بينه وبين الآخرين ، على العزلة التي يخافها أكثرمن أي شيء آخر.

في هذا الموضوع يستشهد فروم بمقطع يأخذه من بالزاك ، وفيه يقول :

" تعلم شيئاً واحداً ، وارفع به عقلك الذي لا يزال مرناً : الإنسان يخاف العزلة بشكل رهيب، وبين جميع أنواع العزلة ، يرى أن العزلة الأخلاقية هي أكثر فظاعة من غيرها. النسّاك الأولون عاشوا مع الله. عاشوا في عالم اكثر كثافة من السكان . إنه عالم الأرواح . إن أول فكرة تطرأ على الانسان، أبرصاً كان أم سجينا ، خاطئاً كان أم مشلولاً ، هي ان يكون له شريك في قدره. كي يلبي هذا الميل الذي يشكل الحياة ذاتها ، فإنه يحشد جميع قواه، جميع سلطته، ونشاط حياته كلها " .

من هذا التحليل العام يستدل فروم ان ما يفسر ظهور الأنظمة الكلية والقيادات المشخصنة ذات السلطة غير المحدودة في العصر الحديث هو عجز الفرد عن الوقوف المستقل، عن استخدام الحرية التي توفرت له. هذا يعني ، بكلمة أخرى، أن المراحل الانتقالية التي تؤدي الى عزلة الفرد، كنتيجة لانهيار الانظمة والانتماءات والقيم السابقة التي كانت تربط بينه وبين الآخرين، هي مراحل تفرض ظهور الانظمة الكلية والقيادات المشخصنة بحدة، أوكما يقول فروم القيادة الكاريسمية.

يعبر هربرت ريد عن الشيء ذاته، ويرى أن الفرد يتميز بميل أساسي قاهر الى الاتصال والاتحاد مع الآخرين، إلى تجنب الحرية الفردية وما تنطوي عليه من مسؤولية ، وأن أهم اشكال التعبير عن هذا الميل هو تلك الرغبة العامة بالارتباط بالقيادة الشخصية . وبعد أن يشرح كيف أن مبدأ توكيد أو تقديس القيادة الفردية يسود الديمقراطية الغربية، يقول أن فشل هذه الديمقراطية يعود إلى حد بعيد الى اعتمادها على أشكال هذه القيادة. ثم يتابع فيكتب : " إننا عبر أجيال ضحينا بدمنا وصرفنا أعظم جهودنا من اجل تحقيق تحررنا من الكهنة والملوك ، من الارستقراطية وزعماء الصناعة، ولكن كي نكتشف أن جميع ذلك كان عبثاً ودون فائدة، ونجد أنفسنا نعاني نفس الشوق الصبياني إلى الانقياد. إننا نتكلم عن أخوة الإنسان، عن التعاون والتجاوب، وهى عبارات تصف أعمق غرائز الإنسانية ، ولكننا ، في الواقع ، لسنا سوى أطفال يفتشون عن والد ".

هنا تجدر الملاحظة الى ان فروم وريد هما من المفكرين الاشتراكيين ، الذين يدعون إلى قيم إنسانية تؤكد كرامة الفرد وحريته. لهذا فإن النتائج التي توصلا إليها كانت، في الواقع، ضد منطلقاتهما.

افترضت الديمقراطية الغربية ان عناصر الرأي العام تنمو من المعرفة وانها نتاج العقل، وأنه مع تزايد ثقافة المجتمع الديمقراطي يتزايد صلاح الدولة والحكم ، ولكن المجتمع الالماني كان في طليعة المجتمعات الأوروبية ثقافة وحضارة عند انتصار النازية . ديغول أصبح أسطورة ورجل سلطة يصنع ما يريد تقريباً ، ورمزاً مقدساً يجسد الآمال والأشواق الشعبية ، في باريس وليس في بلد بدائي .

الفرد ليس كائناً عقلانياً أولاً ، كما صورته الديمقراطية الغربية، بل هو أولاً كائن اجتماعي سياسي تحدد سلوكه مشاعر ومصالح وقيم تتفرع من موقعه الاجتماعي التاريخي . لقد فشل العقلانيون في إدراك الدينامية التاريخية بالانطلاق من العقل، وفي افتراضهم بأن الناس يتميزون بالقدرة العقلانية

على تحديد سلوكهم في ضوء العقل الموضوعي ، وأنهم يريدون المسؤولية والحرية كقاعدة لهذا السلوك . على العكس " فإن أكثرية الناس تجد أن ضرورة اتخاذ القرارات تشكل ضغطاً، وتفضل التخلص منها " .

النظريات عاجزة في ذاتها عن اثارة الناس وتحريك مشاعرهم وطاقاتهم . إنها تستطيع ذلك عندما تكون في خدمة مشاعر ومصالح وقيم تعقلنها. تدل التجربة التاريخية بوضوح "على وجود ميل يدفع الناس الى رؤية الفرد والشعور به أكثر من النظريات والأنظمة " . لهذا يتجهون إلى الارتباط والولاء للقائد الذي يمثل هذه الأخيرة . " الحزب الشعبي ... الذي يزعم منزلة الدين... يرتبط بكارسيما القائد " .

لقد أصبح من المعترف به في العلوم الاجتماعية، ومنذ مدة طويلة أنه من الاسهل جداً توجيه سلوك الناس السياسي عن طريق اللاوعي، الصور اللاعقلانية، بدلاً من الحوار العقلاني والنقد الموضوعي أو العلمي . " الناس يطيعون لنفس السبب الذي يدفعهم إلى الايمان . فكما أن إيمانهم هو إشعاع من إيمان رسول ما ، كذلك أيضاً نشاطهم الذي يشكل امتداداً لإرادة سيد ما . فهم يريدون ما أراده وهم يؤمنون بما آمن أويؤمن به الرسول " . الحجج المنطقية ، الأفكار العقلانية والمفاهيم العلمية تمارس أثراً محدوداً جداً في سلوك الناس السياسي والاجتماعي ، الذين ينقادون في هذا السلوك لما يؤثر في مشاعرهم ومصالحهم ، لما يصنع انطباعاً قوياً في خيالهم . أمام هذه الظاهرة " البائسة " نرى مفكرين، من أمثال كولن ويلسن ، يعترفون بشيء من " اليأس، تقريباً بأن ".... الانسان العادي يحتاج إلى نظام بيت الحضانة ، وإلى تبسيط بيت الحضانة لمشاكله . في الواقع- وهذا كما يجب أن نعترف، يبدو أكثر صفاقة وكفراً من كل شيء- الإنسان العادي يحتاج إلى الايمان بمخلص كما يحتاج الطفل إلى الايمان " بسانتا كلوز "، ويجب أن يطمئن الى وجود مخلص كما يجب ان يطمئن الطفل إلى وجود سانتا كلوز. البديل يكون إفقاراً رهيباً لحياته " .

لهذا ليس من قبيل المصادفة ان نرى بأن جميع الانظمة السياسية تعتمد قائداً واحداً يمثلها، ويرمز إلى هويتها. أكثر الدول ديمقراطية وليبرالية لا تعبر عن السلطة أو النظام في لجنة، بل في رئيس جمهورية أو رئيس وزراء . التاريخ السياسي والديني يدل بوضوح على واقعة بارزة وهي أن حياة ومُثل القادة، وليس نظرياتهم وأدلتهم هي التي تشكل القوة التي تجذب وتغير سلوك الناس. " الناس يحتاجون للنموذج وليس للحجة ، وينقادون لمثل ظافر أمامهم ، إذ دون هذا المثل يكون الوعظ عبثاً ولا يمكن للمذهب أن ينتشر" .

يكشف التاريخ بوضوح أنه عندما تنهار الأنظمة الشرعية ، أو الشرعية التقليدية للأنظمة- وهذا بالضبط ما يحدث أثناء المراحل الانتقالية أو الثورية - يفرض القائد الكاريسمي وجوده أو بالأحرى يتجه الشعب الى قائد- رمز يشتق العمل السياسي شرعيته الجديدة منه . " الاجماع العام الذي ينمو حول شخصه يسمح مع الوقت بخلق وعي جماعي موحد ذي أنظمة وجذورخاصة. وهذا يصبح ممكناً عندما يمثل القائد قوى اجتماعية جديدة تتجه نحوصنع التاريخ من جديد" .

ان المواقف الأخلاقية تنمو دائما وفي اكثر أشكالها حساسية في العلاقات التي تقوم بين شخص وشخص . فتكون الولاءات العامة بالتالي أضعف من الولاءات المباشرة التي تعبر عن هذه العلاقات وذلك

لانها مجردة . لهذا كانت الحركات الثورية تعبر عن ذاتها في قائد - رمز يعطي تجسيداً لها، لأن مفاهيمها ومبادئها مجردات يصعب تمثلها على صعيد عام دون صورحسية تجدد المشاعرحولها . لهذا ليس من قبيل المصادفة ان نجد في الدين " أن الواجبات الأخلاقية العليا التي تضيع في مجردات على مستوى تاريخي ، تحقق معاناة لها في الاتجاه نحو الشخص الأعلى " . هذه الصورة المجسدة في شخص تعني " صورة مثالية حاضرة دون انقطاع أمام وعي الفرد أو الجماعة ، وتنقل إليهما بشكل فعّال، وقليلاً قليلاً ،، ميزاته وتحولهما في ضوئها " . الحرية السياسية ، " وإن كانت تقود إلى نتيجة عظيمة وهي خلق روابط متبادلة وشعور بالوحدة بين جميع أعضاء الأمة ، فانها لا تجعلهم متشابهين . إن حكم رجل واحد فقط يستطيع في المدى البعيد أن يزيل الاختلافات " . لذلك كانت الحركات الثورية الكبرى تعبر عن ذاتها دائما بسلطة حادة الشخصنة ، لأن المشكلة الأولى التي تواجهها هي التغلب على البعثرة والتمزق وإقامة وحدة جديدة .

هذا يعني أن من يعاني مرحلة انتقالية ثورية جذرية يجب أن يعاني الديالكتيك الذي يسودها إن هو أراد التغلب على تناقضاتها وتحقيق قوى وإمكانات التحرر التي تنطوي عليها في تجديد نمط الحياة . ".. من السخافة " كما تكتب سيمون دي بوفوار نفسها ، " معارضة عمل محرر بالذريعة القائلة بأنه يعني الجريمة والاستبداد ، لأنه دون جريمة واستبداد لا يمكن تحرير الانسان.. إننا لا نستطيع تجنب ذلك الديالكتيك الذي يذهب من الحرية إلى الحرية عن طريق الدكتاتورية والاستبداد " . في حديثه عن التحولات الثورية وإجراءاتها الجذرية ، يخلص سارتر، من جهته أيضاً، إلى القول " الدواء متطرف ، ولكن من الضروري فرضه غالباً عن طريق العنف " .

يستطيع كل من درس التاريخ أن يقدر الصعوبة التي ينطوي عليها تحويل التحليل التاريخي من دراسة الشخصيات إلى دراسة حركات أو قوى اجتماعية واقتصادية وسياسية موضوعية. فهناك شيء جذاب في دراسة التاريخ عن طريق ما يبرزه من قادة كبار، كما ان هناك دائما ميلاً من قبل المؤرخين الى شخصنة التاريخ. وهناك ظاهرة أخرى أقرب إلى تجاربنا اليومية من التاريخ في التدليل على هذه الناحية ، وهي الصحافة، التى تكشف عن شخصنة واضحة. فمن القليل النادر أن نرى فيها عناوين تعطي المجردات المكانة الأولى . فهي تتجنب حتى ذكر اسم البلدان، أو عبارات مثل " حكومة " " رئيس وزراء " أو رئيس جمهورية " ، وتكتفي غالباً بذكر القائد. فهي تتكلم عن كاسترو وليس كوبا ، عن عبد الناصر وليس الأمة العربية، عن نيكسون أو كارتر وليس الولايات المتحدة ، الخ .. في هذه الظاهرة تعبر الصحافة ، في الواقع عن ميل الناس العام إلى شخصنة الأحداث والأنظمة . لقد دفعت هذه الظواهر دافيد هيوم الى أن يكتب، بعد دراسة تحليلية لأشكال الوثنية ، بأن المبادىء نفسها هي التي تؤدي إلى تأليه بعض الأفراد المتفوقين في الجرأة والإدراك ، وهي التي تنتج عبادة البطولة .

هذه هي أهم العناصر التي يتشكل منها ما يمكن تسميته بديالكتيك شخصنة السلطة الذي تفرزه المراحل الانتقالية والثورية الجذرية . من هذا يتضح أن السلطة المشخصنة هي نتيجة اتجاهات موضوعية مستقلة وليست ثمرة أطماع فردية وإرادة شخصية . إنها على العكس تفرض ذاتها، كما رأينا سابقا، على

هذه الإرادة حتى عندما لا تكون منفتحة عليها . تشكل هذه الظاهرة إذن قانوناً ثورياً وحدياً يفرض ذاته ، والعمل الوحدوي هو الذي يعي موضوعيته المستقلة ويعمل بوحيه، ففي الوعي العلمي فقط يمكن للإرادة ان تحقق درجة من الحرية أمامه ، ومن القدرة على الحد من آثاره .

القسم الرابع

الأسباب الوحدوية الاعدادية

القوانين الوحدوية الثلاثة التي قدمناها في هذه الدراسة لا تستنزف جميع الأسباب أو القوانين التي تسود العملية الوحدوية ، أي عملية الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة . هذه القوانين وهي وجود اقليم- قاعدة يتركز عليه العمل الوحدوي ويرتبط به عبر المجتمع المجزأ أو الكيانات السياسية المدعوة الى الوحدة ؛ السلطة المشخصنة التي تستقطب ولاء الشعب عبر الحدود الاقليمية ؛ والمخاطر الخارجية التي تولّد ضغوطاً قوية على الأقاليم المختلفة وتهددها في حريتها وكرامتها وبقائها نفسه ، هي القوانين الأساسية العامة التي تُعيد ذاتها في، وتكشف عنها تجارب التاريخ الوحدوية . القول أنها " قوانين أساسية " يعني ، أولاً ، أن هناك قوانين أخرى ترافقها وتتكرر في هذه التجارب ، ولكنها ثانوية بالنسبة لها ؛ وثانياً ، أن هذه القوانين الثانوية لا تستطيع، على الرغم من الأهمية التي فد تنطوي عليها ، أن تقود إلى وحدة كيانات مستقلة او مجتمعات مجزأة إن لم تتوفر لها تلك القوانين الأساسية ؛ وثالثاً ، ان هذه الاخيرة تستطيع عند وجودها ان تحقق الأنتقال من حالة تجزئة الى حالة وحدة حتى وإن لم تكن القوانين الأخرى أو أكثريتها متوفرة . هذه القوانين الأخرى أو الثانوية تُعد وتمهد الطريق أمام الوحدة ولكنها لا تستطيع في ذاتها أن تحققها . وبما أن هذه الأسباب الاعدادية هي أسباب ثانوية ، وبما أنها تعتمد على وتربط بتوفر وصل القوانين الوحدوية الأساسية ، فإننا سنقتصر هنا فقط على الإشارة السريعة اليها .

أهم هذه الأسباب الإعدادية هي :

١- تماثل الأنظمة السياسي في البلدان المدعوة إلى الاتحاد . وقد اشار كثيرون الى هذا التماثل أو الانسجام كأحد الشروط المهمة للاتحاد السياسي .

في دراسته القيمة لطبيعة الاتحاد الفيدرالي، يكتب هوير أن " من بين جميع العناصر التي تنتج رغبة في الاتحاد، يوفر تماثل الأنظمة الاجتماعية وخصوصاً السياسية الكفاءة الأهم للاتحاد. الرغبة في الاتحاد لم تظهر أبداً تقريباً إلا عند توفر أنظمة سياسية متشابهة فعلياً أو ضمنياً بين الحكومات التي تطلعت الى الأتحاد " . أن درجة من القرابة ، من الأرضية المشتركة بين الانظمة الاجتماعية السياسية هي أمر ضروري في تحقيق حد أدنى من التعاون بينها. لا تنتج الرغبة في الاتحاد عن أنظمة تنظر إلى بعضها البعض نظرة عداء . لهذا لا يمكن لهذه الانظمة أن تلتقي لقاءً فعالاً وإرادياً إن لم تغيرنظرتها المتناقضة الى نظرة منسجمة . فمن الضروري توفر تجانس بينها ليس فقط في المصلحة ، بل في التركيب الاجتماعي السياسي الذي يشكل الأساس لمصلحة واحدة دائمة كي يتم اللقاء والاتحاد فيما بينها .

هنا يجب التنبيه مرة أخرى الى أننا نتكلم عن الرغبة في التطلع الى ، والانفتاح للاتحاد وليس تحقيقه ، لأن هذا التحقيق يحتاج، بالإضافة الى ذلك ، الى قوى توحيد أخرى تتمثل في القوانين الأساسية . لقد رأينا في الفصول التي عالجنا فيها دور الإقليم – القاعدة أن الدولة الواحدة كانت من ناحية تاريخية تتقدم على وتخلق التماثل الثقافي والاجتماعي . هنا يمكن ان نضيف بأن دور هذا التماثل كشرط لتحقيق اتحاد سياسي جديد ازداد أهمية في العصر الحديث لأن الأسلوب العسكري الذي كان أداة التوحيد السياسي في الماضي خسر من أهميته السابقة . فهذا العصرلا ينفتح كثيراً لهذا الاسلوب، وهو يرفض

عملية الدمج السياسي عن طريق القوة الخارجية. لهذا أصبحت الثورة الداخلية تشكل الطريق إلى الاتحاد في البلدان أو الأقاليم المدعوة إليه. هذا يصح فقط عندما يتوفر الإقليم – القاعدة لهذه البلدان أو الأقاليم . وهذا يعني أهمية إضافية لعنصر التماثل الاجتماعي السياسي لأن الثورة التي يمكنها الدفع نحو الاتحاد يجب أن تكون متماثلة سياسياً واجتماعياً مع الاقليم – القاعدة .

بعد أن يشير إلى هذا التماثل كعنصر إيجابي في خلق الاتحاد السياسي ، يكتب إتزيوني ، " ولكن هذا لا يعني الاستنتاج بأن عدم الانسجام يعثر أو يحول دون التوحيد السياسي . بما ان القومية كانت تميل في البداية الى توحيد شعب ذي خلفية أثنية مشتركة يشارك في تقليد ثقافي ولغة واحدة، فقد أعطى ذلك الانطباع بأن هذا النوع من المشاركة ضروري للتوحيد السياسي . هناك، في الواقع، عدد متزايد من الأمم ، كسويسرا وكندا ، تختلف كثيراً من هذه الناحية . فنيجيريا، مثلاً ، تضم ٢٥٠ قبيلة مختلفة .. " . ما تجاهل إتزيوني ذكره هنا هو أن اتحادات كالتي ذكرها تعود في ولادتها ونجاحها واستقرارها، كما شرحنا في فصل سابق، إلى وجود مخاطر خارجية ولّدت الضغوط التي دفعت إليها .

الانتقال من الدولة القبلية الى الدولة السياسية، ومن الدولة الإقطاعية الى الدولة القومية ، الذي كان يستخدم الدولة الجديدة في خلق التماثل السياسي وخصوصاً الثقافي الذي كانت تحتاجه، كان يعود أيضاً كما رأينا الى القوانين الأساسية الثلاثة التي شرحناها . لهذا لا يصح القول غير المشروط بأن التماثل الاجتماعي السياسي يقود إلى الاتحاد السياسي ، أو أن غيابه يحول دونه، لأن ذلك يرتبط بتوفر هذه القوانين الأساسية .

٢- بالإضافة الى تماثل الأنظمة الاجتماعية السياسية، يمكن أن نذكر أيضاً تماثل المفاهيم و التصورات الايديولوجية . يسهل هذا التماثل الطريق ويمهدها أمام عملية التوحيد السياسي التي تحتاج الى تصور ايديولوجي يرافقها ، ويقدم ان لم يكن تفسيراً جامعاً للتاريخ والاجتماع وعلاقة الانسان بهما ، فعلى الأقل تفسيراً عاماً للمرحلة التاريخية التي يحدث فيها التوحيد . ازداد هذا التماثل الايديولوجي أهمية في العصر الحديث ولنفس الأسباب التي ذكرناها فيما يتعلق بالتماثل الاجتماعى السياسي . فوجوده يوفر أرضية مشتركة يلتقي فيها العمل الوحدوي عبر الأجزاء المدعوة إلى الوحدة .

القيم والمفاهيم الايديولوجية التي تنطلق منها حكومة ، أو دولة ما ، تؤثر في اتجاه وتحديد سياستها وعلاقاتها مع العالم الخارجي . لهذا فإنها تكون ذات أهمية كبرى في تعثير أو تسهيل عملية التوحيد السياسي .

تشكل الدولة الجديدة تحولاً سياسياً كبيراً ، أو قفزة ثورية كبرى . هذا يعني أنها تحتاج الى زخم كبير يدفعها في هذه الطريق ، وإلى تعبئة كافة الطاقات التي تحتاج إليها في هذا القصد. وبما أن هذه الطاقات تكون مجمدة في الغالب ومنكمشة عن الاندفاع بسبب تقوقعها في إطارات ايديولوجية تقليدية ثبوتية تقتل أوتشل مكامن الابداع والقدرة الخلاقة على التكيف مع التاريخ أو سيادته ، فإن الايديولوجية الجديدة تقوم بدور تحرير لهذه الطاقات لأنها تعني التحرر من تلك الإطارات التقليدية . إقامة علاقات

وأنظمة جديدة واحدة توحد كيانات سياسية مختلفة ليس أمراً سهلاً، بل يتطلب جهوداً جبارة ، ويشكل تحولات جذرية في الولاءات والانتماءات والمصالح السابقة، ولهذا فهو يفترض شيئاً جديداً يجب ان يكون أقوى من القوة المادية ، وأكثر هيبة من المنافع الخاصة . هذا الشيء هو الالتزام بتصور إيديولوجي جديد يدعو الى حياة جديدة ، الى مفهوم جديد لعلاقة الإنسان بالتاريخ والحياة ، ويتغلب على تلك الصعوبات لأنه يخلق ما يحتاجه العمل الوحدوي من حماس وزخم نفسي وتحريك للطاقات المجمدة.

وإذا كانت السلطة تتميز بشرعية قوية، فإنها تستطيع أن تصدر احكاماً وتوجيهات يمكن للشعب أن يقبلها، يرتبط بها ويعمل على تنفيذها بشكل إرادي . ولكن شرعية كهذه كانت دائما تعتمد على نظام من القيم والمبادىء العامة، اي على تصور إيديولوجي . لهذا كانت عملية الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة ، تفترض قيام موقف ايديولوجي جديد. ولا يجد الاتحاد السياسي الجديد وحدة ثابتة دون ايديولوجية تنظمه ، وتوفر له وعياً يعبر عن هويته الواحدة . هذا لا يعني أن دور الايديولوجية هذا يستثني العنف والضغوط السياسية المختلفة كأداة في وحدة النظام واستمراره، ولكن أن أشكال العنف والضغوط السياسية التي لا تجد قاعدة لها في شرعية إيديولوجية لا تستطيع أن تستمر طويلاً أو أن تكون فعالة في المدى البعيد. لهذا كانت كل سلطة سياسية تحاول عادة أن تعطي نفسها الشرعية التي تحتاجها عن طريق صيغة إيديولوجية ما . هدف هذه الصيغة يكون تبرير التركيب السياسي الاجتماعي الذي تمثله . وتجد أكثر المجتمعات والأنظمة اعتماداً على العنف كأساس للسلطة نفسها عادة مضطرة الى تبرير سياسة العنف بقيم تتجاوزها ، وأن تحول القوة الى شرعية أخلاقية كى تستطيع ان تحكم دون أن تجعل من المجتمع كله سجناً كبيراً. " إن الأقوى ليس أبداً قوياً الى درجة كافية يستطيع فيها دائما، كما كتب روسو في " العقد الاجتماعي" ، " بأن يكون سيداً إن لم يحول القوة الى حق والطاعة الى واجب" . في هذا المعنى نستطيع ان ندرك قول دركهايم بأن كل مجتمع هو نظام أخلاقي .

إن ظهورتماثل إيديولوجي يعني بروز نمط حياة جديد يشيرالى وضع من أهم الأوضاع التي تقدم لما يمكن تسميته بعملية " الإقلاع الوحدوي" ، لأنه يعني انهيار العادات السابقة التي تقترن بالتجزئة والواقع الإقليمي وولادة عادات وقيم جديدة أخذت تهيمن على سلوك الناس . هذا النمط الحياتي الجديد يعني مناخاً سياسياً جديداً يمكن فيه للولاءات السياسية التي كانت تتركز على الحكومات المحلية أن تنتقل سريعاً الى الدولة الجديدة .

وبما أن على كل نظام سياسي أن يجد درجة كافية من التجاوب الايجابي معه إذا أراد الاستمرار والبقاء، وبما أن هذا التجاوب يجري في إطار مجموعة من الرموز والقيم والمعاني تصل بينه وبين الشعب عبر الأقاليم المختلفة، وجب إذن أن يعتمد منطلقات إيديولوجية واحدة كأداة لذلك. ويحتاج النظام السياسي الجديد الى هذا كي يحقق شرعيته ويحول هذه الشرعية الى تقليد. كل نظام سياسي يصاب بهزة كبيرة عندما يحدث تنكر لهذه المنطلقات، وهو يسقط وينهار عند استمرار هذا التنكر لها. تكشف التجارب الثورية

بوضوح ان حدوث درجة معينة من الرفض للمفاهيم والمبادىء التي تعتمدها شرعية نظام ما يشكل عارضاً مهما يشير إلى قرب انهياره .

كل نظام سياسي يعني نهائياً نظاماً إيديولوجياً (أخلاقياً) يجب عليه تبرير مبادىء توزيع الثروة والسلطة، الحريات والحقوق والقيم التي تقوم عليها. والمسألة تكمن في العلاقة بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة ، بين الميول الفردية والمتطلبات الجماعية . دون تصور إيديولوجي عام يضبط ذلك بوضوح يخسر النظام الأساسي الضروري الذي يستطيع به ان يحيا في وحدة وهوية موحدة .

" الأمير " كان ولا شك طريقة غير فعالة ، هذا إن لم نقل سيئة ، في تحقيق قصد ماكيافيللي في توحيد إيطاليا ، وفي إلهام الايطاليين الوطنية والرغبة في الوحدة التي دعا إليها ببلاغة وحماس في الفصل الاخير من الكتاب . " واقعية " الامير كانت واقعية قصيرة النظر من هذه الناحية، تتعارض مع هدفه ذاته ، لأن سياسته كانت لا تعتمد على الالتزام المسؤول ، القدرة على التضحية ، نكران الذات ، المصلحة العامة ، وكلها ضرورية لأية دولة قوية أو سياسة جذرية في تغيير الواقع . إن " أمير " ماكيافيللي كان عاجزاً عن تحقيق قصد كبيركهذا لأنه كان دون إيديولوجية تعطي قصداً عاماً للسلطة وتبدو كحل أساسي للمتناقضات الأساسية التي يعانيها المجتمع.

تقوم الايديولوجية بدور توحيدي يُعطي المجتمع المجزأ وحدة نفسية جديدة ، والفرد قاعدة تنظم نوازعه وميوله في وحدة عامة . إنها تنظم تجارب الناس وعلاقاتهم وتغيّر صورة العالم في ذهن الشعب، أو الوعي العام للعالم الذي يحيط به . ترتبط اهمية الايديولوجية بقدرتها على صهر وبلورة مشاعر وحاجات وتطلعات الشعب وتحفيزه على أعمال تاريخية مهمة. لهذا فهي تشكل عنصراً في حركة التاريخ وإسهاماً فيها. إنها تبرز من حاجات وأوضاع اجتماعية وقوى تاريخية معينة، ولكنها تصبح " قوة مادية" ، كما يكتب ماركس نفسه ، في عملية تنظيمها لهذه الحاجات والأوضاع والقوى . الإنسان يصنع تاريخه في ضوء بعض العقلنات والمفاهيم التي تنتج عن التحول الاجتماعي التاريخي، ولكنها تشكل في الوقت نفسه جزءاً من عملية هذا التحول وذلك لأنها تؤدي الى نتائج موضوعية عن طريق التأثير الذي تمارسه على السلوك الانساني . مفهوم الانسان عن الواقع الموضوعي يشكل جزءاً من هذا الواقع .

ليس هناك من مصالح مادية تستطيع أن تحرك وأن تحفز في ذاتها إمكانات الخلق ، بواعث الابداع وطاقات العطاء التي تحتاجها التحولات السياسية الاجتماعية الكبيرة . لهذا لا يمكن الاقتصار، في الدعوة الى الوحدة ، على إيضاح الفوائد المادية الكبيرة المترتبة عليها. فهذا، وإن كان ضرورياً ، يجب أن يكون جزءاً من إطار أكبر وأعم يتجه إلى الانسان كانسان ، في جميع إمكاناته ومستوياته . التنمية الاقتصادية الهائلة التي حدثت في أوروبا وشمالي أميركا والاتحاد السوفياتي لم تحدث بدوافع اقتصادية وبراجماتية محضة ، بل اقترنت بتصورات إيديولوجية ثورية. تجارب التاريخ الوحدوية الناجحة تكشف أيضاً أنها لم تتحقق بسبب فوائد اقتصادية مباشرة، بل كانت تجد حوافزها الأولى الأساسية في منطلقات سياسية وايديولوجية

تتجاوزها . المحاولات الاتحادية التي كانت تعتمد عناصر اقتصادية وتنطلق منها في تحقيق اتحاد سياسي كانت محاولات فاشلة .

لهذا كان غياب هذا التماثل الايديولوجي يحول دون تحقيق الاتحاد السياسي في بعض الأوضاع. إننا نرى، مثلاً ، أن غياب إيديولوجية واحدة ذات قواعد شعبية تلتقي فيها بلدان اميركا الوسطى كان ولا يزال عنصراً أساسياً في فشل محاولات الوحدة بينها... محاولات الاتحاد في أميركا الوسطى كانت دائما محاولات تقوم بها قوى ليبرالية إصلاحية. ولكن القوى المحافظة كانت تقاومها وتؤدي إلى هزيمتها " . ولكن في الشمال استطاعت الولايات الاميركية تحقيق اتحادها لأن القوى الليبرالية تمكنت من فرض وجودها ووجود الايديولوجية التي تعتنقها " إن الولايات المتحدة الجديدة واجهت الحاجة الى سحق قيم وولاءات الارستقراطية المحلية في كل ولاية، وفي ظل الايديولوجية التي عبرت عنها وثيقة إعلان الاستقلال، غيرت الطليعة الثورية الأنظمة الاجتماعية الموروثة عن البريطانيين بشكل جعلها منسجمة مع حاجات اقتصاد سياسي ذي أبعاد قارية " .

ولكن هنا يجب مرة أخرى التنبيه الى أن توفر تصورات ايديولوجية واحدة غيركافٍ بحد ذاته من اجل افراز الدفع الضروري الذي يحقق الدولة الواحدة . فمن الممكن لبلدان أو انظمة مختلفة ان تؤمن بتصورات واحدة ولكن دون أن تحقق إرادة جماعية تقودها إلى تجاوز كياناتها المستقلة أو المنفصلة، وتحقيق اتحاد سياسي بينها.

ولو كانت المشاركة في قيم ومفاهيم واحدة تؤدي في ذاتها إلى ارادة جماعية أو سياسية واحدة، أو إلى شعور بـ " نحن " واحدة ، إذن لكانت الوحدة السياسية مصير الأنظمة التي تشارك فيها. لوصح ذلك لكان من الصعب تفسير انقسام الانظمة العربية التقدمية ، أو الانقسام الذي نراه بشكل متزايد بين الأنظمة الشيوعية. اتحاد غانا والجينيه لم ينجح، اتحاد غانا والمالي لم ينجح، اتحاد الوست إنديز لم ينجح، اتحاد إفريقيا الغربية لم ينجح، الخ... على الرغم من توفر اسس إيديولوجية واجتماعية وسياسية متماثلة . البلدان الاسكندينافية ، وبلدان السوق المشتركة، لم تحقق أية وحدة سياسية أو دولة واحدة رغم تماثلها الايديولوجي . مفهوم التماثل الايديولوجي والسياسي كأساس يدفع الى الاتحاد، لايستطيع أيضاً تفسير العلاقات الانكليزية - الارلندية، مثلاً، بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩١٤. فبقدر ما أصبح الإرلنديون مشابهين للانكليز من حيث الثقافة واللغة والحقوق السياسية أو الاتجاهات الاقتصادية التى نتجت عن ظهور طبقة وسطى إرلندية، بقدر ما ازداد شعورهم العدائي لإنكلترا. هذا التطور الذي عمل على تماثل الفريقين دفع، في الواقع، بعض القادة الارلنديين الى خلق بعض الرموز الجديدة كاستخدام لغة جديدة (Gaelic) في توكيد الفرق بين الطرفين وإبرازه . ولم تكن القضية تفضيلاً أو ولاء سابقاً لهذه اللغة ومن ثم تمرداً على الرابطة الانكليزية ، بل ، على العكس، كانت أولاً تمرداً على هذه الرابطة، ومن ثم التطلع الى لغة أخرى .

٣- الاتحاد السياسي يعني في كثير من الأوضاع تعدداً في أبعاد التعامل المشترك . التعاون أو الاتحاد في استثمار مورد أو منتوج واحد، كالحديد ، الفحم ، النفط ، الخ .. لا يكفي وحده في إعداد كيانات سياسية مستقلة إلى الاتحاد السياسي . فهذه الكيانات يجب أن تتعاون أوتتحد في كثير من المعاملات، في حرية الانتقال، انتقال العمل ورأس المال ، الكفاءات الإدارية والخبرات الاختصاصية، في العلم والتعليم والثقافة ، التجارة ، البريد، السياسة، المواصلات الهاتفية، الخ .. فبقدر ما تتعدد وتتسع هذه المعاملات والاتصالات بين حكومات منطقة ما ، بقدر ما تزداد درجة اعدادها وانفتاحها للاتحاد . إن حرية انتقال السكان من قطر الى آخر، مثلاً ، تشكل عنصراً من أهم عناصر المواصلات والمبادلات التي تمهد للوحدة ، ويشكل في رأي بعض العلماء عاملاً أهم من حرية انتقال السلع والمنتوجات..

لا شك أن توفر هذا العامل يساعد كثيراً في إعداد الطريق وتمهيدها إلى الاتحاد السياسي أو إقامة دولة جديدة ، ولكن القول بأنه يقود الى هذا الاتحاد أمر لا ينطبق على الواقع أبداً . هذه الروابط تتوفر في مناطق عديدة من العالم ، من المنطقة الاسكندينافية ، الى منطقة السوق المشتركة في أوروبا الغربية، إلى أميركا الوسطى ، الى اميركا الشمالية (كندا والولايات المتحدة)، الخ .. ولكن دوق نتيجة سياسية اتحادية. من ناحية أخرى، يمكن القول أيضاً أن زيادة هذه الروابط قد تؤدي الى نتائج سلبية وليس إلى نتائج ايجابية . اتساع هذه الروابط وخصوصاً التجارية في شرقي افريقيا اثناء الستينات مثلاً أدّى الى هذا النوع من النتائج السلبية بين حكوماتها بسبب عدم التوازن الذي كان ينعكس في عجز تنزانيا المتزايد في التجارة الاقليمية . لقد نبه نقاد هذا المنهج الى ان الدليل على وجود زيادة في هذه الروابط أو هذا النوع من التعامل لا يشكل مؤشراً وحدوياً صحيحاً لأنه لا يقيس مباشرة أو يعني نمو مشاعر اتحادية . فالتوحيد السياسي يعني أساساً علاقة أو مشاعر وحدوية ، شعوراً بهوية واحدة ووعياً لهذه الهوية . البرامج والمبادلات الثقافية، المواصلات والاتصالات والمعاملات المشتركة ، الخ ... لا تقود الى اتحاد أو حتى إلى تحالف او تعاون سياسي اذا كانت عناصر هذه الهوية مفقودة . ولكن بعد أن تبدأ العملية الوحدوية وتتقدم، فإن هذه الروابط والمبادلات تساعد آنذاك في دعم وتعجيل هذه العملية .

٤- انحسار أو ضعف التشكيلات الحزبية والحركات المحلية التى تعبر عن الحدود والكيانات الاقليمية، وظهور أخرى في مكانها تتجاوز هذه الحدود والكيانات وتعمل عبرها باسم المجتمع ككل، كان أمراً يرافق التجارب الوحدوية الناجحة.

في عملية توحيد إلمانيا وإيطاليا، مثلاً، كان الانقسام بين ليبراليين ومحافظين أو رجعيين يمتد عبر الحدود ويعمل في جميع المناطق الالمانية والايطالية . وفي المانيا نجد ايضاً، بالاضافة الى ذلك، أن الحروب النابوليونية زادت من درجة امتداد الانقسام بين البروتستانت والكاثوليك عبر الحدود.

أثناء عملية التوحيد في بريطانيا كانت قضية الإصلاح الديني موضوع انقسامات مذهبية وسياسية تعمل عبر حدود انكلترا، والز، واسكتلندا. الانقسامات بين الأحرار والمحافظين فيما بعد كانت تعمل عبر هذه الحدود لمدة جيل قبل عام ١٧٠٧، تاريخ اتحاد انكلترا واسكتلندا.

في أميركا كانت الانقسامات بين محافظين وراديكاليين، وفيما بعد، فيدراليين وجمهوريين ديمقراطيين تعمل أيضاً عبر حدود الولايات المختلفة.

في سويسرا كانت الانقسامات بين ليبراليين ومحافظين تعمل عبر جميع الكانتونات تقريباً .

في الثورة الفرنسية ، الثورة الشيوعية الروسية والثورة الشيوعية الصينية، أو بالأحرى في المرحلة التي تقدمت هذه الثورات التى كانت في الوقت نفسه تجارب وحدوية ، نجد الظاهرة نفسها، أي انقسامات سياسية وإيديولوجية واحدة تمتد الى جميع الأقاليم والمناطق الإقليمية.

في اتحاد اسوج ونروج نرى تغييراً ذا معنى من هذه الناحية. هنا نجد أن الانقسامات الحزبية كانت تميل الى دعم الانقسام الأساسي بين الطرفين بدلاً من أن تعمل عبر حدودهما كوحدة. فأحزاب الفلاحين والأحزاب الليبرالية كانت تمارس نفوذها الأول في نروج ، بينما كانت الأحزاب المحافظة والارستقراطية تمارس دورها بشكل خاص في أسوج الليبرالية الأسوجية لم تصبح قوية الى درجة تستطيع بها تشكيل الحكومة إلا عام ١٩٠٥ ، أي عام انفصال النروج ، كما أن ظهور أحزاب ليبرالية وعمالية قوية في البلدين تعمل عبر حدودهما لم يحدث إلا بعد بضعة عقود على وقوع الانفصال، مما أدّى آنذاك الى شيء من التحالف بين الاثنين .

هذه الظاهرة، حتى اذا كانت تعيد ذاتها عادة في التجارب الوحدوية ، فإن وجودها لا يعني دليلاً على وجود عملية وحدوية ناجحة ، أو ممكنة النجاح . الأمثلة عديدة ولا تحتاج إلى تدليل كبير. ففي أقاليم مملكة الهابسبورغ ، مثلاً ، نجد اثناء القرن التاسع عشر والقرن العشرين، أي في مرحلة انهيار وحدة هذه المملكة ، حركات سياسية قوية كالحركات الليبرالية في أواسط القرن التاسع عشر والحركات العمالية في أواخره ، تعمل عبر الحدود الإقليمية. ولكن هذه الحركات لم توقف عملية التفكك التي وصلت إلى نهايتها في بداية القرن العشرين ومع نهاية الحرب العالمية الأولى.

هذا يعني أن الدور التوحيدي للانقسامات الايديولوجية والسياسية أو الحزبية التي تعمل عبر الحدود الاقليمية، يعتمد على توفر أوضاع اخرى يجب ان ترافقه . فاذا كانت هذه الأوضاع موجودة كان بامكان هذه الانقسامات أن تساعد على التوحيد. و لكن إذا فقدت، فإن هذه الانقسامات قد تنتهي فقط في التعبير عن مفاهيم ومصالح الطبقات الحاكمة في كل إقليم . أهم هذه الأوضاع الأخرى هي القوانين الوحدوية الأساسية التي شرحناها .

هنا ينبغي الإشارة الى ان الحزب المنتصر في هذه الانقسامات السياسية والايديولوجية، وفي بعض الأحيان، كلا الحزبين، كان يدعو الى تغييرات جديدة واصلاحات يجب تحقيقها، وليس الى المحافظة على الوضع الراهن ، مما يشير الى وجود مرحلة تاريخية جديدة تفرض اجراء هذه التغييرات والإصلاحات، وأن انقسامات من هذا النوع يجب ، كى تمارس دوراً وحدوياً ، ان تقترن بمرحلة كهذه. لاتستطيع الأحزاب الواحدة التي تعمل عبر الحدود الإقليمية أن تدفع إلى الاتحاد السياسي، فالحدود بحد ذاتها تعني أن هذه

الأحزاب لا تستطيع دفعة واحدة وفي وقت واحد ان تزيل الكيانات المحلية بشكل يخلق تلقائياً الدولة الواحدة الجديدة . اما عندما ينجح في الاستيلاء على السلطة في أحد هذه الكيانات، يتحول الحزب إلى نظام قطري أو إقليمي . ويبقى في مواجهة المشكلة نفسها وهي : كيف يمكن الانتقال بعد ذلك الى دولة الوحدة ؟ تدل التجارب السياسية، ومنها تجربتنا نفسها، ان توفر تنظيم ثوري واحد أو مماثل في أقطار أودول مختلفة لا يعني اتحاد هذه الأخيرة حتى عندما يتسلم التنظيم السلطة . حزب البعث ، مثلاً ، انتهى عند استلام السلطة إلى " احزاب " عديدة تعمل في إطار الاقليمية وعاجزة عن تجاوزها. الأحزاب الشيوعية في شرقي أوروبا استطاعت كما رأينا سابقاً تحقيق اتحاد سياسي عندما توفرت لها، في المرحلة الستالينية، القوانين الأساسية الثلاثة ، ولكنها بعد زوال هذه المرحلة أخذت تتجه نحو الانفصال والاستقلال .

كان حزب " التجمع الديمقراطي الإفريقي " يمثل حركة سياسية واحدة ذات فروع في أجزاء افريقيا الفرنسية أثناء وجود فرنسا . ولكنه لم يستطع المحافظة على وحدته بعد الاستقلال، أو المحافظة على الاتحادين الموجودين سابقا، وهما " اتحاد غربي افريقيا " . و " اتحاد افريقيا الاستوائية " . كان يمتد في الاتحادين ويملك فروعاً في معظم اقاليمهما . قبل الاستقلال والاستفتاء كان الحزب قد تسلم السلطة في ساحل العاج ، السودان (المالي حالياً)، فولتا العليا، والداهومي . وكان يشكل حركة المعارضة الأساسية في النيجر. ثم إن الحزب الرئيسي في النيجركان حزبا منشقا عنه. في السينيغال وموريتانيا فقط كان حزب التجمع الديمقراطي الافريقي دون أية قوة سياسية.

لقد عمدت الحكومات المحلية بعد الاستقلال الى الضغط على وضبط الفروع والتشكيلات المحلية للحركات التي كانت تمتد الى المنطقة كلها- حزب التجمع الديمقراطي الإفريقي، النقابات، اتحادات الشباب، الطلاب، والنساء. هكذا قاد انهيار الاتحاد السياسي إلى انهيار تركيب الحزب السياسي الذي كان، كما يبدو، يرتبط به . ان ما يصدق على حزب " التجمع الديمقراطي الافريقي " يصدق على حزب " التجمع الإفريقي" الذي أنشأه الاتحاديون في دكار، وكانت له فروع في شتى البلدان الإفريقية ، وعلى حزب " المستقلون عبر البحار" الذي أسسه سينغور.

كانت وحدة هذه الأحزاب عاجزة عن تحقيق وحدة الكيانات السياسية التي كانت تعمل عبرها، وبدلاً من أن تنجح في امتصاص هذه الأخيرة في وحدة عامة تمثلها، كانت هي نفسها تتجزأ تبعاً لهذه الكيانات وتتبلور حولها. تنظيم المشاركة او الحياة السياسية في أحزاب يشكل سمة تميز المجتمع الحديث، وهي سمة تعود بشكل خاص إلى انهيار العلاقات والمركبات العضوية التي كانت تميز المجتمعات التقليدية ، امتداد الحياة السياسية إلى الشعب ككل، اتساع رقعة المجتمع جغرافيا ومن حيث الحجم، تعقد وديناميكية الحياة الحديثة ، الخ.. ظهرت هذه الاحزاب اولا في أواخر القرن الثامن عشر وحيث اتسعت مشاركة الشعب السياسية، أي في الولايات المتحدة وفرنسا. هذا يعني بكلمة أخرى، ان جميع الوحدات السياسية التي تحققت قبل ذلك في التاريخ قامت دون الاعتماد على حزب سياسي أو حاجة إليه.

٥- ان الاختلاف في التخصص الاقتصادي بين الأجزاء المدعوة إلى الاتحاد ، كالتي نجدها مثلاً بين أجزاء زراعية وأخرى صناعية ، بين مناطق تركز على الصناعة الثقيلة وأخرى على الصناعة الخفيفة ، الخ ... هذا الاختلاف يعزز العملية الوحدوية ويمهد الطريق لها . " هناك إجماع عام تقريباً بأن البلدان التي تختلف في تركيب اقتصادها تندمج بسهولة أكبر من تلك التي ينسجم فيها هذا التركيب " .- واذا كان " الاتحاد الشمالي " مثلاً بين فنلندا والدول الاسكندينافية لا يمارس قوة جذب على الاعضاء، فذلك يعود بقدر ما إلى التجانس الاقتصادي القائم بينها . فالأخشاب والمنتوجات الخشبية تشكل عنصراً هاماً في اقتصاد فنلندا واسوج ونروج، مما يعني أن هذه البلدان تتنافس على أسواق واحدة .

التناقض أو الاختلاف في الأوضاع والامكانات الاقتصادية التي تميز الاقطار او البلدان التي يمتد اليها الاتحاد لا يشكل اذن حجة ضد هذا الاتحاد، بل على العكس حجة له ، ودليلاً على ضرورته، لأن الاتحاد يجعل من الممكن لهذه الأوضاع ان تكمل بعضها البعض، وهذا ما تحتاجه التنمية الاقتصادية الفعالة . هذا التكامل هو، في الواقع ، ما تبغيه الأسواق التجارية المشتركة ومشاريع التعاون الاقتصادي بين مختلف الدول .

٦- يلازم الإسهام الشعبي في العملية الوحدوية التجارب الناجحة ، ويشكل جزءاً مهماً من الأرضية الايجابية التي تمهد الطريق لها . " إن أهم أسلوب سياسي ... في تدعيم الاتجاه الوحدوي في مراحل الحركة الوحدوية المتقدمة.. هو الاسهام الشعبي في هذه الحركة، او فيما بعد، في عملية الأنظمة الوحدوية " .

٧- التجاور الجغرافي بين الأقاليم او البلدان المدعوة الى الاتحاد كان ضروريا في تشكيل الاتحادات السياسية الجديدة وجزءاً من الخلفية الايجابية التي تمهد لها .

سياسة بريطانيا في افريقيا الغربية، مثلاً ، كانت غير مثمرة كسياسة فرنسا أو حتى كسياستها في افريقيا الشرقية في خلق الدمج الاقتصادي أو السياسي . فالاتحاد بين أربعة بلدان- ساحل الذهب (غانا)، نيجيريا، سياراليون، جامبيا- دون أية حدود جغرافية مشتركة كان بالكاد ممكنا . أما في أقاليم افريقيا الشرقية وافريقيا الوسطى البريطانية فقد تحققت درجة من الدمج أعلى بكثير . يعود هذا- بالإضافة الى خدمة مصلحة جماعات أوروبية ذات مصالح قوية في كينيا وروديسيا الجنوبية- الى تجاور هذه الأقاليم الجغرافي.

وكانت الفواصل المائية الكبيرة في اتحاد الوست إنديز أحد الأسباب التي قادت الى فشله ... الفاصل الجغرافي الكبير بين شرقي باكستان وغربيها كان من أهم الأسباب التي أدّت الى ولادة بانجلاديش . الفاصل الجغرافي الذي يتمثل في احتلال فلسطين كان أيضاً أحد الأسباب في انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة .

٨- يمكن لعملية التوحيد السياسي ان تبدأ وتنجح بين بلدان وأقاليم لم يكن بينها علاقات سابقة، او لم تكن مترابطة او لم تشكل نظاماً دولياً . ولكن كل الحركات الوحدوية التي درسناها بدأت بين بلدان كانت مترابطة سابقاً . الدول الجديدة- التي نشاهد الكثيرمنهاحالياً في آسيا وافريقيا- التي تتمتع بافضل خط في النجاح وتوكيد هويتها . هي التي تطابق الى حد كبيرحدود وحدات سياسية سابقة، والتي عرفت في ماضيها تجربة الحياة السياسية الواحدة في تركيب سياسي مستمر عبر أجيال عديدة ، أعطت أبناءها شعوراً بهوية واحدة في حدود رقعة أو منطقة ثقافية واحدة . لهذا نجد ان فكرة دولة واحدة سابقة مشارك فيها المجتمع المجزأ أو البلدان التي يتجه إليها الاتحاد كانت تعيد ذاتها في التجارب الوحدوية الناجحة، وتشكل عنصراً من أهم العناصر التي تمهد الطريق إلى الاتحاد .

٩- المنافع الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي كانت تتوقعها الأقاليم والحكومات المختلفة من الاتحاد السياسي المدعوة اليه، كانت جزءاً من الخلفية الوحدوية الايجابية للاتحادات الناجحة. فقد كان هناك شعور أو بالأحرى قناعة عامة ان الاتحاد سيخدم منافع ومصالح هذه الأقاليم والبلدان ولا يسيء إليها. هذه المنافع والمصالح التي تتوقعها هذه الأخيرة من الاتحاد الجديد قد تختلف من تجربة إلى أخرى، ولكنها كانت تلازم جميع هذه التجارب . طموح الولايات المتحدة الاميركية ، مثلاً ، إلى استعمار الغرب والمنافع الاقتصادية الهائلة التي كانت ترقبها من ذلك، أهم الأسباب كان من التي دفعتها الى الاتحاد . " الاندماج في اتحاد فيدرالي كان يقدم طريقة كبيرة الفاعلية في الامتداد الى الأراضي الغربية واستيطانها. المكافأة كانت الاستيلاء على قارة اذ استطاعت الولايات الشرقية أن تتميز فقط بالذكاء الكافي للتعاون في استيطانها " . في وحدة المانيا أو إيطاليا نرى، كمثل آخر ، أن المنافع العديدة التي تنتج عن توحيد إمارات صغيرة في اتحاد كبير ديناميكي كانت بين الأسباب الأساسية في تحقيق هذه الوحدة. وهكذا دواليك!..

١٠- بين الأسباب الإعدادية التي تمهد الطريق أمام عملية التوحيد السياسي وتدعمها نجد سياسة تعمل على توفير ميزات وفوائد الاتحاد للإقليم (أو الأقاليم) المدعو إلى الاتحاد ، وذلك قبل تحميله الالتزامات والأعباء التي تأتي مع الاتحاد . هذا يرسخ الاتحاد ويقيمه على أسس متينة. في نمو الاتحاد الفيدرالي الأميركي، مثلاً ، نرى أن الحكومة الاتحادية أعطت مواطني تكساس، وفيرمونت، جميع الامتيازات التي تأتي مع المواطنة الاميركية ولمدة طويلة دون أن تحملهم شيئاً من أعبائها . عندما أصبح سكان هاتين الولايتين معتادين على النظام الاتحادي، مرتبطين به، يعطونه ولاءهم، انضمت الولايتان اليه ، وكان السكان مستعدين لتحمل كل ما يُلزمهم به ذلك من واجبات وأعباء.

١١- تدل التجارب الوحدوية التاريخية من ناحية عامة، الى ان الحرب كانت معروفة أو منتشرة كأداة في النزاعات بين الأجزاء والحكومات التي كانت تتشكل منها فيما بعد الدولة الجديدة. ولكن، من ناحية أخرى، نرى أن اللجوء الى الحرب ينحسر ويضعف ويصبح أمراً شاذاً ومنحرفاً في نظر الأجزاء والحكومات في المرحلة التي تتقدم مباشرة إقامة الاتحاد والتي تمتد، كما نبه بعض المؤرخين، الى جيل أو

أكثر. بروز إقليم- قاعدة أو نواة من قطرين أو أكثر تقوم بدور القاعدة كان يقترن عادة بتقلص حدوث الحرب بين الأقاليم التي تتحد فيما بعد، ويصبح اللجوء إليها غيرشرعي .

١٢- كما تدلنا تجارب التاريخ الوحدوية الناجحة الى تمحور عام للمشاعر والمصالح حول القصد الوحدوي، الذي يحتل مكان الصدارة من مشاغل وسياسة الأقاليم التي يتحقق الاتحاد منها. فيصبح هذا القصد قاعدة النضال السياسي ويتحول الى القضية الأولى الجامعة لكل القضايا الأخرى. وكان هذا يعني أيضاً خلفية وحدوية تكشف عادة عن درجة من المرونة والانفتاح تميز الأقاليم والقيادات التي تشكل الاتحاد الجديد . عملية التوحيد تكون بالتالي عملية غيرناضجة اذا كانت الأقاليم المختلفة تميل الى ربط مصالحها بالإطار الإقليمي أكثر من الإطار الوحدوي . لهذا كان الاتحاد يدل في التجارب الناجحة على ظهور " وضع تُحول فيه شتى القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مؤقتاً على الأقل، الى الارتباط بقضية الوحدة " وكان يعني الالتزام به بصرف النظر عن أي ثمن ضروري يجب دفعه ، وذلك في خدمة الفوائد السياسية والاقتصادية والادارية والعسكرية ، الخ ... التي تنتج عنه.

قيام الاتحادات الناجحة كان يعني بالتالي : ان كل جهة كان يجب ان تعدل (أو يُفرض عليها تعديل) اتجاهاتها ومصالحها في خدمة الاتحاد، كما يجب على الأجهزة الاتحادية الجديدة ان تكون مرنة الى درجة تستطيع بها مصالحة الاختلافات والمواءمة بينها بدلاً من دفعها إلى التفاقم، أن العلاقات والروابط بين القيادات والفئات الحاكمة في الاقطار المختلفة التي يتشكل منها الاتحاد هي من النوع المنسجم والودي ، كما أن الموازنة بين تكاليف ومكاسب الاتحاد يجب ان تكون لمصلحة الاتحاد وليس لمصلحة إلغائه .

١٣- تتميزكل خلفية وحدوية إيجابية في الإعداد للاتحادات الناجحة بتيار فكري وحدوي قوي يتمثل بأعداد كبيرة من المفكرين والمثقفين الذين يدعون إلى الاتحاد . كان دور المفكرين أساسياً في كل وحدة سياسية ، وإلى درجة يمكن القول معها، أن الوحدات السياسية الجديدة وخصوصاً في العصر الحديث تحتاج إلى، وقد لا تكون ممكنة، دون ولاء المفكرين والمثقفين أوأقسام كبيرة منهم، ان سيرها لا يستقيم بفاعلية دون هذا الولاء .

من المستحيل تفسيرأو تقديم بيان عن اليقظات والوحدات القومية و الثورات الحديثة، بدءاً من الثورة الفرنسية، دون الرجوع إلى دور المفكرين . وبما أن عمل المفكر يعني ترجمة الوضع التاريخي الانساني، فإنه يميل أكثر من غيره الى الانشغال بالنواحي المثيرة، غير العادية بالتحول، الصراع، التناقضات والتوترات الاجتماعية والسياسية . لهذا فهو يتميز بعنصرمثالي أي بتصور للانسان، المجتمع أو الخير يتغاير بوضوح مع الوضع القائم . يمثل بالمفكرين أو يفترض بهم تمثيل اعلى اشكال الوعي الذي يتوفر في مجتمع ما، وهو وعي يُفترض به عندما يصح أن يدرك طبيعة التحول الاجتماعي التاريخي ، وأن يميزهم بقدرة على الرؤيا الموضوعية والنقد الذي يمكن ان يتحول إلى فكر مقاوم للوضع القائم.

كما تكشف الخلفية الوحدوية عن نمو اقتصادي بارز في كثير من الأوضاع . هذا لا يعني أن هذا النمو يجب ان يتوفر في جميع الأجزاء كي يشكل ظاهرة مميزة لتلك الخلفية ، بل ان يبرز على الأقل في الإقليم- القاعدة أو الأقطار التي تتشكل منها الدولة النواة .. نسبة النمو الاقتصادي العالية في بروسيا، بيدمونت، وانكلترا مباشرة قبل تحقيق التوحيد السياسي وفي اثنائه ، تقدم مثلاً واضحاً على ذلك .

١٤- ضرورة نمو الإمكانات السياسية في أهم الأجزاء المشاركة في عملية التوحيد ، وخصوصاً الإقليم- القاعدة الذي يقود هذه العملية . ففي المانيا، مثلاً ، نجد أن المرحلة التي تقدمت مباشرة على الوحدة السياسية كانت تتميز، بدءاً من عام ١٨٠٦ ، بنمو مستمر لإمكانات بروسيا العسكرية والسياسية والإدارية . كما نجد أيضاً نمواً مماثلاً ، وإن لم يكن بالدرجة نفسها في كثير من الأقاليم الالمانية الأخرى . ونجد الظاهرة نفسها في ايطاليا، لأن قدرة بيدمونتي كانت تتقدم باستمرار في العقود الأخيرة السابقة لعملية التوحيد . وفي الولايات المتحدة نجد زيادة كبيرة في إمكانات ولايات فرجينيا، بنسيلفانيا، وماسشوستس التي مهدت الطريق أولاً للكونفيدارسيون، ومن ثم للاتحاد.

١٥- بين الأسباب الاعدادية لنجاح عملية الدمج السياسي نجد أيضاً توفر حد من القدرة المتبادلة على الإنباء بسلوك الأقاليم المختلفة أو حكوماتها. فهذه الأقاليم يجب ان تكون قادرة على ان تنتظر من بعضها البعض مواقف مماثلة متشابهة على الأقل فيما يتعلق بالقضايا الأساسية التي تواجهها، وبذلك يستطيع كل منها الانباء بسلوك الآخرين والاعتماد عليه في هذه القضايا. الوضع الذي لا يكشف عن هذا يعثر عادة العملية الوحدوية.

١٦- قدرة القيادة الوحدوية على إحكام علاقتها مع أكثرية الشعب أو مع أهم الطبقات، وتوفير تيارات فكرية وإيديولوجية تستطيع كسب ولائها وتعبئتها. هذا يعني بكلمة أخرى قدرة القيادة على توسيع قواعدها الطبقية والشعبية. في الولايات المتحدة، مثلاً ، نجد هذا الشرط متوفراً في أول حكومة اتحادية، وبشكل خاص في قيادة جورج واشنطن كرمز للاتحاد الجديد . فقد عرف واشنطن كيف يحافظ على ولاء طبقته ، وكيف يكسب ، في الوقت نفسه، ولاء المزارعين الفقراء وجماعات الحدود. انتقال قيادة الطبقة الارستقراطية البروسية في العقدين السابقين للوحدة من رجال كانوا يرفضون التعاون مع الطبقات الوسطى إلى رجل كبيسمارك، الذي استطاع في الوقت نغسه الاحتفاظ باحترام أقرانه في الطبقة الارستقراطية وكسب دعم الطبقات الوسطى، يقدم مثلاً ثانياً . " الديمقراطية الجديدة " التي اعتمدتها الماوية ليس فقط في تحقيق الثورة الاجتماعية، بل في تحرير الصين بغية توحيدها توفر لنا مثلاً آخر في اوضاع أخرى . هذه الظاهرة تكرر ذاتها في جميع التجارب الوحدوية تقريباً ، وهي من أهم الأسباب الاعدادية في التمهيد الى الاتحاد.

١٧- من المهم أيضاً في إعداد الطريق لنجاح العملية الوحدوية أن يأخذ هنا وهناك في بعض الأحيان والمناسبات، كل إقليم وبقدر ما تسمح به الأوضاع بعض المبادرات في دفع هذه العملية، التضحية في سبيلها ودعمها، كما يجب أيضاً ، من ناحية أخرى، إعطاء كل إقليم، عندما يكون ذلك ممكناً ، نوعاً من

التقدير الخاص وذلك يتبني وتقديم بعض رموزه وممثليه . في عملية توحيد اسكتلندا وويلز مع انكلترا، مثلاً نجد أن أسرة ذات أصل والزي ، وهي أسرة التيودورز، وأخرى من أصل اسكتلندي، وهي أسرة الستيوارت، ارتفعتا الى العرش البريطاني في مراحل مختلفة من عملية التوحيد .

إن روبرت لي، قائد الولايات الجنوبية في الحرب الأهلية الأميركية، أصبح موضع احترام وتقدير في الولايات الشمالية نفسها، وكذلك لينكولن الذي نال تقديراً مماثلاً في الجنوب. الكونفيدراسيون السويسري أخذ اسمه نفسه من أصغر كانتون فيه ، وهو كانتون شفيتز الزراعي، وليس من أكبر كانتوناته ، بيرني أو زوريخ . وفي توحيد ألمانيا وإيطاليا، قبلت بروسيا وبيدمونتي رموز أقاليم أخرى كرموزجديدة بدلا من التوكيد على أولوية رموزها.

١٨- يشكل توفر لغة واحدة أحد الأسباب الإعدادية الأهم ، وهو سبب لا يتقدم عليه من ناحية عامة أي سبب آخر في الأهمية . اللغة الواحدة تضيف كثيراً الى قوة هذه الأسباب لأنها تعبر عن، ترمز إلى، وتؤكد هوية قومية واحدة مشتركة بين الاقاليم المختلفة.

هذه العناصر أو الاتجاهات الوحدوية التي تشكل ما أسميناه بالأسباب الاعدادية كانت تمهد الطريق وترافق بأشكال مختلفة تجارب التاريخ الوحدوية الناجحة . إن لم تكن كلها متوفرة- وهذا ما يحدث عادة- يجب أن يتوفرقسم منها وخصوصاً التماثل الإيديولوجي ، التماثل السياسي الاجتماعي ، ولغة واحدة ، في الأوضاع التي تتقدم عملية التوحيد ، أو ترافق إقامة اتحاد سياسي جديد. تدل تجارب التاريخ على أنه من الممكن تحقيق الكثيرمنها، أو بالأحرى، أن الكثيرمنها يتحقق بعد إقامة الاتحاد الجديد.



لقد صدرت بعض الدراسات السوسيولوجية في الغرب حول الظاهرة الوحدوية في التاريخ، ووصلت إلى نتائج كانت تدعم النتائج التي قدمناها في هذه الدراسة ، وخصوصاً الأسباب الاعدادية. الملاحظات التالية تشير إلى أهم هذه الدراسات .

لاحظ هوير، مثلاً ، وكان يفكر بشكل خاص باتحادات الولايات المتحدة، سويسرا، كندا، وأوستراليا، أن ظهور الرغبة في الاتحاد كان يقترن بالعناصر الستة التالية في كل تجربة اتحادية:

١- شعور بخطر عسكري وما يترتب عليه من حاجة الى دفاع مشترك.

٢- توقع نتائج اقتصادية طيبة من الاتحاد.

٣- رغبة في الاستقلال وقناعة بأن الاستقلال ممكن فقط عن طريق الاتحاد.

٤- درجة من المشاركة السياسية السابقة للاتحاد بين اعضائه، إما على شكل تحالف أو كونفيدراسيون كما حدث بين الولايات المتحدة أو الكانتونات السويسرية ، وإما كأجزاء في امبراطورية واحدة كما نرى في أوستراليا وكندا .

٥- تجاور جغرافي.

٦- تماثل في الأنظمة السياسية.

ويستنتج هوير أنه من غير المحتمل بأن ترغب بعض البلدان في الاتحاد إن لم تكن هذه العناصر أو معظمها متوفرة لديها. يمكن لهذه العناصر أن تقسم الى نوعين، نوع يمهد للاتحاد، ويشمل المشاركة السياسية، التجاور الجغرافي ، وتماثل الأنظمة السياسية ، ونوع إغرائي ويشمل العناصر الأخرى وهي الحاجة الى دفاع موحد، الرغبة في الاستقلال، والأمل بتحسن اقتصادي. أما من حيث اهمية هذه العناصر النسبية، فيرى هوير أن " الحاجة الى الدفاع تأتي في طليعة قائمة الأسباب التي تحرض على الاتحاد . من حيث تركيب الأولويات تأتي الرغبة في الاستقلال في الدرجة الثانية، وتوقع منافع اقتصادية في الدرجة الثالثة " .

كارل دويتش وآخرون أعدوا دراسة أخرى خلصوا منها إلى تحديد الأسباب التالية بوصفها اهم الاسباب أو الاتجاهات الواحدة التي تُعد وتمهد الطريق أمام الاتحادات السياسية الناجحة : علاقة وثيقة أو اهتمام متبادل بين الأعضاء، انسجام في القيم، آمال في مكاسب مشتركة، تجاوب متبادل، هوية مشتركة، ولاء مشترك . دويتش وزملاؤه وجدوا أن توفر قيم واحدة مماثلة، و التجاوب الفعال بين الأقطار أو الحكومات التي تستجيب للاتحاد، يشكلان أهم هذه الأسباب.

اما كراين برينتون فقد وجد، أولاً، أن العامل الاقتصادي هو من أهم العوامل في دفع العملية الوحدوية وترسيخها عند تحقيقها . فالأجزاء التي يتشكل منها الاتحاد السياسي الجديد تكتشف ان مصالحها الاقتصادية تتفق مع أو تحتاج الى هذا الاتحاد ؛ ثانياً ، ان كل عملية وحدوية يجب أن تحترم وتراعي مصالح ومشاعر الأقاليم التي تتشكل منها الدولة الجديدة ، فلا تترك أية جروح متقيحة ؛ ثالثاً ، ضرورة توفر ولاء شعبي عام للوحدة التي تتجاوز الحدود القطرية ؛ رابعاً ، درجة محدودة من الاستقلال المحلى وخصوصاً حيث يوجد تقليد مستقل سابق ؛ وخامساً ، عدم وجود جماعات وطبقات ترى أن الدولة الجديدة لا تنسجم مع وجودها السياسي ومصالحها الخاصة . واكد إتزيوني وآخرون على العناصر التالية:

١- ازدياد الروابط والاتصالات بين الأقاليم المدعوة إلي الوحدة.

٢- ضرورة الوحدة الجغرافية أو بالأحرى التجاور الجغرافي بين الأجزاء التي يتشكل الاتحاد منها.

٣- الحركات الاتحادية التي تعتمد نواة واحدة تنجح أكثر من تلك التي تعتمد أو تواجه أكثر من نواة واحدة .

٤- ضرورة دفاع مشترك ضد خطرخارجي .

٥- بقدر ما تزيد العلاقات والقيم السياسية والايديولوجية التي تربط الاتحاد ، بقدر ما تزيد درجة نجاحه وثباته .

٦- يكون الاتحاد أكثر سهولة وفاعلية ونجاحاً عندما تزداد درجة التجاوب بين الدولة الجديدة وبين الأقاليم والجماهير.

٧- كلما اتسعت وتعددت القطاعات الاقتصادية التي يسودها ويمارسها الاتحاد ، اتسعت واشتدت سلطة وقوة الأخير.

٨- نجاح الاتحاد واستقراره يتعثران، والاتحاد قد يفشل إن لم تكن طرق التمثيل السياسي الصحيح مفتوحة أمام الأقاليم والشعب والقوى السياسية التي يمثلها.

٩- السلطة والقوى التي يحتاجها الاتحاد السياسي تكون في البداية أكثر صعوبة مما يحتاجه فيما بعد عندما تستقر قواعده .

لا تتناقض هذه النتائج، كما يرى القارىء، مع النتائج التي توصلنا إليها في هذه الدراسة. الاستنتاجات التي وصلت إليها دراسة هوير- على الرغم من رجوعها الى عدد قليل من التجارب الوحدوية- كانت افضلها من حيث الارتباط المباشر بالموضوع، من حيث الوضوح، التركيز، وأهمية القوانين التي وصل اليها. عندما تصل دراسات مختلفة تنطلق من زوايا مختلفة إلى نتائج متشابهة أوغيرمتناقضة - على الأقل- حول موضوع ما، فذلك يشير بشكل اكثر قوة الى الصحة العلمية التي تميز هذه النتائج .



اذا عدنا الآن الى بعض الاتحادات السياسية الفاشلة والقينا نظرة سريعة على الأسباب التي أدّت إلى فشلها، نرى أنها تدل هي الأخرى أيضاً على صحة هذه الأسباب الإعدادية وعلى ضرورة توفرها أو توفر قسم كبيرمنها كي يمكن للاتحاد النجاح .

نجاح الاتحاد بين انكلترا واسكتلندا شجع على الاتحاد بين انكلترا وارلندا عام ١٨٠٠ . ولكن بعد قرن ونيف من الخصام فشل الاتحاد وانفصلت ارلندا عن بريطانيا. الأسباب التي أدت الى ذلك كانت :

١- التجربة المريرة التي عانتها ارلندا في الماضي في ظل السيادة الانكليزية منذ بدايتها.

٢- شعور بالتافوق شائع (او بالأحرى كان شائعاً لأن انهيار بريطانيا الحالي لا يترك مجالاً كبيراً لهذا الشعور) بين الإنكليز.

٣- لم تكن هناك طبقة وسطى قوية في ارلندا. فقد كان ينقص هذه الأخيرة الطبقات التي كانت حاسمة في انجاز الاتحاد بين اسكتلندا وانكلترا.

اما اتحاد بلجيكا وهولندا الذي تحقق عام ١٨١٤ فقد فشل للأسباب التالية :

١- كانت هوية هولندا العامة تختلف عن هوية بلجيكا وذلك بسبب استقلالها الطويل، وازدهارها، والحرية التي ينعم بها السكان.

٢- تزمت هولندا الإيديولوجي الذي يعود إلى عزلتها الطويلة عن المبادىء التي كانت تسود أوروبا آنذاك.

٣- التناقض الديني بين هولندا البروتستانتية وبلجيكا الكاثوليكية .

٤- لم تكن هناك مصالح مشتركة واحدة. هولندا كانت تمارس مبدأ التجارة الحرة لأنها ضحت بالصناعة لأجل التجارة . بلجيكا لم تكن معتادة هذا المبدأ في التجارة الحرة.

٥- المناطق البلجيكية كانت دون تجارة، وكانت قد بدأت حركة تنمية صناعية كبيرة تتطلب معاملة خاصة تختلف عن تلك التي تتطلبها مصالح المناطق الهولندية الشمالية .

٦- الاتحاد شُكل دون استشارة سكان بلجيكا، نتيجة معاهدة باريس، ومعاهدة لندن، في ايار/ مايو وحزيران/ يونيو من عام ١٨١٤. لهذا نفر منه كثيرون .

٧- عاملت هولندا بلجيكا من البداية وكأنها مستعمرة، فاحتفظت لذاتها بإدارة فروع الجهاز الإداري.

بكلمة مختصرة، إن رجال السياسة الذين اجتمعوا في فيينا عام ١٨١٤ وخلقوا الأتحاد الجديد بين هولندا وبلجيكا كانوا يريدون خلق حاجز ضد تجدد الفتوحات الفرنسية ولكنهم نسوا التناقضات والاختلافات الايديولوجية، والسياسية، واللغوية ، والاقتصادية، والدينية، التي جعلت هذا الاتحاد غير ثابت وحتى غير طبيعي .

اما اتحاد النروج والسويد فقد تعثر في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي ، ثم انتهى بسبب الخلافات الإيديولوجية والسياسية بين الطرفين . فالنروج كانت تتميز بقاعدة ليبرالية لم تكن تتوفر للسويد التي كانت تخضع آنذاك لارستقراطية إقطاعية محافظة. لهذا خاف الليبراليون من الاتحاد تماماً كما خاف حزب العمال البريطاني عام ١٩٦٢ من الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة حيث كانت العناصر المحافظة أقوى مما هي عليه في بريطانيا .

نشأ الخلاف أولاً لأن النروج لم تكن تشارك في السيطرة على الشؤون الخارجية ، ورأت في ذلك تعبيراً عن وضعها الثانوي في الاتحاد. هذا الواقع حال، مثلاً ، دون البواخر النروجية ومصالح أخرى، ودون

التمتع بالمراعاة التي كان يرغب بها النروجيون . النروج كانت أيضاً قد أصبحت ديمقراطية صحيحة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولهذا كان هناك تناقض مزعج بين الأنظمة والممارسة السياسية فيها ، من ناحية، وبين الأنظمة والممارسة السياسية المحافظة في السويد من ناحية أخرى . واصبح هذا التناقض شاقاً بشكل خاص حول نهاية القرن الماضي عندما حصلت النروج على حكومة وزارية مسؤولة أمام الرأي العام وأمام المجلس التشريعي. في ذلك الوقت أصبح من الواضح أن النروج لن تصبح راضية بتحقيق المساواة في الاتحاد، ولهذا حدث الانفصال وانتهى الاتحاد عام ١٩٠٥، بإعلان من الحكومة والمجلس التشريعي في النروج .

اما اسباب انهيار " اتحاد الوست إنديز " عام ١٩٦٤، بعد مدة قصيرة من تشكيله ، فكانت :

١- فقدان التجاور الجغرافي .

٢- في البداية، أي بداية الحركة الاتحادية، كانت جميع الجزر تتوقع من الاتحاد مكاسب اقتصادية، ولكن فما بعد أصبح هذا الأمل يقتصر على الجزر الصغيرة فقط .

٣- كان الشعور بقومية، بهوية واحدة عامة مفقوداً . الشعور القومي الذي كان يتركزعلى الجزيرة كان يتقدم على الشعور العام الذي يتركزعلى " الوست إنديز" .

٤- عجز الاتحاد عن أية انجازات مهمة . المراقبون الذين درسوا الوضع كانوا عاجزين عن إبراز إنجاز واحد، باستثناء المحكمة العليا. في جامايكا وترينيداد، أكبر الجزر وأغناها، كان الوضع أسوا لأنهما كانتا في الواقع عاجزتين عن الإشارة الى أية فائدة واضحة لهما في الاتحاد.

٥- اقترن الاتحاد، عند نهايته، بالمشاحنات والخصومات والتهديدات المختلفة.

٦- وحدة المصالح الاقتصادية كانت مفقودة بين الاعضاء. اذ كانوا ينتجون السلع الزراعية نفسها تقريباً ، ويتطلعون إلى الأسواق نفسها. هذا كان يعني تنافس هذه المصالح وليس وحدتها.

التجربة الاتحادية بين مالايو وسينغافوره فشلت . السبب الأساسي كان التناقض الموجود بين العنصر المالايى. والعناصر الأخرى وخصوصاً الصيني، المالايو اتجهت إلى فرض لغتها وإحلالها محل الانكليزية ، وهذا ما رفضته سينغافوره التي كانت تنادي " بماليزيا ماليزية " وتعمل على تعبئة جميع العناصر الأخرى عن طريق الوعد أو التبشير بحقوق متساوية للجميع، ونهاية ماليزيا التي تتركز على العنصر المالايى . طردت سينغافورة من الاتحاد لأنها، بلسان أحد قادتها، رفضت وحدة ماليزيا على أساس مالايى . أهم سبب للفشل كان، كما يتضح، المشكلة الأثنية. كل جانب من جوانب الخصام بين الطرفين- الاقتصادي، السياسي ، والإيديولوجي- كان في الواقع امتداداً لهذه المشكلة ، ويتلون بها.

اتحاد المالي الذي تشكل من السودان (مالي حالياً) والسينيغال في بداية عام ١٩٥٩ انهار وانتهى بعد مدة قصيرة (عام ونصف) وتعود اسباب هذا الانهيار الى العوامل التالية :

١- غياب شعور بهوية واحدة . كان شعب السينيغال ينظر بازدراء الى شعب السودان .

٢- كان الاتحاد بالنسبة للجماهير دون معنى ، ولم يكن هناك من ينظر إليه كضرورة.

٣- كان لكل بلد لغة خاصة به، " البامبرا " في السودان، و " الوالوف " في السينيغال .

٤- لم يستطع أحد القائدين، سينغور أو موديبوكيتا، أن يكسب ولاء شعبياً عاماً يمتد عبر حدود البلدين .

٥- غياب التماثل الاجتماعي الإيديولوجي . فالسودان كان قد سحق سلطة رؤساء القبائل، وكان يحكمه حزب يتمتع بدعم شعبي كبير ومقاصد ثورية واضحة. اما السينيغال فكان يخضع لرؤساء القبائل والجماعات او الهياراكا الدينية ذات المقاصد المحافظة . السودان بلد فقير، وكان يفرض على الوزراء فيه العمل في الحقول ثلاثة أسابيع كل عام . وكان البسكان يتطوعون ايضاً للعمل في مشاريع حكومية . السودان كان بكلمة مختصرة بلداً فقيراً متقشفاً ، ذا نظام يساري يحاول صادقاً تحرير الشعب من الفقر. اما السينيغال فكان يمثل صورة مناقضة في كل شيء تقريباً .

٦- خافت السينيغال، الأكبر ثروة، على مواردها من الاتحاد.

٧- تشديد قادة السودان على دولة وحدية (Unitary)، كدولة " منطقية تماماً، وفي الواقع، محتومة تاريخياً " قاد إلى انهيار الاتحاد. رأى البعض في الواقع " أن التفسير الأبسط هو شعور قادة السينيغال بان استمرار الاتحاد يهدد قواعدهم السياسية المحلية، وبالتالي قدرتهم على الاستمرار في ممارسة دور ذي معنى في حياة افريقيا السياسية " .

لم يكن فشل " اتحاد المالي " ظاهرة منفصلة، بل جزءاً من اتجاه عام في افريقيا نحو البعثرة السياسية التي كانت تزداد منذ بداية الاستقلال . فالاتحادات التي كانت قائمة قبل ذلك انهارت، والمحاولات الاتحادية الجديدة فشلت . فيما يتعلق بالاولى، لا يمكن إذن القول أنها فشلت لأنها كانت من خلق الاستعمار الذي أرادها لخدمة مصالحه ، لأن المحاولات الجديدة انتهت مثلها إلى الفشل . ثم ان الأجزاء التي حلت محل تلك الاتحادات ، كدول جديدة ، كانت هي الأخرى من خلق الاستعمار.

الميل إلى اتحاد افريقي تحقق فقط في الكاميرون، والصومال .

في الصومال اتحد الجزء الذي كان تحت الوصاية البريطانية مع الجزء الذي كان تحت وصاية الأمم المتحدة (الذي كانت تديره إيطاليا)، كالمنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية في الجمهورية الصومالية. يعود نجاح الاتحاد أولاً إلى توفر إقليم – قاعدة ، أي إلى اعتراف المنطقة الشمالية بدور المنطقة أو الاقليم الجنوبي القيادي والرئيسي . الاقليم الأخير كان يتميز عن الاقليم الشمالي ويتقدم عليه من ناحية اقتصادية وسياسية واجتماعية . الضغط الأكبر نحو الاتحاد جاء في الواقع من الشمال على الرغم من أن جزءاً من الموظفين والقادة الأكثر ثقافة كانوا يشعرون أن أمامهم طريقاً طويلاً قبل ان يحققوا

درجة من المساواة مع الجنوب من حيث النمو والتقدم . وكان الشماليون يعتقدون أن الجنوب اكثر تقدماً وأن سكانه أكثركفاءة في تحمل اعباء الاستقلال .

عندما اعلنت الجمهورية في تموز/ يوليو١٩٦٠، اندمجت الجمعيتان التشريعتان في المنطقتين، البريطانية والأيطالية ، أو في الاقليم الشمالي والاقليم الجنوبي ، و شكلتا جمعية وطنية واحدة في موقاديشو، كان عدد أعضائها مائة وثلاثة وعشرين عضواً ، ٣٣من الشمال ، و ٩٠ من الجنوب. عاصمة السياسة والتجارة أصبحت في الجنوب ، والشماليون اضطروا الى التكيف مع هذا الوضع، وتكييف تجربتهم الخاصة في ظل الاستعمار البريطاني مع التقاليد التي تعود إلى تجربة الجنوب الخاصة في ظل الاستعمار الايطالي . حل المشاكل العديدة التي انطوت عليها هذه العملية وخصوصاً تلك التي تعود الى ارتباط الشماليين بالانكليزية والجنوبيين بالايطالية سُهل الى حدّ ما كنتيجة لعشرسنوات من الادارة البريطانية (١٩٤١- ١٩٥٠) في الجنوب اثر هزيمة ايطاليا في شرقي إفريقيا أثناء الحرب . بداية الاتحاد كانت مضطربة بسبب هذا الخلاف، بين التقليدين اللذين يعودان الى تجربتين استعماريتين مختلفتين ، وبسبب تذمر الكثير من الفئات السياسية والادارية والتجارية السائدة في الشمال ، الذين وجدوا أن عليهم ، كي يدعموا مصالحهم، أن يعملوا عن طريق موقاديشو. العامان الأولان من الاتحاد واجها ظواهر استياء عديدة في الشمال كان أكثرها دراماتيكية محاولة انقلاب فاشلة قام بها بعض الضباط . ولكن في عام ١٩٦٣ قبل الاقليم الشمالي نهائياً بالجمهورية كإطار يتابع فيه مصالحه وحياته السياسية .

وجود خطرخارجي كان متوفراً أيضاً لتجربة الصومال، وكان يتمثل بشكل خاص في الحبشة التي ضمت إليها مناطق صومالية تسكنها قبائل تعتبر نفسها جزءاً من سكان أو شعب الصومال. هذا الخطر الخارجي ، الذي كان يتمثل أيضاً في كينيا ضبط الخلافات والتناقضات الداخلية وجمدها تماماً كما كان النضال ضد الاستعمار الخارجي يحفظ الوحدة الداخلية في مرحلة التحرر من الاستعمار.

بالاضافة الى الاقليم- القاعدة والخطر الخارجي يمكن القول أيضاً أن شخصنة السلطة التي تخترق الحدود الإقليمية توفرت إلى حد ما لهذه التجربة . فعندما تشكلت الجمعية الوطنية الاتحادية في موقاديشو، انتخبت أدان عبد العثمان وهو سياسي يتميز باحترام كبير في الاقليمين، رئيساً مؤقتاً للجمهورية . بعد عام جرت انتخابات عامة ثبتته نهائياً في الرئاسة .

هنا تجدر الاشارة الى عامل ساعد جداً في نجاح هذه التجربة وهو أن الاقليم الشمالي انتقل إلى الاستقلال رأساً كجزء من دولة الصومال الجديدة . هذا يعنى أنه لم يكن يواجه تجربة إقليمية مستقلة ، وبالتالي صعوبات التغلب على الأنظمة والأجهزة والميول والمشاعر، الخ.. التي تفرزها وتقترن بها.

بالإضافة الى هذه القوانين الأساسية التي توفرت، نجد أيضاً بعض الأسباب الاعدادية المهمة التي ساعدت في نجاح هذه التجربة ، وهي :

١- درجة من الوحدة الأثنية غير عادية في الدول الإفريقية .

٢- لغة واحدة وشعور قومي ثقافي تقليدي على الرغم من الفواصل الداخلية العديدة .

٣- لقاء إيديولوجي عميق في الاسلام الذي وصل إليهم منذ ألف عام .

٤- ثقافة رعوية متماثلة.

" جمهورية الكاميرون الاتحادية " تتكون، بموجب دستور ١٩٦١ من دولتين، كاميرون الشرقية، وكاميرون الغربية. وتستخدم لغتين رسميتين، الانكليزية والفرنسية . الكاميرون الفرنسية أو الشرقية كانت أكبر حجما وثروة من الثانية ، ولذلك وفرت الإقليم- القاعدة للاتحاد. مساحتها كانت عشرة أضعاف مساحة الكاميرون الغربية وعدد سكانها كان ٣,٢٠٠,٠٠٠ بينما عدد سكان الأخيرة كان ٢٤,٠٠٠ فقط .

انتقلت الكاميرون التي كانت تحكمها بريطانيا رأساً، كالصومال الشمالي الذي كان يخضع لبريطانيا أيضاً ، إلى الاستقلال كجزء من الدولة الجديدة . هذا ساعد كثيراً في نجاح التجربة الوحدوية.

كما افادت الكاميرون أيضاً من درجة عالية من الانسجام الأثني ومن شعور عام بأن الحدود القديمة التي أقامتها المانيا قبل الحرب العالمية الأولى كانت الحدود الشرعية .

ويعود نجاح الاتحاد، بقدرما أيضاً ، إلى كون الأعمال والنشاطات السياسية المحلية بقيت منفصلة في كل جزء بسبب اختلاف اللغة الأجنبية التى يستخدمها كلاهما . فطالما أن الانكليزية في لغة السياسة الأولى في الكاميرون الجنوبية ، فإن قادتها لا يشعرون أنهم مهددون من قبل الإقليم الآخر الأقوى .

بالاضافة الى تجربة الصومال، وتجربة الكاميرون يمكن الاشارة الى تجربة تانجانيقا وزنجبار اللذين شكلا اتحاد تانزانيا الصغير. هنا نجد أيضاً اقليماً كبيراً - تانجانيقا- يقوم بدور القاعدة بالنسبة لإقليم آخر صغير. ثم إن الاتحاد تحقق بعد الاعتراف بقيادة يوليوس نياريري،وذلك بعد ثورة في زنجبار جعلت نظامها مماثلاً لنظام تانجانيقا ، فوفرت بذلك التماثل الإيديولوجي والسياسي كأساس آخر للاتحاد .

لقد نجحت هذه الاتحادات لأن القوانين الوحدوية الأساسية توفرت لها، بالأضافة الى عدد من الأسباب الإعدادية. المحاولات الاتحادية الأخرى العديدة فشلت لأن ما توفر لها من أرضية ايجابية كان يقتصر على قسم من الأسباب الإعدادية ولكن دون القوانين الأساسية التي لم تتوفر لها. هذا يشير مرة أخرى إلى أولوية وأهمية القوانين الأساسية القصوى في الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة .

خاتمة

التخلف العربي والعمل الوحدوي

عندما نتطلع إلى الواقع العربي في ضوء النظرية الوحدوية العلمية الجامعة لتجارب التاريخ الوحدوية التي قدمتها هذه الدراسة، نرى أن ما يحتاجه هذا الواقع كي يفرز وضعية وحدوية إيجابية تدفع نحو الوحدة ليست الأسباب الإعدادية بل القوانين الوحدوية الأساسية. فالأولى متوفرة بشكل تام تقريباً على الأقل في الأقطار التي تسودها أو سادتها الأنظمة التي درجنا على تسميتها بالأنظمة التقدمية أو " الثورية ".

التماثل السياسي الاجتماعي والايديولوجي يتوفر في هذه الأقطار. والانقسامات الايديولوجية العامة عبر الأقطار العربية تتوفر أيضاً للعمل الوحدوي . فهناك العديد من الحركات السياسية التي تعمل عبر الحدود القطرية، كما أن جميع الأحزاب تقريباً تعترف بضرورة الوحدة أو لا تمانع بشكل من أشكال الاتحاد. المشاكل والقضايا السياسية والايديولوجية والاجتماعية متماثلة عبر الوطن العربي، والتناقضات التي تكشف عنها واحدة .

الاتصالات والمعاملات والروابط المشتركة المتبادلة المتعددة متوفرة أيضاً في جميع الميادين ، من الصعيد الاقتصادي إلى الصعيد الثقافي . الصحافة العربية تعبر عن ذلك بشكل واضح، وهي تتجه مع المنشورات العربية الأخرى إلى القراء العرب عبر الوطن العربي ، وليس إلى أي قطر معين. المؤتمرات الفكرية والعلمية متواصلة الانعقاد تقريباً في العواصم العربية المختلفة.

التغاير الاقتصادي متوفر أيضاً في الوطن العربي . اتساع رقعة هذا الوطن وما يقترن بها من موارد طبيعية وإمكانات اقتصادية مختلفة تجعل، في الواقع، من التكامل الاقتصادي الذي توفره دولة الوحدة دافعاً قوياً نحوها. لا شك أن الاختلافات في الثروة العامة كانت من أهم الأسباب التي تعثر أوتؤدي إلى فشل الاتحادات السياسية . الدخل الفردي العالي نسبياً في نيجيريا وفي ساحل العاج، مثلاً، كان أحد الأسباب الأساسية التي منعتهما من الانضمام إلى اتحاد غانا- جينيه- مالي، وهو الذي دفع جامايكا الى الانسحاب من " اتحاد الوست انديز "، قاد كاتنجا الى محاولة الانفصال عن جمهورية الكونغو، وكان وراء انفصال السينيغال والجينيه عن مالي، الخ...

في أمثلة كهذه كان الاتحاد يعني " تسطيحاً " بين المواطنين قبل ان يكون هؤلاء قد التزموا نهائياً به. ولكن اذا استثنينا الأقطار النفطية تزول هذه الاختلافات، لأن الأقطار الأخرى متقاربة من حيث الدخل الفردي العام . من ناحية أخرى، يمكن القول أن هناك أمثلة تدل على اتحادات موجودة أو متطورة رغم اختلافات داخلية كبيرة في الدخل، كما أن هناك أيضاً أدلة على أن اختلافات كهذه، كانت بين العوامل التي عثرت أو فشلت المحاولات الاتحادية... المسألة التي تحتاج الى دراسة ليس فيما إذا كانت الاختلافات في الثروة تعثر قيام الاتحادات السياسية. بل في أية اوضاع تعثر أولا تعثر هذه الاتحادات، وإلى أية درجة " .

عند مراجعة هذه الظاهرة في التجارب الوحدوية يمكن القول أن هذه الاختلافات تعثر أو يمكن لها أن تعثر بدء العمل في إقامة الاتحاد أو بداية الاتحاد. ولكن اذا افترضنا جدلاً أنها تعثر الاتحاد بين الأقطار النفطية ، والأقطار الأخرى، فإنها ولا شك لا تعثر اتحاد الأخيرة، أو الانتقال من ذلك الى الدولة الواحدة التي تشمل الوطن العربي ككل . الأقطار العربية المرشحة الى الاتحاد أولاً هى الأقطار التى تحيط بالأرض المحتلة . لهذا فإذا تحقق ذلك واتحدت، مثلا، مصر وسوريا ومن ثم انضمت إليهما الأردن والسودان ، وهي أقطار فقيرة، فإن إقامة دولة عربية ثورية كبيرة قوية في هذا الموقع الاستراتيجي تستطيع، مباشرة أو غيرمباشرة، ان تسحق سحقاً الأقطار النفطية وتضمها الى الدولة الجديدة . إن أهم خصيصة من هذه الناحية هى، في الواقع، درجة التجانس الاجتماعي والأيديولوجي السياسي بين الكيانات المدعوة الى الاتحاد، اذ يظهر انه بقدر ما يقل هذا التجانس بقدر ما تقل قدرتهما على الاندماج القوي .

تعتبر الأقطار العربية أيضاً أن اللجوء الى الحرب فما بينها أمر شاذ لا يجب أن يحدث ، وهو قتال أخوة لا يجوز. هذه الاقطار لا تعرف، في الواقع، الحرب بينها. القليل من الحروب التي عرفتها كانت من النوع الثوري الذي كان يحدث باسم مقاصد مشتركة تشارك فيها قطاعات مختلفة من الشعب من الداخل والخارج.

الإسهام الشعبي في التجربة الوحدوية يتوفر أيضاً لأنه كان ولا يزال جزءاً من العمل الوحدوي العربي . الاستعداد الوحدوي بين جماهير الشعب العربي موجود على الرغم من أن الانتماءات والروابط التقليدية لا تزال تحول دون اتخاذ هذه الجماهير لمبادرات وحدوية ثابتة. في أواخر الخمسينات وأثناء الستينات، عندما توفرت لهذه الجماهير صورة القائد- الرمز في عبد الناصر، رأينا صورة واضحة قوية عن هذا الاستعداد.

التجاور الجغرافي يتوفرأيضاً للعمل الوحدوي العربي.

اذا استثنينا الفاصل غير الطبيعي والمصطنع الذي يقوم في الاحتلال الصهيوني، فإن التجاور الجغرافي لا يتوفر لنا فقط ، بل هومن النوع الذي لا يجد اي حاجزطبيعي جدي يعثره. الوحدة الجغرافية مهمة إلى درجة يمكن فيها الشك بإمكان اتحاد مستقر بين بلدان تفصل بينها كيانات سياسية خارجة عنها أو حواجز جغرافية كبيرة كالبحور. تجاور جميع الأعضاء في السوق الأوروبية المشتركة كان عاملاً إيجابياً في نجاحها بينما غيابه كان، كما يبدو، سبباً في إضعاف " الاتحاد الأوروبي للتجارة الحرة " الذي شاركت فيه النمسا وسويسرا، البرتغال وبريطانيا والبلدان الاسكندينافية. الأعضاء ذوي الحدود المتاخمة فيه حققوا في الواقع اتحاداً أقوى وهو الذي حدث بين المجموعة الاسكندينافية. لولا الفاصل الجغرافي الذي أقامه الاحتلال الصهيوني بين سوريا ومصر لما نجح، كما أشرنا سابقاً ، الانفصال . فقد كان " باستطاعة عبد الناصر قمع حركة الانفصال السورية عام ١٩٦١، لوكان الجيش المصري حراً في التدخل من قواعده دون أن يتعثر ذلك بوجود إسرائيل والأردن . هذا ما يفسر أيضاً جزئياً قدرة البانيا الصغيرة بأن تكون البلد الشيوعي الوحيد الموالي للصين في أوروبا الشرقية " .

أما سياسة توفير ميزات وخدمات الوحدة لاقليم أو أكثر قبل تحميله الالتزامات والأعباء التى تأتي معها، فإنها ولا شك سياسة ترتبط بفهور إقليم- قاعدة يرتبط به العمل الوحدوي، أو ظهور نواة جديدة من قطرين أو أكثر تقوم بدور القاعدة. عند قيام قاعدة من هذا النوع ليس هناك أي سبب يمنع ممارستها.

ذكرى دولة واحدة سابقة تتوفر أيضاً لنا، وهي ذكرى حية قوية في ذهن الشعب العربي توحي اليه بالنضال في سبيل دولة أخرى توحده من جديد . إنها ذكرى قوية لأنها تقترن بالتراث الحضاري الكبير الفريد الذي قدمناه للإنسانية.

أما من حيث المنافع الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تتوقعها الأقاليم والحكومات المختلفة من الاتحاد السياسي، فأمر يتوفر هو الآخر للعمل الوحدوي العربي، فهناك إجماع عام، ليس فقط على المنافع الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تترتب على الوحدة، بل على ان هذه المنافع كبيرة جداً وتشكل ضرورة ملحة . منافع الأقطار النفطية الاقتصادية نفسها ترتبط، بالمدى البعيد، بدولة الوحدة .

ما يجب ان يميز الخلفية الوحدوية من مرونة وانفتاح بين الأقطار المدعوة للاتحاد لا يبدو، مع الأسف، أنه يتوفر للعمل الوحدوي العربي ، على الأقل، بالقدر المطلوب وكما يجب أن يكون كي يساهم في التمهيد للوحدة والإعداد لها. ولكن، من ناحية أخرى، ليس هناك أي سبب يمنع توفر هذا السبب بشكل قوي وخصوصاً عندما يكشف الشعب العربي بوضوح عن التناقضات الأليمة التي يحياها في ظل الاقليمية، أو عندما تستنزف هذه الاقليمية ذاتها في تناقضاتها.

اما التمحور العام للمشاعر والمصالح حول القصد الوحدوي الذي يأخذ مكان الصدارة في مشاغل وسياسة الأقاليم التي يتحقق الاتحاد منها، فإنه لا يتوفر، هو الآخر للعمل الوحدوي بالقدر الذي يجب أن يتوفر به كحد أدنى . ولكن هذا لا يعني أن الأمر سيستمر على هذا الوضع لأن استنزاف الاقليمية لذاتها مع الزمن سيدفع نحوه ، وخصوصاً اذا توفر لهذا العمل إقليم- قاعدة أو نواة تتحقق من إقليمين أو أكثر. توفر هذه القاعدة يعنى توفر هذا التمحور أو الوضع الذي يدفع إليه.

وجود تيار وحدوي فكري يتمثل بأعداد كبيرة من المفكرين والمثقفين يتوفر أيضاً للعمل الوحدوي ولكن هنا يجب التنبيه الى أن هذا التيار أصبح يعاني في السنوات الأخيرة حالة انحسار مخيفة. فهناك اعدادا متزايدة من المفكرين الذين لا ينشغلون بالوحدة أو يهتمون بها. ولكن هذا لا يعني انه من غير الممكن مقاومة هذا الانحسار . هذه المقاومة ممكنة، وممكنة بشكل قوي يستطيع تجميد هذا الانحسار، وكل ما تحتاجه هو جهود جدية من قبل عدد من المفكرين الوحدويين الذين يعملون على تعبئة الإمكانات الفكرية الوحدوية عبر الوطن العربي . هناك، في الواقع، دلائل تشير إلى التباشير الأولى التي تنبىء بجهود من هذا النوع.

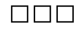
النمو الاقتصادي يتوفر أيضاً للعمل الوحدوي، وكذلك أيضاً نمو الامكانات السياسية. فالوطن العربي شاهد أشكالا واضحة متزايدة من هذا النمو، وهو في الواقع نمو يتزايد مع الوقت.

المقاصد المتماثلة التي تشارك فيها الأقطار والبلدان المدعوة إلى الاتحاد تتوفر أيضاً وبشكل واضح، وخصوصاً بين الأقطار" التقدمية " .

القدرة المتبادلة. على الإنباء بسلوك الأقاليم المختلفة أو حكوماتها متوفرة. فالأقطار العربية قادرة وتستطيع أن ترقب من بعضها البعض مواقف متشابهة على الأقل فيما يتعلق بالقضايا الأساسية التي تواجهها.

أما قدرة القيادة الوحدوية على إحكام علاقتها مع أكثرية الشعب وتوفير تيارات فكرية وايديولوجية تستطيع كسب ولائها وتعبئتها، فأمر يتوقف على ظهور إقليم - قاعدة تتمحور عليه الجهود الوحدوية. الشىء نفسه ينطبق على ضرورة إعطاء كل إقليم ، وبقدر ما تسمح به الأوضاع، نوعاً من التقدير الخاص بتبني وتقديم بعض رموزه وإبراز دوره .

توفر لغة واحدة واضح. بعد أن يعين هوير في الدراسة التي أشرنا اليها سابقا الأسباب الستة التي تعيد ذاتها في جميع التجارب الوحدوية الناجحة، يشير الى أن الشعور بقومية منفصلة بين جماعات تتوفر لها جميع الأسباب التي ذكرها يستطيع أن يؤدي إلى الانفصال وإلى قتل عملية الاتحاد. ثم يضيف بأن الاختلافات القومية والجنسية واللغوية والدينية تشكل قوى انفصالية قوية وأن كل واحدة منها تستطيع ان تولد رغبة في الانفصال، وأن الغريب، في الواقع، ليس هذا الانفصال بل إمكان الاتحاد رغم هذه الاختلافات. هذا النوع من الاختلافات، غير موجود بأي شكل كبير في الوطن العربي . فهناك لغة واحدة وشعور بقومية واحدة .



الأسباب الإعدادية تتوفر إذن كلها تقريباً لتجربتنا وبشكل نـدر حدوثه، في غيرها . ولكن لا يتوفرمن بين القوانين الأساسية سوى الخطر الخارجي الذي يتمثل في معركة تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني- الأميركي . على الرغم من أنه لا يصح الفصل بين دور الإقليم- القاعدة ودور الخطر الخارجي لأنهما يترابطان ويتفاعلان باستمرار يمكن القول من ناحية تاريخية عامة، أن دور الإقليم- القاعدة يتقدم عليه وأنه يشكل أهم هذه القوانين الرئيسية، وذلك لأن المخاطر الخارجية يجب، كي تكشف عن اتجاهات وحدوية ، أن تؤدي إلى ظهور إقليم- قاعدة يستطيع أن يتقدم ويقود حركة الدفاع والمقاومة ضدها. يحتاج المضمون الوحدوي الذي يترتب على هذه المخاطر، كما نرى من تجارب التاريخ الوحدوية الى دور هذا الاقليم- القاعدة في الكشف، التعبيرعنه وتحقيقه . ولهذا فاذا كان وجودها لا يفرز هذه القاعدة فإن المجتمع المجزأ المهدد بها يعجز عن التغلب على تجزئته.

الدليل الأقرب لنا يتوفر، في "الواقع، في تجربتنا نفسها. فالخطر الخارجي الذي يحتل أرضنا، يمتهن كرامتنا، ويتهدد سلامتنا ومصيرنا، استطاع أن يكشف عن المضمون الوحدوي الذي يترتب عليه فقط عندما دفع وجوده الى ظهور اقليم- قاعدة في مصر " الناصرية " . غياب هذه القاعدة الآن جمد ذلك المضمون . أهمية هذا القانون الوحدوي زادت حالياً ، كما أشرنا سابقاً ، لأن العصر الحديث لا ينفتح للاسلوب العسكري الخارجي الذي كان يمارسه عادة الإقليم- القاعدة في عملية التوحيد في تجارب التاريخ الوحدوية، وحل محله، أو أصبح يجب أن يحل محله الأسلوب الثوري الذي يجعل من الثورة الداخلية الأداة التي تدفع أقطار المجتمع المجزأ إلى الانضمام مع أو إلى الاقليم- القاعدة في دولة جديدة. عندما يتوفر الخطر الخارجي الذي يولد الضغوط و التحديات الكافية، ويتوفر معه الإقليم- القاعدة، فإن السلطة المشخصنة التي تستقطب ولاء الشعب عبر المجتمع المجزأ تفرض ذاتها في شكل ما. وتكشف مراجعة تجارب التاريخ الوحدوية بوضوح عن هذه العلاقة الوثيقة. و قد تختلف درجة هذا الاستقطاب من تجربة إلى أخرى بسبب الأوضاع الخاصة التي تحيط بكل منها، ولكن لا شك بأن وجود الخطر الخارجي والأقليم- القاعدة يؤديان إلى توفر هذه السلطة .

يكشف هذا بوضوح عن أهمية معركة تحرير فلسطين من زاوية وحدوية. استمرار هذه المعركة يستطيع أو يجب أن يفرز الاقليم- القاعدة والسلطة المشخصنة التي تستقطب مشاعر الشعب عبر الوطن العربي، وبذلك تتم للعمل الوحدوي العربى القوانين الأساسية التي يحتاجها في تحقيق دولة - الوحدة. لهذا يجب من هذه الزاوية الوحدوية استمرار المعركة والتركيز عليها وتوسيعها لأن هذه الدولة- التي تشكل او يجب أن تشكل قصدنا الأعلى لأنها الشرط الأساسي الذي ترتبط به جميع مقاصدنا الأخرى وتطلعاتنا إلى مستقبل عربي جديد- تحتاج إلى هذه المعركة واستمرارها. حتى وإن افترضنا جدلاً من ناحية مجردة محضة إمكان بروز وضعية يمكن أن " نختار " فيها بين التحريردون التوحيد، وجب تأجيل التحرير إلى أن يتم التوحيد. فإذا كانت مقاصدنا التقدمية والثورية ترتبط كلها أساسياً بتحقيق دولة الوحدة- وهذا منطلق أو يجب أن يكون منطلق كل وحدوي- وإذا صحت القوانين الوحدوية التي خلصنا إليها في هذه الدراسة الجامعة للظاهرة الوحدوية عبر التاريخ- وهي صحيحة- يصبح هذا " الخيار! بديهياً . ولكن إذا لم يصح المنطلق والقوانين، يصبح هكذا افتراض دون أي معنى . القصد هنا هو إبراز أهمية معركة فلسطين من زاوية وحدوية، والتنبيه الى ضعف أساسي في العمل الوحدوي (والفكر الوحدوي أيضاً) وهو التجزئية القاتلة التي تسوده، والتي يستحيل بها الوصول إلى دولة الوحدة او تحقيق أية إنجازات وحدوية. صحيحة. فكي يصح سيره يجب أن يتحرر من هذه التجزيئية وينطلق من مقياس وحدوي يقيس جميع أعماله وممارساته من زاوية وحدوية فيقدم على ما يخدم دولة الوحدة ويتجنب ما يسيء إليها مهما كان نافعاً في المدى القريب أو مباشرة.

لا اريد أن أدخل هنا في نقاش عام لما هوأفضل أو أسوأ، وللمقاييس التي تقيسهما، فهذا يخرج على نطاق هذا البحث. بل اكتفي فقط بالقول أن هذه قضية نسبية وأن أي وضع اجتماعي سياسي يكون وضعاً سيئاً إذا كان يفرض على الشعب حالة لا تتناسب مع الامكانات الاقتصادية والسياسية والبشرية ، أو الحضارية بشكل عام ، التي تتوفر له في وضعه ، والتي تُلحق به ظلماً او تخلفاً ما يمكن التحرر منه في استغلال هذه الامكانات . التجزئة تشكل حالة من هذا النوع ، ولذلك فهي شر لكل قطر عربي . دولة الوحدة تشكل معالجة لهذه الحالة السيئة ، ولذا يجب الالتزام بها وبكل ما يخدمها ، كما يجب على هذا الالتزام التقدم على كل عمل آخر .

□□□

السؤال الذي يطرح نفسه الآن بعد ان عرضت الدراسة القوانين الأساسية والإعدادية التي تسود تجارب التاريخ الوحدوية هو : هل يعني توفر وضعية تتحقق فيها هذه القوانين أن الإتحاد السياسي في دولة واحدة يصبح مضموناً ؟ ... لقد أشرنا أكثر من مرة إلى أن توفر هذه القوانين في مجتمع مجزأ أو بين كيانات سياسية مستقلة لا يعني في ذاته قدرة المجتمع أو الكيانات على تجاوز التجزئة وتحقيق الاتحاد ، وأن كل ما يعنيه هو أن الانتقال من التجزئة إلى الاتحاد غير محتمل ، هذا إن لم نقل باستحالته ، دون توفر هذه القوانين ، لأن هناك أوضاع أخرى عديدة من ذاتية وموضوعية يمكن لها ان تتدخل وتحول دون

عمل هذه القوانين . توفر تجربتنا الخاصة ، مرة أخرى ، دليلاً واضحاً على ذلك . ففي المرحلة الناصرية توفرت لنا القوانين الاساسية بشكل بارز وقوي ، ولكننا عجزنا عن تحقيق دولة الوحدة .

الارتباط بمصر الناصرية آنذاك كان يعني الارتباط بهذه القوانين الأساسية التي لا يمكن دون توفرها والعمل معها الانتقال من حالة تجزئة إلى حالة وحدة ، ولذا كان كل خروج عنه وعليه يعني خروجاً من وعلى التاريخ ، من وعلى العقل التاريخي .

إن معاناة الانسان للمرحلة التي يحياها تمنعه من رؤيتها بوضوح وتحيطها بالغموض ، ولهذا بقدر ما يزيد بعدنا عن واقع ما ، بقدر ما تزيد قدرتنا على رؤيته كما هو أو كما كان . إن الأجيال العربية القادمة ستتميز بالتالي بقدرة لا تتوفر للأجيال الحالية على الرؤيا الواضحة عندما ترجع إلى هذه المرحلة وتدرسها . إنني على ثقة بأنها ستكتشف ، أولاً ، أن أعظم نكبة حلّت بنا أثناء هذه المرحلة – هذا إن لم نستطع تحقيق الوحدة – كانت عدم الإفادة من وجود مصر " الناصرية " ومن قيادة عبد الناصر بالذات في تحقيق دولة الوحدة أو الدفع نحوها إلى أبعد حد ممكن ؛ وثانياً ، أن مقاومة الارتباط بمصر الناصرية وقيادة عبد الناصر آنذاك كانت تعني مقاومة دولة الوحدة وبالتالي اللقاء " الموضوعي " ، مهما كانت النوايا الوحدوية نقية ، مع التجزئة ، احتلال فلسطين وجميع ما يؤخر بناء مستقبل عربي جديد .

لماذا حدث ذلك ؟ ... لماذا عجزنا عن الإفادة من الوضعية الوحدوية التي توفرت لنا ؟ ... أهم الأسباب التي تفسر هذا تشكل جوانب أساسية مما يمكن تسميته بالتخلف العربي ، وأهمها :

١- تخلف الفكر الوحدوي عن العقل الحضاري الحديث أو العقل العلمي . لقد طرد هذا العقل من عالم الطبيعة والاجتماع والتاريخ المفهوم السابق الذي كان يفسر هذا العالم وما يجري فيه بأسباب وقوى ما ورائية ، واحل محلها المفهوم الحديث الذي يفسره بأسباب وقوى طبيعية أو اجتماعية وتاريخية . هذا المفهوم ليس خاصة أي علم خاص بل يشمل العلم أو العلوم الحديثة ككل ، من السيكولوجيا إلى الفيزياء .

كانت الثقافة الأوروبية السابقة (أو القروسطية) تقوم في الإيمان بكائن إلهي أعلى ، بينما الثقافة الحديثة ترى ، على نقيضها ونقيض كل ثقافة تاريخية أخرى ، بأن عالم الإنسان والمجتمع والطبيعة يجسد ويخضع لقوانين موضوعية مستقلة عن ارادة الفرد يمكن الكشف عنها ومعرفتها ، وتشكل " الحقيقة النهائية " التي يمكن للعقل أن يرجع إليها في تفسير واقعه الطبيعي والاجتماعي التاريخي . إحلال هذا المفهوم ، مفهوم القوانين الطبيعية أو الطبيعة محل الله يعين ولادة العقل الحضاري الحديث الذي يقف وراء جميع منجزات هذا العصر . الكلمات التي كانت تهيمن على العقل والثقافة سابقاً كانت الله ، الخطيئة ، النعمة ، الخلاص ، الجنة ، جهنم ، الشيطان ، الخ ... ولكن بدءاً من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أصبحت الكلمات التي تهيمن على الفكر ، المادة ، التطور، التقدم ، العقل ، الواقع الموضوعي ، القوانين، الخ...

كان العقل السابق يقدم تصوراً شعرياً وأخلاقياً عن العالم كما يجب أن يكون ، في ضوء مقاييس مثالية عن الفضيلة والرذيلة، الأبطال والأشقياء، الخ... التأريخ كان عرضاً زمانياً أخلاقياً لأحداث التاريخ، تقويماً له في ضوء مقاييس أخلاقية مقبولة كمقاييس ثابتة معطاة وغير متحولة. العنصر الأساسي ، بكلمة أخرى، في شتى النشاطات الفكرية، من الفن إلى الاقتصاد، إلى الفلسفة، كان الكشف عن القانون الأخلاقي الذي كان موجوداً دائماً كالواقعة الأساسية لعالم خلقه الله. في هذه الرؤيا أو العقل كان التاريخ أو الزمان نفسه يعني فقط الكشف عن القانون الالهي و عن قدرة الإنسان على إدراكه والتقيد بأحكامه. المفاهيم العلمية الحديثة كالاقتصاد، المجتمع ، التكنولوجيا، التاريخ، الطبيعة، الخ.. أصبحت تعني نظاماً من العلاقات المترابطة التي تخضع لانتظامية موضوعية خاصة بها، ويجب إدراكها بالرجوع الى هذه الانتظامية (أو القوانين) وليس إلى أية قوى خارجة عنها كإرادة إلهية وقديسين ، ملائكة وشياطين، الخ...

تخلف الفكر أو الوعي الوحدوي الذي نعنيه هو إذن ممارسته لذاته في إطارات غيبية مثالية، وانحرافه عن المنهج العلمي انحرافاً جذرياً في ممارسات أخلاقية وتبشيرية - إنه يتمثل، كما أشرنا في المقدمة، في عجزه عن استيعاب البدء العلمي الأساسي وهو وجوب دراسة الظاهرة التي نتحدث عنها قبل الحديث عنها إن أردنا لهذا الحديث أن يكون موضوعياً أو علمياً .

إن توفر وضعية وحدوية لا تكون كافية أبداً وبأي شكل ان لم تقترن بالوعي الوحدوي العلمي المنظم الذي يدرك أن الظاهرة التي يدرسها- وهي في موضوعنا الحالي عملية (Process) الانتقال من التجزئة إلى الوحدة- تخضع لقوانين أو علاقات انتظامية موضوعية يجب عليه الكشف عنها والعمل معها وفي ضوئها اذا هوأراد تحقيق قصده ، أو الدفع الفعال نحو دولة الوحدة . غياب وعي من هذا النوع، وخصوصاً عندما يتمثل في نظرية وحدوية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية قاد العمل الوحدوي الى طريق مسدودة . ولكن الطريق المسدودة لا تعني فقط طريقاً لا تقود إلى الوحدة ، بل شلّ الطاقات التي يمكن لهذا العمل اعتمادها، لأن تعبئتها بشكل فعّال تستحيل عند انبهام الطريق إلى الدولة الواحدة . الطريق المسدودة تعني أن العمل الوحدوي يدور على ذاته في حلقات مفرغة، وحلقات من هذا النوع لا تعطل طاقته فقط، بل تجعله فريسة الانهزامية.

لا يستطيع العمل الوحدوي متابعة طريقه إلى الوحدة دون أن تضيء هذه الطريق نظرية من هذا النوع . الطريق الوحيدة الى هذه الطريق هي الكشف عن الاتجاهات الوحدوية الواحدة التي كانت تعيد ذاتها في العملية الوحدوية الموضوعية التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة أو كيانات مستقلة إلى دولة واحدة. هذا يعني أن نجاح العمل الوحدوي وقدرته على استخدام أية وضعية وحدوية تتوفر له، أو الاحتمالات الوحدوية التي ينكشف عنها الواقع في مجراه، يرتبطان باستراتيجية تُدرك الوضع الوحدوي ككل، في الديالكتيك العام الذي يسوده. لهذا فإن الوعي الوحدوي الذي لا يستطيع اعتماد هذا الإدراك الموضوعي العلمي العام يكون قضية خاسرة. التحديدات التي قدمها الفكر الوحدوي للطريق إلى الوحدة

كانت حتى الآن أقرب الى الممارسة الشعرية منها إلى المحاولات العلمية. لهذا عندما أدعو إلى مقاومة الفكر الوحدوي التبشيري كخطر كان ولا يزال يُضعف ويخرب العمل الوحدوي، فانني أدعو إلى مقاومة الأشكال الفكرية الاعتباطية التي لا تنطلق من دراسة الظاهرة الوحدوية والقوانين التي تكشف عنها في تحديد الطريق إلى الوحدة.

كان الوعي الوحدوي يتحرك في دنيا فكرية بعيدة غريبة كلياً عن هذا العقل العلمي- على الأقل فيما يتعلق بالطريق إلى الوحدة. في غياب هذا المنهج العلمي الذي يرجع إلى الظاهرة الوحدوية وقوانينها الموضوعية، أصبح هذا العقل فريسة تجزيئية قاتلة جعلت مواقفه وأعماله غيرمنسجمة ومتناقضة، سريعة التحول والعطب. لهذا كان هذا الوعي يجد نفسه متذيلاً بذيل الواقع، يركض وراءه، يتغير بتغيره، ينساق فجأة من موقف إلى آخر، ينجرف مع اندفاع الأحداث الآني ، ويعمل دائما في ظل عموميات مجردة لا تتصل بديالكتيك الواقع . لهذا عجز هذا الوعي عن تطويع الأحداث في خدمة الوحدة، ولم يعرف كيف يفيد من أو يستخدم الوضعية الوحدوية التي توفرت له. ان توفر نظرية وحدوية علمية جامعة تعني أن العمل الوحدوي يعي ذاته ، تطوره، ومجراه وذلك يجعل من الممكن التخطيط الفعال الذي يقود إلى الوحدة. دون نظرية من هذا النوع يصبح الوعي الوحدوي مغلفاً بآنية قصيرة النفس، محدودة المدى، أسير التاريخ الذي يتلاعب به، عندما لا يرتبط الوعي بالواقع الموضوعي كما يصنع نفسه، يضيع في تجريد عاقر، لأن الامكانات الممكنة في عالم الفكر المجرد غير محدودة ولايمكن استنفادها.

كان قصد النظريات السياسية في الماضي يتركز على صفات الحكام الفضلاء العادلين، أشكال الدولة الفاضلة، المجتمع الفاضل أو العادل. هذا النوع من الممارسة كان شاغلاً للمفكرين الاجتماعيين طيلة عصور عديدة دون أن يصلوا طبعاً إلى نتائج حول طبيعة الدولة والمجتمع تحظى بموافقة عامة. الفكر الاجتماعي الحديث يدور، على عكس ذلك، حول تفسير الظواهر الاجتماعية، ويشغل ذاته إلى حد كبير بتفسير الكيفية التي تحدث فيها الأحداث، ولماذا تحدث كما حدثت، أي بـ " كيف " و " لماذا " الأحداث ، علم الاجتماع الحديث يشغل نفسه، بكلمة أخرى، في الكشف عن قوانين السلوك الاجتماعي السياسي التي يمكن أن تفسر هذا السلوك أو التحولات الاجتماعية التاريخية . الوعي الوحدوي العربي لم يدخل بعد هذا الصعيد الفكري الحديث.

هذا هو العطل الأساسي الذي جعل الوعي الوحدوي العربي عاجزاً عن الافاده من تلك الوضعية الوحدوية الموضوعية التي توفرت لنا في الخمسينات والستينات. إما أسباب هذا العجز فموضوع يخرج عن حدود هذا البحث ويتطلب دراسة مستقلة.

٢- بالاضافة الى العطل الأول في الوعي الوحدوي، يجب الإشارة إلى عطل آخر في الالتزام الوحدوي . فالتجزيئية الفكرية التي رأينا أنها تميز الوعى الوحدوي وتبعثره تجد ما يقابلها هنا أيضاً ، في تجزيئية شعورية تبعثر الالتزام " الوحدوي " ؟.... لقد ذكرت سابقاً أن عجز الوعي الوحدوي عن استيعاب البدء العلمي الأساسي في العقل الحضاري الحديث يشكل ظاهرة غريبة. هنا ايضاً نرى عجزاً شعورياً غريباً

غيرقادر على قياس ما يحدث من أحداث وما يتحقق من أعمال بمقياس وحدوي عام فيقبل منها بما يخدم الوحدة ويرفض ما يتناقض معها. الشيء الذي يستوقف النظر ويثير الدهشة- وهنا اتكلم في ضوء تجاربي الخاصة أيضاً مع " الوحدويين "- هو العجز عن قياس ما يحدث أو ما يمكن ان يحدث بمقياس وحدوي عام أو بالأحرى العجز عن استيعاب ذلك .

من ناحية عامة يمكن القول أن هذا الالتزام لم يكن أبداً كما يجب أن يكون، من النوع الذي يمكن له تحمل مسؤوليات العمل الوحدوي الكبير الذي نجده عادة في تجارب التاريخ الوحدوية. عند مراجعة هذه التجارب نجد على الأقل أن القيادات الأساسية المسؤولة كانت تتركز تماماً على الاتحاد وتخضع كل شيء له.

الالتزام الوحدوي الكلي الذي ينزل إلى أعماق النفس، فيسود جميع مشاعر وأفكار وأعمال الوحدوي، يحدد تطلعاته ويقيس ما يقوم به، هذا الالتزام كان- ولا يزال- مفقوداً بشكل عام، وخصوصاً في الفئات والقيادات المسؤولة. غياب هذا الالتزام شكل ضعفاً كبيراً قاد إلى شتى أنواع الانحرافات التي جعلت العمل الوحدوي عاجزاً عن الإفادة من تلك الوضعية الوحدوية الموضوعية التي توفرت لنا في الخمسينات والستينات.

الوحدوي الذي يستطيع الاسهام الجدي الفعال في تحقيق دولة الوحدة، والذي يمكن ان يؤتمن على مسؤوليات العمل الوحدوي، الا يعترف بضرورة الوحدة ويريدها فقط، بل يحول فكرة الوحدة إلى واقعة حياتية يحياها يومياً ويبلور فيها أبعاد حياته كلها. انه لا يتكيف بأي شكل كان مع التجزئة كواقع، لا يدع الأمور تختلط عليه، بل يعي تماماً التناقض القائم بين التجزئة والوحدة، ولا يصنع شيئاً دون أن يقيسه في ضوء هذا التناقض، ساعياً دائماً إلى تغليب الثانية على الأولى، ليس فقط من ناحية سياسية عامة، بل في اعماله اليومية نفسها.

" في قيادتهم للجماهير في صراعها ضد العدو، يجب على الشيوعيين " كما يكتب ماوتسى تونغ، " تقييم الوضع ككل... وأن يعوا مبدأ إخضاع حاجات الجزء لحاجات الكل. فاذا اتضح أن أحد الاقتراحات يكون ملائما لوضع جزئى ولكن غيرملائم للوضع ككل، وجب على الجزء إعطاء مكانه للكل... هذا هوالمعنى في تقييم الوضع ككل " . في مناسبة أخرى، وهو يعلق على أشكال النقد الداخلي في الحزب نراه ينتقد " الرفاق الذين يتجاهلون القضايا الأساسية ويقصرون انتباههم على نقاط ثانوية عندما يقومون بنقدهم " . هذا هو نوع المنطلقات الاستراتيجية التي يمكن لها أن تؤدي الى أعمال ثورية ووحدوية كبرى .

الوحدوي لا يعرف أي انتماء، أي منطلق، أي تصور، أي ارتباط إقليمي مهما كان ذلك طفيفاً وجزئياً ، ويرى فيه تناقضاً شاذاً يدل إما على بلبلة فكرية، على ذات منقسمة على نفسها، على وعي ناقص لا يعرف كيف يتبين طريقه، أو على انتهازية تريد أن تمسك الحبل من طرفيه فتستغل الانتماء الوحدوي والانتماء القطري في نفس الوقت بغية خدمة مصالح خاصة. ليس هناك من حل وسط بين الاتجاهين، فالعربي يكون إما وحدوياً أو إقليمياً .

يضع الوحدوي دولة الوحدة الثورية فوق وقبل كل شيء، يقيس بها كل عمل ثوري، كل خطوة ثورية، كل تحول، كل تكتيك ثوري، الخ... إنه لا يقيس أي شيء في ضوء مقاييس ثورية مجردة، بل بقدر ما يؤديه ذلك للدولة الواحدة، بدرجة الدفع الذي يحققه في هذا السبيل. كل ثورة عربية تجد مقياس ثوريتها الأول في وحدويتها ، وإن هي لم تنطلق من هذا المقياس وترجع إليه، فإنها تكون، في المدى البعيد خطراً ليس فقط على الوحدة بل على الثورة نفسها.

ينطلق الوحدوي من الوطن العربي ككل، كوحدة واحدة، وفي ضوء ذلك يقيس كل ما يحدث في الاقطار المختلفة. الوحدوي لا يميز سياسياً بين عربي وعربي إلا بقدر التزامه الوحدوي، وهو يحب ويكره، يصادق ويعادي سياسياً وإيديولوجياً في ضوء هذا الالتزام . الوحدوي ينكر ويزدري كل انتماء قطري يتناقض مع هذا الالتزام ويخاصم كل من لا يضحي أو يطوع مصلحة القطر الذي ينتمي إليه جغرافياً في سبيل مصلحة الكل الذي ينتمي إليه عربياً ، كل من لا يتجه بعقله وقلبه نحو الوطن العربي فيجعل من هذا الوطن دنيا له، كل من يلتزم بأي موقف سياسي، اجتماعي، إيديولوجي، من أي لون كان ، دون أن يجعل هذا. مشدوداً إلى الإطار الوحدوي وملتصقاً به التصاق الغصن بجذع الشجرة. الوحدوي يأبى أن يقول أنا عربي مصري، جزائري، مراكشي، لبناني ، الخ.. أو حتى أنا عربي من مصر، الجزائر، مراكش، لبنان، الخ... بل يقول أنا عربي من مدينة البصرة أو بغداد، دمشق أو حلب، طرابلس أو الرياض، الخ.

والوحدوي يدرك أن " الحرية من.. " التي ننشدها- من الاستعمار، الاحتلال ، التخلف، الضعف،- ترتبط دائما وأبداً بـ " الحرية لأجل " الدولة الواحدة، أداة تعبئة طاقاتنا ومواردنا، التعبئة التي لا يمكن دونها تحقيق مقاصدنا القومية والإنسانية والحضارية...

والوحدوي يرى أن الكيانات القطرية السياسية التي تسجن الشعب العربي في زنزانتها وتقيده بسلاسلها، هي جرح متقيح، وكل يوم يمر دون تحريرنا من تلك الزنزانة، كل يوم يمردون تكسيرهذه السلاسل، كل يوم يمر دون عملية جراحية تستأصل ذلك القيح هو يوم يسجله التخلف على تقدمنا، هو يوم يكسبه الموت على حياتنا.

الوحدوي لا يتأثر في وحدويته بالكيفية التى يحيا بها الآخرون ويعانون فيها فكرة الوحدة. فصورة الوحدة تتسرب إلى أعمق أعماق كيانه، تتداخل مع أنفاسه وتفكيره وكينونته نفسها. إنها كل شيء ومرجع كل شيء بالنسبة إليه. انه يكون وحدوياً ولا شك في أي وقت عاش فيه في مجرى تاريخ يقظتنا الحديثة، ولكنه في المرحلة الحالية يلتصق بالوحدة ودولتها الواحدة التصاق الصوفي بربه..

والوحدوي يغذي في قلبه مشاعر النقمة التي لا تعرف المصالحة ضد كل ما يقف في طريق الوحدة، ومشاعر الصراع الذي لا يعرف المهادنة ضد كل من يقف مباشرة أو غير مباشرة، عن وعي أو لا وعي، في طريق الدولة الواحدة.

هذا هو نوع الالتزام الذي يحتاجه العمل الوحدوي، على الأقل بين الذين يتصدون لقيادته السياسية والفكرية. ويشكل غيابه أحد الأسباب الأساسية التي تفسر عجز هذا العمل عن استخدام الوضعية الوحدوية الموضوعية التي توفرت لنا في الخمسينات والستينات، في تحقيق الدولة الواحدة أو في الدفع نحوها بشكل قوي ثابت. توفر هذا الالتزام إلى حد ما ضروري في أي انتصار يسجله العمل الوحدوي.

٣- الاطارات العقلية والنفسية الغيبية التي يعمل فيها الفكر العربي: لقد رأينا أن العطل الأساسي في الوعي الوحدوي يعود إلى عجزه عن إدراك واستيعاب المبدأ العلمي الأساسي الذي يميز العقل الحضاري الحديث، والذي يقول أن الظواهر الاجتماعية والتاريخية وليس فقط الظواهر الطبيعية تتميز بموضوعية مستقلة عن إرادة الانسان، وأن هذه الموضوعية تعبر عن ذاتها بعلاقات انتظامية أو قوانين واحدة. هذا العطل يعود نهائياً إلى تلك الإطارات الغيبية ولا يمكن في الواقع تصحيحه دون تحرير هذا الوعي منها.

تفرض معالجة هذا العطل ردّ أسبابه إلى طبيعة الوجود العربي التقليدي لأنه حدث أساسي نتيجة لهذا الوجود وفي إطاره. ماذا يعني هذا الفكر الوحدوي الذي يحدد الطريق إلى الوحدة دون الرجوع إلى الظاهرة الوحدوية، أو حتى أي وعي لوجودها ؟.. إنه يعني أن العقلية التي تكمن وراءه لا تزال عقلية غيبية، وأن الاطارات النفسية والفكرية التي تعمل فيها لا تزال اطارات تقليدية، أي إطارات " دينية " رغم ما تعلنه من " علمية "، وأن الوحدويين الذين يعبرون عنه لا يزالون عقلياً ونفسياً جزءاً من الوجود التقليدي رغم " ثوريتهم ". ذلك لأن عقلية هذا الوجود، العقلية الغيبية التي تسوده هي عقلية لا تعترف بعالم الظواهر الاجتماعية والتاريخية كحقيقة مستقلة، لا تعي أن هناك في التاريخ والاجتماع اتجاهات موضوعية تخرج عن ارادة الانسان ونواياه، وأن الانسان الذي يريد التأثير فيها يجب أن يدرك منطقها أو وجودها المستقل فيعمل معهما وبهما. فهي عقلية تعتمد فقط القوى الذاتية وترجع إليها في كل شيء ، وترى فيها مقاييس النجاح والفشل في كل شيء. فعن طريق الطقوس، وعن طريق قربنا من الله وجدانياً وأخلاقياً أو بعدنا عنه، تتحدد أعمالنا، ويتحدد مجرى الأوضاع التي تحيط بنا، أو أثرنا في هذه الأوضاع . فإذا فشلنا، فان ذلك يعود إلى كون علاقتنا الذاتية بالله والقوى الغيبية لم تبلغ الدرجة الوجدانية الأخلاقية الصحيحة، أو لأن الله ، الكلي القدرة والحكمة، تدخل لحكمة غير مرئية، ضد إرادتنا، أو لأن القوى الغيبية الأخرى من ملائكة وقديسين، أو من ناحية أخرى من أبالسة وشياطين، حالت دون ما نبغيه. كل شيء يعود نهائياً إلى قوى ذاتية أو إلى قوى غيبية خارجة عن التاريخ وأوضاعه الموضوعية. لهذا ليس غريباً بأن نجد أن الوعي الوحدوي يشكل، في الواقع، امتداداً لهذه القوى، أو بالأحرى لهذه النظرة أو العقلية الغيبية ، فيخرج، هو الآخر، عن التاريخ وأوضاعه الموضوعية.

أية دراسة أو معالجة لهذا العطل في الوعي الوحدوي تبقى هامشية اذا أغفلنا دور الإيديولوجية الغيبية التي تسود الوجود التقليدي . فقدرة العقل العربي بأن يتحول إلى عقل علمي يستطيع أن يعي حركة الواقع ويفيد من الاحتمالات او الوضعيات الوحدوية التي يكشف عنها ترتبط بدرجة تحرره من هذه

الايديولوجية الغيبية. المجتمع العربي التقليدي مجتمع ديني الهي ، أي مجتمع متكامل القواعد الروحية والأخلاقية، متكامل في نظرته الأساسية إلى الكون والتاريخ والحياة. إنه يعني أن كلمة الله النهائية قد اعلنت للناس، ولهذا لا يمكن له الانفتاح للباحثين المستقلين الذين يحاولون الاهتداء إلى الواقع أو الحقيقة بشكل مستقل . فهو يعني أن هناك نظاماً جامعاً شاملاً يسود التاريخ والاجتماع والحياة والكون، كشف عنه الله للمؤمن، وهو نظام نهائي لا يدخل إليه التعديل أو التبديل أو التحريف. وطالما أن المؤمن يؤمن بذلك فانه يبقى عاجزاً عن دراسة العالم كما هو، بشكل مستقل وعلمي وموضوعي . لهذا كانت معركة العقل الحضاري الحديث الأولى، عند ولادته ونموه، موجهة ضد الدين، وكان عليه أن يدعم كل خطوة يخطوها في هذا السبيل بانتصارات يسجلها ضده.

بما أن هذه الايديولوجية الغيبية تتسرب الى جميع أبعاد وتفاصيل تركيب المجتمع التقليدي، فإن الوعي قد يظل خاضعاً للإطارات العقلية والنفسية التي تتفرع عن هذه الإيديولوجية حتى وان كان من المتشككين بها، ان لم يتمرس بالمنهج العلمي بشكل يحرره من منطلقاتها اللاواعية. كلمة الدين وأحكامه ليست محدودة، بل تمتد إلى كل شيء، وبالسلطة نفسها، الى قضايا العبادة، والاقتصاد، والسياسة، والعلاقات الشخصية، والعائلة، والملكية والارث، الخ.. هكذا لا يعني الدين طريقة دينية تحدد علاقة المؤمن بقوي ما ورائية وحسب، وإنما يعني كذلك طريقة معينة في الحياة. لهذا فإن رجوع الوعي الى الواقع الموضوعي، يكشف في موضوعيته وقوانينه المستقلة قواعد تفكيره وأحكامه، يعني في الواقع التحرر النهائي من طريقة معينة في الحياة واستبدالها جذرياً بطريقة اخرى تشكل نقيضاً تاماً لها.

٤- الانتماءات والولاءات التقليدية التي تسود السلوك العربي. المجتمعات الآسيوية كلها ومنها المجتمع العربي كانت تحيا عبر قرون عديدة متواصلة في إطار سلوك تقليدي يدور، فيما يدور عليه، على انتماءات وولاءات ثابتة مستقرة واضحة المعالم تتركز على القرية، العائلة، القبيلة، الطائفة، الجماعة الأثنية، وغيرها من الأشكال المحلية. السبب الأساسي الذي سمح لهذه الانتماءات والولاءات بالاستقرار والاستمرار كما هي تقريباً ، تعيد ذاتها، من جيل إلى آخر، عبر التاريخ، كان استقرار التركيب الاجتماعي والاقتصادي واستمراره. فاستمرار الحياة الاجتماعية في إطار تقليدي كما تعبر عنها القرية في علاقات وتقاليد ثابتة، يعبر عن ذلك بوضوح. لهذا فإن التغييرات الكبيرة التي كانت تقع على الصعيد السياسي ، كظهور أنظمة ملكية جديدة وزوال أخرى، الخ.. كانت تحدث ولكن دون أن تؤدي الى أو تعكس أية تغييرات اجتماعية اساسية. كان الحاكم يكتفي بتجميع الضرائب ويترك التركيب الاجتماعي على حاله. العلاقات السياسية التي تميز هذا التركيب تدور في إطار تلك الولاءات والانتماءات وتتمحور في الطابع الشخصي الذي يسودها بدلاً من التمحور على علاقات اجتماعية عامة، تدور حول الشعب ، الأمة، الدولة، الحزب، الطبقة، الخ.. علاقات من هذا النوع تكون بعيدة عن إدراك طبيعة وضرورة الولاءات السياسية اللاشخصية ومتطلباتها العقلانية.

حركة التحديث والتصنيع الحديثة هي التي تستطيع إضعاف وإزالة هذه الانتماءات والولاءات، أو ما يسمى في علم الاجتماع الحديث بالعلاقات الأولية او الشخصية (Primary Relationship) بما أن هذه المجتمعات التقليدية، الزراعية أساسياً، كانت بعيدة، ولا تزال، عن هذه الحركة، فإن تلك الانتماءات والولاءات استمرت تسود الحياة الاجتماعية فيها وتتحكم بها. عندما تسود مجموعة من الروابط الأولية سلوك الفرد، تشمل جميع أبعاد شخصيته، وتمتص في معناها وتركيبها معنى وتركيب الحياة الاجتماعية بالنسبة إليه، فإن هذا الفرد يعجز سيكولوجياً عن معاناة أي شعور جماعي عام مجرد أو الإسهام جدياً بعمل مجموعي قومي. الفرد الذي نشأ أو ينشأ في تربة اجتماعية تؤكد بهذا الشكل الاستثنائي هذه الولاءات والانتماءات المحلية والمحدودة ذات العلاقات الشخصية، يجد من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، استيعاب، تمثل ولاءات عامة تدورحول الأمة، السلطة اللاشخصية، الدولة، الخ ... حتى عندما تكون تلك الولاءات والانتماءات قد انهارت وابتدأت تتمزق حوله، فآثارها النفسية تستمر طويلاً بعد بداية انهيارها وتمزقها.

لهذا ليس من الغريب أن نرى أن هذه الانتماءات والولاءات تسود، في الواقع ، أحزابنا " الثورية " نفسها، وتتحكم بها. التناقضات الداخلية- ومنها التي تدور على هذه الانتماءات والولاءات التقليدية- كانت بين الأسباب الأولى التي مزقت حزب البعث في بداية استلام السلطة. ولكن هذا الحزب، في سوريا أو العراق، استطاع الاستقرار في الحكم دون خضات داخلية وصراع أجنحة تحتكم إلى السلاح وتصنع الانقلابات العسكرية، عندما أقام سلطته في هيكل قيادي يسود الجيش والدولة ويجد وحدته في أحد أشكال هذه الولاءات والانتماءات. تناقضات الولاءات المحلية- مواليد غزة، ومواليد الضفة الغربية، مثلاً- تشكل إحدى التناقضات الداخلية التي تسيء إلى عمل منظمة تحريرفلسطين .

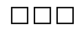
هذه سمة عامة أساسية تميز وتسود جميع هذه المجتمعات التقليدية. ولقد تكلم ماوتسي تونغ، مثلاً، على الصعاب التي واجهها الحزب بسبب هذه الولاءات والانتماءات، أو بسبب الروح العائلية والقبلية السائدة، وكيف أن اجتماعات، وتنظيمات الحزب في القرى كانت تصبح اجتماعات عائلية تقريباً لأن الفروع كانت تتشكل من أعضاء يحملون اسماً عائلياً واحداً، ويعيشون الى جوار بعضهم البعض، وكيف أن هؤلاء كانوا لا يفهمون الحزب عندما يقول لهم بأن لا فرق هناك بين إقليم وآخر وبين مختلف الأقضية .

هذه الانتماءات والولاءات التي تتبلور فيها أساسيا الشخصية العربية وتتحكم نهائياً بسلوكها السياسي، كانت أحد الأسباب الأساسية في عجزنا عن الإفادة من تلك الوضعية الوحدوية الموضوعية التي وفرت لنا جميع القوانين الوحدوية الأساسية في الخمسينات والستينات.

٥- تقليدية المجتمع العربي (او السلفية): هذه التقليدية تعني توجيه امكانات الفرد وطاقاته في قواعد روتينية، ضبط علاقاته في سلوك رتيب، وبلورة نفسيته وعقليته في اطر ساكنة (Passive) ثابتة مما يقود إلى تجميد قوى الخلق والابداع في الانسان التقليدي وشل قدرته على القيام بمبادرات حرة أمام حركة التاريخ . التقليدية تعني ، في الواقع ، سلوكاً تتحكم به قواعد وحوافز أصبحت عفوية وتلقائية في عملها،

تشكل طبيعة ثانية للفرد. لهذا فإن السلوك الذي يتفرع منها لايحتاج الى تصور هدف، أو أن " يعي " مقاصد له. إنسان هذه التقليدية إنسان يتطلع باستمرار إلى الوراء ويتخذ مقاييسه بالرجوع إلى الماضي . انها تنظر إلى الفرد ووضعه نظرة ثبوتية. فهو بالنسبة لها ما هو عليه، حيث هو، تحدده كما هو، ولا تنفتح لتحوله أو إمكان هذا التحول. هذا على عكس النفسية أو النظرة الحديثة التي تسود المجتمع الصناعي أو الحضاري، التي تتميز بالحركية والدينامية، زمانياً ومكانياً ، ومن السهل عليها تصور الفرد كما يجب ان يكون، فيما ليس هو عليه، فتشجع طاقات الخلق والإبداع فيه وتوفر له صعيداً من الحرية يسمح بذلك. وكانت هذه " التقليدية " أيضاً أحدى الأسباب التي تفسر عجزنا عن الإفادة من تلك الوضعية الوحدوية الموضوعية، لأن النفسية التي تفرزها وتقترن بها، تعجز عن مبادرة التاريخ، عن مجاراته في منعطفاته الكبرى، عن التجاوب معه فتتقلص عنه وبالتالي تعجز عن مواجهة تحدياته أو الارتفاع إلى الصعيد الذي تفرضه هذه التحديات.

هذه هي أهم الأسباب التي تفسر ذلك العجز الذي كشف عنه العمل الوحدوي في تلك المرحلة. هناك ولا شك أسباب أخرى، كالمصالح الطبقية، من إقطاعية ورأسمالية وبورجوازية، والتدخلات والمصالح الاستعمارية، الخ... التي تسيء إليها الوحدة ، ولكن لم أرَ ضرورة لذكرها لأن الفكر الوحدوي كان يعود إليها باستمرار، ولهذا فهي معروفة من القراء لا تحتاج إلى " مضغ " جديد. هنا أريد فقط الإشارة الى الواقعة التالية المهمة وهى أن تجربتنا الوحدوية قد تكون التجربة الوحدوية الوحيدة في العصر الحديث التى لا تجد دولة كبرى واحدة تقف الى جانبها وتساعدها في تحقيق دولتها الواحدة . التجارب الأخرى كانت تجد بين الدول الكبرى دولة أو أكثر تقف معها تدعمها وتدافع عنها بسبب مصالحها ضد الدول الأخرى. هنا نجد سبباً من أهم الأسباب التي قتلت تلك الفرصة الوحدوية الفريدة التي توفرت لنا في المرحلة الناصرية.



لقد رأينا سابقاً أن الخطر الخارجي هو القانون الوحدوي الرئيسي الذي يتوفر للعمل الوحدوي العربي، وأن هذا العمل يحتاج إلى إقليم- قاعدة وسلطة مشخصنة كي تكتمل الوضعية الوحدوية الموضوعية الأساسية التي يجب ان تتوفر له كشرط لأي انتقال إلى الوحدة. ولكن بما أن توفر الإقليم- القاعدة يعني، الى حد ما على الأقل، توفر السلطة المشخصنة، يمكن القول إذن أن ما نحتاج إليه كي تتوفر هذه الوضعية، هو هذا الأقليم - القاعدة.

تمثل مصر في أهمية مركزها الاستراتيجي، في موقعها الجغرافي في قلب الوطن العربي، في وزنها البشري، ثقلها العسكري، الخ... القطر العربي المرشح حالياً أن يمارس دور الإقليم- القاعدة. فدون مصر تستحيل الوحدة العربية وخروجها منها يعني قتلها. هذه الوحدة يمكنها " الإستغناء " عن أقاليم أخرى، وخصوصاً التي تقع في أطراف الوطن العربي . ولكنها تستحيل دون مصر التي تشطر الوطن العربي إلى نصفين . لهذا لم يكن من الغريب أن تصدر عنها المبادرتان او الحركتان الوحيدتان اللتان حققتا درجة من

الوحدة في هذا الوطن في تاريخنا الحديث، مرة في النصف الأول من القرن الماضي ، وأخرى في النصف الثاني من هذا القرن.

نهاية المرحلة الناصرية مع وفاة عبد الناصر قادت في الواقع ليس فقط إلى انحسار وحدوي رهيب، بل إلى انحسار ثوري مماثل. بعد تلك المرحلة التي كانت تدور باستمرار وقوة حول فكرة الوحدة والثورة، لم تحدث أية ثورة، أية خطوة وحدوية، وأصبح الوطن العربي فريسة مدّ رجعي وإقليمي يزداد بروزاً مع الوقت.

" الساداتية " كانت رجوعاً عن الناصرية ونقضاً لها، وهذا كان يعني، فيما يعنيه، إلغاء دور مصر كقاعدة للعمل الوحدوي، وزوال القيادة المشخصنة التي يمكنها استقطاب ولاء ومشاعر الشعب العربي عبر الحدود الاقليمية. ولكن. الساداتية تخلق- بسبب انحرافها هذا نفسه- التناقضات التي ستقضي عليها، مما يعني بروز وضعية ثورية جديدة تسترجع فيها مصر الدور الوحدوي الثوري الذي مارسته أثناء المرحلة الناصرية. هذا يعني أن على العمل الوحدوي العربي الافادة من هذه الوضعية عند ظهورها فلا يدعها تضيع كسابقتها. هذا يفرض على الوحدويين أو قيادتهم السياسية والفكرية- وخصوصاً في الأقطار المجاورة- القدرة على تصحيح الانحرافات والأخطاء التي منعت، عثرت، أو أضعفت ارتباطهم بالقاهرة كالإقليم- القاعدة في المرحلة الناصرية.

طريق " الساداتية " هي، في الواقع، طريق مسدودة. فالاحتلال الإسرائيلي لن ينسحب الى حدود ١٩٦٧، والولايات المتحدة لا تزال عاجزة بطبيعة نظامها السياسي والايديولوجي عن ممارسة أي ضغط جدي على هذا الاحتلال بالانسحاب. إنها، في الواقع، عاجزة عن توكيد " استقلالها " أمام الصهيونية، وليس فقط فرض الانسحاب عليها. هذا يعني صلحاً منفرداً بين مصر والاحتلال الإسرائيلي، وهو صلح قد يؤدي إلى انقلاب أو انتفاضة ثورية تضع نهاية لنظام السادات. وحتى اذا لم يحدث هذا مباشرة، فإنه سيحدث فيما بعد عندما يتبين للشعب أن الصلح لا يشكل معالجة جدية للبطالة والفقر. فهذا الصلح اقترن بذهن هذا الشعب بحل لمشكلة التنمية الاقتصادية، الفقر والبطالة، وهوحل لا يمكن أن يتوفر من أو يترتب على صلح كهذا. ولكن بما أن هذا الحل غيرممكن محليا بأي شكل سريع يمكن له ابراز نتائج تحسين بارزة واضحة في حياة الشعب الاقتصادية والاجتماعية، وبما ان الحل الوحدوي هو الطريق الوحيد أمام مصر في حل هذه المشاكل، فإن طريق السادات تعني طريقاً مسدودة.

ولكن إذا افترضنا جدلاً ان الانسحاب ممكن وأن الدولة المحتلة ستنسحب، وأن الولايات المتحدة قادرة على فرض هذا الانسحاب عليها، وأنها ستمارس هذه القدرة، فإن ذلك لن يقدم حلا أساسيا ونهائيا للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية الهائلة التي تواجه مصر، ومع الوقت سنكتشف أن تناقضاتها ومشاكلها الداخلية لن تجد حلاً أو مخرجاً داخلياً، في إطار إقليمي، وأن الطريقة الوحيدة التي تؤدي إلى ذلك هي الحل الوحدوي .

هذا يعني رجوعاً الى المضمون الوحدوي الثوري الذي كان قاعدة المرحلة الناصرية. إنه رجوع قد يقوده الناصريون، الشيوعيون، أو تحالف بينهما، أو حركة اخرى . المهم هو أنه سيكون رجوعاً ذا مضمون

وحدوي ثوري. لهذا من الضروري تصحيح المنطلقات والمفاهيم التي أضاعت علينا تلك الفرصة التاريخية الأولى فيجري تصحيحها بشكل يؤمن آنذاك الارتباط بمصركقاعدة، كي يمكن استخدام هذا الارتباط في تحقيق دولة الوحدة. هذا يعني انه من الضروري جداً تقويم المرحلة الناصرية من زاوية وحدوية، وتقويم سلبيات وإيجابيات الارتباط في ضوء وعي وحدوي علمي جديد ، فيكون العمل الوحدوي مستعداً للمرحلة الجديدة فلا تفاجئه. ولكن تقويماً كهذا يحتاج ، كي يصح، إلى نظرية وحدوية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية. كل تقويم آخر يكون عقيماً وعاجزاً عن تصحيح الانحرافات والأخطاء التي أضاعت علينا المرحلة أو الوضعية الوحدوية السابقة. هذه الدراسة تشكل محاولة متواضعة في هذه الطريق أرجو أن تتبعها محاولات أخرى عديدة.

كارثة " الساداتية " كانت ولا تزال رجوعها عن هذا المضمون الوحدوي الثوري الذي كانت تنطلق منه وتقوم فيه الناصرية. كل ما جاء بعد ذلك من انحرافات كان نتيجة حتمية لهذا الانحراف الأول. لهذا يجب ان لا ندع هذه الانحرافات تشغلنا عن مصدرها الأول، كما يجب الآن " الاستبشار " باتساعها وتكاثرها، لأن ذلك يعني الاسراع بنهاية الساداتية والرجوع الى ذلك المضمون .

أهم خطوة أومنعطف وحدوي يمكن ان يتحقق لنا هوهذه العودة، هذا الرجوع إلى هذا المضمون، لأنه يوفر لنا الإقليم- القاعدة الذي لا يمكن للعمل الوحدوي الاستغناء عنه في طريقه إلى دولة الوحدة، ومع هذه القاعدة احتمال قيادة يمكن لها استقطاب مشاعر الشعب العربي عبر الحدود الإقليمية . ليس هناك من تحول وحدوي إيجابي يعادل قيمة وأهمية هذا التحول. لهذا يجب على الجهود الوحدوية أن تتحول كلها، عند حدوثه، إلى تقديم الارتباط بالنظام الوحدوي الثوري الجديد على كل شيء آخر.

هنا تجب الإشارة الى أن ضعف مصر الاقتصادي قد يضعف كثيراً دورها كقاعدة، ولهذا يمكن القول هنا أن القاعدة التي يمكن أن تقوم بدورها كاملاً كقاعدة هي، أو يجب أن تكون إذا امكن، من نوع ما اسميناه في مكان سابق " بالقاعدة- المركبة " أي قاعدة تتشكل أولاً من إقليمين أو ثلاثة كما حدث مثلاً في اتحاد سويسرا، والولايات المتحدة. هناك علاقة وثيقة قوية بين دور إقليم معين كقاعدة وبين فاعلية نظامه في معالجة القضايا والمشاكل العامة وارضاء حاجات ومطالب الشعب. فهذه الفاعلية ضرورية جداً في كسب وتوسيع الارتباط بها، وفي استمرار وتعميق ولاء الشعب لها، المرحلة الأولى في طريق دولة الوحدة هي أهم وأصعب مرحلة فيها. أي خطأ سياسي كبير يستطيع ان يعثرتطور هذه الطريق لمدة طويلة أو بقدر كبير.

دور القاعدة يعني تحملها مسؤوليات ومهمات إضافية لمسؤولياتها القطرية المحلية، وهذا يعني أعباء جديدة يجب ان تمارسها دون ان تنوء بها. إن نجاحها أو فشلها في القيام بدورها كقاعدة يتوقف على قدرتها بأن تقوم بهذه الأعباء. لهذا لا يصح زيادة الأعباء عن الامكانات، وهي عندما تزيد عنها، وجب على الأجزاء الأخرى أو قياداتها الملتزمة وحدوياً الاسراع بكل ما يمكنها، وإن كان على حساب مصلحتها المحلية الخاصة، إلى مساندة ودعم القاعدة. الوحدويون الذين يلتزمون بها كطريق إلى الوحدة يجب أن يخففوا ما

استطاعوا من هذه الاعباء فيجعلونهاعلى الأقل معادلة لامكاناتها فلا تزيد عنها كثيراً ، منسجمة مع الأوضاع التي تحيط بها فلا تتجاهلها. لهذا يجب على العمل الوحدوي- عند رجوع مصر، أو إن هي رجعت، الى دورها الوحدوي الثوري كقاعدة- التركيزعلى إقامة هذه القاعدة المركبة من مصر وبعض الأقطار المجاورة وخصوصاً ليبيا وسوريا لأن ذلك لا يشكل فقط خطوة وحدوية جبارة في ذاتها بل يصحح أيضاً الضعف الاقتصادي في القاعدة . الارتباط بمصر كقاعدة وحدوية ينتهي طبعاً عندما يحقق الارتباط نجاحه الوحدوي الأول، أي عند اتحاد مصر وقطر عربي آخر في دولة جديدة. عندئذ يتحول الارتباط إلى هذه الدولة، كقاعدة للعمل الوحدوي.

يكتب اتزيوني، وهو أحد كبار مفكري الغرب الاجتماعيين، حول انفصال ١٩٦١ ، أن مصر مارست وحققت دورها كقاعدة قادرة ومستعدة أن تستخدم مواردها وأن تضحي بها في قيادة العملية الوحدوية. لهذا دعمت- وهي الفقيرة- بمعونات مالية مستمرة . سوريا التي كانت اغنى منها، وكانت في البداية مستعدة ان تضحي ببعض مواردها بغية تسهيل عملية الوحدة على سوريا. ولكن بما أن هذه المعونات كانت في ازدياد وبما أن الوضع في سوريا لم يكن يدل على أي تقدير لهذه التضحيات، وبما أن مصر ليست بلداً غنياً يمكنه متابعة هذه المعونات التي تفرض عليها تضحيات كبيرة، فإنها لم تستطع في أواسط عام ١٩٦١ زيادة هذه الموارد أو المعونات، مما جعلها تفقد مقومات دور القاعدة .

تدل تجارب التاريخ الوحدوية أن إرادة الوحدة والتضحية في سبيلها غيركافية في ممارسة دور القاعدة ، بل تحتاج، فيما تحتاج إليه، إلى امكانات وموارد مالية كبيرة، اتحاد ليبيا ومصركخطوة أولى يمكنه تصحيح هذا النقص في المستقبل وإقامة القاعدة الأكمل . لهذا كانت هذه الخطوة ذات اهمية كبرى بالنسبة للمستقبل العربي، مستقبل دولة الوحدة، لأنه يعطي القاعدة- بسبب موارد ليبيا الاضافية التي لا تحتاجها، في الواقع ، كقطر- قدرة اقتصادية ومالية تستطيع ان تتحمل بها التضحيات والخدمات التي يفرضها دورها كقاعدة. كي تمارس القاعدة دورها بفاعلية يجب ان تدل ليس فقط على قدرة كبيرة في الاستجابة لحاجات الأقاليم المختلفة، بل على كفاءة اقتصادية تستطيع بها أن تجعل الاستجابة قوية إلى حد كبير أو بقدر واضح، في معالجة ما تشكومنه الأقطار الأخرى .

الخطوة الأخرى التي يمكن اتخاذها مع هذه الخطوة، أوكخطوة ثانية هي اتحاد سوريا مع مصر في تشكيل هذه " القاعدة- المركبة ". لقد حاول الاستعمار دائما أن يمنع بشكل خاص وحدة مصر وسوريا لأنها كانت الخطوة الطبيعية الأولى والأهم في طريق الوحدة ودولتها الواحدة. التاريخ يكشف، ابتداء من الحروب الصليبية، إلى الاستعمار البريطاني، الى الاحتلال الصهيوني، أهمية هذه الخطوة بالنسبة لنا، وأهمية مقاومتها بالنسبة للاستعمار في اشكاله المختلفة. وحدة مصر وسوريا هي اكثر اهمية من أية خطوة وحدوية أخرى تقوم بين مصر وقطر آخر- ما عدا ليبيا، على الأرجح- وذلك لأن مصر وسوريا تحيطان بموقع الخطر الأعظم على الوجود العربي ذاته، ووحدتهما تعني توحيد الطاقات العربية في اكثر المواقع حساسية واكثر الحلقات ضعفاً في الطريق. الى الدولة الواحدة. وحدة مصر وسوريا أمام الغزو الصليبي

كان حجر الزاوية في تحرير فلسطين، كما كان قاعدة حركة محمد علي في القرن الماضي. وهو يجب أن يكون مرة أخرى منطلقا أساسيا نحو دولة الوحدة. قيمة خطوة وحدوية كهذه ليست في القدرة على ضرب العدو بشكل يسحقه، لأن ضرب العدو هذه الضربة القاصمة غيرممكن دون دولة الوحدة او بالأحرى دولة جديدة تشمل اقطاراً أخرى، وذلك لأن معركة تحرير فلسطين لا تتجه ضد الاحتلال الاسرائيلي فقط، بل ضد الامبريالية الاميركية التي تقف وراءه وتسانده. قيمة قيام هذه القاعدة- المركبة تكمن أولاً في أن قيامها يعني حجر الزاوية في بناء دولة الوحدة النهائية، المنطلق الأساسي نحوها، وقوة جذب واستقطاب كبيرة للشعب العربي قد تؤدي الى تساقط متتابع س يع للأنظمة الإقليمية.

قيام هذه القاعدة- المركبة يمثل ما يمكن تسميته بطور " الإقلاع- الوحدوي ". هذا الاقلاع يتحقق عندما تكون عملية التوحيد قد جمعت زخماً كافياً يسمح لها بمتابعة سيرها بشكل مستقل، أي عندما تكون النجاحات الأولى التي حققتها قادرة على إفراز دفع وحدوي يتابع سيره بقواه " الذاتية " أي بالقوى التي يكشف عنها في تحركه ذاته. انه يعني استقرار هذه القاعدة- المركبة إلى مدة ما يمكن بها أو تسمح بإقامة العلاقات والأنظمة والأجهزة الوحدوية الجديدة التي تمثلها بشكل مستقل عن الاعضاء الذين شاركوا في قيامها، وتنقل هويتها الجديدة الى حياة الأفراد اليومية. عندما يحدث هذا تكسب عملية التوحيد سرعة كبيرة لأنها تتميز عندئذ بقدرة بارزة على تحريك القوى الوحدوية في الأقطار الأخرى ودفعها الى اسقاط الأنظمة الاقليمية.

تجارب التاريخ الوحدوية تدل بوضوح على مرحلتين تمر فيهما حركة التوحيد السياسي، مرحلة الاعداد والدعوة للاتحاد، ومرحلة العملية السياسية التي تقود إليه. هذه العملية الأخيرة يمكن أيضاً أن تقسم الى قسمين، قسم تتقدم فيه الحركة الوحدوية ببطء إلى أن تتمكن من دخول ما يمكن تسميته بطور الإقلاع الوحدوي، وقسم ينتج عن تحقيق هذا الطور تتحرك فيه هذه الحركة بسرعة نحو هدفها النهائي .

قيام هذه القاعدة- المركبة يعني تجميع موارد وإمكانات ضخمة توفر لها ممارسة فعالة حاسمة لدورها الوحدوي الثوري كقاعدة، فتستقطب بسرعة العمل الوحدوي في جميع انحاء الوطن العربي . كل عمل وحدوي يتبين آنذاك أن دولة الوحدة ممكنة، ان الطريق إليها واضحة (الانضمام الى القاعدة)، وأنه يستطيع الاعتماد على هذه الاخيرة في تحقيق ما ينشده من تجاوز والغاء للكيانات المحلية. كل ثورة وحدوية في أي قطر تعلم آنذاك انها ليست معزولة، لأنها ستجد مظلة في رعاية الدولة الجديدة.

كل حركة توحيد سياسي أو وحدوية تجد ذاتها مضطرة في الأوضاع التي تحيط بها أن تختار بين أسلوبين، أسلوب يعجل بالعملية الوحدوية، وآخر يتمهل بها. من العبث أو الخطأ مناقشة الأسلوبين بشكل نظري محض، لأن اعتماد الواحد أو الآخر يرتبط بالأوضاع الخاصة التي يقوم بها. ولكن، من ناحية عامة، يمكن القول أن التعجيل بالعملية الوحدوية والإسراع بها يكون الأسلوب الأحسن عندما تتوفر القوانين الوحدوية الأساسية، وخلفية وحدوية إيجابية ملائمة.

الناس يعانون بصبر وسكون وضعاً سيئاً طالما أن الوضع يبدو دون أمل في أي تصحيح، دون صورة وضع آخر من الممكن أن يحل محله. ولكن عندما يظهر أمل من هذا النوع، عندما يعي الشعب انه من الممكن التحررمن هذا الوضع، فإن ما كان يعانيه بصبر يصبح واقعاً لا يطاق فيتحرك ضده. من ناحية عامة، يمكن القول أن العقبة الأولى تكون العقبة الكبرى. فالنجاح في الرد على تحدٍ واحد يمهد الطريق أمام ردود أخرى ناجحة على تحديات أخرى لاحقة. فإن كان، مثلاً، احتمال نجاح الرد الأول يشكل ٥٠٪، فإن احتمال الرد الناجح على تحدٍ آخر يكون ٧٠٪، وهكذا دواليك !... لهذا فإن النجاح بتحقيق رد وحدوي حاسم على التجزئة وتحدياتها، وعلى الاحتلال الذي يعيش من هذه التجزئة، كإقامة القاعدة- المركبة، يستطيع أن يفتح الباب على مصراعيه أمام ردود وحدوية أخرى متلاحقة إلى أن تتحقق دولة الوحدة.

هذه القاعدة- المركبة التي يتم الوصول اليها عن طريق الارتباط بمصر وحدوية ثورية تشكل احتمالاً قوياً ينتج، إن عرفنا كيف نعمل مع التاريخ، عن هزيمة " الساداتية " وعن معركة فلسطين. لهذا فإن الانحسار الوحدوي الذي نعانيه حالياً يجب أن لا يقود إلى اليأس من دولة الوحدة. فطالما أن " الساداتية " انحراف يقود إلى طريق مسدودة، وطالما أن معركة فلسطين قائمة، تظل دولة الوحدة الرد الذي يفرض نفسه. التجارب الوحدوية التاريخية تعرف كلها هذه الانحسارات أو الهزائم . المهم ليس هذه الاخيرة، بل توفر القوانين الوحدوية الأساسية التي تدعمها خلفية وحدوية إيجابية تتمثل في معظم الأسباب الاعدادية التي ذكرناها.

نهاية الساداتية يعني، على الأرجح، توفر هذه القوانين الأساسية من جديد، هذا بالإضافة الى توفر اكثرية الأسباب الاعدادية الساحقة أو كلها تقريباً لنا، كما أشرنا سابقاً . أهم ما نحتاجه آنذاك هو وعي وحدوي علمي يرى ويستوعب ضرورة هذه القوانين لأي عمل وحدوي فعال، وأنه عند توفرها يجب العمل معها، إعطائها الأولوية التي تضبط العمل الوحدوي، و تسخير كل شيء في هذا السبيل. المهم إذن هو توفر هذه القوانين الأساسية ومعظم الأسباب الاعدادية، وليس الفشل الذي تتعرض له باستمرار جميع الحركات الثورية والوحدوية. ماوتسى تونغ، مثلاً ، كتب مرة بأن " الفشل يجب في بعض الأحوال أن يعاد عدة مرات قبل أن يمكن تصحيح ما تنطوي عليه المعرفة من اخطاء، وجعلها مطابقة لقوانين العملية الموضوعية ". ما يحتاجه العمل الوحدوي حالياً وبشكل أساسي هو إدراك، وبشكل خاص استيعاب، ديالكتيك العملية الوحدوية من قوانين أساسية وأسباب اعدادية. تجارب التاريخ الوحدوية كانت تتعلم من فشلها إلى ان يطابق عملها هذه القوانين والاسباب.

النقطة الأساسية ليست إذن تحرير العمل الوحدوي من الأخطاء او الفشل ، بل الكشف عن الديالكتيك العام الذي يسود الظاهرة الوحدوية ، ثم العمل بوحي ذلك ، وبشكل يجعل الأخطاء أو الفشل أمراً ثانوياً بالنسبة لاتجاه العمل الأساسي الذي يعمل مع وجهة التاريخ أو القوانين التي تسود العملية الوحدوية .

